ذاكرة الكتابة



الهيئة العامة
قصور الثقافة

تولستوي



محمود الخفيف


الهيئة العامة لقصور الثقافة

تولستوي

قمة من القمم الشوامخ في أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه

محمود الخفيف

رقم الإيداع : ٢٦٥٤ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 305 - 364 - 4

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر
☎ : ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٤
e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

المراسلات : باسم مدير التحرير
على العنوان التالى ١٦ أ ش أمين سامى - قصر العينى
رقم بريدى : ١١٥٦١

• الكـــــتاب : تولستوى قمة من القمم الشوامخ فى أدب هذه الدنيا
قديمه وحديثه
• تأليـــــف : محمود الخفيف
• الطبعة الأولى : تشرين ثانى (نوفمبر) ١٩٧٣
• الطبعة الثانيـة : الهيئة العامة لقصور الثقافة - نوفمبر ٢٠٠٢

مقدمة كتاب تولستوى

محمود الخفيف
صفحة من كفاح أديب كبير

بقلم الدكتور محمد رجب البيومى

هذه الدراسة كتبها الدكتور محمد رجب البيومى بعد وفاة الأستاذ محمود الخفيف سنه ١٩٦١ ، وقد رأينا نشرها فى مقدمة الكتاب تعميما للفائدة وتعريفا بالمؤلف .

اهتزت الدوائر العلمية والأدبية لنبأ موت الأستاذ محمود الخفيف فجأة وهو يؤدى واجبه فى مدرسة الإبراهيمية الثانوية ، ولم تقم الصحافة اليومية بما كان ينبغى لرجل خدم الثقافة . وعمل فى الصحافة . وكان أنموذجا حيا قويا سليما للمصلح الأديب المؤمن المتدين .

كان الأستاذ الخفيف صاحب رسالة فى دنيا الأدب والفكر ، فلم يكن ليكتب كلمة واحدة لاتهدف إلى مثل رائع ، أو تكشف حقيقة مطموسة ، وإذا أردت سمة بارزة لأدبه ، فتلك هى البطولة ، بطولة الرأى حين يواجه بحقه الساطع فلول الباطل فيقهرها فى اعتزاز ، وبطولة الفكر حين ينزع إلى القمم الشامخة فى دنيا الإنسانية ، فيرفرف فى أجوائها ، ويستلهم منازعها وأهواءها ، وبطولة اللفظ حين يؤثر التركيب الحر ، والتعبير الموحى المشع ، فيعرضه فى موكب من البلاغة العالية ، وبطولة الإحساس حين يتجه إلى تصوير أدق منازع الضمير الحى ، وأرقى خلجات الروح المتوثب ، وأخفت همسات الشعور النبيل فى شعر صاف ينحدر كالماء !! لقد كان

الرجل مؤرخا وكاتبا وشاعرا ، وفى كل ناحية من نواحيه يستفيض القول ، ولن نقدر على استيفائه إلا باقتضاب طائر يهدى الكتاب !! إلى آثاره ، ولعلهم يطالعون .

ترك الأستاذ الخفيف فى سجل التاريخ مؤلفات حية خالدة ، لأن الكاتب لم يعمد إلى بعض الحوادث التاريخية ليؤلف منها كتبا مكررة ، مختلفة الأسماء فقط ، كالتى تملأ رفوف المكتبات ، ولكنه كان مخلصا أمينا فى تحقيقه ، فقد نظر إلى مواضع الخطأ المغرض ، والاتهام الزائف ، فجعل منها مضمار تفوقه . وميدان تبريزه ، متعرضا فى سبيل ذلك إلى خصومات قاهرة عنيدة . ومتحديا بها سلطات طاغية رهيبة ، تعمل على تلبيس الحق بالباطل ، وتتخذ لذلك من بعض الأقلام مطايا عليلة الضمائر ، مريضة الإيمان فتركبها ببريق المنصب ، ووهج الذهب ، لنفترى بها على البررة من زعماء الأمة مايطمس صحفهم البيض !! ثم لا تقتصر الخباية النكراء على هؤلاء الزعماء بل تتعداهم إلى الأمة المسكينة فيصفونها بالغفلة والانحطاط وقد ألقت زمامها فى أيديهم ، واستجابت إلى هواتف الوطنية ، ونوازع الكرامة والإباء .

ماذا كان التاريخ يقول عن أحمد عرابى قبل أن يخط عنه الخفيف مؤلفه الجرئ ؟! كان أكثر الناس يظنون بوحى من هذه المطايا المسخرة فى الصحف والمؤلفات أن الزعيم الأبى مثال الحمق والنزق والرعونة ، وأنه السبب الأول فى الاحتلال والهزيمة فلولا ثورته ما أتت انجلترا إلى مصر !! ثم يزيدون فيصفونه بالجهل والدروشة وحب المجد الشخصى ، بل يصمه كثير منهم بالخيانة – خيانة وطنه لا توفيق – !! حتى أن أعظم قادة الأمة من الكتاب والشعراء قد انساقوا إلى هذا البهتان ، فأحمد لطفى السيد يزعم فى الجريدة أنه قام بثورة لا داعى لها ولا قيمة ! وشوقى يرسل القصائد المخزية فى سب العصاة والمرقة الثائرين ! ولك أن تتصور بعد ذلك مايقوله الأذناب والأبواق ! ومن يجرؤ على أن يثبت للزعيم حسنة شفعها بعشرات المآخذ ! وشبح القصر يلوح لعينيه فى كل كلمة تقال ، حتى جاء الخفيف فى سطوة فاروق وطغيانه فسطر كتابه الوطنى لينصف به البرئ النزيه ! فإذا عرابى البطل المعلم المفترى عليه ، وإذا الأمة تسترد كرامتها وتغسل عنها وضر الجهل والغفلة حين نابعت هذا البطل عن يقظة

واختبار ، وقد شرحت فى عدد شوال سنة ١٣٨٠ من مجلة الأزهر كيف قامت السفارة البريطانية وقعدت لمواجهة الخفيف انجلترا بما أسلفت من خيانة واعتداء ، وكيف زمجر القصر وغضب الأمير على مجلة الرسالة فأوقفا بسلطة الحكم العرفى سلسلة البحث المتصل ! حتى أتيح له أن ينشر كاملا فى مجلد ضخم خاص ! وعرف الناس عرابيا على حقيقته طاهر السريرة ، مخلص العقيدة رائع الزعامة عظيم الدفاع ! .

لو لم يكن للباحث المؤرخ غير هذا العمل البطولى الضخم ، لكان فى طليعة المفكرين الأحرار ، ولكن له معه أعمالا مجيدة هادفة ، كانت مع دقتها العلمية ذات وحى وطنى رائع ، إذ أن القلم الذى حشد جهوده لدرء السبة الشنيعة عن وطنه المصرى ، فى شخصية زعيمه أحمد عرابى ، قد شاء أن يفتح عيون بنى قومه على آفاق جديدة تشرق بالحرية وتهب منها نسمات الكرامة والاستقلال ، حين كتب مجلدين كبيرين - لأول مرة فى اللغة العربية - عن سيرتى ابرهام لنكولن ، وتولستوى ، وهما يختلفان نشأة ونبوغا فالأول عصامى باسل أنضجته نار الحرمان والفاقه ، ولكنه شق طريقه إلى الزعامة متسلحا بمواهبه الشخصية ومكافحا شتى أعاصير الرجعية والاستغلال والعنصرية حتى استطاع أن يسعد الإنسانية بعامة ، حين عمل على تحرير العبيد ، وتحقيق المساواة العادلة فى معشر يتهارشون على الغنائم المغتصبة والذهب المتجمد من عرق الكادح ، وجهد الزنجى وبؤس العبد ، فكان بحياته المكافحة علما من أعلام الحرية ودرسًا ناجحا للكرامة يجب أن يعلمه قارئو العربية لينهض من بينهم من يعتنق مبادئه فيذود عن حوضه ويحمى حمى أجداده !! هذا لنكولن ؛ أما تو لستوى فقد نشأ أرستقراطيا يحمل لقب الكونت ويتقلب فى أعطاف النعيم والدعة والجاه ، ثم نأى عن طبيعة طبقته ، فعشق المعرفة والثقافة ، ووهب الإحساس الرحيم والشعور النبيل ، فانقلب إلى زاهد مصلح وكاد بمبادئه أن يكون نبيا ، إذ تنازل عن ضياعه الشاسعة لذوى الفاقة والكدح من عبيد الأرض ، وخدم السادة ، وعاش عيشة الفلاح المسكين ، والزاهد القانع وقد اجتاحت نفسه عواصف مدمرة من الشك المقلق ، والسهد الثائر ، فانقطع بنفسه قرابة عشر سنوات للتفكير فى الدين والبشر ، ونفض يديه من الأدب

والإبداع حتى اتجه زورقه إلى ساحل الإيمان بعد أن حاول من الريب الحالكة أمواجا ذات بطش وجبروت ، وصار الفيلسوف بزهده وإيمانه وأدبه من ذوى الرسالات الخالدة فى دنيا البحث والإصلاح ، ومثله فى أهدافه الرائعة جدير أن يكون درسًا آخر لقراء العربية كلنكولن سواء بسواء !! وفى اعتقادى أن الذين قرءوا كتب الخفيف الثلاثة عن عرابى وتولستوى ولنكولن قد وجدوا فيه مؤرخا من طراز نادر فهو مع حرصه على الحقائق وتتبعه المنهج العلمى فى البحث والاستنتاج ، ذو أسلوب مشرق ينفح بشذى الإبداع ، ويزرع فى صحراء الحقائق ورودا زاهية من الصياغة الفنية والإلهام العبقرى ، حتى ليخيل إليك وأنت تطالع آثاره التاريخية أنك تتابع قصة مؤثرة لا أنك تقرأ بحثا قامت معالمه واستوت مناحيه ، !! وبعض النقاد يظنون بين التاريخ والأدب مجافاة منكرة ، فلا يرحبون بجهد علمى يتشح بمطارف الأدب ، وقد تعرض إنتاج الخفيف لبعض المآخذ الموهومة حين اتجه إلى تقويمه ناقد شهير هو الدكتور زكى نجيب محمود ، فأخذ عليه فى بعض أعداد مجلة الثقافة شيئين هامين فى رأيه ، أما أولهما فهو ماسماه ؛ اتحاد المدرك بالمدرك ، وأما الثانى فهو تفكير المتمنى ، وكلا المأخذين موجه بالذات إلى كتاب أحمد عرابى ، وكأنى بالدكتور وقد لمس حرارة الدفاع وقوة العاطفة وروعة الصياغة فى أسلوب الخفيف ، فظن فى ذلك مايجور على الحقيقة ، والرجل صاحب فلسفة لا تاريخ ، وكان عليه أن يعرف أن طبيعة الدفاع عن زعيم أمين يرمى بالخيانة عن مكر أثيم ، تقتضى هذا الإخلاص الحار ، وتدفع ذوى الجفاف والدقة أن يفيضوا ببعض مشاعرهم فى إيضاح الحق وقد تلاحقت حوله الستور والأسداف ، فالمدرك هنا لم يتحد بالمدرك حين بدد عنه كثيرًا من الاتهامات ، ولكنه استعرض الحقائق الثابتة واستنطقها عن حصافة ويقظة ، فنطقت بفضل الزعيم وسموه ، وأخشى أن يكون الدكتور الناقد ممن يحتمون على المؤرخ أن يستعلى على مترجمه ، فيذكر نصيبًا من مآخذه يضارع ماأسلف من محامده ، فإذا لم تكن لديه مآخذ تذكر ، اخترعها اختراعا لتتم عملية الإنصاف ، وقد بدد الأستاذ العقاد هذا الوهم حين قال فى مقدمة كتاب (عبقرية عمر ص ٥) « فالناس قد تعودوا ممن يسمونهم بالكتاب

المنصفين ، أن يحبذوا وأن يقرنوا بين الثناء والملام ، وأن يسترسلوا فى الحسنات بقدر لينقلبوا من كل حسنة إلى عيب يكافئها ، ويشفعوا كل فضيلة بنقيصة تعادلها ، فإن لم يفعلوا ذلك فهم إذن مظنة المغالاة والإعجاب المتميز ، عرض لى ذلك فذكرت قصة العاهل الذى تحاكم إلى قاضيه مع بعض السوقة فى عقار يختلفان على ملكه ، فحكم القاضى للسوقة بغير الحق ليغنم سمعة العدل فى محاسبة الملوك » اهـ .

أما تفكير التمنى فلا ظل له إطلاقا بين سطور الكتاب ، وهو مأخذ لو ثبت لنفى عنه صبغة البحث التاريخى ، ويكفى هنا أن نسجل شهادة أديبين كبيرين تمحوان ماقام بذهن الناقد عن تخمين وحدس لا عن بحث ويقين ، قال الأستاذ العقاد عن كتاب أحمد عرابى ، فى افتتاحية العدد (٧٧٩) من الرسالة :

« تقرأ الكتاب إلى صفحاته الأخيرة فتخرج منه بهذه الصورة الصحيحة التى ارتسمها المؤلف ، وثبت ظلالها وألوانها بالوقائع والأسانيد ، وجمع لها من الوثائق مالا غنى عنه فى فهم هذا الزعيم ، ولا فى فهم مصر الحديثة وعوامل نهضتها ، ودخائل تاريخها فى الجيلين السابقين ... وليس تمحيص التاريخ المصرى ولا تمحيص الزعيم المصرى كل ما يستفاد من قراءة كتاب الأستاذ الخفيف ، فإن أساليب السياسة الأوربية والاستعمار الأوربى فى القرن العشرين بعض مايستفاد من هذا الكتاب الذى يعد فى بابه قليل النظير » .

وقال الأستاذ أحمد حسن الزيات عن الكتاب أيضا فى افتتاحية العدد (٧٣٤) من الرسالة :

« ومن حيث الطريقة قد اتخذ المنطق ميزانا يأخذ به ويعطى ، فهو يروى بالنص الصريح ، ويدعى بالدليل الناهض ، ويقنع بالحجة العالية ، ويستقرى فيحسن الاستقراء ويستنتج فيجد الاستنتاج ، ثم جعل همه منذ اللحظة الأولى بتبرئة الجندى الثائر ، فسلسل الوقائع والفصول سلسلة المقدمات الصحيحة ، ثم خرج منها بالنتيجة التى لا موضع فيها للشبهة » .

الحق أن الخفيف باحث جرئ لولا قوة إيمانه بربه ، وصدق يقينه بوطنه ، ما أقدم

على هذا العمل البطولى الممتاز ، ولو كان لدينا وعى حقيقى لقيل ذلك وأكثر منه فى وداع الراحل العزيز .

وساضطر معجلا أن أترك جهده فى الحقل التاريخى فلا أتناول بحوثه عن مزينى الإيطالى وبيرون الإنجليزى وميرابو الفرنسى وشريف والشرقاوى المصريين وعقبة بن نافع العربى لأتحدث عن جهده فى الكتابة والشعر فقد كانت كتابته الأدبية ذات وجهتين ذاتية وموضوعية ، والأولى تتجه إلى المجتمع المصرى اتجاها ناقدا ، فقد وضع الخفيف منظاره على عينه ، وطفق يبصر ما حوله من أوضاع مريضة فرأى من المفارقات والغرائب مايدعو إلى التسجيل . وكم كان يمض نفسه أن يشهد مواقف الرياء والملق ، ومواكب الغرور والادعاء ، ومظاهر التجبر والتسلط ، فيشعر شعور الإنسان النبيل وينعكس شعوره فيما يكتب فلا تكاد تطالع موضوعا من موضوعات كتابه (من وراء المنظار) حتى تدرك ما يغمر حلق الكاتب من مرارة لاذعة ، والكتاب أشبه بقصص صغيرة متلاحقة تصور كل أقصوصه مشهدًا من المشاهد المفاجئة . فهذا وكيل نيابة يريد أن يعرف الناس سلطته القانونية . وذاك مدير مصلحة لا يرضى بغير التذلل والخنوع من مرءوسيه ، وهم من حوله يبالغون فى انتشائه الموهوم ، وذلك شرطى جامد الإحساس يعامل الإنسان والحيوان معاملة تتحد فى القسوة والإذلال !! ومن الواضح أن أمثال هذه المشاهد المألوفة تراها العين العابرة فلا تتأثر بها غير لحظات محدودة ! ولكنها حين تصور بقلم كاتب كمحمود الخفيف تترك من الأثر مالا يمكن أن يزول دون عناء وتفكير ، لأن تسلسل الخواطر ، وتصوير الانفعالات ، وحتمية النتيجة ، تجسد لخيال القارئ مالا يجسد ، المشهد الواقعى ، ومن الطريف أن أحد فصول الكتاب يتحدث بإكبار سار عن رئيس فراشى المدرسة التوفيقية الثانوية إذ رأى فيه الكاتب على ضآلة وظيفته صورة للرجولة الحازمة ، والعزة المترفعة ، والكرامة الأصيلة مما افتقده فى مديرى المصالح الكبيرة ورؤساء الأعمال الهامة فلم يجد ظلا منه . فكان رئيس فراشى المدرسة مثلا صالحا للاحتذاء .. وقد قلت إن كل مشهد من هذه المشاهد أشبه بأقصوصة فقط ، ولكنه ليس بأقصوصة فنية ، ولا أدرى لماذا لم يشأ

الكاتب أن ينهج فى تصويره نهج القصة الأدبية ، مع قدرته التامة على ذلك ، إذ أنه قدم لى فى بعض إنتاجه بمجلات الرسالة والرواية والرائد قصصا مكتملة تحمل عناصر الأسلوب الروائى ، وإن كاتبا ملهما يجعل من التاريخ أدبا . لقمين أن يجعل من القصة عجبا ، ! وأستشهد هنا بقصته الرائعة (عفراء الغجرية) وأخواتها كثيرات ، كدليل على توفيقه الفنى وإبداعه القصصى ، فقد أحكم المشاهد إحكاما لا تنقصه قراءة الخواطر واستشفاف النوازع ، أما حلاوة التصوير وعذوبة التعبير فمما لا يستغرب من شاعر موهوب !! أقول من يدرى لعله لم يشأ أن ينهج منهج القصة فى كتابه (من وراء المنظار) ليكون أدخل فى باب الواقعية المباشرة ، إذ أن القصة توحى إيحاء ظاهرًا أو مستترًا ، أن الخيال قد جمع بين حقائق متباعدة وربطها برباط يجعل واقعيتها متوقعة لا واقعة : أما المشهد المجرد فينطق بصدقه الصارخ دون ستار ، وهذا كلام قد يختلف فيه النظر لإيجازه المحتوم ، وليس هنا مجال النقاش !!

أما الوجهة الموضوعية لدى الكاتب الأديب فتبدو فى دراساته الفنية للأدباء ، ومذاقه الوجدانى للقصائد ، وأصدق شاهد عليها دراسته الطويلة الممتعة للشاعر الحزين (ملتون) فقد تابع أدوار حياته متابعة يقظة ، وحلل عناصر شعره تحليلا بصيرًا ثم خلص إلى مأساته الإلهية ففهم عناصرها الفاجعة من إنتاج الشاعر قبل روايات مؤرخيه ، ووقف لدى فردوسه المفقود موقف الشاعر من الشاعر ، فرأى مالا يرى الناقد المتقيد بحدود واصطلاحات ، ولا يزال ماكتبه الخفيف عن (ملتن) منسابا فى أعداد الرسالة الغراء دون أن يجمع فى كتاب ، وربما كان كتابه عن تولستوى صورة متقاربة منه فى المنهج والطريقة ، إلا أنه أدخل فى كتب الدراسات الأدبية من كتاب تولستوى التاريخى لذلك أعتبره مثالا للوجهة الموضوعية فى الدراسة التحليلية دون كتاب الفيلسوف .

ويطول بى العجب إذ أنظر إلى شعر الخفيف فأجده دون ما يستحق ذيوعا واشتهارا ، مع أصالة منهجه ، وصفاء نبعه ، ورونق تجديده وربما كان تعليل ذلك نبوغه فى أكثر من ميدان فإن الذين يتفرغون للشعر وحده ينحصر اشتهارهم فى مجاله ،

فيعرفهم القراء بقصائدهم وحدها ، أما سواهم من الكاتبين الشاعرين فلا يجدون الالتفات الكافى من القراء ، وإن سبقوا سواهم من المنفردين جودة قريحة وفيضان عاطفة ، وخصوبة إنتاج ، ولن أذكر العقاد وحده فى مصر بل أذكر معه المازنى وفخرى أبا السعود وعبد الرحمن صدقى ، وطاهر الطناحى ، وزكى مبارك ومحمود الخفيف وسواهم من فطاحل المجددين ! على أن شعر الخفيف قد منى بشئ آخر ضاءل من روايته لسوء حظه وكان أحرى بذيوعه ، ذلك أنه متنوع الأوزان مختلف القوافى ، فشطوره تارة مجزوءة وتارة كاملة أو منهوكة فى القصيدة الواحدة ، وقد فاجأ الناس منذ ثلاثين عاما بهذا النوع المبتكر فحسب عليه لا له ، فأنت تقرأ مثلا قصيدة (على قبر زوجها) فتجد بها من صدق العاطفة وحرارة اللوعة وقوة النظرة مايرفعها إلى مستوى مشرف ؛ ولكن اختلاف أشطارها بين كاملة ومجزوءة مع اختلاف القافية أيضا قد باعد بينها وبين النغم المألوف فى وقت كان فيه للشعر الكلاسيكى دعاته المثابرون ، وإذا كنا الآن قد ألفنا هذا التنويع وزنا وقافية بل طرأ علينا غيره مما لا ندرى بماذا نسميه ، وانطلق الدعاة له يلهجون به فى كل ناد وصحيفة فإن الخفيف حين نوع الأوزان منذ أكثر من ربع قرن كان يخطو الخطوات الأولى بعد وثبة المجددين الابتداعيين هذا من ناحية الشكل أما من ناحية الموضوع فقد فتح الأستاذ للشعر العربى أبوابا رحبه حين أكثر من الروائع التاريخية فى أعداد الرسالة الممتازة فسجل بطولات محمد والحسين وجعفر بن أبى طالب وصلاح الدين الأيوبى وأحد شهداء فلسطين فى قصائد طويلة تبلغ إحداها ثلثمائة بيت مطرد النسق متدفق الإلهام ساطع الرواء . كما أن أشعاره الوصفية فى تصوير الطبيعة قد أخصبت الحقل الشعرى . ولقحت أشجاره بلقاح إبداعى جديد ، فالليل والبحر والفجر والحقل والحصاد والربيع والخريف والشتاء ، والصبارة الحزينة ، والشجرة العارية وما إليها من روائع المشاهد قد وجدت انطباعها الصادق فى مرآة الشاعر ، وظهرت على صفحات الرسالة تتخايل فى معارض زاهية من الرونق ، وكثيرا ماكانت تقرن بصور طبيعية لأشهر فنانى الطبيعة فى الغرب فيرى قارئ الرسالة اللوحة البصرية تجاور اللوحة الشعرية فى تعارف حبيب يدفع إلى الموازنة حينا ،

والإعجاب الصامت حينا آخر ، ويخيل إليّ أن مطران رحمه الله قد أثر في اتجاه الخفيف نحو القصة الشعرية ، إذ حذا حذوه في مثل قصائد وداع ، وعند الثلاثين ، وفي الطريق إلى يثرب مع الفصل التام بين العبقريتين ، فمطران عميق قوى تتخلل أبياته رصانة محكمة تميل بها إلى الشدة والأسر ، ومحمود رقيق ناعم تموج مشاعره في غدير هادئ شفاف ، وقد تجد سعة مطران ، وبُعد منزعه وعمق تحليله في النادر من شعر الخفيف ، ولا أزال أذكر قصيدته « أيتها الابتسامة » تلك التي تشخص بريق الابتسامات المختلفة ، فتعرف شعاع كل بسمة ومصدره ، فبسمة الذل غير بسمة الشمات غير بسمة الرياء غير بسمة الفرح غير بسمة التهكم وإن كان لكل بسمة بريق يتحد مظهرا ويختلف تأثرا وانعكاسا ، وكم كان يسرني أن أذكر هذه القصيدة في مجال الاشتهار ، ولكن القارئ الطلوب سيعثر عليها بسهولة في العدد (٦٠٠) من الرسالة ، ونحن نهيب بمجلس الفنون والآداب أن يلتفت إلى ديوان الشاعر فيأمر بطبعه أسوة بمن طبع دواوينهم من الشعراء ، وأكثره بمجلات الرسالة ، وأقله بمجلات الرائد . وكلتاهما تحتل المكتبات العامة فلن يتعب من يريد النشر والطبع ، ولكنه سيغنم الشكر والتقدير ، ولعلّ كلمتنا هذه تكون عزاء متواضعا لمن قرءوا الخفيف وعشقوه ، وهي أيضا إجابة مفحمة عن سؤالنا المتقدمٌ ؛ هل من وعى أدبي ؟ وفيها المقنع السديد .

محمد رجب البيومي

تولستوي

قصة من القصص الشوامخ في أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه

محمود الخفيف

مقدمة الكتاب

قمة من القمم الشوامخ فى أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه ؛ ذلك أصدق ما يوصف به تولستوى فى جملة ؛ قرأت أول ما قرأت لهذا المارد الجبار قصته الكبرى « الحرب والسلام » ثم قرأت بعدها قصته « أنا كارنينا » ، فإذا بى منهما حيال حياة بكل مافي الحياة من حركة ومعنى لا حيال سطور على ورق ... وأحسست لأول وهلة سر العبقرية يستعلن فى كل صفحة ، وذلك فى صورة من التعبير تقرأ ولا توصف ، فهى تدق عن كل وصف ، وتتسع عن كل تحديد ، وتسمو عن أن تسمى بالفن فحسب ، ولا عجب أن سلم أكثر النقدة أنهما أعظم قصتين فى القرن التاسع عشر ، بل لقد ذهب بعضهم إلى أن أولاهما أعظم قصة فى أدب الدنيا كله ، ولقد جمع تولستوى فيهما بين الحياة الإنسانية بوجه عام و بين الحياة الروسية بوجه خاص ، وذلك فى صورة لا تتيسر إلا لمن كان له مثل عبقريته وأصالته .

وحملنى إعجابى بالقصتين على قراءة آثاره جميعاً ، ثم دفعنى هيامى بتلك الآثار إلى مصاحبة هذا الساحر العظيم ، فقرأت حياته فى أكثر من كتاب مفصل ، فإذا هى كقصصه حياة متشعبة الجوانب بالغة الروعة ، فهذا الرجل الذى يحمل لقب « الكونت » يتخذ مثله العليا من حياة الجماهير ؛ ثم إن هذا الأبيقورى الشاب ينقلب إلى زاهد مصلح فيصل إلى مرتبة تجعله أسمى من أن يكون مصلحاً وأدنى من أن يكون نبياً ؛ ثم إنك ترى فيه المفكر الفيلسوف ، والشاعر المتخيل ، والمؤمن المبشر ، والمتشكك المنكر ، والأرستوقراطي المتعالى ، والفلاح المسكين ؛ و إنك لترى آخر الأمر هذا الكونت العظيم الثراء وقد بلغ فى قومه مكانة لم يتعلق بها وهم أديب قبله ، و بلغ فى العالم منزلة لم يتبوأ مثلها إلا الأفذاذ القلائل ، يهرب من بيته فى الثانية والثمانين من عمره رغبة منه فى أن يقضى أيامه الأخيرة فى عزلة وفى فاقه .

ولم يكن تولستوى رجل فن وداعية إصلاح اجتماعى فحسب ، بل كان كذلك مصلحاً دينياً ، فقد انقطع للتفكر فى الدين وما يتصل به ما يقرب من عشر سنوات منذ أن فرغ من كتابة قصته أنا كارنينا ، وكان إذ ذاك فى أواخر العقد الخامس من عمره ، ولقد نفض يده من الأدب ليتفرغ لما كان يشغل باله ، بل لقد صرفه شكه وحيرته عن كل شيء ، الأمر الذى أزعج ترجنيف وأحزنه، فقد مضى على صاحبه نحو خمس سنوات منذ أن هجر الأدب ، فكتب إليه ترجنيف وقد أحس فى نفسه أنه يدنو من الموت يخاطبه بقوله « يا شاعرنا العظيم ، يا لسان هذه الأرض ، أرضنا الروسية ، عد إلى الأدب فهو موهبتك الحقيقية ؛ اسمع توسل رجل يموت ».

ولم يعد تولستوى إلى الأدب إلا بعد أن خلص من شكه وعاد إلي إيمانه ، فأضاف إلى شخصيته جانباً عظيما ، جعل له مثل مكانة الأنبياء و إن لم يك نبياً .

وتأثر عصره أكبر التأثر بفنه ، و بآرائه فى الاجتماع ، و بتعاليمه فى الدين ؛ وامتد به العمر فزاد ذلك فى مكانته حتى صار مفخرة روسيا الكبرى ، وحتى سلكه النقاد فى القلة الأفذاذ من قادة البشرية

رجل هذه مكانته ، يهون كل جهد في سبيل درسه وتقديمه لأبناء هذا الشرق بلسان عربى ، وما أحسب ما كتب عنه فى العربية حتى اليوم إلا دراسات قصيرة لا تحيط بجوانب حياته ؛ والذين يقرأون غير العربية قد يصعب عليهم أن يجدوا بغيتهم في كتاب واحد ، ولعلى بهذا الكتاب ، قد يسرت لهؤلاء وهؤلاء سبيل معرفتهم بتولستوى ، ولعل فى شبابنا النواهض من يشمر لأتمام ما عسي أن يكون في هذا الكتاب من نقص ، ثم لعل فى أدبائنا من يحب تولستوي إذا درس حياته حباً يجعله ينقل إلى العربية أهم آثاره ، فما يجدر أن تبقى لغتنا خالية منها حتى اليوم ... يومئذ أجدنى بلغت بكتابى هذا ما أردت و يومئذ أجد العوض خير العوض عما عانيت من جهد وعما بذلت من وقت .

محمود الخفيف



تولستوى في أوائل العقد السادس من عمره

طفولة ونسب

أطل من نافذة قصر أنيق علي مرتفع في ضيعة ياسنايا بوليانا الجميلة ، طفل فى الخامسة من عمره ، وقد أعجبه ذلك المنظر البهيج من حوله ، ذلك المنظر الذي ألفته نفسه ، وباتت تأنس به روحه ، ويتعلق بجماله حسه .

كان الطفل يمد عينيه الصغيرتين الحالمتين إلى كل ما يحيط به ؛ إلى الغابات التي تتناثر هنا وهناك ، وإلى النهر الذى تتثنى صفحته بين هاتيك الغابات فيظهر لعينيه جزء منه وتتوارى خلف الشجر أجزاء ، ثم إلى القرية الهادئة التى تتراءي لعينيه من بين الخمائل ، تحيط بها على مقربة من النهر برك صغيرة وأخرى كبيرة ، وتبدو كنيستها المتواضعة بجانب الأكواخ والعشش الصغيرة المبنية من الطين وجذوع الشجر ، والتى يفصل بينها طريق عريض هو طريق القرية الرئيسي ؛ ثم يمد الطفل عينيه إلى ذلك الطريق البعيد الذى سمع عنه فيما سمع أنه ينتهى عند مدينة تولا على مسافة عشرة أميال إلى الشمال ، وهى مسافة يصورها له خياله طويلة بعيدة ؛ وكم يتمنى أن يرى مدينة تولا هـذه التى يسمع عنها وعن حياتها الشيء الكثير . وثمة طريق آخر يمتد إليه بصره هو الطريق المؤدى إلى كييف ، تلك المدينة التى يذكر اسمها الناس فى احترام وتقديس ، والتى يتقاطر إليها الحجيج مارين بضيعة أبيه فى هذا الطريق القديم ...

وإذا رد الطفل بصره وقع على الطريق المنحدر من القصر ، تحيط به أشجار الليمون ويقوم على جانبى مدخله برجان أبيضان جميلان . ولم يكد يتحول الطفل ببصره عما يرى حتى مشت فى صفحة وجهه سحابة خفيفة من الهم ، فقد تذكر أن عهده باللعب قد انتهى كما أخبرته العمة تاتيانا ، وأنه من غده سيدخل حجرة الدراسة كل يوم فى ساعة معينة من النهار فلا يبرحها إلا متى شاء معلمه أن يطلقه ... وهو منذ تلك السن يكره القيود كرهاً شديداً ، فكيف يطيق حجرة

الدراسة ويطيق أن يأتمر بما يقضي به المعلم ؟ ذلك ما كان يكرب نفسه الصغيرة ، بعد أن أخذ ذلك المنظر بمجامع عينيه ، فهو يطل على مسارح لعبه ومجال حريته تحت هاتيك الخمائل ، وفى فناء ذلك القصر .

ولكن الصبي يعود فيذكر أن لا بأس من حجرة الدراسة وما فيها ؛ أو ليس معنى غدوه إليها أنه يغدو كبيراً فيقرأ ويكتب كما يقرأ إخوته ويكتبون ؟ فلا يدل عليه أحدهم بشيء ينقصه ولا حيلة له فى هذا النقص ، ولا يفاخره منهم أحد بكتبه ودفاتره ، فسوف تكون له كتب ودفاتر ؛ وتطيب نفس الصبي بهذه الأفكار فهو يكره أشد الكره أن يتفاخر عليه أحد ، أو أن يشعر أنه دون من يحيطون به . وكثيراً ما دمعت عيناه غيظاً إذ يرى لغيره من دواعى الفخر ما ليس له . وهو سريع البكاء إذا غيظ لأنه لا يحب أن يغيظ أحداً . فليقبل إذاً على حجرة الدراسة فى غير نكد ، بل ليقبل عليها فى ارتياح . هكذا توحى إليه كبرياء روحه الصغيرة ، وإنه منذ صغره لذو كبرياء ، وإن كان إذا غضب سريع البكاء

وكان للطفل واسمه ليو ، ثلاثة إخوة أكبر منه ، وأخت هو أكبر منها . أما إخوته فهم : نيقولا وكان يكبره بخمسة أعوام ، وسيرجى وكان يكبره بعامين ونصف عام ، وديمترى وكان يكبره بعام وأربعة أشهر ، وأما أخته فهى ماريا ، وكانت دونه بسنة ونصف سنة .

وكانت تعيش مع صغار الأسرة بنت ليست منها ، وهى بنت سفيحة لأحد الأصدقاء المقربين من عميدها ، وكان أبناء الأسرة يحسنون معاملتها كما لو كانت أختاً لهم ، وماذا تصنع غير ذلك نفوس بريئة كهاتيك النفوس التى لم تدر بعد لؤم الحياة ؟ . . .

هؤلاء هم أفراد الأسره الصغار ؛ فأما الكبار ففى مقدمتهم أبوه ، ثم تأتى بعد أبيه العمة تاتيانا ، ولم يعرف الصبي منذ بدأ إدراكه أماً له غيرها ، فقد ماتت أمه كما يذكر أحياناً أخوه نيقولا فى همس وحزن ، عقب مولد أخته الصغيرة بأيام .

وهناك جدته لأبيه وهى تعيش في هذا القصر منذ مات زوجها ، ثم عمته ألين التى جاءت لتعيش فى حماية أخيها بعد أن أصيب زوجها بالجنون ، فقد بلغ به الجنون أن أطلق الرصاص ذات يوم على صدرها . وكانت ألين هذه عمته حقاً ، أما تاتيانا فكان يناديها بالعمة كما يفعل إخوته ؛ ولكن نيقولا يفهمه ذات مرة أنها ليست عمتهما فهى ليست أختاً لأبيهما ، فيعجب ليو لماذا إذاً يدعوها الجميع عمتهم ؛ ولا يدرك مكانها من أبيه ولا موضعها من الأسرة ، ولعل نيقولا كذلك لم يكن أقل منه جهلا بهذا الأمر . وكيف يتسنى له أن يعرف أن أباه أحبها فى صدر شبابه وأنها أحبته ولكنها أفسحت له الطريق ليتزوج بسيدة غنية يصلح بثروتها حال معيشته ، إذ رأت منه هذا الميل على الرغم من حبه إياها حباً وثقت منه ؛ وكانت تلك السيدة الغنية هى أمه ، فلما ماتت أمه عاد أبوه يطلب يدها فرفضت أن تتزوجه ولكنها وعدت أن تكون أماً أخرى لبنيه ، وها هى ذى تبر بوعدها فتكون لهم أماً فى مكان أمهم .

لم يكن يعرف ذلك نيقولا مفصلا هذا التفصيل فما يجدر أن يتحدث إلى الأطفال بمثل هذه الأمور ، وحسب أولئك الأطفال أنها تحبهم وأنهم يحبونها حباً شديداً ، وعلى الأخص ليو ، فقد كان شديد الحب لها قوى التودد إليها .

على أن عطف العمة تاتيانا عليه لم يشغله منذ هذه السن الباكرة عن التفكر فى أنها ليست أمه ، وإن كان يرى منها مثلما يري الأطفال من أمهاتهم ؛ وإنه ليسأل نفسه أين أمه ؟ لقد ذكر له نيقولا مرات أنها ماتت ؛ وإنه ليرى على وجه نيقولا أمارات الغم كلما أشار إلى ذلك ، ويرى كذلك دلائل الرهبة والألم . فما هذا الموت الذي حرمه من أمه ؟ إن خياله يصوره له شيئاً كريهاً مخيفاً وإنه ليخاف من اسمه وينفر ، ولكنه لا يدرى ما هو .

وإن الطفل ليرهف أذنيه كلما تحدث متحدث عن أمه ، ولئن كان يحزنه أنه لم يرها فأنه يطيب نفساً بما يسمع من صفاتها والثناء عليها ، وإنه ليجد من عطف عمته تاتيانا ما يخفف حزنه ؛ ثم إنه ليزداد حباً لهذه العمة كلما سمعها تذكر

بالخير أمه ، وتظهر الأسف على فقدها بكلماتها أو بما يبدو من صور الهم على ملامح وجهها ...

وتقع عينا الطفل فى القصر على عدد من المربين والمربيات ، ومن الخدم على اختلاف مراتبهم وتنوع أعمالهم ؛ ويجد لأبيه السيطرة على هؤلاء جميعاً ، فما يلقاه أحد منهم إلا بعبارات التجلة وتحيات الاحترام ، فيداخل نفس الطفل شعور الفخر بجاه أبيه وعظمته ؛ ثم إنه إذا مثل بعض هؤلاء الفلاحين الذين يسكنون القرية القريبة بين يدى أبيه ، رآهم يحنون رؤوسهم خاشعين ، ويخاطبونه بألقاب السيادة والعظمة ، والسعيد منهم من ظفر بلثم يده إذا شاء أن يمدها إليه ، ويعجب إذ يرى أباه يخاطبهم أحياناً فى ازدراء ويعنف عليهم في لهجة الأمر والنهى ؛ ويتساءل الصبي بينه وبين نفسه لم يترفع عليهم أبوه هذا الترفع ، ولم لا يعاملهم كما يعاملونه ؟ ولكن نيقولا يخبره إذا سأله أن الفلاحين فى الضيعة كلها ملك أبيه وملك أجداده كما حدثته بذلك العمة تاتيانا .

على أنه يعلم فيما يعلم أن القصر والضيعة كانا من أملاك أمه ورثتهما عن أسرة فولكنسكى ، ولكن رأسه الصغير لا يتسع لما يقال عن نسب أمه ونسب أبيه ، وإن أخاه نيقولا نفسه الذى كثيراً ما علمه ما لم يكن يعلم ، يبدو منه العجز والتناقض إذا تحدث عن هذا النسب ، ولا تحدثه العمة تاتيانا عنه إلا بقدر ما تعتقد أنه يفهم .

* * *

لم يكن يستطيع الطفل فى تلك السن أن يدرك حديث نسب أبيه ونسب أمه ، فأنه حديث طويل وتاريخ قديم ...

كان بطرس أندروفتش تولستوى أول فرع سامق من فروع أسرة تولستوى التى نبت أصلها فى ألمانيا من زمن بعيد ؛ وقد بدأ سموق هذا الفرع فى عهد العاهل العظيم بطرس الأكبر الذي ولى أمر روسيا فى أواخر القرن السابع عشر .

حارب بطرس أندروفتش تولستوى فى معركة أزوف عام ١٦٩٦ ؛ وأرسله القيصر بعد ذلك إلى أوروبا ليتعلم بناء السفن ؛ وفى مستهل القرن الثامن عشر

عينه سفيرا لروسيا لدى الباب العالى ، ولما اشتبكت الدولتان في حرب عام ١٧١٠ ألقى به فى سجن الأبراج السبعة ، وكان يلقى فيه السلطان بالسفراء الذين يكون بينه و بين دولهم حرب ، ولما عاد بطرس إلى بلاده عام ١٧١٤ وصل إلى منصب الوزارة ...

ولم ينس العاهل الجبار بطرس الأكبر صنيع وزيره هذا حين أرسله إلى إيطاليا ليعود بابنه أليكسى ، وكان قد هرب من بلاده خوفاً من غضب أبيه عليه لما كان من معارضته إياه في إصلاحاته ، ولم يزل به ذلك الوزير الماكر يغريه و يمنيه ، و يستعين عليه سراً بخليلته حتى عاد به إلى روسيا حيث اسلمه إلى الموت نكال أبيه ، وجزى بطرس رسوله بالمال والضياع المترامية . ومما يروى عن القيصر العظيم أنه فى أواخر أيامه كان يمس بكفه رأس وزيره قائلا : « أيها الرأس ! أيها الرأس ، لولا ما أنت عليه من مهارة لمضي اليوم زمن طويل على الإطاحة بك من فوق كتفيك » .

و يأتى دوران الفلك إلى عرش روسيا بنجل أليكسى ، فيكون أول ما يعنى به القيصر الجديد أن يقتص من ذلك الذى خدع أباه حتى جره إلى مواطن الحتف ، ولئن سقاه أمس جده الكأس عسلا فإنه هو اليوم يجرعه إياها علقماً ، فقد جرده من ألقاب شرفه ونفاه إلى أركينجل نفياً لم تكن منه عودة ...

على أن ذلك الفلك الدوار يضع على العرش عام ١٧٤١ القيصرة إليزابث إبنة بطرس الأكبر فترد إلي أسرة تولستوى شرفها وضياعها فى شخص أندرو إيڤانوفتش تولستوى ، حفيد ذلك الذى قضي نحبه فى أركينجل .

و ينمو من هذا الفرع الجديد السامق فرع هزيل رخو ، هو ابنه إليا تولستوى ، فلقد كان ماجناً مستهتراً ضيق العقل ، بسط يده كل البسط فى ثروته العظيمة فبددها ، ثم بدد بعدها ثروة زوجه الغنية ، ولولا أن تداركه بعض ذوى النفوذ والثراء من أقربائه لحاق به سوء ما فعل ، فبفضل هؤلاء عين إليا تولستوى حاكما لقازان واستطاع أن يسترد بعض ما فقد ...

ورزق حاكم قازان بغلام سماه نيقولا ، وترك له بعد موته، ما بقي من أملاك الأسرة ، وفي عهد نيقولا هذا وهنت ثروة الأسرة وهناً شديداً ، ولكن لم تكن له يد في ذلك و إنما حدث هذا بسبب غيابه إذ أسره الفرنسيون ؛ وكان لم يتجاوز الثامنة عشرة أثناء حملة نابليون على روسيا ، وظل سجيناً بفرنسا حتى غلب نابليون على أمره فأطلقت سراحه جيوش الحلفاء الظافرة بعد دخولها باريس ... ولم يجد نيقولا ما يرأب به ما تصدع و يصلح ما فسد خيراً من زواجه بذات ثراء ، وتم له ذلك بزواجه من ماري فولكنسكي العظيمة الثراء الكريمة المحتد.

وكان لأسرة فولكنسكي إلى الثروة وعراقة الأصل ، الشمم والبطولة وقوة الروح ، واستقلال الرأى ، وصرامة العزم ، فتلك خلال ظهرت فيها كلها أو بعضها ، ومن هؤلاء ثائر اشترك فى ثورة الديسمبريين وعوقب بالنفى ثلاثين عاماً في سيبيريا حيث صحبته زوجته عن طوع ، ومنهم ابن عم له خاض المعارك ضد نابليون فى حماسة و بسالة أعجب بهما نابليون إعجاباً حمله على أن يرسل فى طلبه وهو جريح أسير وعرض عليه أن يرد إليه حريته ، إذا قطع على نفسه عهداً ألا يحارب به مدة عامين ؛ ولكنه رفض هذا العرض فى شمم وكبرياء ...

وعرفت كذلك أسرة فولكنسكى بصلة النسب بين كثير من أفرادها و بعض ذوى المقدرة الفنية من المؤرخين والأدباء والنقاد والشعراء ، وكانت تربط ماری فولكنسكى وشائج الرحم من بُعد بشاعر روسيا الأكبر بوشكين .

وكانت ضيعة ياسنايا بوليانا من نصيب ماری فولكنسكى عند زفافها إلى نيقولا تولستوى ، نالتها من أبيها كما نالت ذلك القصر الأنيق الذى استقرت فيه وزوجها عقب زواجهما ، وكان ذلك القصر الأنيق الذى تستوقف الأعين أخشابه الزاهية اللون فى وسطه و يمتد جناحاه الحجريان العظيمان يمنة و يسرة إلى مسافة بعيدة ، يقع فوق مرتفع على مقربة من الضيعة . وفى اليوم الثامن والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٨٢٨ ولد فيه ذلك الغلام الذى يقف الآن وهو فى الخامسة من عمره ، يطل من شرفته على الضيعة والنهر والغابات والقرية القريبة ، ويذكر

ما أخبرته به العمة تاتيانا فى رفق وهو أنه لم يعد بعد صغيراً وأنه سيدخل حجرة الدراسة من غده فلا يبرحها إلا متى شاء معلمه أن يطلقه .

* * *

دخل ليو حجرة الدراسة وأسلم إلى مرب يعلمه و يقوم على تنشئته ، وكان هذا المربى ألمانى الجنس وهو تيودور رو يسل ، وكان من عادة سراة الروس أن يختاروا لأبنائهم مربين من الأجانب ليعلموا هؤلاء الأبناء اللغة الأجنبية التى تراد لهم ، وهم صغار ، وذلك بالحوار والمرانة لا بالقراءة فى الكتب فحسب ، ولقد كان تيودور رو يسل هذا من الشخصيات التى تأثر بها الصبى تأثراً شديداً منذ دخل حجرة الدراسة ، والتي ظل أثرها عالقاً بنفسه مدى حياته الطويلة ؛ إذ كان المربى مستقيم الخلق كريم الطبع عطوفاً على تلميذه في غير ضعف ، شديداً عليه فى غير عنف ، مخلصاً في عمله إذا هم بأداء واجب ، لا يبخل بجهد يرى فيه صلاح تلميذه مهما أرهقه هذا الجهد ؛ و بهذه الصفات الطيبة أو بهذه القدوة الحسنة أثر المعلم فى تلميذه وهيأ الجو الصالح لنمو الصفات الطيبة فى نفس ذلك الصبى .

فإذا انطلق الطفل من حجرة الدراسة كانت العمة تاتيانا أول من يلقي ، فما يطيق البعد عنها ، و إن حبه إياها ليصغر دونه كل حب ، و إن أثرها فى نفسه ليقل عنده كل أثر ، وسيكبر الصبى و يخرج من نطاق البيت إلى مضطرب الحياة و يظل أثر العمة تاتيانا قو ياً في نفسه ، و يظل شخصها حياً فى حسه ، وتظل صورتها ماثلة فى خاطره . وسيعبر عن هذا كله فيما يتناوله قلمه من ذكريات الحياة ومشاهدها . تجد مثلا لذلك فى قوله : « إنى لأتذكر ذات يوم وأنا ابن خمس كيف اندسست خلف أريكة كانت تجلس عليها فى الثوى ، وكيف مدت إلى يدها ومست جسدى فى حنو ورفق ، وكيف أمسكت بيدى تلك اليد وقبلتها ودموع الحب فى عينى ... لقد كان للعمة تاتيانا أعظم الأثر فى حياتى ، فمنذ الطفولة الباكرة علمتنى كيف تكون بهجة النفس في روحانية الحب ، ولقد علمتنى هذه الفرحة لا بكلامها فحسب بل إنها ملأتنى حباً بكيانها كله . لقد رأيت ولقد

أحسست كيف كانت تمتع نفسها بنعمة الحب ، ومن ذلك فهمت بهجة الحب ، وهذا أول ما علمتنيه . ثم إنها بعد ذلك علمتني نعيم الحياة المطمئنة الهادئة » .

وحق له أن يحب هذه السيدة التي يدعوها عمته كما يفعل إخوته ، والتي تقوم منهم جميعاً مقام الأم وقد حرموا من أمهم . وكان ليو منذ صغره مرهف الحس متقد العاطفة تأسره الكلمة الطيبة ، وتثيره الكلمة القاسية فما يملك أن يحبس دمعه ؛ وعرفت عمته تاتيانا كيف توحي إليه ما تحب من المعانى العاطفية ...

وليس يذكر ليو أمه فقد ماتت وهو دون الثانية بقليل ، وكانت سيدة كريمة المحتد نبيلة الخلق عالية الثقافة ، تقية رحيمة القلب ، مرهفة الحس ، مهذبة الذوق ، تتكلم خمس لغات ، ولها بالموسيقى شغف عظيم ، ولها مقدرة ملحوظة فى العزف علي البيان ، وموهبة فى سرد القصص جعلت لها شهرة عظيمة في هذا الباب حتى لقد كانت في حفلات الرقص تجتذب إليها كثيرين ممن يفضلون أن يستمعوا إليها على أن يشهدوا ما يدور فى تلك الحفلات ؛ وكان الطفل يستمع إلى سيرتها فى اهتمام كلما تحدث عنها الخدم أو تحدثت عنها العمة تاتيانا ، فتقوم فى ذهنه صورة لها تطمئن لها نفسه ويبتهج فؤاده ، وتظل هذه الأحاديث تهجس فى خاطره فتزداد صورة أمه وضوحاً فى نفسه كلما تقدم به العمر، فإذا كتب عن أمه غدا فيما يكتب، قال : « لست أذكر أمى ؛ لقد كنت ابن سنة ونصف حين ماتت ، وبسبب مصادفة عجيبة لم تحفظ لها صورة ، وعلى ذلك فلا أستطيع أن أرسم فى خيالى صورتها المادية . و إنى لفرح بهذا من وجهة نظر ، هى أن ما يقوم بذهنى لها إذ أتصورها إنما هو صورتها الروحية ، وكل ما أعلمه عنها من هذه الناحية جميل ، وأظن أن ذلك لم يكن مرده إلى أن من يتحدثون عنها لا يذكرون لى إلا الخير ، و إنما كان مرده إلى أن نفسها كانت تنطوى علي كثير من الخير حقاً » .

و يبقى فى ذاكرته من أحاديث الناس عنها الشيء الكثير ، ولكنه معجب بصفة من صفاتها يراها خير الصفات جميعاً و يشير إلى ذلك فى قوله « إن أرفع خلالها قيمة هي أنها كانت علي حرارة مزاجها وسرعة تأثرها تضبط نفسها أبداً ،

ولقد يحمر وجهها ولقد تبكى كما أخبرتني خادمتها ، ولكنها لا تلفظ قط لفظة نابية بل إنها لا تعرف واحدة من تلك الكلمات » ، ويقول عنها كذلك « إنها كانت تبدو فى خيالى مخلوقاً علوياً روحياً طهوراً ، و بلغت من ذلك حداً جعلنى فى الحقبة الوسطى من عمرى إبان جهادى ضد المغريات والوساوس القاهرة أتجه إلى روحها مصلياً ، مبتهلا إليها فى صلواتى أن تأخذ بيدى . ولقد كان لي في أكثر الأحيان فى هذه الصلوات كثير من العون » .

ذلك أثر أمه فى نفسه وإن لم يرها ، أما أبوه فقد كان يحس ليوطيب قلبه وشدة عطفه على أبنائه ، وكان يحب قصصه التى يتلوها عليهم أثناء الطعام كما كان يراه رفيقاً بهم لا يعنفهم على زياطهم ولا يضيق بهم إذا دخلوا عليه حجرة مكتبه ؛ وكان يعجب ليو بوجاهة أبيه وأناقة ملبسه إذا تأهب للذهاب إلى المدينة ، و بمهارته ونشاطه وجمال طلعته إذا خرج للصيد . وكم كان ينظر إليه فى إعجاب ومحبة وهو جالس في مركبته وحوله عن قرب خدمه وكلاب صيده . كم كان يداخل الطفل شعور الإعجاب به لما يرى من هيبته ؛ واستطاع خياله الناشئ واستطاعت عيناه الصغيرتان أن تنفذا إلى سر تلك الهيبة ، وهو احترام الرجل نفسه وصونه كرامته فما يطأطئ أبوه رأسه أو يخفض صوته أو يغير لهجته لدي أى كبير من الحاكمين مهما علا مقامه ؛ ثم إنه يفطن إلى معنى آخر يحبب أباه إليه ، وذلك أنه على ترفعه واستكباره أحيانا على الزراع ، يعطف عليهم فلا يرضى لهم بالعقوبة البدنية ولا يحب أن يرهقهم بالعمل ، فإذا حدث لهم شيء من ذلك كان على غير علم منه ، وإذا علم بشيء منه نهى عنه واشتد فى النهى وأخلص فيه .

وسيرث ليو صفات أبيه فيكون عطوفا رؤوفا يكره العنف على الزراع ، ويحب أن يعلمهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور ؛ ولكنه كذلك سوف ينشأ معتداً بذاته ، كثير الذهاب بنفسه ، سريع الميل إلى ازدراء غيره ، ومهما حاول التغلب على تلك النزعات في طبعه غلبته على أمره في كثير من المواقف فيزهي و يتكبر ، ولا يقوم فى نفسه إلا شعوره بما نشأ فيه من أيامه من دلائل العظمة والثراء وعراقة الأصل

وحسبه أن ليس هناك فى ياسنايا پوليانا وما حولها قوم لهم السيادة والجاه منذ عهد بطرس الأكبر إلا آل تولستوى .

وأحب ليو إخوته حباً شديداً وأحب اللعب معهم كلما أطلقهم المربى من حجرة الدراسة ؛ أحب أكبرهم نيقولا لأنه يعلمه كل شيء ولأنه عطوف عليه ، مرح ، فكه الحديث ، يراه ليو لا يبارى فى سرد الحكايات والقصص الجميلة وفى رسم الصور المختلفة الأشكال والألوان ، وأحب سيرچى لوجاهة منظره ، وأعجبه منه حبه الغناء واللهو وكبرياؤه وعدم مبالاته بما عسى أن يقول عنه القائلون ؛ أما ديمترى وهو أقرب الثلاثة إليه سناً فكان يأنس بهدوئه وابتسامته الحلوة وعاطفته الرقيقة ...

وكانت من أحب الألعاب إليه تلك اللعبة التى ابتكرها نيقولا ؛ فقد أسر إليه أنه اهتدى إلى نوع من السحر يستطيع به أن يجعل الناس جميعاً على ظهر الأرض أحباباً بعضهم لبعض ، وأن سحره هذا منقوش على غصن أخضر دفنه فى مكان ما بالقرب من موضع حدده لهم ، ثم دعاهم إلى الجلوس معاً جنباً إلى جنب فى بقعة صغيرة يظللهم سقف واحد كما تفعل النمل لتكون لهم مثل أخوة النمل ومحبة جماعاته ، فأقبلوا حيث تلاصقوا تحت غطاء من القماش وضعوه على بعض الكراسي وتضاحكوا في تعاطف ومودة ، وأخذ يحدثهم نيقولا أنه بالحب المشترك المتبادل يستطيع الناس أن يكونوا إخوة ، وهكذا صارت هذه اللعبة من أحب الألعاب إلى الأخوة ؛ ولكم تجمعوا تحت خوان أو فى ركن من الأركان ومثلوا أخوة النمل ، وأحدثت اللعبة أثرها فى خيال ليو ووجدانه ، فقبل أن يبلغ السادسة من عمره يستقر فى نفسه حلم لذيذ عن عالم جديد يرتبط فيه الناس بعضهم ببعض برباط الحب والمودة حتى يصبحوا بذلك إخوانا .

استقر هذا الحلم فى نفس الطفل وهو دون السادسة وما زال مستقراً فيها حتى بعد أن جاوز السبعين من عمره ، فقد كتب إذ ذاك يذكر ذلك الحلم فقال : « إن ذلك المثال وهو أخوة النمل وتعلقنا بعضنا ببعض متحابين بقى قائماً فى نفسى

لا يتغير و إن لم يعد كما كان أمس تحت قماش يظلل كرسيين عاليين، فهو اليوم عندى تعلق البشر بعضهم ببعض متحابين تحت غطاء عظيم هو قبة السماء ، وكما صدقت يومئذ أن هناك عصاً صغيرة خضراء نقشت عليها تلك الرسالة التى تمحق الشر كله فى نفوس الناس وتهيىء لهم السعادة العامة ، فكذلك أعتقد اليوم أن هذه حقيقة ممكنة ، وسوف تنكشف للناس وسوف يمنحهم كشفها كل ما تعدهم به من سعادة » .

ولقد أوصي تولستوى فيما بعد أن يدفن حين يموت حيث دفنت تلك العصا الخضراء ، فى تلك البقعة التى صارت حبيبة إلى قلبه من أجل ذلك الغصن الأخضر الذى أوحي إلى نفسه أن يتحاب الناس جميعاً و يتآخوا على نحو ما تنطق به قصة أخيه ؛ولسوف يدفن فعلا الكاتب العظيم فى الموضع الذى عينه أخوه مثوى للغصن الأخضر ، وذلك بعد ستة وسبعين عاماً من قصة ذلك الغصن !

وحدثهم نيقولا حديثاً آخر أبهج نفوسهم الصغيرة وملأها شوقاً وتطلعاً وذلك أنه سيقودهم إلى تل ما وسيبلغ بهم قمته ، فاذا بلغوها وطلبت نفوسهم أي شىء فلا يلبثون دون أن يكون بين أيديهم ، ولكنه لن يقودهم إلى ذلك التل إلا أن يجيبوه إلى ما يطلب إليهم أداؤه ، فعلى كل منهم أن يقف فى ركن فلا يتجه ذهنه لحظة إلى دب أبيض ، أي عليه ألا يخطر بباله هذا الدب ، وعليه أن يمشى مستقيما على شق بين الألواح الخشبية فلا يميل ، ثم عليه أن يمتنع عاماً كاملا عن رؤية أرنب حى أو ميت أو معد للمائدة ، ومن أخذ نفسه منهم بهذه الشروط فليقسم أن تظل سراً لا يفشيه إلى أحد .

وكم اتجه ليو بخياله ووجدانه إلى ذلك الغصن الأخضر يود أن يعلم ما نقش عليه من سحر ، و إلى ذلك التل العجيب يتوق أن يبلغ قمته ، وما علمه أخوه إلا أخوة النمل و إلا تلك الشروط التي لا بد من أدائها لمن يطمع أن يبلغ قمة التل ...

و يتطلع ليو إلى سرجى يريد أن يكون مثله ، تحدثه نفسه إذا قارن بينه و بين نيقولا أنه يفضل أن تكون له وجاهة سيرجى ولو أنه معجب بأقاصيص نيقولا

وسخره ونكاته ؛ وهو مولع بتقليد سيرجى فيما يعمل ، ولـكنه يألم ألا يستطيع أن تـكون له مثل وجاهته فلن يجدى في ذلك تقليد ، وكانت وجاهة أخيه أحب صفاته إليه ، فما أشقاه أن تـكون هي الصفة التى تستعصي عليه ؛ وإنه مهما حاكاه فى الغناء واللهو والاعتداد بالنفس فلن يزال يشعر بعدم الرضاء أن لم يـكن له ما لأخيه من حسن السمة وجمال الطلعة؛ وثمة شيء آخر لا يستطيع ليو أن يحاكي فيه أخاه ، وذلك عدم مبالاة سيرجي بما عسي أن يقول الناس عنه ، فهو لم يكن يوماً معنياً بنفسه وإنما يسير على سجيته لا يشغل باله بالتفـكير فى ذاته ، وقد خلق ليو على نقيض أخيه ، فهو بنفسه معنى منذ صغره ، عظيم الاهتمام بآراء الناس عنه ، شديد الإحساس بذاته ، كثير الانطواء على نفسه ، وتلك خلة أتعبته منذ نشأته وستكون منبع كثير من متاعبه في مستقبل الأيام .

ويتصف الطفل منذ نشأته بصفة لعلها وليدة شعوره القوى بذاته ، وتلك هى سرعة بـكائه ، وما يبـكي من غيظ فحسب ، فان عينيه لتدمعان إذا لقى حنواً أو مودة ممن هم أكبر منه ، وإن عجباً أن يبـكى فى موضع السرور ليعبر بدمعه عن امتنانه ، فهل كان لذلك سبب آخر هو إحساسه بيتمه منذ أن فطن إلى موت أمه ؟ ولـكنه بكّاء شكاء من قبل أن يفطن إلى ذلك ، وهو لا يملك أن يحبس دمعه إذا رأى غيره يبـكى وإن لم يدر ما بـكاؤه ، ولقد يُغضب غيره حتى يبكيه ثم لا يستطيع إلا أن يبكى معه ؛ كتب فيما بعد عما كان بينه وبين تلك البنت التي كان يربيها أبوه فى أسرته فقال : « أتذكر أنى أخذت وقد تعلمت الفرنسية أعلمها حروفها الهجائية ، وسار ذلك سيراً طيباً أول الأمر ، وكنا يومئذ كلانا فى نحو الخامسة من عمره ؛ ولـكن التعب أدركها فأمسكت عن نطق الحروف كما طلبت إليها ، فألححت عليها فبـكت ثم إذا بى أبـكي مثلها ، ولما دخل علينا من هم أكبر منا لم نجد ما نقوله بسبب ما كنا نذرف من الدمع » .

وكان ليو أكثر من غيره من الأطفال حباً للثناء عليه وابتهاجاً بما يسمع من عباراته ، وذلك أنه يفطن إلى أن الثناء عليه ينصرف بالضرورة إلى ما يبدى من

دلائل الذكاء والنشاط والطموح ، إذ ليس يطمع فى ثناء عليه بسبب منظره أو ملاحة وجهه ، أو رشاقته ، كما عسي أن يطمح سيرجي أو نيقولا ؛ فما أبعده عن ذلك كله ، وهو شيء ليس فى طوقه ، و إن كان يتمنى بينه و بين نفسه لو وقعت معجزة فبلغ بها ما يريد من وجاهة وحسن ؛ ولن تقع هذه المعجزة أبداً فليس له إلا أن يرقى بنفسه و يبدى مقدرته ولهذا كان إذا دعي إلى عمل جمع عزمه وحرص الحرص كله على أن يكون فى أحسن حالاته ، ومن ذلك ما يكون منه بين يدى أبيه حين يدعوه إلى تلاوة قصيدة من شعر بوشكين أو غيره من الشعراء ، أو تلاوة أقصوصة من كتاب أو من ذاكرته ، أو حين يناقشه فى دروسه ليعلم مبلغ فهمه .

وكان شغفه بالموسيقى عظيما يتفتح لها قلبه وتنفعل لها نفسه و يبتهج خاطره ؛ إذا سمع لحناً وانشغل غيره عنه ، فهو مقبل عليه بقلبه ولبه كأنه مسحور به لا يكاد يعي دونه شيئاً .

ويحب ليو الناس جميعاً ، لا يضمر سوءا لأحد ، ولا يتجهم لأحد ، و يكره أن يرى شخصاً يتألم أو تمشى فى وجهه كدرة الهم كما يكره أن يعبس أحدهم فى وجه صاحبه أو يتكره له أو يتجهمه بالقول ، فالصفاء والمحبه والمودة من خصائص طبعه و مقومات خلقه



صبى نابه

تمكنت من نفس الصبى روح المحبة للناس جميعاً ، ولسوف تتوثق على الأيام وتزداد فيكون لها أثرها البعيد فى تكوين آراء الكاتب العظيم فى غد ، وفى توجيه روحه وتحديد مسلكه في مواطن كثيرة من مواقف حياته .

وكان يحب الطفل فيمن أحب فى طفولته كبيرة الخدم العجوز التى لبثت من عمرها في القصر سنين طويلة لا يدرك مدى طولها ، والتى تقص عليه أحسن القصص عن أجداده وأحداث أسرته وتلاعبه وتضاحكه كلما ذهب إليها أو كلما لقيته فى إحدى ردهات القصر أو حجراته ، وتخبىء له الحلوى فى ثيابها لتلاقيه بها ، أوتفتح له خزانتها ليأخذ منها ما يحب ؛ وكان كذلك يحب كبير خدم المائدة لأنه يهش له دائماً ويظهر المودة والعطف ؛ والحق أنه كان يحب الخدم جميعاً وإنما يختص بمحبته من هم أكثر توددا إليه .

دخل يوماً على العمة تاتيانا يشكو إليها أنه رأى منظراً كدره وآلمه ، وذلك أنه شاهد أحد الفلاحين يساق إلى حظيرة حيث أوثقه رئيسه وضربه ، ولما سألته عمته لم لم يحل بينه وبين الضرب أطرق فى خجل ولم يحر جواباً ، وكأنما يزداد ألماً ألا يستطيع أن يتدارك ما فاته .

وبينما كان أفراد الأسرة كبارهم وصغارهم فى البهو الكبير ذات ليلة من ليالى الشتاء ، إذ أشار الكونت نيقولا رب الأسرة بسبابته إلى الحجرة المقابلة وكانت مفتوحة ، فوقعت أعين الجالسين على منظر أثار ضحكهم ودهشتهم فقد عكست المرآة فيها صورة أحد الخدم يمشى على أطراف أصابعه، وما زال حتى بلغ صندوق الطباق فسرق منه قدراً وانصرف ، وكان الكونت ينظر إليه ضاحكا لم تزل عنه بشاشته ، بل لقد صحب تلك البشاشة شىء من التسامح والرفق ، ولما رأى ليو

تسامح أبيه امتلأ سروراً منه وازداد إعجاباً به ، وعند انصرافه لثم يده فى حماسة ظاهرة ، ليريه مقدار ما فى نفسه من رضاء علي ما أظهر من رحمة ورفق .

وامتد عطف الصبي حتى وسع الحيوان فقد أحزنه ذات يوم مرأى كلب مربيه والخدم يشنقونه ، وكان ذلك الكلب العزيز الرمادى اللون ذو العينين الجميلتين والشعر الناعم الجعد ، على حد وصفه ، قد أصيب بكسر ساقه إذ مرت فوقه عربة ، فأعدم إذ لم تعد بهم حاجة إليه في الصيد ؛ وعجب الصبي لما رأى بقدر ما تألم منه ، وإنه ليروى هذا الحادث بعد فيما يروى من حوادث الصغر مما يدل على شديد تأثره به ، قال : « كان الكلب يعانى الألم وكان مريضاً وقد شنق بسبب ذلك . لقد أحسست أن هناك خطأ فيما يقع ، ولكنى لم أجرؤ على الثقة فى شعورى ، حيال ما أرى من تصميم ثابت يأتى من جانب قوم أحترمهم » .

ووقف الصبي ذات يوم يمسح بكفه الصغيرة حصانه ، وقد وثب عن ظهره إلى الأرض إذ نبهه أحد الفلاحين وقد رآه يضربه أن لا جدوى من ضربه لأنه متعب ، ونظر الصبي إلى الحصان وهو يلهث ويخرج أنفاسه في زفرات مؤلمة متقطعة ، وجنباه يرتعشان والعرق يتبخر منهما ، فبلغ من حزنه أنه « أخذ يقبل عنقه الذى بلله العرق ويسأله الصفح عما أوقع به من أذى » ...

وممن وسعهم عطف الصبي وشملهم بره ، أولئك الفقراء الذين كان يعدهم الناس من الصالحين الأولياء ، وكانوا كثيرين فى تلك المنطقة لقربها من كييف حيث يتقاطر الحجيج ليزوروا مواضعها المقدسة ، وكان مرأى هؤلاء فى أسمالهم البالية وبلاهتهم وتمتماتهم ، وعدم اكتراثهم لأى شىء ، أمراً يثير الدهشة فى نفس الصبي كما يبعث فيها كثيراً من الرهبة ، ويوحي إلى خياله أطيافاً مبهمة وصوراً غامضة ؛ وكان ينبئه إخوته أن فى هؤلاء الصالحين سراً لا يمكن كشفه يجعلهم على الرغم من حقارة مظهرهم وقذارة أسمالهم أقرب الناس إلى مرتبة القديسين ، وقد وصف تولستوى هذه الطائفة فى شخص « جريشا » الذى تحدث عنه فى كتابه « عهد الطفولة » وقد كتبه وهو فى الخامسة والعشرين من عمره

قال : « كان جريشا شخصية مخترعة ، وكان يغشي منزلنا كثير من هؤلاء البله الطيبين ، وقد علِّمت أن أنظر إليهم نظرة الاحترام الشديد وهو صنيع أحفظه لمن قاموا علي تربيتى ، ولئن كان بين هؤلاء من يعوزه الإخلاص أو من قضى فيما سلف أياما فى حالة من الضعف والادعاء ، فان غايتهم في الحياة كانت على مايبدو من سخفها فى الواقع ، بالغة السمو ؛ حتى إنه ليسرنى أنى تعلمت فى طفولتى على غير وعى منى ما وصلوا إليه بأعمالهم من علو . لقد صنعوا ماتحدث عنه ماركس أورليوس حين قال : ليس هناك أسمي من أن يتحمل المرء الازدراء من أجل أن يحيا حياة صالحة طيبة . إن الطموح الإنسانى إلى المجد والعظمة أمر لا يمكن تجنبه وهو كذلك بالغ الضرر إذ أنه يفسد كل عمل حميد ، فلا يسع المرء إلا العطف على أولئك الذين لا يقتصرون على بذل جهدهم لتجنب أن يحمدوا فحسب ، بل ويتعرضون فوق ذلك للاحتقار ... » .

ومما كان يبهج نفس الصبي ويحبب إليه الحياة ما كان تحتشد له الأسرة من مظاهر الفرح فى أعيادها وبخاصة عيد الميلاد ، فكانت تشيع البهجة فى البيت كله فترى دلائلها في كل وجه ، وتحس روحها فى كل ناحية ، فرب الأسرة وسيداتها وأبناؤها وجميع من فى القصر من خدم يتبادلون المحبة والمودة ويبدون سعداء فى ثيابهم الجديدة ويستمتعون بما طاب من الطعام والشراب ، حتى الفلاحين ينالهم حظ من هذا الفرح فتطيب نفوسهم وهـذا ما ينشرح له صدر الصبي .

وكان خروجه إلى الغابة للصيد مع أبيه وإخوته فى العربات الجميلة أو على ظهور الخيل المسومة الفخمة يحيط بهم رهط من الأتباع وعدد من كلاب الصيد ، مما يملأ قلب الصبي سروراً وبهجة ، وكثيراً ما كان يبهجه كذلك الخروج إلى الغابة لغير الصيد فى صحبة العمة تاتيانا أو فى صحبة جدته أو غيرهما من المربين فيرتع ويلعب ويقتطف ما شاء من الزهر ، ويستمع إلى القصص ، حتى يعود إلى البيت وهو يطفر كما يطفر العصفور من فرط المرح .

وفي ليالي الشتاء كان تحلق الأسرة حول الموقد والاستماع إلى الموسيقى أو القصص الممتعة ، وتبادل العطف بين الكبار والصغار و بين بعضهم مع بعض مما يحبه الصبي و يأنس به و يحرص كل الحرص على شهوده ...

وليس ثمة إلا حجرة الدراسة تخلو من البهجة و يلقي فيها من دروسه عنتاً ورهقاً ؛ على أن عطف معلمه عليه يخفف عنه ، ورغبته فى أن يرقى بنفسه و يكتسب من دواعى الفخر ما يباهى به إخوته ، يجعله يتكىء على نفسه و يصبر على مكاره الدرس .

وفيما عدا هذا كانت طفولته بهيجة محببة إلى نفسه ، ولن تجد وصفاً لهاتيك الأيام السعيدة الحلوة أبلغ مما كتبه عنها بعد ذلك فى أول كتاب له وهو كتابه « عهد الطفولة » قال « ما أسعد هاتيك الأيام الحلوة ، أيام الطفولة التى لا تنمحي ذكراها ، وكيف ينسي امرؤ أن يحب ذكرياتها وأن ينعم بها ؛ إن هذه الذكريات لتنعش روحى وتسمو بها ، وهى المنبع لأعظم فيض من السرور يغمرنى ، وأى وقت هو خير من ذلك الوقت الذى لا يكون للحياة فيه من دوافع غير دافعين هما فى الفضائل أجمل فضيلتين : اللهو البرىء ورغبة النفس فى الحب رغبة لا تحد » .

كان كلما اقترب ليو من إخوته سمعهم يتحدثون عن موسكو وعن الرحيل إلى موسكو ، فيرفع بصره إلى وجوههم يتبين هل ثمة فيها شيء من الهم لقرب هذا الرحيل ، فإن الهم ما يبرح يهجس فى خاطره منذ علم بقرب انتقالهم إلى موسكو ؛ ولكن الغلام لا يجد فى وجوههم أية أمارة لذلك الذى يعتلج فى نفسه من الحزن كلما تطرق الحديث إلى موسكو أو كلما وقع بصره على ما يلمح إلى الرحيل أو يشير إليه ، ومن ذلك تلك السراويل الجديدة ذات الأشرطة الزاهية يقلبها إخوته بين أيديهم فرحين ؛ و إنه ليشاركهم فرحهم بها ، وما ينقم منها إلا أنها سوف تلبس في موسكو ؛ فعما قريب يرحل مع إخوته ليتعلموا فى تلك المدينة الكبيرة ؛ و إنه ليعجب كيف يطيقون الرحيل عن ياسنايا فيتحدثون عن ذلك الرحيل

ضاحكين مستبشرين ، ويقع الحديث من نفسه موقعاً أليماً .

وهل كان يطيق البعد عن ذلك القصر وعن تلك المدينة وعن هاتيك الغابات القريبة التى أحبها وألف المرح فى أرجائها ؟ وهل كان يطيق البعد عن العمة تاتيانا وهو لا يجد له أماً غيرها ؟ ومن ذا يكون مربيه فى موسكو مكان تيودور رويسل ؟ وهل هو واجد فى موسكو مايجده هنا من مسرات الحياة ولهوها ؟ أيطيق ألا يرى الخدم الذين أحبهم وأحبوه ، والخيل وكلاب الصيد التى أولع بها وأحب أن يراها كل يوم ! ولكن ما من الرحيل بد فليس له إلا أن يصبر عليه ، بهذا كان يتحدث الغلام إلى نفسه أو بهذا كانت تحدثه نفسه .

وحان يوم الرحيل ؛ ومسح الغلام عينيه وقد انطلقت به و بأخوته العربية إلى موسكو ، فما يجدر به أن يبكى وهو ابن ثمان ، وهؤلاء إخوته حوله لا يبكون بل لايكترثون لشىء كأنما هم ذاهبون كما كانوا يذهبون بالأمس إلى الصيد فى الغابة !

ونظر الغلام فى موسكو إلى مربيه الفرنسي الجديد سنت توماس ، فإذا هو تلقاء رجل لا يحس فى وجهه ما كان يحسه فى وجه تيودور رويسل من عطف ومحبة و إخلاص ، وما لبث أن وجده يعنف عليه أشد ما يكون العنف ، فيحبسه فى حجرة ويتهدده بالعصا ، الأمر الذى أغضبه أشد الغضب وكره إليه الغلظة والعنف ، ونفره من العقوبة البدنية ومن صور القسوة جميعاً طيلة حياته ؛ كتب بعد ذلك فى مذكراته يشير إلى هذا الحادث فقال « حبسنى سنت توماس أولا في حجرة ، ثم جاء يتهددنى بالضرب بعصاه ، ولست أذكر الذنب ولكنه كان أمراً لا يستحق العقاب ألبتة ؛ وعندئذ ذقت شعوراً مخيفاً هو مزيج من الغضب والاحتقار والاشمئزاز ، ولم يكن ذلك نحو سنت توماس فحسب ، ولكن نحو القسوة التي يتهددنى بها كذلك » .

وأكبر الظن أن مربيه ما فعل هذا إلا لإهماله وانصرافه عن الدرس ، وعناده إذا دعاه إلى العمل ؛ ولم يتجن عليه سنت توماس فهذا أحد لداته قد تحدث عنه وعن إخوته فقال : « يرغب نيقولا فى التعلم و يقدر عليه ، و يقدر سيرجى على العلم

ولـكنه لا يميل إليه ، ويميل ديمترى ولـكنه لا يقدر ، أما ليو فأنه لا يميل ولا يقدر » ولـكن مربيه على الرغم من ذلك موقن من ذكائه ومن موهبة فيه عبر عنها بقوله « إن لهذا الغلام رأساً ... إنه موليير صغير » .

ماذا كان في رأسه يومئذ حتى يسميه مربيه هذا الاسم ؟ لعل مرد ذلك إلى نفاذ عينيه إلى ما تقعان عليه ، ونفاذ بصيرته إلى أفعال إخوته ولداته من التلاميذ وتفطنه إلى خصائص كل منهم ، فالغلام على حداثته يقظ مرهف الحس ، دقيق الملاحظة للناس وللأشياء جميعاً .

وهو و.ن لم يتجاوز الثامنة بعد ، تطوف بقلبه الغض عاطفة الحب ، ولم يكن هذا الحب الجديد كذلك الذى يحسه نحو العمة تاتيانا أو نحو غيرها ممن أولوه مودتهم وعطفهم من أفراد الأسرة ومن الخدم وإنما كان حبا كذلك الحب الذى قلما خلا منه قلب فتى أو فتاة فى ربيع العمر ، ويميل بعض علماء النفس إلى عد هذه العاطفة فى مثل هذه السن الباكرة دليلا على الموهبة الفنية ، ولذلك يرجى لصاحبها أن يكون في غده من الأفذاذ ...

أحب ليو تلك البنت الصغيرة التى عاشت بين أفراد الأسرة فى كنف عميدها الـكونت ، وكانت تسمى اسلنيف ، وأحب في موسكو غلاماً صغيراً من أبناء عمومته من آل بوشكين ، وقد بلغ من حبه إياه أنه كان ينعقد لسانه إذا وجد نفسه تلقاءه من فرط إحساسه بعاطفته ؛ وكذلك أحب بنتاً لا تكبره فى العمر جميلة زرقاء العينين تدعى سوشنكا ، وكان يشعر بين يديها بفيض من السرور والمودة والرفق ، فإذا غابت فإن ذكر اسمها كان يملأ مقلتيه بدموع الفرح من فرط نشوته ، وكانت عاطفته نحوها عميقة بالغة العمق ، صادقة خالصة الصدق ، بريئة من كل شائبة أو غرض ، حتى لقد اتخذها فى مستقبل أيامه مقياساً يرجع إليه إذا شاء أن يقارن بين حالات شعوره ...

أما إسلنيف فكان يغار عليها أشد ما تكون الغيرة ، لا يطيق أن تحدث شخصاً غيره كبيراً كان أو صغيراً أو تتجه حتي بنظرها إليه ، وكان يعنف عليها و يعصف

فى وجهها إذا وجد منها ما يظنه ميلا إلى غيره ، حتى إنه دفعها ذات مرة من شرفة حيث كانا يلعبان وقد بلغت بها الجرأة أن كلمت غلاماً أمامه ، فسقطت ولحق بها العرج من جراء ذلك بضع سنين ، و بعد قرابة ربع قرن من هذا الحادث شاءت الأقدار أن يتزوج ليو من ابنة هذه التى غدت سيدة أنجبت بنات و بنين ، وأصبحت أم زوجته ، فقالت له ضاحكة تذكره بذلك الحادث « أكبر الظن أنك دفعتنى من الشرفة إبان طفولتى لـكى تتزوج بابنتى فيما بعد » .

وذاق الغلام فى موسكو لوعة الحزن كما ذاق فرحة الحب ، فقد مات أبوه وكان في طريقه إلى مدينة تولا فى صيف سنة ١٨٣٧ وسقط فى الطريق جسما لا حراك به ، فمن قائل إنه مات بنوبة من نوبات القلب ، وآخرون يهمسون أن السم أودى به على يد فلاح ممن ملـكت يداه ؛ و يتسلط على رأس الغلام خيال عجيب فهو يحس أن أباه حى لم يمت ، ولا يستطيع أن يتصور أنه مات حقاً على الرغم من أن أخاه نيقولا قد شهد دفنه فى ياسنايا بوليانا ؛ و إنه لينقل بصره بين وجوه المارة فى شوارع موسكو يتوقع أن تقع عيناه على أبيه ، وظل هذا الخيال بضعة أشهر متسلطاً عليه .

و يتفكر الغلام مرة ثانية فى الموت والحياة ، فقد تفكر فى ذلك حين أدرك أن عمته تاتيانا ليست أمه ، وعلم من نيقولا بموت أمه ؛ ولقد أحس يومئذ أن الموت شىء كريه مخيف ، ولـكنه لم يدرك كنهه ، وهو كذلك يحس اليوم مثلما أحس بالأمس ، و إن كان يصحب إحساســه هذه المرة شىء من التفـكير والدهشة ، وسيظل هذا شأنه كلما نظر فى الموت حتى يجاوز الثمانين من عمره فيطويه ذلك الشىء الـكريه المخيف ، وهو لم يعد من طول النظر فى أمره بشىء .

ولم تـكد تمضى تسعة أشهر على وفاة أبيه حتى ماتت جدته محزونة على ابنها ؛ وجاء المربى يحمل النبأ إلى الصبية وهم يلعبون ، فانقلب مرحهم وز ياطهم وجوماً وسكوناً ، وأرهف ليو أذنيه ودار بعينيه يسمع و يرى ، فكم كره مرأى الحانوطية على مقربة من البيت فى ملابسهم السوداء ، وكم بث فى نفســه الخوف رؤية

التابوت بين أيديهم ، ووجوههم كئيبة عابسة من أثر ما يتكلفون من الحزن ؛ على أنه يطيب نفساً بما يشاهد من مظاهر العطف عليه وعلى إخوته و بما يسمع من عبارات الرثاء لهم والإشفاق عليهم و إن كان ذلك يزيد إحساسه باليتم ؛ ولقد تندت عيناه ذات مرة متأثرا بكلمة عطف سمعها من سيدة إذ قالت لجارتها « إنهم اليوم أيتام كل اليتم ، فقد مات أبوهم منذ قليل ، وها هى ذى جدتهم كذلك يأخذها الموت » .

و ينظر الصبى إلى حلته السوداء المخططة الحواف بخيوط بيضاء وهو يرتديها حداداً على فقد جدته ، وقد صنعت لهذا الغرض خاصة و يعجبه منظره في هذه الحلة فينسي بعض ما يمسه من حزن .

وللغلام فى هذه السن الباكرة اشتغال بما يعد الاشتغال به من أعجب الأمور ممن كان فى مثل سنه ، وذلك هو نظره في الدين ومسائله ، ولندع تولستوى نفسه يتحدث عن ذلك قال فى مستهل كتابه « اعترافاتى » إني أذكر كيف زارنا ذات يوم من أيام الآحاد فى الحادية عشرة من عمرى غلام يدعى ڤالرمير موليتين كان في إحدى المدارس الابتدائية وراح يقص علينا ما سماه أحدث الطرائف من الأنباء ، ألا وهو كشف اتفق وقوعه فى مدرسته ، ومؤدى ذلك الكشف أنه ليس لهذا العالم إله ، وأن كل ما لقناه عنه إن هو إلا محض اختراع . و إنى لأذكر مبلغ ما داخل إخوتى من سرور عند سماع ذلك ، لقد دعونى إلى مجلسهم وأذكر أننا جميعاً شعرنا شعور النشوة لهذه الأنباء ، وتلقيناها كأمر سار ممتع ممكن الحدوث كل الأمكان » .

وعرف الغلام منذ حداثته بقوته البدنية وحيويته المتوثبة ، تبين ذلك من حادثة تقصها أخته ، ومؤداها أن أخاها نزل من إحدى العربات ذات مرة وقد توقفت عن السير لأمر ما ، فظل ماشياً حتى أوشكت العربة أن تدركه فأخذ يعدو عدواً سريعاً كيلا تدركه ، و إخوته فى العربة يعجبون من سرعة عدوه وطول نفسه ؛ ولم ينقطع نفسه إلا بعد ميلين فصعد إلى العربة وهو يلهث ولكنه يحاول

أن يخفي تعبه ؛ ولسوف تلازمه هذه القوة البدنية وهذه الحيوية على الرغم مما ينتابه أحياناً من أسقام وآلام ، حتى يطويه الموت بعد أن يجاوز الثمانين .

وكان ليو منذ صغره مولعاً بركوب الخيل ، وقد تعلم الركوب فى سن مبكرة على الرغم من معارضة أمه إياه فى ذلك ؛ وقد رأى أخويه اللذين يكبرانه يمتطيان جواديهما ذات يوم فما زال يلح حتى سمح له بأن يمتطى جواداً كما فعلا فإذا به بعد خطوات فوق عرفه يطوق عنقه بساقيه و يمسك بجبهته ، فلما أعيد إلى حيث كان لم يبد عليه شيء من الخوف وصمم على أن يطلق العنان لجواده وانطلق به يعدو وهو ثابت فوق صهوته ، ومن ذلك الوقت أصبح يجيد الركوب .

وفكر الغلام ذات يوم فى أمر : لم لا يطير كما تفعل الطير ؟ لم لا يضع ذلك موضع التجربة ؟ إنه يرى أنه مستطيع بحركة ما أن يثب طائراً فيسبح فى الجو كما تسبح الطير ؛ وإن فى نفسه منذ صغره لميلاً إلى أن يضع ما يهجس فى خاطره موضع الاختبار ، ولسوف يكبر معه هذا الميل فيظهر فى مواطن كثيرة ؛ ويشد الغلام بيديه حول ركبتيه ثم يثب من نافذة يريد أن يطير ولكنه يصحو بعد ثمان عشرة ساعة قضاها فى سبات عميق ، فيفتح عينيه دهشاً متحيراً يحاول أن يذكر ماذا كان من أمر طيرانه فيذكره إياه ما يحس من ألم فى مفاصله وأضلاعه .

ولم يقتصر شذوذه على هذا الحادث ، وأكثر ما كان من شذوذه ما كان يتصل باهتمامه بهيئته ، ومن ذلك أنه حلق شعره ذات مرة بالموسى لعل فى ذلك إصلاحاً لشكله ، ثم عاد فأطلق شعره حتى استطال ، وعمد إلى المشط فجعل به ذلك الشعر فى موضع خاص لعل فى ذلك أيضاً ما يكسبه وجاهة و يظهره فى هيئة المهموم المفكر على نحو ما يظهر بيرون . وعمد مرة أخرى إلى حاجبيه فانتزع شعرهما بملقط كى يشتد بعد ذلك نماؤه فيكسب ملامحه مظهراً عاطفياً شعرياً ، ولكنه لم يرجع من وراء هذا كله بطائل ، الأمر الذى نغص عنده العيش

ولقد جاء فى كتابه « عهد الطفولة » قوله « كنت أعلم حق العلم أنى لم أك حسن المنظر ، ولذلك كانت كل إشارة إلى هيئتى تسيء إلى إساءة مؤلمة ،

ولقد مرت بى لحظات تملكني فيها اليأس وخيل إلى أنه لا يمكن أن تتهيأ السعادة على هذه الأرض لمن كان له أنف كأنفي العريض وشفتان كشفتى الغليظتين وعينان كعينى الصغيرتين الشهباوين ، وسألت الله أن يحدث معجزة فيجعلنى وجيهاً فأنى لأجود بكل ما هو لدى وبكل ما عسي أن أظفر به فى المستقبل ، فى سبيل وجه حسن » .

وفى صيف ١٨٣٩ شاهد الغلام في موسكو مشهداً استقر فى نفسه فلم يبرحها حتى ظهر أثره فى أحد أوصافه فيما بعد فى قصته الكبرى « الحرب والسلم » إذ وصف موكباً من مواكب الاسكندر الأول على لسان روستوف أحد شخصيات تلك القصة ، أما المشهد الذى رآه الغلام وجعله مثاله فيما كتب من وصف ، فهو موكب نيقولا الأول يوم زار موسكو ليضع الحجر الأول فى بناء كنيسة أقيمت لتخليد ذكرى تحرير روسيا من غزو نابليون .

ولم يطل بالغلام المقام فى موسكو فقد أعيد مع أخيه الصغير إلى يا سنايا بوليانا ليكونا فى رعاية العمة تاتيانا ، وبقى الأخوان الكبيران فى موسكو ترعاهما الكونتس أوستن سيكن عمتهما على الحقيقة ؛ وكانت الكونتس أوستن أو عمتهما ألين امرأة تقية صالحة لله فى السر والعلن ، تنفق مالها فى سبيل الله فلا ترد فقيراً ولا تتكره لذى حاجة ، وكانت بالخدم رحيمة عطوفاً تكره أن توقظهن إذا أوين إلى مضاجعهن فتعمل عملهن فيما تريد لنفسها من حاجة ؛ وكان أثرها عميقاً فى نفس الغلام فكان يشعر نحوها من الأجلال والأكبار بقدر ما كان يشعر نحو عمته تاتيانا من المحبة ، ولئن علمته العمة تاتيانا كيف تكون بهجة النفس فى الحب ، فقد أوحت إليه ألين كيف تسمو النفس وكيف تطيب بالدين

ولكن هذه العمة قضت نحبها في خريف عام ١٨٤١ فصارت الوصاية على الأخوة جميعاً لعمة أخرى هي السيدة يوشكوف زوجة أحد ذوى الثراء من الملاك فى قازان ، وثم فقد نقل الصبية جميعاً إلى قازان فأقاموا هناك حتى ربيع ١٨٤٧ ؛ على أنهم كانوا يقضون إجازاتهم الصيفية فى ضيعتهم المحبوبة بناحية ياسنايا بوليانا.

فتى حائر

كان ليو فى نحو الثالثة عشرة من عمره حينما انتقل مع إخوته إلى قازان ؛ وكان جدهم أحد حكام قازان من قبل فكان الصبية ملحوظى المكانة فى مضطربهم الجديد ، وكان يصحب كل صبي منهم خادم خاص جيء به من بين عبيدهم فى ياسنايا ، وترفع الصبية عمن حولهم من الناس إلا من كانت لهم مثل مكانتهم ولذلك قلت خبرتهم بقازان وأهل قازان ...

وكانت عمتهم يوشكافا التى يعيشون يومذاك فى رعايتها طيبة القلب ولكنها لم تكن على قدر من الثقافة كبير ، وكان زوجها من ذوى الثراء يجعل أكثر وقته للموسيقي ولعب الورق وما إليها ؛ ولذلك كثيراً ما كان يغشى بيته جماعات من صحابه وكثيراً ما صرف الصبية عن الجد من الأمور مشاهدتهم هذه الجماعات وأوحى إلى نفوسهم اللعب واللهو فكان لذلك سوء أثره في دروسهم .

ولكن ليو لا يسرف فى ذلك إسراف إخوته ، بل إنه ليميل إلى مجافاتهم إلى حد ما منذ أن رآهم يتغيرون عما ألفهم ، ورأى فى أذواقهم وميو لهم ما يحس أنه غريب عليه جديد عليهم ، وما لايسعه إلا أن ينكره منهم بينه و بين نفسه .

ولعله ما أنكر ذلك منهم إلا لأنه لا يستطيعه لنفسه ، فقد عاوده ما يكدر نفسه من اهتمامه بهيئته وماذا عسى أن يكون وقعها فى النفوس ؛ و إنه ليطيل النظر فى المرآة فلا تعجبه أذناه الكبيرتان ولا أنفه المفرطح الواسع المنخرين ولا عيناه الشهباوان الجاحظتان بعض الشيء ، ولا شفتاه الغليظتان بعض الغلظ .

على أن له في القراءة مصرفاً عن هذا ، وعزاء ومتعة غير مايسعى إليه إخوته من متعة ؛ وهو اليوم فى الرابعة عشرة من عمره يلتهم ما تصل إليه يده من الكتب التهاماً ؛ ولن يزال مكباً على كتابه ساعات طويلة حتى لينسي نفسه ، لأنه

يعيش بخياله فيما يقرأ ؛ وكان مما قرأه يومئذ كتاب ألف ليلة وقد أثرت فى خياله وحسه قصة « الأربعين لصاً » تأثيراً قوياً وكذلك فعلت قصة الأمير « قمر الزمان » ؛ وقرأ الغلام شعر پوشكين وأعجب بقصيدته عن نابليون ، وراقته قصة « الدجاجة السوداء » للكاتب الروسي بوجورولسكي ؛ وقرأ الأنجيل وكم تأثر قلبه بقصة يوسف فأن أثرها فيه كان على حد قوله هائلا ، ولم يزل بعد ذلك بسنين يصف ما أعجبه من وجازتها وبساطتها وصدقها ، ولم يكد يبلغ الخامسة عشرة حتي أصبح مسحوراً بجان جاك روسو ، وإنه من فرط تأثره به ليكاد ينسي كل شيء غيره ، وقد بلغ افتتانه به أنه استبدل صورة له بما كان يضع فوق صدره من صليب ، وأقبل على اعترافاته وكتابيه « إميل » و « هلويز الجديدة » وقد سحرته هذه القصة فقرأها مرة بعد مرة ، وكلما أعاد قراءتها ازداد حبه لها واشتد تأثره بها . قال بعد ذلك يصف هذا السحر « كانت صفحات كثيرة منه وثيقة الصلة بنفسي ، حتى لقد خيل إلى أنى أنا الذى كتبتها لا ريب » .

ويمتلىء ذهن الفتى فى السادسة عشرة بكثير من مسائل الفلسفة ، بل إنه ليطمع أن يحل ألغاز هذا الوجود فيشغل نفسه بالنظر فى خلود الروح ووظيفة الإنسان فى هذا الكون وصلته به وإمكان وجود حياة أخرى ، إلى أمثالها من المعضلات والمسائل .

وينظر الفتى فى نفسه فيصل إلى رأي ، وذلك أن سعادة المرء لا تتوقف على العوامل الخارجية فى ذاتها ولكن على صلة الأنسان بهذه العوامل ، ومن ذلك مثلا أن الإنسان إذا أخذ نفسه بالتقشف وتعود الآلام ألف شقاء العيش وآلامه فلن يشقى به ولن يألم منه ، وعلى ذلك فقد أخذ نفسه بألوان من العنف والشدة كأن يحمل بعض الكتب الثقيلة زمناً ويداه ممدوتان ، وكان يضرب جسمه وقد تعرى بحبل حتى تدمع عيناه ، ثم إنه يقنع نفسه بأن التفكير في الموت أمر لا محل له ، وللأنسان أن يستمتع بالساعة التى هو فيها فالموت أمر لا بد منه والحياة أتفه من أن يُعَنى بها المرء قلبه ، فليمرح الفتى ماوسعه المرح ولينصرف عن الدرس

وليقبل على كل ما يلذه من طيبات الحياة خيرها وشرها ، وليقض وقته فى قراءة القصص وأكل الحلوى ...

ويحاول أن يتدسس إلى أعماق نفسه ليرى ماذا يجرى فى شعوره فيصل به الأمر إلى ما يقرب من الخبل . تجد ذلك فى قوله « وكنت أفكر فى أنى أفكر فيما كنت فيه أفكر » وإنه ليستغرق فى تفكيره هذا حتى ليأكل ما فى يده ذات مرة من ديدان كان أعدها طعماً للسمك أثناء صيده ، ثم يمج الديدان من فمه بين الضحك والتقزز .

ولا يلبث الفتى حتى يجد نفسه قد أخذه التشاؤم من جميع أقطاره ، ثم يجد نفسه مستغرقاً فى هذا التشاؤم استغراقاً ، فلا فكاك له منه ولا منتدح عنه . تجد ذلك واضحاً فى عبارة جاءت له فى كتابه «عهد اليفاعة» ، ولئن كان هذا الكتاب كسابقه « عهد الطفولة » وكلاحقه « عهد الشباب » لم يكتب على أنه تاريخ حياته ، فأن أكثر ماجاء فيه من وصف كان لشخصيات خلقها وأكثر ماجاء على ألسنة هذه الشخصيات يدورحول حياته ومن كان له بهم فى هذه العهود صلة . قال « لم تشتد نزعة فلسفية فى نفسى كما اشتدت نزعة التشاؤم ، تلك النزعة التى أشرفت بى ذات مرة على حافة الخبل فقد تخيلت أنه ما من شىء أو شخص هو قائم فى هذا الوجود بجانب شخصى ؛ وأن الأشياء جميعاً ليست أشياء فقط ، ولكنها صور فحسب لاتظهر إلا عند ما أتجه بفكري إليها ، وإنها لتختفي حين ينتهى تفكيرى فيها ؛ وقصارى القول أنى وافقت شلنج فيما ذهب إليه من أن الأشياء لا وجود لها فى ذاتها وإنما الموجود هو علاقتى بها ؛ ومرت بى لحظات وصلت فيها تحت تأثير هذه الفكرة المتسلطة على إلى حالة من الخبل حتى لألتفت فى سرعة حولى كى أدرك اللاشيء ... لقد ازدهتنى هذه الكشوف الفلسفية التى بلغتها وأثارت غرورى إلى حد عظيم ، وكثيراً ما تخيلت أنى رجل عظيم يكشف حقائق لخير بنى الأنسان ، وبهذا الشعور الذي انطوت عليه نفسى ، شعور الكبرياء نظرت إلى باقي البشر ، ولكنى ما واجهت أحداً من هؤلاء الفنانين إلا أحسست بالخجل

حياته ، الأمر الذي يحمل علي كثير من العجب ، وكلما زدت قدرىَ نفسى شعرت أني أقل مقدرة لا على إظهار ما يخالجنى من شعور الرفعة فحسب ، بل كذلك على أن أعوِّد نفسى أن أتجنب الخجل الذى يعترينى من أبسط كلماتى وحركاتى » .

وتتوزع فؤاده هواجس الشباب وأحلامه ، فبينما هو مستغرق في تشاؤمه مسرف فيه ، إذا به يميل بغتة إلى التفاؤل فيجمع عزمه على أن يجد في تحصيل دروسه وأن يكون خير مثال للطالب المجتهد ، ويذهب به التفاؤل إلى أن يعتزم العمل علي أن يكون موضع إعجاب كل من يراه من الناس ، فإن لم يتفق له هذا فى نواحي الكفاية والبطولة ، فليس ذلك بمانعه أن يبلغ مأربه فى أن يصبح أغنى بنى الدنيا وأشهرهم مكانة .

ولكنه لا تكاد تنقضى أيام على ما عقد عليه العزم حتى يعود إلى تشاؤمه وإلى بطالته ولهوه ، ثم إنه يطلق العنان لرغبات جسده ، وهو فتي قوى البدن متدفق الحيوية يكاد يلتهب مما يخالجه من رغبات هذا البدن على الرغم من إسرافه فيما يطفيء به هذا الظمأ المتصل ؛ وما يزال به شيطانه يغريه ويزين له كثيراً من الإثم ، ويسوقه إلى مهاوى الفتنة حتي يوقع في حبائله عذراء من الخدم ذات ملاحة فيغويها ويقضي منها وطره ! ويبلغ نبأ هذا الإثم عمته فتطرد الفتاة من البيت إلى حيث تتلقاها مهاوى الرذيلة ، ثم يطويها الموت قبل أوانه على صورة محزنة نكراء ...

وما يعنينا هذا الفعل إلا لأنه استقر فى أعماق وجدانه . فكان منه حين تجاوز السبعين من عمره صورة فذة لأهم شخصية فى قصته « البعث » التى تعد من أعظم آثاره الفنية وأخلدها .

ويضطرب الفتى اضطراباً شديداً بين وساوس الشباب ، فما يكاد يخالجه الندم على ما يعده تفريطاً منه فى جنب الفضيلة ، حتى يستسلم ثانية إلى الرذيلة ، ثم يعود فيجمع عزمه على الورع والطهر والعفة وعلى أن يأخذ نفسه بالجد من الأمور ، ولكنه لا يلبث حتى ينقاد إلى ما يوسوس له به شيطانه .

وهكذا ما يزال الفتى يتعلق بالكمال مرة ، وينحدر حتى يقرب من قرارة الانحطاط مرة ، ويرضي عن نفسه حيناً ويجثم علي صدره الندم حيناً ، دون أن يستقر على وضع أو يركن إلى رأى ...

وللمرء أن يعجب حقاً من أن تشغل الفتى مثل هاتيك الأمور في سن كسنه يومئذ ؛ ولقد كان بعد ذلك بسنين يشعر بما عسي أن تثير من عجب ، بل إنه كان يخشى ألا يصدقها المرء أو أن يردها إلى المبالغة فى القول كما ذكر ذلك في كتابه « عهد اليفاعة » . فما كان التفكير المتصل فى الحياة والناس ، وما كانت الرغبة فى بلوغ الكمال وتلمس السبيل إلى تحقيق تلك الرغبة مما يكافىء تلك السن ولا ذلك الوضع الذى كان فيه وهو حدث لم يلتحق بعد بجامعة من الجامعات ، وحسب أنداده أن يقرأ الفتى منهم قصة أو يلهو بديوان شعر ...

ولكنه كان فيما يشبه الحمى يومئذ مما كان يجول فى رأسه من أفكار وما يهجس فى نفسه من خواطر ، وما يعتلج فى تلك النفس الحائرة من رغبة فى السمو ومن طموح نحو المثل الأعلى ، وإن تولستوى الفتى اليوم لهو صورة مصغرة لتولستوى الكاتب العظيم في غد ، يوم يشتغل ذهنه الجبار بالفن وبالدين وبمسائل الاجتماع ، ويوم يبحث حائراً قانطاً أول الأمر عن الغرض من هذه الحياة ، حتى تنزل السكينة عليه إذ يرى أن الغرض من الحياة يتلخص فى العمل على السمو بها نحو ما يريد الله من كمال .

وإن تحمسه للمعرفة على هذه الصورة واهتمامه بأن يبلغ ما يطمح إليه من رفعة لدليل لا يدع مجالا للريب على أنه فطر على البحث عن الحقيقة وأنه من العباقرة القلائل الذين تفطن بهم الإنسانية إلى سر وجودها ، والذين يأتون إلى العالم على فترات من الزمن ليقيموا الدليل بوجودهم في ذاته على أن حياة الإنسان جديرة بأن يحياها الإنسان .

وإنك لتجد مثلا لما كان يُعنى به نفسه يومئذ فيما جاء بكتابه « عهد اليفاعة » قال :

« كنت يومئذ فى نحو السادسة عشرة ، وكان العرفاء لايزالون يترددون علي ، وكنت أتهيأ فى فتور وكره لألتحق بالجامعة ... وفى ذلك الوقت الذى أعده نهاية اليفاعة و بدء الشباب ، كانت تقوم أحلامى على مشاعر أربعة . أولها حبي « لها » تلك الفتاة الخيالية التي كنت أحلم بها دائماً على وتيرة واحدة والتى كنت أتوقع أن ألقاها فى أية لحظة وفي أى مكان ؛ وثانيها محبتى فى أن أغدو محبوباً ، فقد رغبت في أن يعرفنى كافة الناس وأن يحبونى ، ورغبت فى أن أصرح باسمي فأجد من الناس جميعاً ما يدل على اهتمامهم بما أصرح به وأراهم يحيطون بى فيسمعونى شكرهم إياى على أمر ما ؛ وثالثها أملى فى حظ عظيم غير عادى ، وقد بلغ من تسلط هذا الأمل على أن أشرف بى على الجنون ، ورابع مشاعرى وهو أهمها كان إحساسي باشمئزازى من نفسى واستشعارى الندم ، ولـكنه كان ندما ممتزجا بالأمل فى السعادة ولذلك لم يخالطه الحزن ... ولقد أحسست السرور في نفورى من الماضي وحاولت أن أجعله أكثر اسوداداً مما كان عليه في واقع الأمر ، وذلك أنه كلما كانت ذكرياتى عن الماضى أكثر سواداً ، ظهر لى الحاضر الناصع الواضح أكثر وضاءة ووضوحا ، وتراءت لقلبي أحلام المستقبل أكثر جمالا وبهجة ، ولقد كان ذلك الصوت المنبعث فى نفسي صوت الندم والرغبة القوية الحادة فى بلوغ الـكمال هو الإحساس الرئيسى لروحى فى تلك الحقبة من نموى ، وكان هو الذى رسم لى أساس نظراتي فى نفسي وفي البشرية وفيما خلق الله من كون ».

وكان له يومئذ صديق فى قازان ، وهو فتى طويل القامة ، عريض المنـكبين حسن الهيئة ، فى وجهه ملاحة ورقة ، يبتسم عن أسنان جميلة دقيقة ، ويزين رأسه شعر مسبل ناعم ، ولـكنه كان على الرغم من ذلك خجولا كصاحبه إذا لقى الناس ، بل لعله كان أشد منه خجلا وأكثر حساسية ...

وقد حبب هذا الفتى إلى تولستوى إخلاصه لما يعتقد من رأى وتحمسه له وصراحته فى التعبير عما فى نفسه مهما يكن من أمره ، وقد سأل ديا كوف ذات مرة — وهذا هو اسمه — صاحبه تولستوى قائلا أتدرى لماذا أحبك أكثر مما أحب غيرك ؟ ذلك لأنك صريح لا تكتم شيئاً فى نفسك ، وهكذا يجتمع الفتيان

على الصراحة فترتبط بينهما ، و إنهما ليتقاربان فى كثير من ميولها ، و يتضح لها ذلك فيما يدير انه بينهما من حوار فى أمور كثيرة ، فيما يتصل بالدين وفيما يتصل بالمجتمع وأركانه من حكومة وتعليم ونظم مالية وما إليها .

ولقد كان هذا الفتى شديد التأثير فى حياة صاحبه فما فرغ من محاورته مرة إلا قويت فى نفسه الرغبة فى العمل علي الكمال المنشود ، والانطلاق من حياة اللهو والعبث ، تلك الحياة التى يذهب فيها العمر سدى ، ولئن لم يك لتولستوى ماالصاحبه من حسن الهيئة فليس ذلك بمانعه أن يعمل على كسب ما يحمل الناس علي الإعجاب به ، مما هو أهم وأجدى من المنظر وحسن الطلعة ، بل إنه لحافزه إلى ذلك العمل الذى يعقد عليه عزمه .

على أنه عزمٌ كأكثر ما يعتزم الشباب فما يلبث أن يذهب فيما تحيطه به الحياة من مسراتها ومغرياتها ، ولكم اضطرب تولستوى بين عزمه و بين لهوه ، ولكم جدد العزم ثم تحلل من عزمه .

وكان دياكوف هو شخصية ديمترى فى كتاب « عهد اليفاعة » فما يفوت كاتب الغد أن يصور أشخاصه كما رآهم فى مضطرب الحياة ولن ينسي شيئاً مما رأى أو يسهو عن أمر يتصل بما يقوم فى رأسه من فكرة مهما بلغ من ضآلة هذا الأمر ، وتلك ناحية من أهم نواحى مقدرته الفنية يوم يغدو أعظم من كتب القصة فى أدب قومه وأحد أفذاذها القلائل فى أدب أوربا كله ...

وستمضى الأعوام و يبقي أثر دياكوف فى نفسه ، فقد كان مما أوحته إليه صحبته عبادة الفضيلة ، وأن غاية الإنسان في الحياة العمل على بلوغ الكمال والسمو بالنفس أبدا ، وسوف يظهر أثر دياكوف فى قصة الحرب والسلم فيما جاء على لسان « أندرى » أحد شخصيات القصة قبل معركة أوسترلتز إذ يقول « إنى أرغب فى المجد ، أرغب أن أكون معروفا عند الناس وأن يحبنى الناس وما لى رغبة غير هذه ، وما أعيش إلا من أجلها ... وإنى وإن كان ذلك منى أمراً مروعاً غير طبيعى لأضحى حتى بأعز الناس عندى فى سبيل لحظة من المجد والفوز على الرجال ومحبة من لا أعرفهم من الناس ومن سوف لا أعرفهم بعد أبدا ».

طالب فاشل

لما بلغ ليو السادسة عشرة من عمره أراد أن يلتحق بجامعة قازان ، واختار قسم اللغات الشرقية إذ كانت بغيته أن يكون فى غده من رجال السياسة ؛ وكان لابد لمن يلتحق بهذا القسم أن يجتاز امتحاناً فى اللغات العربية والتتارية والتركية ، مضافاً إليها بعض اللغات الغربية و بعض فروع المعرفة العامة ، ونجح الفتى فى بعض مواد هذا الامتحان وأخفق فى بعض ؛ وقد حصل فى اللغة الفرنسية على أعلي درجة وتفوق فى الألمانية والعربية والتركية ، وكان أقل من ذلك جودة فى المنطق والرياضة واللغة الإنجليزية والأدب الروسى ؛ أما التاريخ والجغرافيا فقد كان نصيبه فيهما الرسوب إلى حد بعيد ، وقد ذكر عن نفسه أنه سئل أن يعدد الموانى الفرنسية فما استطاع أن يذكر منها واحدة ؛ ثم أعيد امتحانه بعد أشهر فيما رسب فيه فنجح وقبلته الجامعة منتسباً ...

وجلس بين صفوف الطلاب ، منصرفاً أكثر وقته عما يقول الأساتذة ، يقلب عينيه في أقرانه حيناً فيعجبه منظر هذا وتضحكه هيئة ذاك ؛ و ينظر إلى الأستاذ حينا فيسخر مما يقول أو يرسم له صورة هزلية ؛ ثم ينشغل عما حوله حيناً كأنما أخذته عن نفسه حال فما يفيق إلا على نهوض الطلاب ينطلقون من درسهم ، فيسرع فى انطلاقه منه لأنه ضائق به ...

وكيف يجعل الفتي للدرس باله و إنه لفى شغل تارة بمايطوف برأسه من أحلام الشباب وأوهامه ، وآونة بما يهبط علي خاطره من أفكار منها ما يتصل بالدين ومنها ما يتصل بالحياة ...

أما عن الشباب وأحلامه فقد كان له في قازان مجال أي مجال للهو واللعب ، وألفي الفتى نفسه وقد أخذ حب اللهو عليه كل مذاهبه وطالعته مفاتن الحياة

ومسراتها من جميع أقطاره ، وهو فتى متوثب الشباب تعتلج فى نفسه عواطف شتى من الحب والطموح والشهوة وكل ما هو بسبيل من هذا ؛ ولذلك ألقى بنفسه فى متع الحياة صالحها وفاسدها وأرخى العنان لشهواته ونزواته ، حتى لينسي فى تلك المسرات كل ما عنى به نفسه من قبل من رغبة فى الكمال ..

والكمال عنده يومذاك أن يلبس أحسن الثياب وأجملها وأن يفتنّ فى اختيار الألوان حتى يحمل الناس على الإعجاب بذوقه ، ولعل عدم رضائه عن خلقته قد أدى به إلى كثير من الإسراف فى هذا السبيل ؛ ثم إنه يلعب الورق ويشرب الخمر فى جماعات من لداته ؛ ويدخن الطباق في غليون جميل يحرص أن يكون ثمنه أغلى ثمن ، ويتطيب ويمشط شعره ويدهنه بما يكسبه اللمعان ، ويتكلم الفرنسية فى أناقة متكلفة ؛ وإنه ليشهد كل حفلة يقيمها أرستقراط المدينة وذلك بدعوة من أصحابها فما يفوت أحداً أن يدعوه وقد أمسي شخصية من شخصيات المجتمع ، وإنه ليبذل قصارى جهده أن يلفت الأنظار إليه ، ولكم يبهجه أن يتحقق له ما يريد وبخاصة إذا ظفر بنظرات الأوانس ، ولكم يؤلمه ويكدر عليه عيشه أن يصادف ـ حد عدم الاكتراث له أو الفتور فى تحيته ؛ وإنه ليندس بين كل جماعة فيتحدث ويعرض آراءه ويخالف ويعارض ليبرهن على أصالته وقوة شخصيته .

وإنه ليغشي دور اللهو جميعاً ، فيتكلف أكثر مايستطيع من مظهر أرستقراطى فى حديثه وتحياته ومشيته وجلسته ؛ ويدلى بآرائه فيما يشهد من تمثيل أو يسمع من موسيقى ، ويأخذ بقسط من الرقص ، وإن كان لايحسنه كما يحب أن يحسن .

وإنه ليحسب أكثر من مرة أنه نضو حب ، فيخيل إليه تاره أنه أسير هوى لشقيقة صاحبه دياكوف ، وتحدثه نفسه أنها خير ما يختار من زوجة ؛ ثم إذا به يتجه بخياله وقلبه إلى صديقة لأخته مارى إذ يراها وهي طالبة فى معهد عال تجمع إلى جمال الخلقه حسن الخلق وسعة الثقافة ؛ ولكنه لا يلبث أن يرى نفسه وقد علق قلبه بفتاة تزوجت حديثاً ، علي أنه يؤثر أن يموت بين يديها على

أن يكاشفها بما يحس نحوها من حب ... ولن تزال أحلام الحب تطوف بقلبه شأنه فى ذلك شأن غيره من الشباب ، ولا تزال الرغبة فى الزواج تلح على نفسه وتوحي إليه كثيراً من الأمانى العذاب ، ولـكنه لا يستقر على رأى ، وقصاراه أن يحلم بمن يتوق إلى أن يحبها لتكون له زوجاً تجمع بين صدق العاطفة ورجاحة العقل وتحس نحوه مثلما يحسه نحوها وتفهمه كما يفهمها ، وأنى له أن يظفر بهذه الزوجة التى لا يجدها إلا فيما يحلم من حلم ؟

ولم يقتصر الفتى على الأحلام ، فقد كان طِلْبَ نساء يسعى إليهن و يسعين إليه ولا يتورع أن يتسلل إلى بيوت يتهامس الناس بأسمائها و يتغامزون إذا مروابها ؛ ولن تخرج المرأة فى رأيه عن إحدى اثنتين ، فإما واحدة يلهو بها و يطفىء لهيب جسده ، و إما ثانية يحلم بين يديها أحلام الزواج والعفة ولا يستطيع خياله أن يتجه لحظة أمامها إلى معنى من معانى السوء ، ومن عجيب أمره أنه على تنبله بالثياب والمال وعلي حيويته وقوة بدنه كان خجولا شـديد الاضطراب إذ وجد نفسه بين أوانس أوسيدات مهما بلغت ألفته لهن ، أو إذا تحدث إلى فتاة أوسيدة ، فما يزول عنه خجله أو يبارحه اضطرابه إلا بعد حين .

ومن كان يحيا حياة كهذه مطلق العنان مسرفا فى اللهو كان حقيقاً أن يفشل فى طلب العلم ؛ ولذلك فشل تولستوى فشلا كبيراً ، على أنه يحاول أن يبرىء نفسه فيرد سبب إخفاقه إلى اضطغان أستاذ التاريخ الروسي عليه ، و يزعم ، أنه كان حسن الإلمام بهذه المادة ، كما يعلن أن هذا الأستاذ أسقطه كذلك فى اللغة الألمانية على الرغم من أنه يجيدها أكثر من أى طالب آخر في قسمه ، بما لا تجوز معه المقارنة .

وترك تولستوى كلية اللغة الشرقية إلى كلية القانون ، ولـكنه فى عامه الثانى بالجامعة لم يك أحسن حالا منه فى عامه الأول ، فقد ظل مسرفا فى لهوه لا يقف فيه عند حد ، يسهر أكثر لياليه فى مجونه حتى يسفر الصبح ، ولبث علي هذه الحال حتى انتصف العام الدراسي أو جاوز المنتصف .

وكان في الجامعة يتنبل بماله وثيابه ، يصل إليها على جواد جميل وحوله بعض الخدم ، ولا يجالس أو يصاحب إلا من يراه فى مثل طبقته ، ويترفع على من يراهم دونه ، ولذلك كان بغيضاً إلى هؤلاء ثقيلا عندهم ، قال أحدهم يصف شعوره نحوه « لقد كنت أبتعد عن الكونت ، ذلك الذى نفرنى من أول الأمر تظاهره بالجفاء كما نفرنى شعره القصير الخشن وما ينبعث من عينيه نصف المقفولتين من معان تخز النفس ، وإنى لم ألق قط شاباً له مثل ما لهذا الشاب من ذهاب بالنفس ورضاء عنها ، الأمر الذى يعد غريباً كما أنه لا يفهم ؛ وقلما كنت أقابل الكونت أول الأمر ، ذلك الذى على الرغم من قميء منظره وخجله قد اتخذ له رفقة ممن يدعون الأرستقراط ؛ وقلما عنى بأن يرد تحيتى كأنما يريد أن يشير بذلك إلى أننا أبعد من أن نتساوى حتى فى هذا المكان حيث أنه يأتى إليه في عربة أو علي ظهر جواد وآتى أنا راجلا » وذكر هذا الزميل مرة أخرى أنه تصادف أن حبس فى حجرة بالكلية هو وتولستوى بعض الوقت عقابا لهما على تقصير ، فرأى تولستوى في يده كتاب تاريخ ، فقال إن التاريخ في رأيه أتفه موضوع ، فما هو إلا مجموعة من الخرافات والتفاصيل العديمة الجدوى تتخللها طائفة من الأرقام وأسماء الأعلام ؛ وتطرق الحديث إلى الشعر فتهكم تولستوى وسخر من الشعر ؛ ثم تحدث عن التعليم الجامعي بوجه عام فسخر منه ما وسعته السخرية وسخر من تسمية الجامعة دير العلم إلى أن قال « ويحق لنا أن نتوقع أننا نترك هذا الدير رجلين نافعين مزودين بالمعرفة ، ولكن ما ذا عسي أن نحمله معنا من الجامعة حقاً ، وأى شيء نصلح له ولمن من الناس نكون ضروريين ؟ »

هذا هو رأى زميله عنه ، ولكن الذين عرفوا تولستوى وقد نسى تكلفه يجدونه شخصاً غير هذا ، فهو ذكي الفؤاد محبب العشرة إلي رفقائه ، طيب القلب ، واسع الأفق ، متوثب الروح ، صادق الحماسة لما يعتقد أنه حق أو صواب .

وهو في أثناء إجازته الصيفية فى ياسنايا ، ينسى ما كان منه فى المدينة من تكلف يبعد به عن طبيعته ، ولو أن أحداً من خلانه رآه هناك لأخذه العجب من

أن يكون هذا هو الطالب الأرستقراطي الذى عرفه في الجامعة ؛ فهو هنا فى القرية يستحم في النهر ويجلس تحت شجرة يطالع قصة فرنسية ، ويصيد السمك أو الطير ويمشي في الغابة ما وسعه المشى وقد أطلق نفسه على سجيتها ، فلا أناقة فى ملبس ولا تكلف فى مشية أو جلسة أو حديث ؛ وإنه لينام فى شرفة ويأكل حيث يحب ويلبس ما يلائم لبسه الحر فحسب ؛ حتى إذا عاد إلى المدينة رجع إلى تكلفه وأرستقراطيته .

وتجده بعد إسرافه فى لهوه يعود بعد منتصف العام الدراسى الثانى إلى شىء من الجد ؛ ويجد لذة فى دراسة القانون المقارن والقانون الجنائى وعقوبة الإعدام ويقبل على القراءة إقبالا شديداً حتى ليتجاوز المقرر كثيراً فى هذه الموضوعات ، ويأنس منه أستاذه هذا الإقبال فيكلفه أن يقارن بين كتاب منتسكيو « روح القوانين » وبين قانون كاترين الثانية ، فيجد الفتى فى هذه المقارنة متعة عظيمة حتى ليميل إلى ترك الجامعة كى يستطيع أن يقرأ ما يحب أن يقرأ فى غير قيد بما يتطلب المنهاج ، فإنه إذا أقبل على قراءة شىء أحبه لا يحب أن ينصرف عنه إلى غيره حتى يستوعبه ويستوفى منه مايريد . ويخرج الفتى من مقارنته بين الكتابين بأن كاترين فى كتابها قد خلطت آراء منتسكيو الحرة باستبدادها وغرورها ، وأن هذا الكتاب قد أجدى علي كاترين من الصيت أكثر مما أجدي على روسيا من الخير ...

وفى شهر مارس من سنة ١٨٤٧ يصيبه المرض ويلح على بدنه القوى فيحمل إلى مستشفي يقضى به أياماً ؛ وهناك يبدأ الفتى كتابة يومياته فتكون هذه اليوميات من أهم مصادر تاريخ حياته ، فلقد دأب على كتابتها أكثر أيام عمره ؛ ولم ينقطع عنها إلا بضع سنين ثم عاد إليها .

وكانت أول صفحة منها بتاريخ اليوم السابع عشر من ذلك الشهر ومما جاء فيها قوله : « ليس يصحبنى خادم هنا ولا يساعدنى أحد ، وعلى ذلك فلن يؤثر مؤثر خارجي فى ذاكرتى أو حكمى على الأشياء ، ويجب تبعاً لذلك أن يزداد

نشاطى العقلى ... وإن أهم ما كسبته من ذلك هو أن أرى فى وضوح أن تلك الحياة المضطربة التى يعزوها الناس عرفا إلى الشباب إنما مردها في الحق إلى فساد روحى مبكر ؛ إن من يعيش في جماعة يجد فى العزلة من الفائدة مثلما يجده فى الجماعة من كان يعيش فى عزلة ؛ وما على المرء إلا أن ينسحب من الجماعة وينطوى على نفسه ليرى كيف يطرح عقله ذلك المنظار الذي كان يرى خلاله كل شىء حتى ذلك الوقت فى ضوء مهوش ... ولأن يكتب المرء عشرة مجلدات فى الفلسفة أهون عليه من أن يحقق فكرة واحدة تحقيقاً عملياً » .

وفى منتصف أبريل من تلك السنة كتب فى يومياته يقول : « لقد فشلت منذ قريب فى أن أجعل سلوكي كما أريد ، وكان مرد ذلك بادىء الرأي إلى أننى تركت المستشفى ، ثم بعد ذلك إلى من أجدنى أعود إلى مخالطتهم من رفقة يوماً بعد يوم ؛ وأختتم ذلك بأنه ينبغى أن يقودنى تغيير المكان إلى أن أفكر فى جد كيف تؤثر فىَّ الظروف الخارجية كلما تجددت الشروط والأوضاع » .

ويتفكر في مستقبله فيعاوده ما كان يطمح إليه من كمال على الرغم ممـــا أسرف فيه من عبث ولهو فيقول : « إنى أجدنى دائماً بحيث يطالعنى هذا السؤال : ما الغرض من حياة الإنسان ؟ وبغض النظر عما بلغته بطول تفكيرى من نتائج وعما أعده فى رأيى منبع الحياة ؛ فإنى ما أزال أصل إلى خاتمة لا تتغير ومؤداها أن الغرض من الوجود الإنسانى إنما هو أن نبذل أكبر عون نستطيعه في سبيل أن يرقي كل شىء حى رقياً عالمياً عاماً ؛ وإنى لو لم أجد غرضاً لحياتى لـكنت أشقى بني الفناء ؛ علي أن يكون غرضاً نافعاً عاماً .. وعلى ذلك فيجب أن تـكون حياتى منذ اليوم كفاحاً دائباً نشطاً فى سبيل تحقيق هذا الغرض الذى ليس لي غرض سواه » .

ويعود الفتى إلى اعتزامه وما يقطعه على نفسه من مواثيق فيذكر ما سوف يأخذ به نفسه من ألوان الجد في عاميه القادمين بالقرية ، فسيدرس القانون كله ليتهيأ للامتحان النهائى للجامعة ، وسيدرس الطب العملى وقسطاً من ناحيته النظرية

واللغات الفرنسية والروسية والألمانية والانجليزية والطليانية واللاتينية ، والزراعة النظرية والعلمية والتاريخ والجغرافيا والرياضيات والعلوم الطبيعية ، وسيدون ما يعن له من ملاحظات وسيبلغ درجة الكمال فى الفن والموسيقى . وسيكتب المقالات فى شتى المواضيع التى يدرسها ، إلى غير ذلك من ألوان الجد والدأب ...

ثم إنه يقطع على نفسه عهداً أن ينجز ما عقد عزمه عليه مهما تكن العقبات وأن ينجزه علي خير وجه وألا يرجع إلى الكتب فيما نسى من أمر بل يعمل على أن يسترده من ذاكرته ؛ وأن يحرص أن يبذل عقله أقصي ما فى وسعه من طاقة ، وألا يخجل من أن يصارح من يقطعون عليه عمله بأنهم يعوقونه عنه ؛ وليدعهم أول الأمر يشعرون بذلك ، فإن لم يفهموا فليصارحهم به فى شىء من الاعتذار .

وحق للمرء أن يعجب من هذا الذى يعتزمه الفتى بعد ما كان من لعبه و بطالته ، ولعل إسرافه على نفسه هو الذى يوحى إليه ما عسي أن ينسيه ذلك العبث و يعوضه عما فاته من جد ؛ وفيم العجب والشباب يتخيل أنه قادر على كل شىء فلننظر ما ذا أنجز الفتى من هذا الذى جمع العزم عليه .

لم يلبث الفتى أن ترك الجامعة دون أن يحصل على شهادة ما ؛ ففي سنة ١٨٤٦ خرج أخوه نيقولا من الجامعة والتحق بالجيش ، وعاش ليو مع أخويه الباقيين فى بيت استأجروه وقد تركوا بيت عمتهم فلا رقيب عليه ؛ و بعد أشهر قليلة قسمت ثروة أبيهم بينهم فكانت ياسنايا بوليانا من نصيب ليو ، مضافاً إليها أربع ضياع أخرى تبلغ اربعمائة وخمسة آلاف من الأفدنة ، كما كان من نصيبه نحو خمسين وثلثمائة من الفلاحين الذكور ومن ورائهم أسرهم ؛ وفى يناير سنة ١٨٤٧ يحس ليو بكثير من الضيق بعد أن بارح أخوه الجامعة كما يسأم حياة المدنية وملاهيها وغرورها ، وحياة الجامعة وقيودها والامتحانات وسخفها ، فيكتب إلى إدارة الجامعة لتستبعد اسمه من سجلاتها معتذراً بسوء صحته و بأمور تتصل بمطالب أسرته و ينطلق من الجامعة إلى غير عودة ، فهل هو فاعل فى غده ما تخيله فى قازان من ضروب الجد ؟

بين الجد واللهو

ودع تولستوى قازان وفى نفسه أنه ودع اللهو والعبث فما إليهما من عودة ، و بلغ ياسنايا تلك الضيعة المحبوبة وقد زاده محبة لها أنها غدت من نصيبه ، وإنه ليشعر أنه أصبح مسؤولا عنها وعمن يعيش فيها من الناس ؛ ولقد زاد هذا الشعور لا ريب فى نفسه العزم أن يطلق حياة اللعب والعبث ...

ثم إن فكرة تسيطر على لبه اليوم وتملأ جوانب نفسه ، ومؤداها أن يعمل في جد على إصلاح حال الفلاحين فى الضيعة وما جاورها ، فما يليق به أن يذرهم فيما هم فيه من جهل و بؤس .

وتستمع إليه العمة تاتيانا دهشة مبتسمة فما يخرج الأمر عندها عن أن يكون نزعة جديدة من نزعات الشباب ؛ ولكنه يعود كل يوم إلى هذا الحديث وإنه لأقوى عزماً وأكثر جداً ؛ وإن تفكيره فى هذا الأمر ليصرفه عن القراءة وعن الموسيقى التى أحبها حباً عميقاً خبرته عمته ؛ وإنها لتجلس إلى البيان تحاول أن تمتعه بلحن مما يحب ، فما يروعها إلا انصرافه عنها وعن لحنها ليقبل على حديث إصلاح الفلاحين ...

وتعجب عمته ويزداد عجبها إذ تراه يتخذ لنفسه زياً خاصاً به ، يعتزم أن يلبسه فى كل وقت وفى كل مكان لأنه يظهره فى مظهر الفيلسوف ؛ ولكن الفتى لا يلبث حتى يخلع هذا الرداء ويلقي به لأن أحد الزائرين لم يتمالك نفسه ذات مرة من الضحك من مظهره ، وكره الفتى أن يكون موضع استهزاء ، وهو الذي طالما تأنق وتنبل بالثياب ...

وما الذى ألقى فى قلب الفتى هذه الرغبة القوية فى إصلاح حال الفلاحين ؟ أهي مجرد نزعة من نزعات الشباب حقاً ؟ أم هى خيال ألقاه فى نفسه قراءة قصة

حديثة تسمى « القرية » ألفها قصصي يدعى جريجوروفتش وصور فيها حياة الفلاحين صورة مؤلمة تبعث فى النفوس شعور الرثاء الحالم؟ أم أن مرد ذلك إلى تلك العاطفة التى عرف بها منذ طفولته وهى أنه يحب أن يرى الناس جميعاً حوله سعداء؟ الحق أن الفتى ما كان ليستطيع أن يرى مظاهر البؤس من حوله ثم لا يتحرك لها قلبه الإنسانى الرحيم ، وكيف كان يطيق أن يسمع فيما يسمع أن امرأة قضت نحبها من الجهد ، وأن المرض يفتك بالناس فلا يستطيعون له دفعاً ؛ وكيف كان يطيق أن يخروا على قدميه سجداً يسألونه القوت ؛ لقد كان ذلك يؤلمه أشد الألم أو كما يقول « إن ذلك كان يؤلمنى كما تؤلمنى ذكرى جريمة ارتُكبت ولم يكفر عنها ».

على أنه يعجب أشد العجب من إعراض الفلاحين عن إصلاحاته ؛ ويألم إذ يرى فى وجوههم الشك والإنكار والعناد ، وإذ يسمع أنهم يصفون ما بنى لهم من أكواخ جديدة بأنها سجون ، وأنهم يرمون بالمدارس التى افتتحها لأبنائهم والتى كان يعلمهم فيها بنفسه أحياناً ، فعندهم أن هذه المدارس تحرمهم من معاونة أبنائهم إياهم فى أعمال الزراعة ؛ ويقلب تولستوى كفيه حائراً من أمرهم ، وفى نفسه شعور الغضب ومرارة الخيبة ...

ولا يلبث اليأس أن يصرفه عما شرع فيه ، فينصرف عنه مكرهاً لأنه كان شديد التعلق به ، يدلنا على ذلك ما جاء فى قصة كتبها بعد سنوات قليلة ، هى القصة المسماة « صباح أحد المالكين » فقد صور فيها أميراً يحلم بأن يعلم الفلاحين ويسعدهم ويوفر لهم أقواتهم ، ويصلح رذائلهم التى تنجم من الجهل والتعلق بالخرافات ، ويجعلهم يحبون الهدى والحق ؛ وفى هذه القصة يترك الأمير الجامعة ليعود إلى القرية ويكتب إلى عمته برغبته فى إصلاح حال الفلاحين فى ضياعه قائلا بعد أن يصف مبلغ بؤسهم : « أليس واجبي الواضح المقدس أن أعنى بحال هذه الأنفس السبعمائة التى سوف يسألنى الله عنها حساباً ؛ ثم أليس من الإجرام أن أجرى وراء أنماط من اللهو والطمع بينما أدعهم لمشايخ أو رؤساء ، هم عليهم خشن غلاظ ؟ ولم أبحث فى نواحى أخرى عما عسى أن يظهرنى بمظهر الرجل النافع الخير

فى حين أن أمامى هذا الواجب الوضيء النبيل الذي أعرفه عن وثوق وخبرة ؟ » .

ولم يكن يدور بخلده أن يجد من الفلاحين هذا الجحود ، فما أشـد ما كره ما كان فيه من جـد وما أسرع ما أقبل على لهوه وعبثه ، وقد نما إليه أن خاه سيرچى يعيش مع غجرية مغنية عيشة مطلقة من كل قيد فى ضيعته ؛ فحبب إليه عبث أخيه أن يعود هو كذلك إلى عبثه ، فأقبل على المجون واللعب وأسرف فى ذلك إسرافاً شديداً وبخاصة فى مخالطة النساء مخالطة لا تأثم منها ولا تورع فيها حتي لقد أحدثت أثرها فى بدنه القوى أو كادت ، وحتى لقد عاد الفتى إلى سالف ندمه فإنه يكتب فى يومياته فى منتصف شهر يونيو سنة ١٨٤٧ يقول « ما أصعب على من يقع تحت تأثير الشر أن يزيد ما تنطوى عليه نفسه من خير ... هـل أبلغ بعد الأمد الذى أجدنى فيه مستقلا عن المؤثرات الخارجية ؟ إن ذلك معناه فى رأيى الوصول إلى كمال عظيم ، حيث أنه فى حال الرجل الذى يتخلص من العوامل الخارجية ، تسيطر الروح على الجانب المادى منه بالضرورة فيبلغ مايريد ؛ وسأضع اليوم لنفسي قاعدة جديدة وهى أن الاجتماع بالنساء إن هو إلا شر من شرور المجتمع لابد منه ، وعلى المرء أن يتجنبه ما استطاع ؛ وممن نتعلم فى الواقع الشهوة والخنوثة والتفاهة فى كل شىء إن لم نتعلمه من النساء ؟ وعلى من تقع تبعة فقداننا تلك المشاعر الغريزية فينا كالشجاعة والمناعة والبأس والتصبر والعداله إن لم تقع علي المرأة ؟ إن المرأة أشد استجابة من الرجـل للمؤثرات ، وكانت فى عصور الفضيلة خيراً منا ، ولـكنها الآن فى عصر الفساد والرذيلة قد باتت أسوأ منا وأرذل » . . .

وتلح إليه العمة تاتيانا ذات يوم بقولها « إنه لا شيء يكون الشاب خيراً مما يكونه ارتباطه بفتاة ذات خلق » ؛ ولـكن توثب حيويته وعرامة فتوته وحبه الاستقلال ، كل أولئك يميل به عن أن يركن إلي ما تقول ..

وسيكبر هذا الفتى وقد ذاق حلو الحياة ومرها فيـكون له من ذلك مادة لفنه وسيفيد من لهوه هذا كما يفيد من جده ، فلا ينسى شيئاً مما تطالعه به الحياة ،

وسوف نرى نظرته هذه إلى المرأة سنة ١٨٤٧ وهو فى التاسعة عشرة ، تتجدد في قصة يكتبها سنة ١٨٨٩ وهو فى الحادية والستين ، وهى قصة كروتزرسناتا .

لم يعد للفتى أمل فى إصلاح فلاحيه وأحس أنه يقضي أيامه فى ياسنايا عبثاً فصمم على الرحيل منها ، وفى شهر أكتوبر سنة ١٨٤٨ سافر إلى موسكو حيث قضى ثلاثة أشهر أو أربعة مطلق العنان لا يلويه عن العبث واللهو شيء ، وله من فراغه وشبابه وماله ما يزيد جموحه ويمد فى حبال غوايته ؛ ثم سافر الفتى إلى بطرسبرج فدخل جامعتها ليدرس القانون ثانية وليحصل على درجة علمية تهيئه للالتحاق بوظيفة من الوظائف المدنية .

***

وأقبل الفتى علي الدراسة فى جد وعزم كأن لم يعرف اللعب يوماً ؛ وكتب إلى أخيه فى فبراير سنة ١٨٤٩ يخبره بما هو فيه من جد ، وينبئه بأنه سيبقى فى بطرسبرج إلى الأبد ، ويصف له في كتابه مبلغ ما للحياة في هذه المدينة من أثر فى نفسه ، فكل شيء يبعث على الجد والدأب ، وكل امرىء يسعى سعيه حتى لن يجد المرء من يصحبه إلى حياة عابثة ، ولن يستطيع المرء أن يحيا هذه الحيـاة وحده ، إلى أن يقول لأخيه « أعلم أنك لن تصدق أنى غيرت ما بنفسي وأنك ستقول إنها المرة العشرون ولكن في غير جدوى ؛ كلا ... لقد تغيرت الآن ... وفوق ذلك فانني اليوم يداخلنى إحساس بأن المرء لايستطيع أن يعيش بالنظريات والتفلسف ، ولكنه ينبغى أن يحيا حياة واقعية ، أعنى أنه يجب أن يسلك سلوكا عملياً ... وهذه خطوة واسعة نحو التقدم » .

وفى شهر أبريل يجتاز ليو امتحاناً فى القانون المدنى والقانون الجنائى بتفوق ملحوظ؛ على أن ذلك لم يكن فى الواقع ثمرة جهد متصل وإنما كان ثمرة أسبوعين استوعب فيهما ما استطاع أن يستوعبه من هاتين المادتين ...

وفى شهر مايو يكتب لأخيه فإذا به يقول فى كتابه « أى سيريوشا ... أتوقع أنك سوف تقول إنى أكثر من عرفت ضعف عزيمة ، ولكى أكون

أميناً ، ينبغى أن أقول إن الله يعلم ماذا كنت أفعل هنا !... لقد جئت بطرسبرج بغير سبب معين ، ولم أعمل هنا عملا ذا عائدة ، وقصاراى أنى أنفقت مالا كثيراً حتى لقد تورطت فى الدين ؛ يا للغباء ! وأى غباء ؟ لن تستطيع أن تصدق كيف يؤلمنى ذلك ، وبخاصة تلك الديوان التى يجب أن أؤديها بأسرع ما فى وسعى ، وذلك لأننى إن لم أفعل فلست أفقد المال فحسب ، بل أفقد معه شرف سمعتى . أعلم أنك ستضج بالشكوى ، ولـكن ماذا عسي أن أصنع ؟ إن الإنسان يقترف مثل هذه الحماقة مرة فى مدى عمره ... وإنى لأركن إلى عطفك إذ أرجو منك أن تتدبر فى إخراجي من هذا الوضع الـكريه حيث أجدنى مفلساً يحيط بى الدين من كل جانب » .

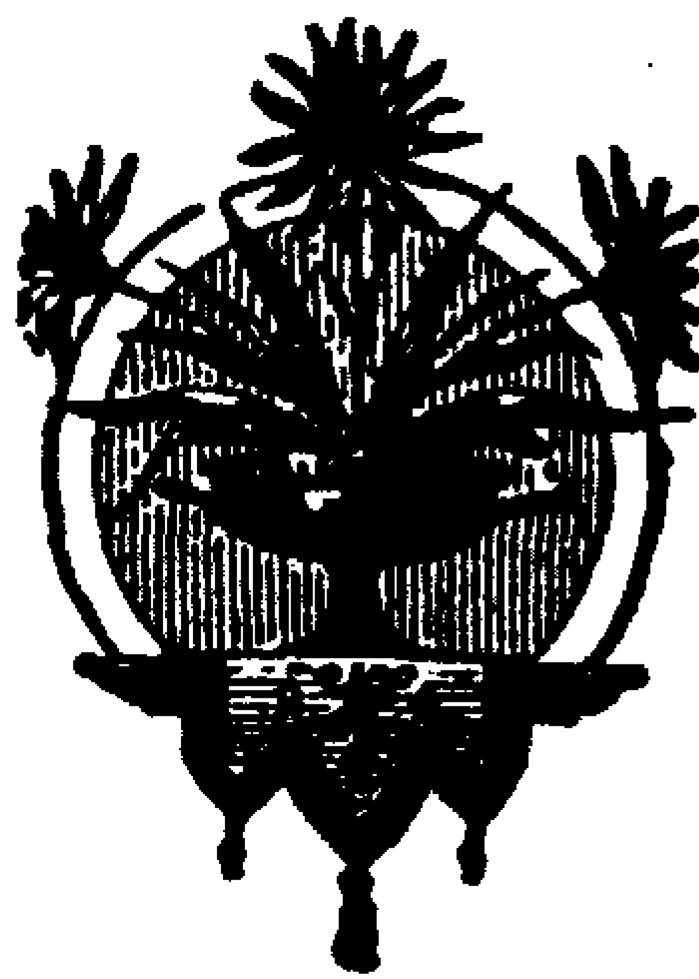
ويعتزم الفتى أن يلتحق بالجيش فى فرقة الفرسان متطوعاً فى الحرب ، وأن يترك جامعة بطرسبرج دون أن يتم دراسته فيها كما ترك جامعة قازان من قبل وكانت الحرب التى يريد أن يتطوع فيها هي تلك الحرب الظالمة التى قذفت بها النمسا الأحرار المجاهدين فى المجر ، أولئك البواسل الذين رغبوا فى الاستقلال عنها وردوا جيشها وقد عصفت العواصف بأنحاء الامبراطورية حتى استعانت بالجيش الروسى فجاء لمعونتها خمسون ومائتا ألف من هذا الجيش ، وكانت روسيا تريد أن تطفئ نارالثورة في المجرحتى لا تمتد إلى بولندة ، وكانت تحت حكمها ، فتخلع عنها نير الاحتلال ؛ ومن عجب أن يتجه تولستوى إلى التطوع فى حرب ظالمة كهذه الحرب وهو الذى سوف يكون فى غده من أكبر الساخطين على العدوان وعلى الحرب أيا كانت بواعثها ...

وكان لزاما على من يتطوع أن يقضى سنتين فى صحبة الجيش العامل قبل أن يسمح له بحمل السلاح والقتال ، ولـكن تولستوى كان يطمع أن يتخذ مكانه فى الصفوف قبل انتهاء هذه المدة بما عسى أن يبدى من مهارة وقوة وإن خياله ليسهل له كل شيء فما إن يفكر فى أمر حتى يحسبه حقيقة واقعة ، وإنه ليحدث نفسه بأن عمله فى الجيش سوف يكسبه خبرة بالحياة والناس ،

وسوف يخلق منه شخصاً جديداً ، إذ أنه بهذا العمل ينجو مما يغريه به الفراغ والشباب من عبث ولهو ...

ولكنه لا يلبث إلا قليلا حتى يكتب لأخيه يقول له : « أثبت فى كتابى الأخير إليك كثيراً من اللغو ، وكان أبرزه ما أشرت إليه من رغبة فى التحاقي بفرقة الفرسان ، وسوف لا أفعل ذلك إلا إذا فشلت فى امتحاناتى أو إذا كانت الحرب ذات خطر » .

وجاء الربيع يبعث البهجة والحياة فى كل حى ، وطافت بخيال الفتى مجاليه في أسحاره وآصاله ، هناك فى ضيعته المحبوبة ياسنايا بوليانا ، فسرعان ما انطلق من جامعة بطرسبرج كما انطلق قبل من جامعة قازان ، وسرعان ما أبعد عن فكره وخياله العمل فى الجيش وفى الوظائف المدنية جميعاً ، ثم أقبل على ياسنايا ، وليس فى نفسه هذه المرة من عزم إلا تعلم الموسيقى !



بين العبث والندم

لن يصبر الفتى على المقام طويلا بيسنايا ، فإن المدينتين : موسكو وبطرسبرج ما تزالان تدعوانه إلى مفاتنهما وزينتهما ، وما إن يأخذ الفتى حظه من اللهو فى إحداهما أو فى كليهما حتى ينطلق إلى ياسنايا يطلب الهدوء ويأمل فى التوبة ، ويرجو أن يتفرغ لشؤون ضياعه ، وعلى هذه الحال قضي الفتى ثلاث سنوات يلقى به طول عبثه إلى الندم ، ويؤدى به سأمه من ندمه إلي ما كان فيه من عبث ؛ وكان فى حاليه يمثل حياتى أخويه . فإذا أمعن فى عبثه ومجونه وعدم اكتراثه لشىء مثل حياة سيرجي ، وإذا ندم وتقشف وزهد في الحياة الدنيا وزينتها عاش عيشة ديمترى .

ولم يقف عبثه عند حد فى العاصمتين ؛ فهو فى ليله يسرف فى الميسر ويغشى أمكنة اللهو وينتقل بين «صالونات» الأرستوقراط وأماكن الغجريات المغنيات ، يقضى أرب مشاعره من الجمال والبهجة ، وغاية بدنه من الفسوق والرجس ، وهو فى نهاره يستمتع بالصيد أو بركوب الصافنات الجياد ، أو يملأ فراغه بلعب الورق أو الشطرنج أو بكتابة ما يداخله من ندم في دفتر يومياته ، أو باللعب ساعة على البيان ، وهو فى ليله وفى نهاره يشرب الخمر ويصيب ما يلذه من طعام فى أشهر مطاعم المدينة وأغلاها ثمناً . يفعل ذلك فى رفقة من صحابته يعبثون ويلهون كما يعبث ويلهو ، ويفوزون منه بما ينفق عليهم من ماله ...

ويحاول أحياناً أن يصنع ما نصحت به عمته تاتيانا إليه ، وذلك أن يرتبط بفتاة ذات خلق وكرم محتد ، فيدور بعينيه فى سهرات الأرستوقراط يطالع وجه الأوانس ، ويخفق قلبه لهذه أو لتلك ، ولكنه لا يلبث حتى ينطلق تحت ستار الظلمة إلى حيث يلقى بنفسه بين ذراعى إحدى الغجريات !

ويحلم تارة أحلام الزواج فيهفو قلبه إلى الآنسات فى صحبة أمهاتهن وقد تبرجن

وأبدين زينتهن ، ويتظرف فى حديثه ويظهر أكثر ما يستطيع من مظاهر الاستوقراطية والنبل ، ولكنه سرعان ما ينصرف عن هذا إلى مايوسوس به الشيطان من فجور وإثم يطفىء به ضرام بدنه القوى الذى مايزال يلتهب من شهوة

ويعود إليه تارة تخيله أنه محب وأنه أسير هوى غادة عرفها فى موسكو هى الأميرة شرباتوف ، وإن كانت هذه الغادة لتجهل كل الجهل ما تحدثه به نفسه من حب ، ولا تفطن إلى ما يخيل إليه أنها بعثته فى نفسه من عاطفة ...

وكذلك تساوره أحياناً رغبته فى الكمال ، تلك الرغبة التى تسلطت عليه زمناً فى قازان ، ولكن الكمال هنا يتخذ منحى جديداً غير منحى الثقافة والمعرفة ؛ فهو يريد اليوم أن يكون رجل مجتمعات ، يشار إليه في المنتديات والصالونات ، ويريد أن يكون حديث مجالس ينصت إليه ذوو المكانة ويصفونه بأحسن أوصافهم من النبل والتهذيب والظرف واللباقة ؛ ولكنه لا يستقر على هذا الاتجاه وما هو إلا أن توسوس له أقل المغريات حتى يعود إلى مجونه وجنونه ، ليعب منهما ما يشاء له شبابه ، ثم يعمد إلى دفتره فيثبت فيه ما يخالجه من ندم ومن تأنيب منه لنفسه ؛ وهكذا يحيا الفتى فى المدينتين حياة لا تختلف عن حياته فى قازان إلا بما يكون من إفراط فى اللهو وإسراف فى المال .

ولن يزال الفتى كالفراش الهائم يطير من زهرة إلي زهرة ، ومن ثمرة إلى ثمرة ، أو يقع على اللهب ليرتد عنه ثم يجذبه الضوء فينجذب إليه ، ولا يجد ما يبثه خلجات شعوره ونوازع وجدانه إلا دفتر يومياته ؛ كتب فى هذا الدفتر سنة ١٨٥٠ يقول وقد كان فى موسكو « إن هذه ثالث سنة لى أقضى شتاءها فى موسكو دون أن أكون فى منصب ما ؛ هنا حيث أقضى حياة سخيفة لا غناء فيها ، حياة فارغة لا تهدف إلى غرض ؛ ولم أحى هذه الحياة لأن كل امرىء فى موسكو يفعل مثلما أفعل ، ولكن لأن مثل هذه الحياة هيأت لى أسباب المسرة » .

وبلغت حاله من السوء فى أواخر تلك السنة بما أسرف على نفسه في الميسر أن أصبح يطلب القليل من المال فلا يكاد يجده ولذلك فكر فى أن يشغل منصباً

يرتزق من وظيفته ، واتجه إلي منصب مدير البريد فى مدينة تولا ؛ ولـكنه لم يجد فى نفسه المقدرة على أن يعمل عمل الموظفين فانصرف عن هذا المتجه ...

ولـكن ماذا عسي أن يصنع وقد اشتدت به الحاجة إلى المال وفدحته أعباء الدين ؟ ... يا عجباً ! إنه يريد أن يحذق لعب الورق ليـكسب المال من الميسر ، عسى أن يعوض شيئاً مما خسره فيما سلف من لعبه ، ولـكنه ما لبث أن رأى أن الميسر ما كان وسيلة لـكسب المال و إنما هو كما عرف من قبل وسيلة لإتلافه؛ ثم إن الفتى يضيق بحياته هذه حتى ما يطيق صبراً فيعود إلى يا سنايابوليانا

ويقضي الفتى فى ضيعته بضعة أشهر لا يـكدر عليه صفوه ولا يقطع هدوءه إلا إلحاح عاطفته الحيوانية عليه وظمأ بدنه ذلك الظمأ الذى لا يفتر ؛ ولـكنه يغالب تلك العاطفة بكل ما فى طوقه من عزم ، ويصبر على ذلك الظمأ ما وسعه الصبر ؛ ثم لا يلبث حتى يجد نفسه وقد غلب على أمره فعاد أكثر ما كان نهماً وطمعاً . والحق أنه كان يعانى كثيراً من الضيق من جراء فشله كلما فشل فى مغالبة هذه العاطفة ؛ أشار إلى ذلك مرة لأحد مترجمى حياته بعد أن تقدم به العمر فذكر أنه ما من شيء كان أشق علي نفسه من محاولته قهر هذه العادة التى تسلطت عليه فلم يقو على دفعها ؛ ولقد كان يتأثم منها ويندم أشد الندم كلما منى بفشل جديد ، تجد ذلك فى مثل قوله سنة ١٨٥٠ « إنى أعيش عيشة بهيمية ، ولقد هجرت كل ما عسي أن يشغلنى من عمل ؛ وإن ذلك ليـكدر روحى كدراً شديداً » .

ولا يـكاد الفتى يجمع من المال قدراً حتى يعود إلى موسكو فى مارس سـنة ١٨٥١ ؛ وفى نفسه هذه المرة أن يبتعد عن كل مايشين لأنه اليوم يريد أن يصل إلى مكانة مرموقة فى المجتمع وأن يشغل منصباً ذا خطر وأن يتزوج من ذات ثراء ومحتد ...

وراح يغشى أواسط الارستوقراط يشهد الحفلات والولائم ، يهمه أن يتعرف إلى العلية وذوى المـكانة والنفوذ ؛ إذا جلس فى حلقة أخذ بقسـط موفور من الجدل والحديث ، وحاول ما استطاع أن يكون هو الذى يدير الـكلام ويصرف

وجوهه ، وحرص على أن تكون آراؤه مثيرة للدهشة أو للانتباه أو للمعارضة ، واجتهد أن يبرز أقصي ما لديه من علم فيما يتشقق إليه الحديث من مسائل فيفيض ويشرح وجهة نظره ويسرد الأمثلة ويبسط الحجج في لهجة المتمكن القادر .

وعادت تطوف برأسه أحلام الزواج ؛ وعاد يتذكر ما تمنته له عمته تاتيانا ؛ فقد كان أجمل ما تمنته له أن يتزوج بفتاه عظيمة الثروة وأن يمتلك من رقيق الزراع أكثر ما يستطاع أن يمتلك ؛ ولكنه يرى أن مثل هذا الرباط لن يكون إلا بالحب ، وهذا ما لا يحس أنه انتهى فيه إلى رأى ...

وكان لا يزال يطمع أن يعينه بعض ذوى النفوذ والجاه من أقربائه أو أصدقائه علي أن يظفر بمنصب من مناصب الدولة ينعم فيه بالمال والجاه ، ولكنه لم يصل من ذلك إلى كل ما يريد ..

وكان قد صمم عند مجيئه إلى موسكو ألا يقرب الميسر وقد أوصته عمته أن يتحرر من هذه العادة المتلفة للمال الموبقة للروح ؛ ونفذ الفتى أول الأمر ما عقد عزمه عليه وابتعد عن الميسر كل الابتعاد كأنه أمر ينفر منه بطبعه ، ولكن ما كان أعجب عودته إليه بعد قليل يأمل من جديد أن يجد فيه مخرجاً مما هو فيه من عسر : ولعب ما وسعه اللعب وخسر خسارة كبيرة ، ولكن الخسارة لم تزده إلا إسرافاً فى اللعب وعدم اكتراث لما يكون للعب من عاقبة ، حلوة كانت وكانت مرة قاسية المرارة ؛ ولقد بلغ به الأمر أن رهن ساعته يوماً ليدفع ثمن معطف ذى فراء أراد أن يدخل على روحه بعض البهجة بلبسه والتنبل به وإن صفرت من المال يده ...

وضاق صدره بحياته على هذه الصورة وعزا هـذا الاضطراب إلى ضعف عزيمته . كتب فى دفتره يقول « إنى ألاحظ أن أهم عاطفتين تتسلطان على هما الميل إلى اللعب ثم الغرور » ، وراح يتهم نفسه كل يوم فى دفتره ويندم ما وسعه الندم ، وجعل لكل يوم من أيام الأسبوع فى دفتر آخر فضائل يؤديها وأخذ يشير بعلامة إلي ما قصر فى أدائه حتى لا يعود إلى التقصير في مثل ذلك اليوم من الأسبوع التالي ، ثم لاذ الفتى بالدين فزهد الحياة أياماً وصام وصلي وألف

دعاء يدعو به الله ليخرجه مما هو فيه ...

ولحت للفتى بارقة أمل ، لم لا يجعل الأدب حرفة له ؟ ألم تكن عمته تاتيانا على حق حين قالت له ذات يوم « إنى أعجب ياعزيزى ليو كيف لا تكتب رواية ولك مثل ما لك من خيال ؟ » .

وكان الفتى يقرأ القصص أكثر ما يقرأ ، ولم ينقطع عن القراءة مهما شغلته الشواغل أو ملأ حياته اللهو ، ولايزال إعجابه بروسو عظيما ، وكذلك لايزال يجعل لد كنز منزلة عظيمة فى نفسه ، أما الكتاب الروس فقد كان يقبل منهم على بوشكين وجوجول إقبالا شديداً ، وكان لثانيهما تأثير قوى فى خياله وعقله ، وبدأ يلتمع اسم ترجنيف وكان أكبر من تولستوى بعشر سنوات ، وقد نشر أول كتبه سنة ١٨٤٧ وهو «مذكرات رجل صيد» ، وكان لهذا الكتاب كذلك تأثير عميق فى خيال ليو ووجدانه ، وبخاصة ما أظهر مؤلفه في فنه القوى المحكم من حياة رقيق الأرض ... وقرأ الفتى لغير هؤلاء الكتاب كتب شلر وكتب ستيرن وغيرهما من فحول القصة والشعر .

وتصادف أن كانت قصة د كنز العظيمة دافيد كوبرفيلد تنشر يومئذ تباعا فى إحدى المجلات فأحدثت فى نفسه أثراً لم تحدث مثله قصة غيرها وظلت لها في نفسه المكانة الأولى حتى آخر حياته ...

وماذا عسى أن يكتب الفتى ؟ ذلك ماحيره أول الأمر حيرة شديدة ، أيصف حياة الغجر كما فعل بوشكين وإنه اليوم بهم عليم ؟ أيكتب قصة عمته تاتيانا ؟ لا ؛ إنه لا يميل إلى هذه ولا إلى تلك فماذا يكتب ؟ ليصف زيارته بالأمس لتلك الأميرة شيرباتوف التى ظن أنه يحبها ؛ وأقبل الفتى فوصف هذه الزيارة ، ولقد نشرت هذه القصة الصغيرة حديثاً بعد أن عثر عليها ، ورأى الناس أول عمل أدبى لنابغة كتاب القصة فى القرن التاسع عشر ، فإذا بهذه الباكورة تنطق بكثير من دلائل عبقريته ...

ويقول ليو فى دفتره « إن الوصف ليس كل شيء .. كيف ينقل المرء إلى القاريء شعوره ؟ » . قال ذلك لأنه كان قد اعتزم أن يجعل الوصف غايته من



تولستوى عند ما ترك الجامعة

الـكتابة فيصف كل ما تقع عليه عيناه .

ثم بداله وكان أثر دافيد كوبر فيلد قوياً فى نفسه أن يكتب أيام طفولته ، وانـكب على الـكتابة كل صباح من الساعة الخامسة إلى الحادية عشرة ، حتى أتم باكورة آثاره التى كتب لها الخلود .

ولـكن حياة اللهو وأسفاه تعود فتصرفه عن هذا الجد . فيقبل على لذاذاته ويسرف من جديد فى مجونه وعبثه ، ثم لا يجد آخر الأمر خيراً من أن يلوذ بضيعته من هذه الحياة التى سئمها وسئم نفسه بسببها فيعود إلى ياسنايا فى صيف عام ١٨٥١ ولم يتزوج من ذات ثراء ولم يظفر بمكانة فى المجتمع ولا بمنصب خطير من مناصب الدولة ، ولم يتحرر من الميسر ولا مما يوهن عزمه من نوازع بدنه القوى الذى لا تهدأ حيوانيته ...

وأقام فى القرية أياماً يخالجه شعور الندم على ما كان من عبثه الذى أسرف فيه على نفسه وشعور الحسرة على ما آلت إليه حاله من عسر ومن دين ، وينظر اليوم إلى هؤلاء الرقيق الزراع الذين أراد إصلاحهم بالأمس فيؤلمه أنه انقلب اليوم مبدداً لما تنتجه أيديهم من خير ؛ فلا هو أصلحهم ولا أفاد من كدهم إلا ذلك المال الذى يذهب هباء فى الميسر والترف والغرور والفسوق .

وينقاد إلى جموح بدنه فى القرية كما كان يفعل فى المدينة ، لا يهدأ هذا البدن ولا ينطفئ لهبه ؛ ولـكنه يشعر باشمئزاز شديد ذات ليلة إثر فعلة من فعلات الشباب فعلها تحت جنح الظلام ، وكأنما استيقظت فى نفسه مشاعر جديدة فى تلك اللحظة جعلته ينكر هذا الذى فعل إنكاراً شديداً كان أكثر قيمة من ذلك الندم الذى كان يخالجه كل مرة ثم لا يلبث أن يموت .

كره الفتى حياته كرها شديداً ، وضاق بالمقام فى ياسنايا وفى موسكو وفى بطرسبرج ، وما له غير الرحيل شفاء لنفسه ومنجاة لروحه ، فليرتحل إلى حيث لا يجد شيئاً يذكره بالذى كرهه أشـد الـكره وأنكره كل الإنـكار من مواطن مجونه وعبثه وفراغ حياته .

روسيا لا تزال فى الغسق

أهل على أوروبا نور القرن التاسع عشر وروسيا ما تزال في الغسق ؛ ولئن لاحت فى أفقها بشائر الفجر لحظة على يد قيصرها الإسكندر الأول الذى ولي أمرها فى أول أعوام هذا القرن فإنها ما لبثت أن علمت أنه الفجر الـكاذب !

كان الإسكندر يريد أن يوجه همه إلى النهوض ببلاده فى الداخل ، وقد اعتزم أن يجنبها ويلات الحرب فى الخارج ، ولـكن سرعان ما فطن أن طوفان الحرب لابد مدركه فحالف إنجلترة والنمسا وظاهرهما على نابليون ، ومن ثم ذهبت بشائر الفجر أباديد في حلـكة الليل العابس .

وما لبث أن ساق نابليون الجيش الأعظم ليذل به روسيا ؛ ولـكن حملته عليها كانت بداية نهايته ؛ ولما حمل بعد وترلو إلى سنت هيلانة ، أصبح القيصر فى القارة مرموق المـكانة عظيم الخطر .

ولـكن هذا الوضع الذى هيأته الظروف لروسيا فى سياسة القارة كان يتطلب رجلا غير الإسكندر ، فلقد حار هذا الرجل بين دعاة الرجعية وأنصار الحرية ، كما أضله زمناً تصوفه وحلمه اللذيذ الذى خيل إليه أن فى الإمكان أن تجعل أوروبا تسامح المسيحية أساس العلاقات الدولية ؛ وأخيراً تغلبت عليه سياسة مترنخ ، فصار من أكبر أنصار الرجعية فى القارة وفى روسيا ، وفقد دعاة الحرية أملا عللوا به أنفسهم برهة على يديه .

وأخذت أوروبا تقاوم الرجعية ، فـكانت تلوح بشائر النور مرة وتختفى مرة ، ولـكنها كانت ترى كل مرة أسطع منها فى سالفتها نوراً وأطول أمداً حتى ذهب الليل وانهل النور فأضاء كل ركن فى القارة ومحا كل ظلمة .

ولـكن ليل روسيا قائم قاتم وآفاقها عابسة دامسة ؛ وكان يدب تحت هذا

الليل نحو تسعة وأربعين مليوناً من الأنفس كلهم عبيد ومن هؤلاء زهاء ثلاثة وعشرين مليوناً تابعون للقيصر ، ومثل هذا العدد تابعون لملاك الأراضى ، وماتبقى بعد ذلك للكنيسة ، أو أوزاع وخدم .

ولم يك هؤلاء الملايين يملكون من أمرهم شيئاً . إذ كانوا في كل أمر خاضعين لمشيئة سادتهم لا ينتقلون من جهة إلى جهة غيرها ولا يمتلكون شيئاً أو يبيعونه إلا بإذن من هؤلاء السادة ؛ وهم فوق ذلك مكلفون بأن يؤدوا للسيد ما يطلب من المال ضريبة أو منحة وأن يعملوا مسخرين فى أرضه ، وللسيد إذا باع أرضه أن يبيعهم كما تباع القطعان والسلع ؛ وهو ينزل بهم ما شاء من أنواع العقاب كالجلد والحبس والنفى إلى سيبيريا .

وكان السادة الأرستوقراط يعيشون عيشة مترفة ، ولهم فى قصورهم كل ما فى الحياة الأوروبية من مظاهر النعيم ، فالموائد والحفلات الساهرة والأثاث والخدم علي اختلاف أعمالهم ومراتبهم كل أولئك على النمط الأوروبى ؛ وأخذت العادات وآداب المجتمع الأوروبي تتغلب علي عادات الروس وعرفهم فى هذه البيوت الأرستوقراطية التى تجعل قياس التمدن الأخذ بأكبر قسط من كل ماهو أوروبي حتى اللغة فإنهم فى هذا الوسط يتكلمون الفرنسية فى حفلاتهم التى تجمع بين الرجال والنساء وفق الأسلوب الأوروبى ...

وانحطت الحكومة ، فلا أمانة ولا عدالة ولا إصلاح ؛ وكانت وظائف الدولة لمن يدفع من المال أكثر مما يدفع غيره ، أو لمن كان له بذوى الجاه صلة ، وأصبحت الرشوة أمراً لا غرابة فيه ، وتفشت حتى تسللت إلى المحاكم دانيها عاليها ؛ ولم يكن للحكومة منهاج أو شبه منهاج للاصلاح ، وحسب رجالها في المقاطعات أن يجمعوا لأنفسهم المال بكل ما وسعهم من حيلة و واتاهم من بطش ...

وكان الملايين من الزراع أضعف من أن يشتكوا ؛ لهذا حملوا الآلام كما تحملها الدواب فلم يكونوا صابرين على حالهم و إنما لم تكن لهم فيه حيلة ! ولقد

كانت حال هؤلاء المساكين أسوأ كثيراً من حال المزارعين في فرنسا قبل ثورتهم الكبرى ، ولكن أولئك الفرنسيين كانت بينهم طبقة امتلكت وتعلمت وتأثرت بكتابة المفكرين والفلاسفة وهي الطبقه الوسطى ، ومن بين صفوف هذه الطبقة انبعثت الشكوى ثم رجفت بعد ذلك الراجفة !

أما في روسيا فلم يكن غير كبار الملاك وهم السادة وملايين الزراع وهم العبيد . على أن مقاومة الاستبداد في روسيا جاء على يد نفر من هؤلاء السادة المتملكين، الأمر الذي يبدو عجيباً لما فيه من تناقض ، ولكن للمسألة وجهاً يفسر هذا التناقض ، وذلك أن هؤلاء السادة لم يكرهوا الاستبداد ولكنهم كرهوا أن تعتمد الحكومة القيصرية على طبقة الموظفين والحكام ومعظم رجالها من عنصر ألماني ، وتهمل أعيان الروس رغبة في القضاء على طموحهم نحو التسلط ، ومن ثم رحب هؤلاء بكل شكوى تنبعث ضد القيصر وحكومته .

وثمة فريق آخر يعطف أشد العطف على كل رغبة في الإصلاح وهؤلاء هم رجال الجيش العائدون من فرنسا والقارة بعد سقوط نابليون وبخاصة الشبان ، فلقد امتلأت قلوبهم بآمال وأحلام ، وعادوا إلى روسيا آملين أن يطلع على بلادهم نور يزيح عنها هذا الغسق ، كما عاد لافاييت وأقرانه من شباب فرنسا الذين تطوعوا في صفوف الأمريكان في حرب استقلالهم إلى وطنهم يحملون مبادىء الثورة ويرتقبون الميلاد الجديد ...

وتسامع هؤلاء الرجال بالجمعيات السرية في القارة كالكاربونارى في إيطاليا والهيتيريا في اليونان ، فأسسوا لهم في روسيا رابطة الخير العام ، وجعلوها سرية بالضرورة ، وتفرع من هذه الجمعية فرع في الشمال كانت وجهته الملكية الدستورية ، وفرع في الجنوب كان لا يرى غير الجمهورية ، كما نبتت في الجنوب جماعة سرية أخرى جعلت منها جها ضم جميع السلاف في اتحاد عام .

ولكن هذه الجمعيات كانت كما وصفها أحد الكتاب « جيلا لا آباء له ولا أبناء » فظلوا لبعد أفكارهم ومبادئهم عن أذهان معاصريهم محصورين لا يكاد

نطاقهم يتسع ، ولم يأتوا عملا ذابال إلا فى سنة ١٨٢٥ فإنه لما مات الإسكندر ترك ثلاثة إخوة كان أكبرهم قسطنطين ولذلك فهو وارث الحكم ، ولكن الذى ارتقى العرش كان نيقولا بدعوى أن أخاه تنازل له عن حقه كما أراد القيصر المتوفى ، وأحيط ارتقاء نيقولا العرش على هذا النحو بشبهات فانتهزت الجمعيات السرية الفرصة ورفضت فرقة جيش موسكو أن تقسم يمين الولاء للقيصر الجديد ، ووقعت بعض القلاقل في الجنوب ، ولكن القيصر مالبث أن تغلب على هذه الحركة فى يسر وتعرف بحركة الديسمبريين لأنها وقعت فى ديسمبر من ذلك العام ، ولقى بعض أفراد الجمعيات حتوفهم ونفى البعض إلى سيبيريا . قال أحد زعمائهم عند إعدامه « لقد كان خطأى أني حاولت أن أجمع الحصيد قبل أن أبذر الحب » ، وقال آخر « لقد عرفت من قبل أن لا أمل لنا في النجاح كما عرفت أنه لابد أن أضحى بحياتى ! إن ساعة الحصاد آتية فيما بعد » .

ولقد كان الحصاد الذى يرجون هو الحكم الدستورى والمساواة لدى القانون وتحرير الزراع ، ولئن قضي عليهم اليوم فلم تذهب دماؤهم عبثاً ، وما يقدم عبثاً دم هو مهر للحرية الزهراء .

واشتدت حلكة الغسق فى عهد نيقولا الذى عرف منذ البداية بالصرامة القاسية ، وامتدت يد الطغيان إلى كل مكان ، فعلى كل ما يطبع من الكتب والصحف وما يرد منها من الخارج رقيب عتيد له من السلطان ما يمكنه من إلقاء أى شخص فى غيابة السجن أو نفيه بغير محاكمة ، والشباب سجناء في روسيا لا يسمح لهم بالتعلم فى أوروبا مخافة العدوى ، ورجال الشرطة السرية يبثون عيونهم فى كل ركن ، ولا يحد سلطانهم قانون ولا عرف ، ولا تقل آثامهم وفظائعهم عن فظائع محاكم التفتيش الإسبانية فى العصور الوسطى إن لم تزد عنها فحشاً وهولا ، والقيصر مهيمن متربع على عرشه يحسب سكون الناس رضاء وولاء أو لا يجرى فى حسابه شيء من عصيان أوولاء ...

ونسي القيصر أو لم يدر بخلده أن الحرية يعمل لها أعداؤها وأنصارها على سواء ، فأولئك يذيقون الناس لباس الذل والخوف ليزدادوا له مقتاً ويحتالوا على

النجاة منه ؛ وهؤلاء يذيقونهم الأمن والسلام ليلذهم طعمه ويحرصوا على الدفاع عنه

وينعم القيصر بالا بما يرى من هدوء ، ولكن دوى العاصفة يسمع من خارج روسيا لا من داخلها ، فها هى ذى حرب القرم تضعه وجيشه منذ سنة ١٨٥٣ تلقاء جيوش إنجلترة وفرنسا وتركيا مجتمعة ، ويتلفت القيصر باحثاً عن حماسة الروس فينقلب إليه البصر خاسئاً إذ أن كل ذى رأى فى البلاد ينقم على الجيش ضعفه ويعزو ذلك إلى ماشمل الحكومة كلها من فساد .. ويحرم الطاغية من الاحترام كما حرم من المحبة ، ويوشك أن يسمع دوياً آخر من داخل بلاده ؛ وأى دوى كان إذا مس أذنه أشد إزعاجاً له مما احتواه ذلك المخطوط الذى تداوله الناس فيما تداولوا من المخطوطات على غفلة من الرقيب والشرطة السرية . قال مؤلفه فيما قال « يقول القيصر : لقد جعلنى الله حيث أنا مهيمناً على روسيا فعليكم أن تنحنوا راكعين أمامى فإن عرشي هو كرسيه ، ولا تعنوا أنفسكم بالمصالح العامة فإنى أفكر من أجلكم وأسهر على مصالحكم كل ساعة ؛ إن عينى الساهرة تنفذ إلى المساوىء الداخلية وإلى مايعده لنا فى الخارج أعداؤنا ؛ وما أنا فى حاجة إلى من يشير على فإن الله يلهمنى الحكمة ، فافخروا إذا أيها الروس بأنكم عبيدي واجعلوا مشيئتى قانونكم .

ولقد أنصتنا معشر الروس إلى هذه الكلمات فى خشوع عميق وسلمنا بها طائعين . فماذا كانت العاقبة ؟ كانت عاقبة ذلك أن دفنت المصالح الحقيقية تحت جبال من أكداس الأوراق الحكومية ، وصار يُستمسك بحرفية القانون فى كل ما يصدر منا ، بينما يترك الإهمال والجريمة بغير عقاب إذا جاءت من أعوان الحكومة ، هؤلاء الذين يتمرغون فى التراب أمام الوزراء ثم يسرقون فى غير حياء ... لقد باتت السرقة أمراً مألوفاً حتى أصبح أكثر الناس احتراماً أكثرهم سرقة ، وصارت تقرر كفايات الضباط بمجرد النظر ، وإذا حصل شخص على منصب قائد فإنه فى نفس الوقت يمكن عده حاكماً قديراً أو مهندساً ممتازاً أو سياسياً حكيما . وإن هؤلاء الذين يختارون حكاماً فى الجملة هم طغاة حقاً يوكل إليهم عذاب الناس فى الأقاليم ، وكذلك تملأ المناصب الأخرى دون أقل مراعاة

للاستحقاق ، فسائس الخيل مثلا يعين رقيباً للمطبوعات ! والماجن الأحمق من حاشية القيصر يعين أميراً للبحر !... وماذا صنعنا نحن معشر الروس طوال ذلك الوقت ؟ لقد نمنا !.. أدى الفلاح مافرض عليه وهو يئن ورهن المالك نصف ضيعته وهو يئن ، وأدينا جميعاً ما يطلب منا لرجال الحكومة ونحن نئن ، ولقد هززنا رؤوسنا أحياناً فى جد هامسين إن هذا عار وهوان ، كما تهامسنا أن لا عدل فى ساحات العدل ، وأن الملايين يقضون حياتهم عبثاً فى سبيل تمتع القيصر بسياحاته وجواسق حرسه ومبانى أبهته وسرادقاته ، إن كل شيء حولنا خطأ ، ومع ذلك فأنا بضمير هادىء يشاغب بعضنا بعضاً ليحظى بالتقدم خطوة لُيلحق بهذه الخدمة التى نمقتها كل المقت ... فإذا صاح أحد بنا بغتة فى هذه الغفلة الشاملة أن أفيقوا وجاهدوا فى سبيل الحق وفى سبيل روسيا فما أعظم ما يبدو لنا من سخفه ، ثم إنه يتعلم فى سجن مظلم فى سيبيريا أى إثم عظيم ارتكبه بمحاولته إقلاق ما يغط فيه من نوم عميق الغافلون من العبيد .

ولكننا مع هذا كله كان لنا عزاء واحد ؛ أمر يحق أن نفخر به وذلك هو قوة روسيا ؛ وها نحن أولاء وا أسفاه بعد تفاخرنا قد أخذنا على غرة وأحيط بنا ونحن غافلون ... أفيقي ياروسيا ! التهمك الأجانب من أعدائك وحطمتك العبودية ، واضطهدك واخجلاه الحمقى من ذوى السلطة ومن الجواسيس ... أفيقى من نومك هذا الذى امتد فى جهل وغفلة ، وقفى ثابتة هادئة أمام عرش الطاغية واسأليه أن يقدم حساباً عن الكارثة القومية » .

وكان رجال الحكومة يشعرون أن كثيراً من الأنظمة القائمة يومذاك إنما تقوم على ما يحسه الناس فى أنفسهم من اطمئنان إلى قوة القيصر أو قوة الدولة ، فلما سقط حصن سباستبول زلزلت القيصرية زلزالا عنيفاً ، حتى لقد تناثرت الإشاعات أن القيصر نيقولا حين قضى نحبه إنما مات منتحراً . ولقد كان حكم ذلك القيصر الذى حكم روسيا ثلاثين سنة أشبه بظلمة الليل إذا تشتد حلكته قبيل الفجر ، وكان لروسيا آخر عهدها بالظلمة ، فلما مات تنفست الصعداء ، وتلفتت تتلمس مطلع النور .

خيوط من النور

لئن اشتدت حلكة الليل فى عهد نيقولا ، وأحاطت بالناس المخاوف مما كان يتهددهم من المهالك ، فإن خيوطاً من النور برغم ذلك كانت تتراءى على الأفق فتكون لأنفس الأحرار أنساً وشفاء وعزاء .

حالت القوة بين الروس و بين أى عمل يتصل بالسياسة ، فقام الفكر والأدب مقام العمل ؛ ولكن أى فكر هذا وأي أدب ؟ وكيف يتسنى له أن يخرج من الرؤوس ، وكيف تتجاوب به نفوس الأحرار والرقيب من ورائهم محيط ، وسلطته لا يحدها قانون ولا تقومها نصفة ؟ ليس غير الفن ينفس به الأحرار عن أنفسهم ؛ وقد اختاروا من صور الفن : القصة والشعر والموسيقي ... وراحوا يهمسون بهذا الفن همساً سوف يكون له فى روسيا دوى عظيم .

كانت القصة الروسية على حد تعبير أحد الكتاب « صرخات من فوق خشبة الصلب » ، ولكنها كانت صرخات القوى الذى أنطقه الألم الهائل على رغمه ، لا صرخات الخائر الذى يستعطف و يبكى ...

ولما كانت القصة فى مقدمة الوسائل التي عبر بها الروس عما في نفوسهم ، فقد برعوا فيها براعة جعلت الكثيرين من فطاحل النقد في أوربا يسلمون لروسيا بالسبق فى هذا الميدان ، فعندهم أن فن القصة بلغ أوج كماله فى القرن التاسع عشر فى روسيا ، فقد سبق الروس فى هذا القرن أساتذتهم من الفرنسيين والانجليز والألمان حتى غدوا هم الأساتذة ، وأحدثوا فى هذا القرن أثراً بعيداً فى فن القصة في هذه الأمم الثلاث وفى غيرها ممن نقلوا القصة الروسية إلى آدابهم ...

وليس بعجيب أن ينبغ الروس فى هذا النوع من القصة ، فأمام غيرهم مجال القول متسع فى غير هذا الفن ، ولكن الروس اضطروا أن يظلوا على القصة

تا كفين زمناً طويلا فتهيأت لهم أسباب التفوق ، وتعددت فى القصة مذاهبهم وأساليب تعبيرهم ، واتضحت هذه المذاهب واستقرت ، وطُوعت هذه الأساليب وأسلس قيادها .

كان على كتاب القصة أن يخلقوا وسيلة بها يتكلمون ولـكن على ألا يفطن إلى ما يريدون المنصتون من الحـكام والرقباء ، وكانت القصة فى ذاتها كعمل فنى خير معين لهم على ذلك ولـكنهم أضافوا إليها ما أضافوا من صور الوصف فأبدعوا تصوير ما كانوا يريدون تصويره من مشاهد الحياة وآلامها ، وألوان العواطف الإنسانية وخلجاتها ؛ ولقد أدى بهم هذا إلى أن يسلـكوا وإن لم يقصدوا ، مذهب الفن للفن، فلم يدعوا إلى شيء إيجابى أو يقترحوا علاجاً لداء ؛ وإنما اكتفوا ، أو اضطروا فى الحق أن يكتفوا ، بتصوير الحياة الروسية كما هى بما فيها من خير وشر ، ومن هنا كذلك كان المذهب الواقعى هو الغالب فى القصة الروسية .

وكان ما أتقنوه من وصف أعلى فى الآذان صوتاً وأعمق في النفوس أثراً من كافة صور التعبير التي أتيحت لغير الروس ، من فلسفة ومقالة ومحاضرة وبحث ، وتلك هي ميزة الفن عامة وفن القصة خاصة وقد بلغت أقصى مايبلغه الفن كأداة للتعبير على أيدى أساطين القصة الروسية .

وثمة صفة أخرى للقصة الروسية ، وتلك هي انطواؤها على كثير من التذر ، ويشاركها فى ذلك الشعر إلى حد كبير ، حتى ليمـكن القول إن الأدب الروسي فى القرن التاسع عشر كان أكثر من أدب أية أمة تنبؤا بالمستقبل المخيف ؛ بل لعل هذا التنبؤ هو خاصته التى مازته من غيره ، فهو نذير للناس بالهول والبلاء والشر المستطير ، وقل أن كان بشيراً بشيء إلا بما يفهم مما يتضمنه هذا الشر المنتظر من معنى الثورة التى تذهب بالمساوئ القائمة وتفتتح فى تاريخ البلاد عهداً جديداً ..

ولقد كان الأدب الروسي فى الواقع لهذه العوامل المحيطة به أدباً ثائراً ؛ لا بما كان ينذر به من هول فحسب ولـكن بما كان يصف من سوء الحال ، فإن ذلك

الوصف على ما يبدو من هدوئه كان متنفساً للنفوس مما كانت تنطوى عليه من ثورة ، أو كان شكاة وأنيناً أو « صرخات من فوق خشبة الصلب » .

والفرق واضح بين هذا الأدب الروسي و بين أدب فرنسا قبيل ثورتها الكبرى على أيدى فلتير وروسو وديدرو وأضرابهم ، فقد تفلسف أولئك الفرنسيون وسخروا و بينوا سبل الخلاص وواجهوا المسائل السياسية والاجتماعية والاقتصادية مواجهة مباشرة فكانوا فى الغالب فلاسفة مفكرين ، ولكن الروس صوروا فحسب ، فلم يبينوا لنا المعايب الاجتماعية وأسبابها وشقاء العيش وعوامله ، و إنما خلقوا لنا أناساً أشقياء يتألمون وتفدحهم كوارث الحياة ولا يدرون ماذا يفعلون .

ولقد أحدث هذا الأدب أثره العميق فى النفوس على الرغم من الرقابة والرقباء ، حتى انتهى الأمر إلى ثورة نفسية جارفة كانت فى الواقع من صنع الفن وحده ؛ وليس فى هذا الذى نذكر شىء من الغلو ، فبالفن لا بالأفكار المجردة ، ولا بالدراسة المباشرة لمشكلات روسيا ، هدم أدباء الروس صرح العهد القديم ، وعلى ألسنة أشخاصهم التى خلقوها ، وفى ميول هذه الأشخاص ونزعاتها وحركاتها ، عبر الكتاب عما يريده كل روسى وأفصحوا دون أن يقولوا قولا صريحاً ، عما كان يشغل الأذهان من آراء فى الاجتماع والسياسة والاقتصاد ما كان ليسمح بها الرقيب .

وفى الأدب الروسى جانب روحى أكسبه صفة إنسانية عامة ، بها وجد سبيله إلى قلوب الناس فى كل أمة ؛ وهذا الجانب الروحى فيه هو محاولة الوصول إلى خلاص للانسان عامة من شرور الحياة وشقائها ، وتوقعه حياة أخرى أسمى من هذه الحياة ، ومرد ذلك فى الواقع إلى هول ما عانى الروس من ظلم وما ذاقوا من ألم وشقاء . ومن عجب الأمور أن كثيراً من الأدباء الروس على ما بلوا من شرور الحياة حولهم وآثامها ، كانوا يؤمنون فى كتاباتهم بالخير وأنه هو الأصل فى الإنسان ، وأن الشر يأتيه من الحياة وملابساتها ، فكان هؤلاء الأدباء متفائلين مع ما كانت تريهم الحياة من دواعى التشاؤم .

وكفر أدباء روسيا بمدنية الغرب وثقافة الغرب ، فلم يروا أنهما حق كلهما ،

وإنما أحسوا فيهما بكثير من صور الباطل ؛ وارتابوا فى كثير من المبادئ التى أخذ بها العالم الغربى واطمأن إلى استقرارها وصلاحيتها لتقدم العمران والسمو بمستوى الحياة ؛ وساورهم كثير من القلق فيما عسي أن تفضى إليه هذه المبادئ من كوارث قد تطيح بها وبمدنية الغرب جميعاً ، وقد أضاف هذا الكفران بمدنية الغرب وثقافته إلى الأدب الروسى والقصة الروسية نغمة ارتاحت إليها النفوس القلقة ، وزادت هذه النغمة ثورة هذا الأدب ظهوراً ، وجعلت له خطراً كبيراً في تاريخ الفكر البشرى ...

وأدى هذا الكفران بمدنية الغرب ومبادئ المجتمع الغربى إلى اتساع أفق الأدب الروسى ، فبات يتعمق النظر فى مسائل الحياة والموت وما عسى أن يكون وراء هذا الكون العجيب من أسرار ود الأدباء لو استطاعوا أن يهتدوا إلى شيء منها ، وقد صبغ هذا الاتجاه الأدب الروسي بصبغة دينية صوفية لا مثيل لها فى أدب الغرب ...



كان الشعر أسبق من النثر فى هذا القرن ولذلك حق أن نتكلم أولا عما كان للشعر من أثر فيما نحن بصدده ، وقد تجلى هذا الأثر فى شعر شاعرين كانت لهما أو على الأصح كانت لأولهما زعامة الشعر الروسى الحديث وهما بوشكين وليرمونتوف . وقد ولد أولهما سنة ١٧٩٩ ومات فى الشهر الأول من سنة ١٨٣٧ وولد ثانيهما سنة ١٨١٤ ومات سنة ١٨٤١ .

وتمثلت الروح الجديدة في حياة بوشكين وفى شعره ، ولقد كان لهذا الشاعر الفذ الذى مات في الثمانية والثلاثين من عمره ، أعمق الأثر فى الأدب الروسى في القرن التاسع عشر ...

يعد بوشكين بحق أحد عباقرة الشعر فى جميع عصوره وعلي اختلاف بيئاته ، فقد خلق موهوباً كما يخلق أفذاذ هذا الفن وفحوله فله قوة الشعور وعمق الفكرة وحدة الإحساس وسمو الروح وحرارة الأيمان وجمال النفس ، وله إلى

جانب ذلك الأداة الطيعة من التعبير الجميل القوى والموسيقى الرائعة الحلوة .

على أن ما يعنينا هنا هو أثر فنه لا قيمة ذلك الفن ؛ ولقد كان أكبر تأثيره فى حياة قومه بما تغنى به من أغانى الحرية ، تلك الأغانى التى هزت النفوس هزاً.

تأثر بوشكين بشاعر عظيم متمرد ثائر هو اللورد بيرون الذى قضى نحبه سنة ١٨٢٤ فى حصار مسولنجى مصاباً بالطاعون ، وقد كان يدافع مع المدافعين عن حرية اليونان ، وأعجبت بوشكين حمية بيرون كما أعجبته طريقته في الشعر ، وكان من أبرز خصائص بوشكين أنه يتمثل آثار غيره ويتأثر بها ولكنه لا يفقد أصالته ، ولذلك فقد احتفظ بروحه الروسية وإن اصطنع أسلوب بيرون .

تغنى بوشكين بعظمة روسيا وقوتها وكان يعد بطرس الأكبر بطلها الفرد ، وغنى بمثل البكاء حياة فلاحيها وشقاءهم ، وكان شعره مليئاً بالنذر ، فكان منذراً للطاغين ، مبشراً بحرية سوف تنعم بها روسيا بعد طول الأسر والعذاب ، تجد ذلك فى قوله « إنا منتظرون ، وقلوبنا المتلهفة تخفق بالأمل فى الحرية المقدسة كما ينتظر العاشق الشاب ساعة لقائه بفاتنته » .

وتأثر بوشكين كذلك بمبادئ الثورة الفرنسية ، وكان صديقاً للديسمبريين ولكنه كان قد نفى إلى ضيعة أمه قبيل حركتهم فلم يشارك فيها ، ونجا بذلك من الموت لينظم لروسيا خير ما أخرجت من شعر ، وليوقظ مشاعرها ويطبع أدبها بطابعه ، وليكون شعره حداءها المتلئ بالأمل والسحر .

وكان حول بوشكين عدد من الشعراء ، كان ليرمنتوف الذى بدأ ينظم الشعر من سن الرابعة عشرة أبرزهم وأقواهم موهبة ، وقد تأثر هذا الشاب الشاعر ببوشكين أولا ثم بشلر ، وأخيراً باللورد بيرون ذلك الذى أحبه ليرمونتوف حباً كاد ينسيه كل شاعر غيره حتى بوشكين نفسه .

وكان ليرمونتوف فى شعره منذراً أكثر مما أنذر بوشكين ، وقد أذاع قصيدة غفلاء من اسمه سنة ١٨٣٠ تنبأ فيها بالثورة ، حتى ليعجب من يقرأها بعد الثورة البلشفية من صحة نبوءته ؛ فكأنما كانت تتكشف له حجب الغيب؟ وتغنى ليرمونتوف



بوشكين

بالحرية كما تغنى بوشكين ، وكان ينظم الشعر فى يسر فيجئ قوياً متدفقاً كالسيل ولـكن الموت لم يمهله لتمد موهبته غاية مدها فمات وهو فى السابعة والعشرين ... على أنه قبل وفاته بسنة أخرج قصة نثرية سنة ١٨٤٠ تعد أول قصة تحليلية فى الأدب الروسي الحديث وهى القصة المسماة « بطل من أبطال عصرنا » ولذلك يعد هذا الشاعر الفذ طلعة فى فن القصة

* * *

ونعود بالحديث إلى القصه فنجد أن الـكاتب الذى يعـد مقامه فى القصة كمقام بوشكين فى الشعر هو جوجول المولود سنة ١٨٠٩ والمتوفي سنة ١٨٥٢ ؛ وليس معنى ذلك أنه لم يوجد قبل جوجول قصصى ، وإنما نقصد أن جوجول كان رائد القصة الروسية في القرن التاسع عشر وكان زعيماً من أكبر زعمائها غير مدافع ...

قام فن هذا القصصى الموهوب على أساس السخرية من المعايب الاجتماعية فى عصره ، ولم تكن سخريته سخرية نفس هادئة تعطف على ما تخلق من الشخصيات ، وترفق بهم ، وتضحك مع الضاحكين ، كسخرية شارلزدكنز مثلا ، وإنما كانت سخرية عنيفة هدامة تبرز المعايب عن سخيمة ونقمة ، كأنها سخرية شيطان يلهو بزلة فريسة من فرائس غوايته

كان يؤلم جوجول أن يرى روسيا وقد ذاع فيها الشر والفساد والباطل ، وماتت فيها روح العدالة والخير ، وكان يقول دائماً إنها ممتلئة بالأقنعة الـكاذبة حتى ماتقع العين على آدمى واحد فيها ، والحق أنه قلما اطمأن إلى وجود شىء من الخير فى الحياة الروسية فقد استشرى الشر فى رأيه حتى لم يدع للخير مجالا ...

وقد أنتج جوجول عدداً غير قليل من القصص والصور الاجتماعية ويهمنا فيما نحن بصدده ثلاثة منها هى « المفتش العام » و « الأنفس الميتة » و « العباءة » أما القصة الأولى فهى ملهاة تهكمية تدور حول نبأ أذيع بأن مفتش الحـكومة العام قادم للتفتيش فى مدينة من مدن الأقاليم ، ولما كان المفتش غير معروف فقد

أخذ الموظفون مسافراً من المسافرين على أنه المفتش المرهوب الجانب ، فأكرموا وفادته ومشوا بين يديه بالزلفى وأعطوه المال والهدايا ، ولما رأى ذلك المسافر أنه قد أخذ منهم كل ما استطاع أخذه من المال فر هارباً ؛ و يسدل الستار عقب إعلان أن المفتش الحقيقي قـد وصل فعلا ! ؛ ولقد أحدثت هذه الملهاة ضجيجاً كبيراً وأثارت من حنق الحكومة على مؤلفها ما اضطره إلى مغادرة روسيا إلى إيطاليا حيث أتم قصته الكبرى « الأنفس الميتة » .

تعد هذه القصة الثانية من أعظم الآثار في أدب أوروبا جميعاً ولم تـكن لها عقدة معينة أوحكاية غرام ، وقد أتمها جوجول فى عدة سنوات، وفيها سخر أشد السخرية من كل ما عده معيباً فى الحياة الروسية ، وتهزأ بمن ساء من الأشخاص الذين صور أمثلة لهم فى قصته الكبرى ، وقد نفذت عيناه نفاذاً عجيباً إلى كل معيب شائن فى جوانب تلك الحياة و إلى كل وضيع مرذول من صور الناس وأنماطهم ، لم يغادر شيئاً من ذلك إلا أحصاه ..

ولو أراد النقاد أن يعدوا عشرة كتب في فن القصة لها أثرها فى توجيه هذا الفن ، ولها خطرها فيما تقاس به رسالة هذا الفن لـكان كتاب جوجول « الأنفس الميتة » أحد هذه الكتب العشرة بلا جدال ، فهو فيما تواضع عليه نقدة الأدب أعظم ملحمة للضعة الآدمية فى أدب العالم كله ، وذلك حسب مايفهم من معنى الملحمة كعمل فنى ، وليس كما قد يذهب إليه الذهن من معنى المعركة . فما فى القصة معركة ما ، و إنما نقصد معنى الملحمة كما تسمى ملهاة دانتى المقدسة ، أعنى أنها عمل أدبى شامل يحيط بكل شىء مما هو منه بسبب ...

و بطل هذه القصة التى هى فى الواقع مجموعة فصول أقوى مثال للصعلوك الذى لا يكترث لشىء والذى لا يتأثم من شىء ، والذى يرضى كل الرضاء عن أعماله جميعاً لا يشعر بأى أثر فى نفسه مما يسميه الناس وازع الضمير ؛ وفكرة القصة الرئيسية التى تدور حولها حوادثها هى أن هذا الصعلوك المسمى شيشكوف قد اعتزم أن يشترى من ملاك الضياع من يموت من رقيق الأرض قبل أن يسجل فى سجل

الموتى اسمه ، لكى يرهن هؤلاء للمصرف على أنهم أحياء ويربح من وراء ذلك ربحاً كبيراً ؛ وينتقل من مالك إلى مالك يتواطأ معهم على الإقرار بوجود هؤلاء الرقيق ، وفى أثناء ذلك يصف المؤلف حال هؤلاء التعساء الذين يقول عنهم إنهم لا يحيون كما يحيا الخلق وإنما يوجدون فحسب ! وكان هؤلاء الرقيق يسمون فى روسيا وقتذاك الأنفس وكان الواحد يسمي نفساً ، فإذا سأل أحد الملاك صاحبه عن عدد رقيقة قال له كم نفساً تمتلك ، ومن هنا جاء اسم القصة « الأنفس الميتة » والقصة مليئة بتلك السخرية القاسية وذلك الضحك الشيطانى الذى يتميز به فن جوجول ...

ونشر جوجول فى نفس الوقت الذى نشر فيه « الأنفس الميتة » قصة كان لها أثرها فى النفوس ؛ وهى ثالثة ما أشرنا إليه من قصصه ، ألا وهى قصة «العباءة» أو « المعطف » أو ما يؤدى معنى الرداء الخارجي الذى يلبس فوق الملابس جميعاً اتقاء للبرد ، وخلاصة هذه القصة أن أحد الكتبة الفقراء وهو شيخ ضعيف كانت أعظم أمنية له أن يشترى معطفاً ، فما زال على خصاصته يقتصد من ماله القليل حتي اشتري المعطف المنشود ، ولكنه منى فى أول يوم فرح فيه بمعطفه بفتية من صعاليك الشوارع سرقوا منه المعطف فقضي نحبه من فرط غمه ويأسه ، والقصة على بساطة موضوعها تصف البؤس والشقاء وسوء الحظ أقوى تصوير وأصدقه ..

ولجوجول كما أسلفت القول غير الذى ذكرت كثير من القصص الطويلة والقصيرة والمسرحيات والنبذ الوصفية وما إليها ،وإنما اخترت هذه القصص الثلاث لأنها أكثر صلة بما نريد بيانه وأعنى به كيف عبر أدباء الروس بالفن عن ثورة نفوسهم المكبوتة .

وهكذا كان بوشكين وجوجول ومن دار حولهما من النوابغ يلقون على الأفق الحالك في حكم نيقولا الأول خيوطاً من النور كانت لأنفس الأحرار أنساً وشفاء وعزاء ...

* * *

بقيت بعد ذلك كلمة عن تيارين فكريين قوى ظهورهما في عهد نيقولا وأعنى بهما المدرسة الشرقية والمدرسة الغربية ، أو بعبارة أخرى الاتجاه نحو أوروبا والإبقاء على سلافية روسيا ..

وكانت المدرسة الشرقية أو السلافية تؤمن بأن مدنية روسيا غير مدنية أوروبا، وأن على الروس أن يحذروا ماديه الغرب الوضيعة وأن يعودوا إلى تلك الجماعات التعاونية التى أقامها السلاف الأقدمون فى قرى روسيا ؛ وكان قادة هذه المدرسة يعتقدون أن بطرس الأكبر لم يخدم روسيا بقدر ما أساء إليها بمحاولته صبغها بالصبغة الأوروبية ، وكذلك كان أنصار السلافية يعدون الغرب فى طور انحلاله لأنه بعد عن الجانب الروحى من الحياة ، ذلك الجانب الذى اتصفت به روسيا السلافية والذى يجب أن يعيده الروس اليوم سيرته الأولى فينعموا بالإيمان والمحبة والتعاون فيما بينهم ، ثم يذيعوا هذه المبادئ حتى تشمل الإنسانية جميعاً فيكون ذلك رسالة روسيا إلى العالم .

أما أنصار المدرسة الغربية ، فكانوا يعزون ما فى روسيا من شقاء العيش وطغيان الحكام إلى عزلتها عن أوروبا وفلسفة أوروبا وعلم أوروبا وثورات أوروبا فإذا أرادت روسيا أن تخرج مما هي فيه فعليها أن تأخذ بمدنية أوروبا فى كل شيء فهذه سبيلها التي لا سبيل لها غيرها .

ومهما يكن من خلاف بين المدرستين فقد أفادت روسيا من دفاع كل منهما عن وجهتها ، وكان لها من خلافهما يقظة ، وبخاصة لأن هؤلاء المختلفين قد اتفقوا على أمر جوهرى ، وذلك أنه فى أى الوضعين لا يرجى لروسيا خير إذا أسلم أمرها إلى رجل واحد يستبد فيها بالأمر ، ويصرف شؤونها كما لو كانت ضيعة من ضياعه .

هذه لمحة إلى الحال الأدبية فى روسيا حتى أواخر حكم نيقولا الأول أى حوالى سنة ١٨٥١ عندما بدأ الفتي ليو تولستوى يتجه فى جد إلي الأدب ليغدو بعد أمد غير بعيد أعظم كتاب القصة فى القرن التاسع عشر ، لا فى روسيا وحدها بل فى أوروبا جميعاً .



جوجول

هجرته إلى القوقاز

كان لا بد للفتى من هجرة إلى بلد ما فقد ضاقت نفسه بيسنايا و بموسكو و ببطرسبرج جميعاً ، ومل حياته بين العبث والإسراف فيه ، والندم والركون إليه حتى لم يعد يطيق شيئاً من هذا ، بل إنه لم يعد يصبر حتى على التفكير فيه ...

واتفق أن جاء من القوقاز أخوه الضابط نيقولا إلى ياسنايا فى إجازة عيد الميلاد فنصح لأخيه نصحه فى كثير مما كان يشغل باله ، ومن ذلك أن يدع الزواج حتى يطمئن إلى ارتباطه برباط الحب ،ثم حبب إليه أن يصحبه إلى القوقاز فما أسرع ما أخذ ليو برأى أخيه وتأهب للرحيل ... واتفقت الأسرة أن يصرف زوج أخته أمور ضياعه فى غيابه وأن يدفع عنه ديونه وذلك على أن يقنع ليو بخمسين ومائة جنيه كل عام حتى يؤدى الدين كله ، وقبل ليو هذا الشرط وسافر فى صحبة أخيه .

ووقفت بهما العربة عند أول محطة على بعد أربعة عشر ميلا فماراعه إلا كلبه الأسود المحبوب قد أقبل يلهث من شدة الحر ومن سرعة العدو حتى لحق به ، وعلم بعد ذلك أنه كسر لوحا من زجاج إحدى نوافذ الغرفة التى كان محبوسا بها وانطلق يعدو ليدركه لأنه لم يطق أن يرحل عنه .

ويذكرنا هذا الرحيل برحيل « تشايلد هارولد » أو اللورد بيرون حين اضطر إلى مغادرة إنجلترة إذ ضاق بها وضاقت به بعد أن أسرف على نفسه فيما أنكره المجتمع منه ، وقد وجه بيرون الخطاب إلى كلبه في أول قصيدته التى وصف فيهارحلته هذه يقول إنه لايجد من يأسف على رحيله حتى كلبه هذا فلسوف ينساه وينكره حتى ليثب عليه ويعضه إن قدر له أوبة من غربته

كانت رحلة بهيجة سارة ، فقد قطعا جانباً منها إلى استراخان فى زورق على صفحة الفلجا ، وقد عرجا على موسكو وقازان وقضيا بضعة أيام فى كل من

المدينتين ، وكتب ليو من موسكو إلى عمته تاتيانا يخبرها فى لهجه الفخر أنه استطاع أن يقهر نفسه حين زار ناحية الغجريات ، ويصف لها مقدار ما بذل من مغالبة منه لنوازع نفسه حتى أمكنه أن ينتصر بعد جهد بالغ ...

وفى قازان قابل تلك الفتاة التى عرفها منذ نحو خمسة أعوام صديقة لأخته مارى وأحس يوما بميل شديد نحوها وهى زنايدا مولستفوف ، ولقد أحس أنه على الرغم من تلك الأعوام الخمسة لم يزل بها متعلقا . قال فى يومياته بعد ذلك بشهرين « لم أفه بكلمة من كلمات الحب ، ومع ذلك فقد كنت واثقا أنها كانت تدرك مشاعرى ، ولئن كانت بادلتنى إياها فذلك لأنها كانت تفهمني .. كانت صلاتى بزنايدا يومذاك لا تعدو تلك المرحلة البريئة ، مرحلة انجذاب روحين كل منهما نحو الأخري؛ أيداخلك الشك فى أنى أحبك يازنايدا ، إن كان الأمر كذلك فإنى أسألك الصفح فإن الخطأ خطأى إذ كان على أن أؤكد لك ذلك بكلمة.. أتذكرين حديقة كبير القساوسة يازنايدا وممرها الجانبى ؟ كان على أسلة لسانى ما أفصح به عما فى نفسى كما كان على لسانك ، ولكن كان على أن أكون أنا البادئ ؛ أتدرين لماذا فكرت ثم لم أقل شيئاً ؟ ذلك لأننى كنت من السعادة بحيث لم يبق ما أرغب فيه ، وخشيت أن أفسد لا هناءتى وحدى بل هناءتينا .. وسيبقى هذا اللقاء أعز ذكرى إلى نفسي حتى نهاية حياتى » .

غادر ليو قازان إلى القوقاز مستمتعاً بصحبة أخيه ، مبتهج النفس بما تركة فيها لقاء زنايدا ، مرتا حا إلى ما يهجس فى خاطره من أنه انطلق من حياة العبث انطلاقا لا رجعة فيه ؛ ويجد القارئ وصفا لهذه الحال النفسية فى شخصية أولينين بطل قصة « أهل القوزاق » التى كتبها بعد ذلك ، وكان أولينين كذلك مسافراً قال « فى مثل هذه الحال العقلية السعيدة التى يحدث فيها نفسه فجأة شاب يستشعر أخطاءه الماضية قائلا إن ذلك لم يكن حقيقياً ، فكل ما حدث فى الماضي كان عرضا عديم الأهمية ، وإنه حتى ذلك الوقت لم يكن حاول محاولة جدية أن يعيش ، ولكن حياة جديدة بدأت تتهيأ له أسبابها ، حياة لا شىء فيها

من خطأ ولا من ندم ، فليس إلا السعادة . وكان من الأمور البينة أن تلك الأخطاء لن تعود بين الجبال ومساقط المياه والأخطار والشركسيات الحسان » .

وجد المسير بهما جده حتى بلغا ستارى يورت فى القوقاز وأقاما فى خيمة أول الأمر وأعجب ليو بمنظر الرواسي الشامخة من الجبال ، وكان لايفتأ يقلب عينيه فيها و يتأمل فيما يبعثه منظرها من رهبة فى نفسه ، وكتب إلى عمته تاتيانا يصف لها تلك الأطواد فى نشوة وحماسة ، و يشرح لها البيئة التى سوف يقضى فى قراها قرابة ثلاثة أعوام؛ و إن المرء إذ يقرأ ما جاء فى قصة « أهل القوزاق » من وصف للجبال ليتملكه العجب من روعة ما جاء فيها من وصف ، ومرد ذلك الوصف البليغ الساحر إلى معيشته سنين فى سفوح هاتيك الجبال الشاهقة ...

ولم يكد يمضي أسبوعان عليه فى ستارى يورت حتى عاد إلى إحدى عاداته السيئة التى كم اعتزم أن يطلقها ألا وهى الميسر ، فجلس يلعب ذات ليلة فخسر فى هذه الجلسة خمسين وثمانمائة روبيل أو ما يساوى سبعة وعشرين ومائة من الجنيهات ، وكدرت نفسه هذه الخسارة لاريب ، وكدرها كذلك عودته إلى هذا الذى طلب الهجرة ليتخلص منه وهو من أرذل نزعات نفسه ؛ ولكن الندم عقب ذلك أخذ يتغلغل فى أعماق نفسه . وآية ذلك أنه استطاع ألا يقرب الميسر بعد هذه الليلة ستة أشهر كاملة ، كان يقضي فيها أوقات فراغة فى الصيد والكتابة والقراءة « وتعقب حسان القوزاق » ..

ولفت إليه ببسالته القائد العام فى تلك الجهة للجيش الروسى وذلك أثناء تطوعه ذات مرة فى حملة على بعض القبائل كانت مهمة ذلك الجيش هناك مطاردتها ؛ وقد اقترح القائد أن يلحقه بالفرقة ليكون أحد رجالها ؛ ووقع ذلك من نفسة موقعاً حسنا ، ولعله تخيل لنفسه ما تخيله أولينين بطل قصتة من البسالة والقوة ، وحلم كما حلم أولينين بأن يكون قاهر القوزاق و بأن يعزى إليه وحده الفضل فى إخضاع القبائل الثائرة هناك .

وأرسل إلى تفليس ليمتحن هناك نوعا من الامتحان يهيئه النجاح فيه للالتحاق

بالجيش ، ورأى فى تفليس ما يشبه الحياة فى قازان لحن إلى حياة المدن بعد تلك الأشهر التى قضاها فى القري والأماكن البرية وأوشك أن يعقد النية على أن يعود أدراجه إلى موسكو ، وصار يحس أنه يحيا في تلك القرى حياة أشبه ما تكون بحياة المنفي ...

وظل فى تفليس أياما يستمتع بمثل ما كان يستمتع به فى موسكو أو فى قازان ويترقب بقلب نزوع وصبر فارغ نبأ إلحاقه بالفرقة الرابعة متطوعا فإن ذلك كفيل أن يخرجه من تردده ويجعله يركن إلى البقاء فى القوقاز .

وتم له ما أراد فعاد إلى ستارى يورت والحق بفرقة المدفعية الرابعة فى شهر فبراير سنة ١٨٥٢ ، وهناك توثقت عرى الصداقة بينه و بين فتى يدعى سادو ، وكانا يتعاونان فى السراء والضراء ويطعمان معاً كلما واتتهما فرصة لذلك ، ويقتسمان المال بينهما ويتبادلان الهدايا ، وقد أعجب ليو بصاحبه وبما رأى من بسالته وجميل مودته وإخلاصه له ، ذلك الإخلاص الذى أدى به أكثر من مرة إلى أن يعرض نفسه للأخطار لينجي صاحبه ؛ وطاب الفتى نفساً بهذه الصداقة وأحب من أجلها الحياة فى القوقاز .

وكان سادو مقداماً لا يهاب شيئا ، يهجم على قرى الأعداء فيأتى منها بما يبيعه وبذلك يحصل على المال فهو متلاف يبسط يده كل البسط ، وأبوه على ثرائه يضن عليه إلا بالقليل الذى لا ينقع غلته ...

وكان على ليو أن يدافع عن سادو كما يدافع هذا عنه ، ولذلك كان يتعرض لكثير من الخطر من أجله ، حتى لقد أوشك ذات مرة أن يؤسر هو وصاحبه ، ونجا مرة أخرى من الموت وهو على حافته إذ انفجرت قذيفة مدفع على مقربة منه ...

ويعنينا ذكر هذا الذى نذكره عن حياته فى القوقاز لصلته بنفسه ، فلسوف يصف هذه الحياة وصفاً يكسبه على حداثته ذيوع الصيت فى دنيا القصة ، ويضفي على عمله من الإصالة والروعة والدقة ما يسلكه وهو حدث فى القلائل الأفذاذ .



تولستوی سنة ١٨٥١

فى القوقاز

كان أكثر مايجد ليو من الأنس فى صحبة صديقه سادو وفى صحبة رجل آخر هو إيبشكا القوزاقى صاحب الكوخ الذى كان يقيم به ، ذلك الذى برع فى فى الصيد براعة عظيمة أو الذى برع في الحديث عن مقدرته ومهارته فيه ، وعن أيام شبابه الأولى وكيف كان الغوانى يأخذن عليه كل سبيل ويفتتن به كل الافتتان ، ولقد جعل منه ليو صورة إروشكا فى قصته « أهل القوزاق » فبلغ فى ذلك غاية الإبداع .

وكان الصيد من أحب ما يلهو به فى ساعات فراغه ، وقد كانت الأرض غنية بطلبته من الأرانب البرية والثعالب ، وكان يصحبه إيبشكا إلى قرى وأماكن بعيدة فى الجبال حيث كانت تحيط بهما المخاطر فى كثير من الحالات .

ولبنته جعل للصيد كل فراغه ، فلقد عاد إلى الميسر منذ سنة علي الرغم من مغالبته نفسه ابتغاء الإقلاع عنه ، وما استطاع أن يكف عنه إلا ستة أشهر بعد أن وقع فى الشرك ولم يمض عليه فى القوقاز أسبوعان ؛ وما إن عاد إلى التفرج برؤية إخوانه الضباط وهم يلعبون حتى غلبه حب اللعب فأقبل عليه إقبال النهم الذى حيل بينه زمناً و بين الطعام ، ففى كتاب منه إلى عمته تاتيانا فى شهر يناير سنة ١٨٥٢ أخذ يقص عليها كيف عاد إلي الميسر وكيف لحقته الخسائر من كل فج ا وظل هذا شأنه طول تلك السنة والتى تلتها حتي عاوده ندمه وضيقه .

أما عن جانب اجد من حياته في القوقاز ، فإنه فى الجيش قد أبدى من البسالة فى مواطن كثيرة ما استحق به صليب سان جورج للبطولة ، ولكنه لم يحزه فعلا نظراً لعجزه عن تقديم شهادات وأوراق خاصة كان لا بد أن يقدمها من يحظى بهذا الإنعام ...

وكان كما سلفت الإشارة إليه قد أخذ يكتب منذ سنة ١٨٥١ . وفى شهر يوليو سنة ١٨٥٢ أتم كتابه « عهد الطفولة » باكورة فنه وخطوته الأولى صوب المجد وذهاب الصيت وأرسله بإمضاء ل . ن إلى مجلة شهيرة كانت تسمى « المعاصر » وكان يصدرها رجلان من أعلام الأدب وقتئذ وهما نكراسوف و بانييف ...

وظل ليو شهرين ينتظر رداً من المجلة وهو يسلم نفسه إلى الأمل الحلو تارة و إلى اليأس المرير تارة ، حتى جاءه كتاب من نكراسوف ينبئه فيه بقبول القصة للنشر ولكن على ألا يدفع لصاحبها أجراً حسب ما تعارف عليه أصحاب المجلات الأدبية يومئذ إذ كانوا لا يدفعون أجراً لكاتب غير معروف على أول شيء يقبل منه للنشر ...

وفرح تولستوى فرحاً عظيما بالنشر في ذاته فهذه أمنيته ، أما الأجر فما خطر بباله قط ؛ وازداد فرحا إذ جاءه كتاب ثان من نكراسوف يقول فيه إنه ازداد رضاء عن القصة وهو يصححها للطبع وأنه يعتقد أن مؤلفها ممن وهبوا المقدرة ، و إنه لأمر ذو أهمية أن يعلم المؤلف ذلك فى بداية عهده بالكتابة .

ونشرت القصة فى عدد أكتوبر فسرعان ما حظيت بثناء أهل الفن جميعا وفى مقدمتهم ترجنيف ذلك الذى بدأ اسمه يلتمع يومئذ فى فن القصة ، ومنهم دستويفسكي وكان فى منفاه بسيبيريا فكتب إلى أحد أصدقائه يسأله من يكون ل . ن هذا صاحب تلك القصة ...

ولم يكن بالأمر الهين أن يلتفت ترجنيف ودستويفسكى إلى هذا الكتاب فقد خلف هذان الكاتبان جوجول فى زعامة القصة واغتدى اسماها أرفع الأسماء فى الجيل الذى أعقب جيل جوجول ...

وطابت نفس الفتى ليو نيقولا تولستوى وابتهج فؤاده بهذا النجاح ، وإن كان ضايقه من الناشر أنه غير عنوان الكتاب فجعله « تاريخ عهد طفولتى » بدلا من عنوانه الأصلى « عهد الطفولة » وذلك أن الكاتب كما ذكر فى أكثر من موضع لم يقصد بكتابه أن يكون ترجمة منه لنفسه . وكذلك ضايقه أن الرقيب

تناول بالحذف أو التغيير بعض عبارات الـكتاب

أخذت تتفتح الأكمام فى هذا الـكتاب عن عبقرية الـكاتب الناشىء الذى لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره ، و بدأت تنجلى خصائص فنه وتتضح مواهبه وفي مقدمة تلك المواهب إحساسه المرهف ، وقلبه الشاعر، وذكاؤه الحاد ، و بصيرته النافذة إلى أعماق الأشياء ، المحيطة بتفاصيلها ودقائقها ، وروحه الدائبة المتوثبة التى لا تعرف سأماً ، وحيويته الفكرية التى لا تقل عن حيويته البدنية .

أما فنه فكان قوامه الأصالة والصدق والسمو وتجنب ما لا عائدة منه فى التعبير والتصوير ، وكان يجمع فيه بين عاطفة الفنان ومهارة الصانع وتفطنه إلى كنه ما فى يده ؛ وكان يقبل على الـكتابة فى تحمس شديد و إخلاص بالغ ، ثم يطيل النظر فيما يكتب فيمحو ويثبت ويحذف ويضيف حتى يستقر على وضع ترتاح نفسه إليه ، ويقرأ ما يكتبه على من يدخل عليه يتبين أثره فى نفسه ، كما كان ينفعل انفعالا شديداً إذ يتلو لنفسه ما كتب فتدمع عيناه ويهتز بدنه وترتعش يداه ، ثم يشيع السرور في كيانه وتستقر الطمأنينة فى وجدانه .

كتب فى مذكراته فى هذه السن المبكرة يقول في أوائل سنة ١٨٥١ « إن الخيال هو مرآة الطبيعة ، مرآة نحملها فى أنفسنا وفى وهذه المرآة تصور الطبيعة ، وأجمل الخيال هو أصفى المرايا وأصدقها وتلك هى التى نسميها العبقرية ··· إن العبقرية لا تخلق و إنما هى تعكس ما ترى » وقال فى موضع آخر « إن الـكتابة الأدبية ينبغي أن تكون أغنية منبعثة من صميم نفس الـكاتب » .

لم يكن كتابه « عهد الطفولة » ترجمة لحياته ، ولم يكن كذلك عملا خيالياً محتاً ، و إنما كان وسطاً بين هذا وذاك ، ولعله كان إلى وصف حياته و بيئته الأولى أقرب . قالت زوجته فيما بعد « كانت كل الصور فيه مشتقة من أعضاء أسرته ، وكان الإسكندر إسلنيف هو صورة جدى لأمى » .

ولم يعن تولستوى فى كتابه هذا بالحوادث في ذاتها فليس فيه إلا الحياة العادية التى يحياها الناس كل يوم ، و إنما عنى بإبراز المشاعر والأحاسيس التى تثيرها

الحوادث فيما صور من الأشخاص فكان عمله أقرب إلى التحليل النفسي الذى سوف تمتاز به القصة الروسية عما قريب بوجه عام وفى فن دستويفسكى بوجه خاص .

ولقد وفق تولستوى توفيقاً كبيراً فى تصوير الخلجات النفسية في كتابه هذا حتى ما يظن قارئه إن لم يكن يعرف أنه عمل مبتدىء ، هذا إلى دقة اللمسة الفنية والبراعة فى عرض الصور مع وضوحها وخلق المناسبات ، واختيار ما يحتاج إليه السياق فى غير استطراد ممل أو على حد تعبيره « استبعاد كل ما لا ضرورة له وكل ما هو سطحي أو ضعيف » .

وللكتاب أهمية من ناحية أخرى إذ هو يرينا تأثره إلى حد ما بروسو وستندال ودكنز وبخاصة فى قصة دافيد كوبر فيلد التى هى الواقع حياة دكنز فى بيئته الأولى مقنعة كما شاء القصصى العظيم ، وكانت هذه القصة كما ذكرنا تنشر تباعاً يومئذ مترجمة إلى الروسية فى مجلة المعاصر ...

وحفزه نجاحه في كتابه الأول إلى أن يكتب « عهد اليفاعة » فأقبل على ذلك فى نشاط وأمل وغبطة ؛ وكان أثناء كتابته « عهد الطفولة » قد بدأ يكتب بعض الأقاصيص عن حياته في الجندية ومنها « قطع الغابة » و « الغارة » ، وقد أرسل هذه الأخيرة إلى «المعاصر» فنشرتها وقد اطمأنت إلى القصصى الشاب ؛ ولكن الرقيب شوه بعض أجزاء هذه الأقصوصة حتى لقد اشتكي مؤلفها قائلا : « لقد قضى عليها الرقيب ، فقد محا كل ما كان حسناً فيها أو بدله » .

وأقبل القصصى الشاب على مذكرته يثبت فيها ما يعتزم كتابته من قصص ؛ وكلما طرأ علي خاطره موضوع يصلح لقصة عجل بإثباته ودون ما يعن له من ملاحظات ليعود إليها فى حينها ، وكلما أعجبته حادثة أو شخصية ممن يحيطون به كتبها مخافة أن ينساها ليجدها فيما بعد حين يأخذ فى بناء قصصه وهكذا بث نجاحه الأول فى نفسه كثيراً من الأمل والنشوة ...

***

أخذ يزداد سأم الفتى من القوقاز ومن حياة الجندية يوماً بعد يوم ، منذ أن ذهبت عن تلك الحياة جدتها ؛ واشتد ضيقه في شهر أكتوبر سنة ١٨٥٢ حتى إنه ليكتب فى يومياته إنه يعد سنى نفيه من ذلك التاريخ ، ويقول فيما يُشعر بالأسى أنه لن يستطيع أن يعتزل خدمة الجيش إلا سنة ١٨٥٥ « وعندئذ أكون فى السابعة والعشرين من عمرى ، وما أكثر ما أكون من الكبر فى هذه السن ! ثلاث سنوات أخرى فى خدمة الجيش منذ اليوم ؟ إن على أن أقضيها فيما يجدى » .

وفى مستهل سنة ١٨٥٣ يقول « يا للناس من أغبياء ! إنهم جميعاً وبخاصة أخى لا يدعون الخمر ، وهــذا شىء أراه كريها ... إن الحرب أمر باطل ... هى شر لا ريب حتى إن الذين يخوضون غمارها ليحاولون تلقاءها أن يخنقوا ضمائرهم . أحق ما أنا فاعل ؟ أرشدنى يا إلهى واغفرلى إن كنت أعمل باطلا » ...

والحق أنه لولا ما كان يصادفه فى القوقاز مما يكون مادة طريفة لفنه من الناس والحوادث والمناظر ، ما استطاع صبراً على العيش هناك ، ولا أطاق حياة الجندية وما فيها من خشونة وما كانت تبعثه في نفس كنفسه من سأم وضيق بأيامها المتكررة المتشابهة ...

وبدأ يشكو أسـقاماً فى معدته وأمعائه وكان مرد ذلك إلى ما اعتاده من إسراف فى الطعام ، فقد كان من مرذول عاداته نهمه في تنـاول أنواع من الأطعمة كان يحبها كالفطائر والمثلجات وأصناف الحلوى ، وكان لا يستطيع أن يصد نفسه عنها إذا تهيأت له ، أو يفطمها إذا غابت عنه ، وإنما كان يسعى إليها سعياً حتى يظفر منها بأوفر نصيب وإن مســه الضر ؛ وكان لا يكترث لنصح أو يشفق من أذى اتكالا على ما يحس من قوة بنيته وشــدة حيوانيته ، ورغبة منه فى تعويض ما يبــذله من طاقة فى تلبية نداء جسده . . ؛ ولـكن ذلك النهم قد أضر بمعدته ضرراً أخذ يزداد منــذ كان فى القوقاز وسوف يتمكن منها حتى ليستعصى على العلاج حين يتقدم به العمر ...

وكذلك أخذ يشكو من الروماتزم والحمى والرعاف والتهاب الحلق في كثير

من الأحيان ، ونجده يكتب إلى عمته تاتيانا ذات مرة يقول لها « لا تظنى أننى أخفي عنك شيئاً ... إنى و إن كنت متين البنية أعاني دائماً ضعف الصحة » .

وفي شهر مارس سنة ١٨٥٣؛ يكتب فى يومياته قائلا « إن الخدمة في القوقاز لم تجر على إلا المصاعب والكسل ومعرفة غير الأخيار ... إنه ينبغى أن أخلص منها أسرع ما أستطيع ... لقد فقدت ما كان معي من المال جميعاً ، ولا زلت مديناً بثمانين من الروبلات لأوجولين وستة ليانوفتش وخمسين لسكوفثين وثمان وسبعين لقنسطنطينوف ؛ وتبلغ جميعاً أربع عشرة ومائتين ، وقد أنفقت فضلا عنها ثلاثين ومائتين كانت كل ما أملك ... إن ذلك لسيء » .

قرأ ليو كثيراً فى القوقاز وهو منذ حداثته لا يسلو الكتب مهما صرفته عنها أهواء شبابه ؛ فإذا عاد إليها أقبل يقرؤها فى جد وعناية قراءة تدبر واستمتاع ، ولم يفته كتاب مما كان يصدر يومذاك في روسيا أو أوروبا ، كذلك لم تفته صحيفة أدبية تعنى بألوان الأدب المعاصر وتهتم بنقده ، وكان في مقدمة تلك الصحف مجلة « المعاصر » التى نشرت له أول آثاره ...

وكان لترجنيف جانب كبير من اهتمامه ، وكان ترجنيف الذى يكبره كما أسلفنا بعشرة أعوام قد نشر سنة ١٩٤٨ أول كتاب له وهو « مذكرات رجل صيد » الذى سبق أن أشرنا إليه ، فكان ليو يعيد قراءته بين الحين والحين ؛ ولعل ما استمتع به ترجنيف من ذهاب الصيت بكتابه الأول هذا قد ألقى في نفس ليو تولستوى أحلام المجد الأدبى وبخاصة بعد أن صادف كتابه « عهد الطفولة » ما أشرنا إليه من نجاح .

وكان لجوجول كذلك منزلة عظيمة في نفس تولستوى ، فكان يطيل التأمل فى قصة « الأنفس الميتة » وفى قصته الفكهة « فى » ...

ولم يسه تولستوى عن الأدب الأوروبى فكان يقرأ آثار أعلامه جميعا ، وكان يتتبع ما نشر دكنز فى شغف كبير ويقدمه على كل قصصي سواه ؛ وكذلك كان عظيم الإعجاب بالكاتب الإنجليزى ستيرن الذى ذكرنا اسمه قبل فيمن ذكرنا

ممن قرأ الفتى آثارهم ؛ كان ستيرن من رجال الدين ولد سنة ١٧١٣ وتوفى سنة ١٧٦٨ فهو من أعلام القرن الثامن عشر وقد اشتغل بالأدب ، وامتازت مؤلفاته بروح الفكاهة والعاطفة ، و بلغ فى قوة خلق الأشخاص وتصويرهم مالا يبلغه إلا الأفذاذ القلائل ، فكان لآثاره ميزة الأصالة والنبوغ ، وقد نشر قبيل وفاته أشهر كتبه وهو « الرحلة العاطفية » ، وقد كان تولستوى شديد التأثر عظيم الانجذاب نحو هذا الكتاب ، يضعه في مستوى آثار روسو من حيث قيمته فى ذاته ومن حيث أثره فى نفسه ...

وكثيراً ما كان الفتى يطيل التأمل في ساعات فراغه ، أو عقب قراءته كتابا من كتبه ، وكثيراً ما كان يثبت تأملاته فى كراسته فكان لهذه الكراسة بذلك خطرها كمصدر من مصادر تاريخ حياته .

وكان أول ما تأمل الفتى فى الدين ولما يمض عليه في القوقاز غير أيام ، ولم تكن هذه أول مرة يتجه فيها تأمله هذا الاتجاه ، فقد سبقتها مرات ومرات ؛ وقد أشرنا قبل إلى ما ذكره فى مستهل كتابه «اعترافاتى» عن ذلك الصبى الذى تحدث إليه ذات مرة وهو فى نحو العاشرة عن الله ووجوده ، وكيف تلقى ذلك الحديث فى اهتمام وأفضي به إلى إخوته ... ومما ذكره كذلك فى مستهل ذلك الكتاب قوله « لقد عمدت ونشئت على العقيدة المسيحية الأورثوذكسية ؛ وقد علمت هذه العقيدة فى طفولتى وطول أيام يفاعتى وشبابى ؛ ولكنى عندما تركت الجامعة وأنا يومئذ فى الثامنة عشرة لم أعد أصدق شيئاً مما علمته . وقد ذهبت المعتقدات الدينية التى علمتها فى صغرى ؛ ونظراً لأنى منذ سن الخامسة عشرة بدأت أقرأ الآثار الفلسفية ، فإن رفضى هذه المعتقدات كان أمراً شعوريا في سن مبكرة جداً ؛ فمنذ سن السادسة عشرة انقطع ذهابى إلى الكنيسة وانقطع صومي ولم أصدق ما لقنت فى طفولتى ولكنى كنت أصدق شيئاً ما ؛ أما ما هو ذلك الشىء فما كنت أستطيع وقتها أن أقول ، لقد صدقت بالله أو على الأصح إنى لم أنكر الله ، ولكنى لم أستطع أن أقول أى إله هذا ، وكذلك لم أنكر المسيح

ولا تعاليمه ، ولكن مم كانت تتألف تلك التعاليم ؟ ذلك أيضاً مالم أكن أستطيع أن أقوله ...

وإذا رجعت إلى تلك الحقبة من عمرى أرى الآن فى وضوح أن إيمانى ، إيمانى الحقيقى الذى لم يكن لى غيره ، ذلك الذى كان يحفز حياتى بصرف النظر عن غرائزى الحيوانية ، هوعقيدتى فى بلوغ الكمال النفسى ، ولكن مم يتألف هذا الكمال وما غرضه ؟ ذلك مالم أستطع أن أبينه ، لقد حاولت أن أكمل نفسي عقلياً ، فدرست كل ما استطعت أن أدرس ، كل شيء ألقته الحياة فى طريقى ، وحاولت أن أكمل إرادتى فوضعت قواعد أخذت نفسى باتباعها ، وكملت نفسي من ناحية البدن فدربت قوتى ونشاطى بكافة أنواع التمرينات ، وعودت نفسي التحمل والصبر بكافة ضروب التقشف ؛ واعتبرت كل أولئك وسائلى نحو الكمال وكان أول ما اتجهت إليه الكمال الأدبى ، ثم أعقب ذلك وحل محله الكمال من جميع الوجوه ، أو الرغبة فىأن أكون أحسن حالا، لافى نظري فحسب ولا عند الله وحده ، ولكن فى نظر غيرى من الناس . وسرعان ما اتجهت محاولاتى بعد ذلك إلى رغبة أخرى هي أن أكون أقوى من غيرى وأبعد منهم صوتاً ، وأعظم خطراً وأكثر ثراء » .

هذا هو مبلغ اهتمام الفتى بالدين وكل ما هو من الدين بسبب منذ حداثته ، أما اهتمامه به فى القوقاز فتجد شاهداً عليه فيما أثبته هناك من تأملاته ومنها قوله بعد أن ذكر أنه لم ينم ليلته بسبب صلاته ونسكه لله «إذا أريد بالصلاة أنها استغفار أو شكران فإنى إذاً لم أكن أصلى ؛ بل إن رغبة كانت تتملكنى نحو شيء طيب سام . أما عن كنه ذلك الشيء فذلك مالا أستطيع تفسيره ، ولو أننى أشعر شعوراً تاما ماذا يكون ذلك الذى رغبت فيه ؛ إن الذى رغبت فيه هو أن أذوب فأمتزج بذلك الجوهر المحيط بكل شيء وأن أستغفره عن آثامى . لا ، ليس هذا ما رغبت فيه لأنى شعرت إذ منحنى هذه اللحظة المباركة أنه بهذا منحنى كذلك للمغفرة » .

والذى يستخلص مما كتبه تولستوى حتى هذه السن أنه لم يفقد الإيمان لحظة بقوة مطلقة فى هذا الوجود ، وكان مرد إيمانه إلى عاطفته و إن كان يشعر أنه لا يستطيع أن يصالح عليها عقله ومنطقه ، فلقد كان شديد الشك فى صورة العقيدة كما تضعها الكنيسة الأورثوذكسية الروسية ، ولذلك عظم الصراع بين عاطفته وعقله . وتراه يتساءل ذات مرة فى دفتره معتمداً على العقل والقياس قائلا : حتى ولو أن الجسم والروح شيئان ، وأن الجسم يلحقه الفناء ، فماذا فى ذلك من البرهان على فناء الروح ؟ لقد رأيت الجسم يموت ، وعلى ذلك أستخلص أن جسمى أنا سوف يموت ، ولكن ليس فيه ما يرينى أن روحى سوف تموت ؛ من أجل ذلك أقرر بناء على ما يقوم فى فكرى أنها خالدة » .

وقال عن الصلاة فى موضع آخر « هل الصلاه لازمة ؟ وهل هى ذات فائدة إن التجربة وحدها هى التى ترينا مدى ما يكون فى ذلك من اقتناع . إنى أصلى هكذا : رب نجنى من السوء ومن الغواية أن أفعل السوء ، وهب لى الخير أوهب لى القدرة علي أن أعمل صالحا ؛ وسواء أكان خيراً أم كان شرا ما أعمل فإن مشيئتك هي النافذة » .

وعاد يبحث عن الله فى قوله « هل لى أن أنجح نجاحاً لا مرية فيه فأكون عن الله فكرة واضحة وضوح فكرتى عن الخير ؟ لقد باتت هذه الرغبة أقوى رغابى

إن فكرة الإنسان عن الله هى وليدة تفطنه إلى ضعفه هو . ولم يقنعنى بوجوده و بصلتنا به شيء أقوى من هذه الفكرة : ألا وهى أن كل مخلوق قد وهب من المُكنة مايتفق مع مايرغب فيه من مطالب ، لاشيء أكثر من ذلك ولاشيء أقل ؛ ولأى غرض وهب الإنسان قوة إدراك مثل هذه المسائل : وهي العلة الأولى والأبد واللانهاية والقوة المطلقة ؟ إن المقدمة فيما أتحدث عنه هي فروض تؤيدها علامات ، و إن الإيمان حسب تقدم المرء يتمم صحة هذه الفروض » .

وتشتد حيرته بعد ذلك فيقول : إنى عاجز عن أن أثبت لنفسي وجود الله ، أو حتى عن إيجاد قرينة مقنعة به ؛ كما أنى لست أرى ثمة ضرورة حتمية لهـــذا

الأدراك ، إنه لأيسر وأبسط أن نتخيل الوجود الأبدى للكون بنظامه العجيب الذى لا يمكن تصور مداه ، من أن نتخيل وجود خالق له ... إن تطلع الجسم والروح إلى السعادة هو السبيل الوحيدة إلى تفهم أسرار الحياة ، وإذا تصادمت نوازع الجسم ونوازع الروح فيجب أن تهيمن نوازع الروح لأن الروح خالدة كالسعادة التي تنتجها ... وإن تحقيق السعادة هو السبيل لتقدم الروح ورقيها . وإنى لست أفهم ضرورة وجود الله ، ولكنى أومن به وأصلى له كي يعيننى على أن أدركه » .

وسيتنطوى سنوات كثيرة قبل أن يغير تولستوى ما أثبته فى كراسته فى نوفمبر سنة ١٨٥٢ وهو قوله : « إنى أومن بإله واحد لا تدركه الأبصار وأومن بخلود الروح وأومن بالجزاء على أعمالنا ؛ وما يضيرنى أنى لست أفهم خفايا الثالوث ومولد ابن الله ؟ إنى أجل عقيدة آبائي ولست أجحدها » .

ويتأمل الفتى غير الدين فى أمر يتصل بالأخلاق فيقول « إن الضمير خير رائد لنا وخير ما نعول عليه من هاد ، ولكن ما هى الشواهد التى بها نميز صوت الضمير من الأصوات الكثيرة التي تنبعث فى أنفسنا ، على أنه الصوت الوحيد الحق ؟ ذلك لأن الغرور يتكلم بنفس القوة . إن الرجل الذى يكون غرضه فى الحياة سعادة نفسه هو رجل سوء ؛ وإن الذى يكون غرضه حسن رأى الناس فيه رجل ضعيف ؛ وذلك الذى يجعل غرضه إسعاد الآخرين رجل خير ؛ ولكن الذى يجعل غرضه وجه الله هو رجل عظيم . إن الشر فى رأيى يتكون من اتباع السوء تجاه الآخرين والخير كامن فى محبة الخير لهم ؛ بهذا يتحدث الضمير أبداً ؛ وإن غرض الحياة لهو الخير وهو عاطفة موروثة فى النفس ، ورأي أن وسيلتنا لنعيش عيشة طيبة هي معرفة الخير والشر ... وإنا لن نكون أخياراً إلا عند توجه جميع قوانا دائماً نحو هذا الغرض » .

وإن المرء ليلمح فى هذا الفتى أثناء مقامه فى القوقاز صورة في مجال ضيق للكاتب العظيم والفيلسوف الكبير تولستوي ، يوم يغدو أحد أفذاذ رجال القلم

فى هذه الدنيا ؛ فلسوف يبلغ فى عالم القصة مبلغاً لم يتفق لأحد من قبله فى موطنه ، ثم ينصرف عن الفن إلى الدين ومسائل الدين فيتدبر فيه طويلا ويدرس الكتاب المقدس ويقلب وجوه الرأى وتعظم حيرته بضع سنين ، ثم يخرج على الناس برسالته فى هذه الناحية ، فتحدث من الضجيج وتثير من اهتمام الكنيسة والناس ما لم تحدث أو تثير كذلك آراء أحد من قبله فى روسيا ...

ولم يكن للدين والفن وحدهما كل همه إذا فرغ من أعمال الجندية أو إذا عاد من لهوه إلى كوخه ، فلقد كان يتأمل فى غير هذه ويطيل التأمل إذا جلس وحده بباب كوخه أو بباب خيمته ، كما كان يفعل أولينين بطل قصته « أهل القوزاق » أو كما جعله هو يفعل ذلك فيصور نفسه فيه أحسن تصوير وأصدقه .

كان يتأمل الفتى فيما هو خليق أن يملأ خيال كل فتى في مثل سنه ، وماذا عسى أن يكون ذلك غير أحلام الحب والزواج والسعادة التى يجدها المرء فى زوجه إذ يسكن إليها وفى أولاده إذ يظلهم بجناحيه ، وفى عشه إذ تتوفر فيه أسباب المتعة والراحة ورخاء العيش وما إليها من أطياف الجنة ؟

كان كثيراً ما يتأمل الفتى فى ذلك كله ، ولعل ضيقه بحياةالقوقاز هو الذى كان يصرف خياله إلى هذا المتجه الحلو فتأنس به روحه ساعات ويجد فيه مثل ما يجده المكدود ألقى به طول السير فى ظل دوحه ...

كان يفكر كما يفكر أولينين فيتخيل « امرأته فى ملابس الصباح البيضاء ومن حولها أولادهما يجرون من بعض إلى بعض فى الحديقة ويقتطفون الزهر فيلقون به إلى أبيهم » ... وكانت تتتابع الأخيلة علي ذهنه وضيئة بهيجة تملأ نفسه حبوراً وغبطة .

كتب إلى عمته تاتيانا كتاباً يومئذ يفيض بما كان يتخيله ومنه قوله : «سأجد نفسي بعد بضع سنين وقد عدت إلى ياسنايا وما أنا بالكبير جداً ولا بالصغير جداً ؛ وستكون شؤونى كلها منظمة وليس مايضايقنى فى حاضرى ولا يقلقنى على مستقبلى . وسوف نعيش كما عشنا فى الأيام الماضية ، فللصباح عملى ولكننا نلتقى ويرى أحدنا

الآخر فيما بقى من النهار ... وسنتمشى معاً فى المساء ، وسوف أقرأ لك شيئاً ساراً ثم نأخذ بعـد بأطراف الأحاديث ، وأقصى عليك حياتى فى القوقاز ، وتقصين على قصصاً عن حياة أبى وحياة أمى ؛ تقصين على بعض هاتيك القصص المرعبة التى كنا نستمع إليها فى الأيام الماضية وأفواهنا فاغرة وفى أعيننا الخوف ؛ وسوف نتكلم عن إخوتى الذين يأتون لزيارتنا وعن أختى ماشا الحبيبة ... وسوف أكون زوجاً وستكون زوجتى نبيلة محبة رحيمة ، وستحبك كما أحبك » .

ولـكنه كان يصحو من هـذا الحلم الجميل كل مرة على ما كان يحيطه به الواقع مما تضيق به نفسه، ومما يستكرهها استكراهاً على أن تصبر عليه ؛ وكان يفزع إلى كتبه إذا ذهبت عنه رؤي حلمه أو يقبل على الـكتابة ، أو يدع هـذا وذاك إلى لهوه فيخرج للصيد مع خلانه ، أو ينسى نفسه فى حلبة الميسر حتى يوقظه خلو جيبه من المال وامتلاء صدره بالغيظ والنكد ...

وما يزال يحمل نفسه على الصبر تارة ولا يطيق الصبر تارة أخرى ، حتى أتيح له فى شهر يناير سنة ١٨٥٤ أن يترك القوقاز ، إذ نقله أولو الأمر بناء على طلبه إلى جيش الدانوب .

وعاد ليو ليقضى أياماً فى ياسنايا بوليانا بعد أن غاب عنها ثلاث سنوات طويلة كان يعدها بينه و بين نفسه سنوات نفى .



فى حرب القرم

لم يستطع ليو أن يقيم طويلا فى ياسنايا ، فقد تشوقت نفسه إلى مباهج العاصمة وملذاتها ، ومن ثم فقد سافر إلى موسكو . . . وعاد فى موسكو يبسط يده كل البسط ويسرف فى ماله إسرافاً كبيراً . على أنه ما لبث أن استدعى إلى جيش الدانوب ، ولم يكن يسعه إلا أن يلبى فى غير إبطاء . فاتخذ سبيله معجلا إلى بوخارست حيث أمر أن يذهب ، فبلغها فى مارس سنة ١٨٥٤ وكانت رحلته إليها فى طرق وعرة أثرت فى صحته وفى نفسه ؛ بيد أنه ما لبث أن وجد من رعاية أحد أصدقاء والده وهو الجنرال الأمير جورشاكوف ومن كرمه ما أنساه عناء سفره وحبب إليه هذا الميدان الجديد .

وأتيح لتولستوى وهو يومئذ فى الخامسة والعشرين أن يشهد حرباً كبيرة فيكتسب بذلك خبرة جديدة بناحية خطيرة من نواحى الحياة الأنسانية ؛ وكان قد قرأ عن الحرب وأنباء المعارك الكبيرة فى بعض الكتب ، وكان ما كتبه ستندال خير ما أعجبه منها وبخاصة وصفه لمعركة وترلو .. وسوف يكون لمشاهدة تولستوي معارك القرم أثره العظيم فى فنه يوم يكتب قصته الكبرى «الحرب والسلام» ، فلقد بلغ من روعة وصفه الحرب فى تلك القصة ما لا يتفق مثله إلا لذى موهبة فنية يستقل من المشاهد ما رآه رأى العين .. فتعجب إذ يريك ما يصف وكأنك تقع عليه ببصرك لا تقرؤه فى سطور كتاب . .

وانتابت تولستوي الحمي فأقعدته أياماً فى بوخارست بعد أن أخذ يؤدى واجبه فى إحدى فرق المدفعية ثم أبل فألحق بالجيش الذى كان يحاصر مدينة سلستريا وكان ذلك قبل الانصراف عن محاصرتها ببضعة أسابيع . . . وشهد تولستوى فى هذا الحصار من مناظر الموت والدمار ما اختزنه فى ذاكرته العجيبة

ليجترّه فيما بعد فإذا هو بعض فنه ؛ وكذلك كان يدرس مسلك القواد والضباط وعلاقاتهم بعضهم ببعض ، ولعله كان فى غير وعى منه يختزن فى نفسه بعض شخصيات قصصه .

وكان مما أطال فيه التأمل من حياة الجند أو جوانب النفس البشرية ، أن الجنود الذين يقضون أياماً تحت النيران و بين الأشلاء المتناثرة والجثث الطريحة والدماء الجارية ، إذا هم بعدوا عن الميدان يوماً أو بعض يوم للراحة أقبلوا على متع الحياة ومسراتها فلعبوا وشربوا وضحكوا كأنهم قوم خرجوا للنزهة فليس يشغل أذهانهم شيء .

وكان رفع الحصار عن سلستريا فى شهر يونيو ، وعاد تولستوى إلى بوخارست وهناك طلب إلى جورشاكوف أن ينقله إلى القرم .

وعاوده المرض فأجريت له جراحة ألزمته الفراش ستة أسابيع ، وكان فى طريقه إلى بوخارست قد عاد إلى الميسر واقترض بعض المال « الأمر الذى يلحق المهانة بكل امرىء وبخاصة بشخص مثلى » كما ذكر في يومياته . .

وعاد إلى نقد نفسه أو على الأصح عاد يلوم نفسه ويؤنب نفسه كأنما يجد فى هذا تهدئة لروحه القلقة ، إذ كان يتساءل كما جاء فى يومياته ماذا عسى أن يعمل في الحياة وهو يرى أنه فى الواقع ليس يعمل شيئاً .

وكان يرى أن بلوغه ما ينشد من كمال فى الحياة إنما يتعذر عليه أو يبدو له صعباً لأنه يخلط بين الكمال فى ذاته و بين تكميل نفسه ، فعليه قبل كل شيء أن ينظر فى أخطائه أو أوجه نقصه و يتبينها ثم يعمل على إصلاحها أما أن يتصور المثل الأعلى للكمال ثم يقارن بينه و بين ما هو عليه فذلك ما يجعله يستبعد الشقة .

وكان قاسياً على نفسه فيما أثبته في دفتر يومياته في السابع من شهر يوليو إذ يسأل نفسه ماذا عسي أن يكون ، ثم ينسب إلى نفسه الضعة والجهل وسوء تدبيره شؤونه إلى أقصى حد ، وقد أصبح سيد نفسه منذ سن السابعة عشرة ؛

كما كان يعيب على نفسه أنه رجل لا يحس فى نفسه شيئاً من المبادىء ، وأنه نفى نفسه إلى القوقاز ليهرب من ديونه ومن عاداته السيئة ، وأنه الآن فى السادسة والعشرين لا يملك من المال إلا ما يدفع له من أجر لأن ماله من أملاكه يدفع وفاء لديونه ؛ ثم يسرف فى وصف نفسه فيقول إنه قبيح المنظر خجول كالصبي غريب الهيئة لا علم له بالأوضاع الاجتماعية ، قلق مضطرب يتعب من يعامله ، غير متواضع ولا معتدل ، لا يكاد يستقر على وضع ، ولا يكاد يثبت على عزم أو يسير على نهج ، وأنه مع ذلك يداخله غرور غبي إلى أن يقول « إنى على قدر من الذكاء ولكن ذكائى لم يمتحن قط بشيء من الأشياء ... وإنى أمين أعنى أنى أحب الخير وقد بنيت عادة حب الخير حتى إننى لا أرضى عن نفسى إذا تنكبت هذه العادة ، ثم أجدنى أعود إليها فى غبطة ، ولكن ثمة شيء أحبه أكثر مما أحب الخير وذلك هو الصيت . وإنى لشديد الطموح ولكن هذا الشعور لم يجد متنفساً حتى إننى لو خيرت بين الصيت والفضيلة فإنى أخشى أن يكون الصيت ما أختار »

وفى هذا الذى يذكره عن نفسه كثير من المغالاة فقد كان واسع أفق المعرفة وقد امتحنت مقدرته فيما نشر من آثار قلمه مما تقبله الناشرون ورجال الفن بقبول حسن .

وكتب فى منتصف أغسطس يقول « إنى أكرر ما كتبته من قبل : إن في صفاتي نقائص ثلاث ، فإننى تعوزنى الشخصية وإنى عنيف المزاج وإنى ذو كسل وعلي أن أعالج هذه العيوب فى نفسى وأن أراقبها بكل ما يسعى من انتباه وأن أدون ما أقع عليه منها ».

وفى أوائل أكتوبر كتب يقول إنه يحس أنه آخذ في الاستقرار ، ولكنه فى الحادى والعشرين من هذا الشهر يثبت فى دفتره : « لقد خسرت كل ما كان معي من نقود فى لعب الورق » .

وقد قرأ تولستوى فى تلك الأثناء بعض آثار جيتى ودكنز وشلر وبلزاك وهيقى وبوشكين وجورج ساند وثكرى وبلزاك كما قرأ القصة الأمريكية

« كوخ العم توم » وأعجب بها إعجاباً شديداً وبخاصة ما جاء فيها عن الرق . وقد كانت الدعوة تنتشر فى روسيا للقضاء على مخلفات عهد الأقطاع ..

وفي السابع من شهر نوفمبر بلغ تولستوى حصن سباستبول حيث كان الهجوم على الحصن من جانب الترك والإنجليز والفرنسيين على أشده وكان الروس يستميتون فى الدفاع عنه ...

وامتلأ قلبه حماسة كما لو كان جندياً بطبعه ، وكتب إلى أخيه سيرجي يقول إن تحمس الجيش أعظم من أن يحيط به وصف وإن الأغريق الأقدمين لم يشهدوا مثل ما يشهد من بطولة .

وكان ينقل تولستوى من حصن إلى حصن أثناء القتال ، وكانت تبعد هذه الحصون أحياناً عن سباستبول نحو سبعة أميال ؛ وكان يضيق الفتى بحياة الجندية أحياناً ويرتاح إليها أحياناً . كان يضيق بها حين يتجه بفكره إلى ما فيها من خشونة وغلظة وتحاسد وتباغض بين الضباط والقواد ، وأكبر ما كان يتألم منه ابتعاده زمناً طويلاً عن الأوانس وعن دور اللهو ومسارح التمثيل فليس يحيط به هنا إلا صور الموت والدمار ، يعيش فى خيمة أو فى كوخ من الطين يسد نوافذه بالورق ويتقي الرطوبة على حائطه بحصر من القش

وكان يرتاح إلى حياته حين يتجه بفكره إلى أنه يؤدى واجباً تقتضيه إياه الرجولة والوطنية وأكبر ما كان يرتاح إليه أنه يشهد من المناظر ومن صور الحياة ما يختزنه فى نفسه ، فى وعى منه وفى غير وعى ، ليكون في المستقبل أو في الحاضر مادة لفنه . . .

ولقد اكتسب ليو على الرغم من تعاليه أحياناً محبة الكثيرين ممن أحاطوا به فقد أعجب أقرانه بسالته واقتحامه الأخطار فى سكون وثبات إذا دعا الداعى إلى الإقدام والفداء ، كما أعجبوا بقوة بدنه وقد باتت بينهم مضرب الأمثال ، هذا إلى ما كانوا يلمسونه من رقة حاشيته إذا ألف الناس وألفوه ومن طيبة قلبه وصراحته وعفته ونزاهته ... وكثيراً ما كان ينظم الشعر فى يسر فيشيع فى أقرانه كما أنه

كان عذب الحديث يقص على رفاقه من الضباط من قصصه ونادراته ما يضحكهم ويمتعهم ويدفع عن قلوبهم السأم ...

على أن بعض صفاته هذه قد كرهته إلى نفر من رؤسائه وكرهتهم إليه فهو صريح فى نقد ما لا يعجبه من خطط وهو أكثر صراحة وجرأة حين يشتم شيئاً مما لا يتفق مع النزاهة ؛ أثبت فى يومياته يوماً « ما أسهل أن يسرق المرء هنا ، لقد بات الأمر من السهولة بحيث يعد من المستحيل ألا يسرق الأنسان ! »

وكانت حياة الجندية تشغله أحياناً عن القراءة والكتابة ولكنها لم تصرفه صرفا باتا عن ذلك فهو إن انصرف عن كل شيء لا يستطيع أن ينصرف عن كتبه وأوراقه وكانت سنة ١٨٥٤ تقرب من نهايتها وهو يكتب كتابه « عهد الشباب » كلما أتيح له الوقت ، كما كان يتم ما بدأ من قصص قبل ذلك ، يفعل ذلك وفي نفسه شعور اللذة بالكتابة وشعور الضيق من جراء مايقطع عليه هذه اللذة .

وفى مستهل سنة ١٨٥٥ عاد إلى الميسر ، وعاد يشكو من خسارته ويتبرم بما يفعل ، والغريب أنه لا يقع فى ذلك إلا اشتكى ثم هو لا يكاد يفرغ من شكاته حتى يغرق فيه إلى ذقنه ! وقد بلغ من خسارته أنه أرسل إلى وكيله كي يبيع بيته فى ياسنايابوليانا ، كما جاء فى يومياته في اليوم الثامن والعشرين من يناير سنة ١٨٥٥ وكان قد كتب إلى أخيه من قبل وهو فى القوقاز ليبيعه فلم يتم البيع ، وهكذا يذهب هذا القصر الذى ولد فيه والذى ورثه عن جده وفاء لما يخسره فى الميسر !

وليته وقف عند هذا فقد أثبت في يومياته بعد ذلك بخمسة أيام يقول إنه لم يكفنى أننى خسرت كل ما كان معى فقد أصبحت مديناً بمائة وخمسين روبل ليس فى يدى شيء منها » . وبعد ذلك بعشرة أيام خسر خمساً وسبعين غيرها .

ويفرغ تولستوى من الميسر أو من خسارته فيه على الأصح ليعود إلى انتقاد نفسه على عادته وأخذها باللوم والتعنيف ، وإنه ليسخر من عمله هذا أحياناً فيما يثبته من يومياته ، ويقول إنه من المضحك حقاً أن يضع لنفسه من القوانين ما لا يكاد يفرغ من وضعه حتى يخرج عليه ... ثم تراه بعد هذه السخرية من

نفسه يكتب في مذكراته : « للمرة الأخيرة أحدث نفسى أنه اذا مرت ثلاثة أيام ولم أؤد عملاً يعود بالخير على الناس فسوف أقتل نفسى برصاصة ! »

ويفكر الفتى فى أن يصدر صحيفة وهو فى الميدان يكتب فيها ما يثير حماسة الجند وما يطهر نفوسهم ويدخل المسرة على قلوبهم ، ويفتح لهم آفاقاً من المعرفة ، ويسأل القائد رأيه فيعجب بالفكرة ويقره على ما قدم من منهاج للصحيفة ، ويعده أن يستأذن القيصر . ولشد ما تألم تولستوى ، ولشد ما غضب أن جاء رد القيصر بالرفض .

ويتجه تولستوى هنا إلى الدين كما كان يفعل فى القوقاز فيستعين الله ويستغيثه ليخرجه مما هو فيه من ضلالة وحيرة ، وليجنبه الألم والمرض ، وعنت الخصومات ، وغل الحزازات ، والدَّين ، وسوء المنزلة فى الناس ، وليهديه إلى محبته والأمل فى رحمته وإلى محبة الخلق والعمل فى سبيل الخير .

وخطرت بباله فكرة فى أوائل شهر مارس سنة ١٨٥٥ عبر عنها فى مذكراته بقوله : « بالأمس خطرت لى فكرة أثناء حوار كان يدور حول الإيمان والقداسة... فكرة عظيمة هائلة ، أشعر أنى خليق بأن أجعل لتحقيقها كل ما بقي من حياتى ومؤدى هذه الفكرة أن أخلق ديناً جديداً يماشى التقدم البشرى الحالى ، ديناً هو المسيحية مطهرة من النصوص الجامدة والصوفية الغامضة ، ديناً عملياً لا يعد بسعادة مستقبلة ولكنه يتيح السعادة على الأرض . وإنى أحس أنه لكي يتحقق ذلك فلا بد أن تشترك أجيال في تحقيقه اشتراكا مقصوداً ، فيلقي كل جيل بالفكرة إلى الجيل الذى يليه حتى يأتى يوم تصل فيه الحماسة أو الإرادة إلى تحقيقها ؛ إن العمل فى تمهل وحذر على أن يكون الدين هو الرابطة التى تربط البشر جميعاً هو المبدأ الذى يرشدنى والذى آمل أن يسيطر على ذات يوم » .

ومات القيصر الرجعي المستبد نقولا الأول فى هذا الشهر وقد آدته أعباء الحرب وما تعرضت له من جرائها سمعته من هوان ، وخلفه على العرش الإسكندر الثانى الذى كان يعد إذا قورن بسلفه من الأحرار .

وألقى بعد أيام على عاتق جورشا كوف أحد أقرباء تولستوى الدفاع عن سباستبول ، ونقلت فرقة تولستوى إلى المعقل الرابع حول هذا الحصن وكان أهم المعاقل جميعاً وأقربها إلى نار الأعداء ، وأقام الفتى هناك ستة أسابيع يحيط به الهول والموت من كل مكان ، ولكنه بهر أقرانه ورؤساءه برباطة جأشه وأهبته أبدا للقاء الأخطار ...

ولم تطغ الجندية فيه على الأدب حتى فى هذا الموضع فأخذ يعمل فى كتابه « عهد الشباب » .. كما أخذ يكتب فى نشاط مابدأه من قبل تحت عنوان : « سباستبول في ديسمبر » .

والحق أن تولستوى على ما كان يشغل فراغه من لعب الميسر وما كان يشغل رأسه من التفلسف فى الدين ومن النظر فى شئون نفسه وتبين نقائصه ، لم يسه عن فنه الذى يحس في دخيلة نفسه أنه أثمن عنده من كل شيء . فكان كثيراً ما يدون من المناظر والآراء ويصور من الأشخاص ما عسي أن يرجع إليه يوماً ما .

ونشرت « سباستبول فى ديسمبر » فى عدد شهر يونيو من مجلة المعاصر ، وسرعان ما أحدثت أثرها فى دوائر بطرسبرج الأدبية ، وقرأها القيصر الجديد فأعجب بها إعجاباً جعله يكتب إلى القائد العام يأمره أن يحرص على حياة المؤلف الشاب ، كما أمر أن يترجم الكتاب إلى الفرنسية .

وعلى الرغم من إعجاب القيصر نفسه بما كتب تولستوى لم ينج الكاتب من عنت الرقيب ومضايقاته ، وإن تولستوى ليذكر ما لحق غيره من أذى الرقابة ؛ فيزداد لها كرهاً ومقتاً ؛ فقد أصاب بوشكين من قبل غير قليل من المهانة ، وأرغم جوجول علي أن ينكر بنفسه بعض آرائه ونفى دستويفسكى وليرمنتوف وهيرزن وسالتيكوف ، وقبض على ترجنيف لأنه طبع مقالا عن جوجول

كان تولستوى واقعياً فى « سباستبول فى ديسمبر » وكانت تغلب عليه النزعة الوطنية فأثبتت هذه النزعة بصره فى كل نبيل كريم من شؤون الحرب والجهاد

وصرفته عن كثير من السوءات ، فكان لما كتب وقع جميل في نفس القارئ ؛ ففيه روعة الفن تتجلى فى عمق النظرة وصدقها وشمولها مع جمال التعبير وبراعة السياق . وفيه محبة الوطن تستبين فيما عرض من مواقف البطولة والفداء .

وأغراه نجاحه بالكتابة ثانية في هذا الموضوع فبدأ يكتب فى يونيو « سباستبول في مايو » فكان هذا من حيث الصدق وروعة الفن في مستوى سالفه . ولكن الكاتب هنا يعرض الحسنات والسيئات ويصف الصناديد والرعاديد ، ولا يكاد يغادر صغيرة ولا كبيرة مما يكون فى الحرب خيره وشره . كتب إلى صديقه پانييف شريك نكراسوف فى تحرير مجلة المعاصر يقول : « إني علي يقين أن هذا سوف لا يلقى قبولا ، بل إنى لأخاف ألا يسمح بنشره ألبته » وكتب نكراسوف إلى ترجنيف يقول : « إن المقال حافل بالصدق العميق الصارم حتى إنه لمن العبث أن نفكر فى نشره » .

وعرضت المقالة على أحد الرقباء فتناولها بالحذف والتشويه ، ولم يكتف بهذا ذوو السلطة فعرضوها على كبير الرقباء فزادها حذفاً وتشويها ، وإنه ليعلن سخطه على الرقيب الذى قرأها لما كان من هوادته ، وعلى پانييف لتجرؤه على التقدم بمثل هذه المقالة إلى الرقابة .

وكتب پانييف إلى تولستوى يعلن إليه أسفه ويعتذر له عن نشرها على هذه الصورة ويعزيه عما لحق فنه من تشويه ويثنى على أصالته ورسوخ قدمه فى الوصف الواقعى الدقيق الذى لا يحسنه إلا القليلون ، وكان مما قاله « إنك على حق أن تعد هذا الجانب من موهبتك أسمى الجوانب جميعاً ، فالصدق على الصورة التى أدخلتها في أدبنا يعد أمراً جديداً بيننا كل الجدة ، وإني لست أعرف كاتباً معاصراً يحمل القارئ على محبته ومشاركته عواطفه بقوة كما يفعل ذلك الذى أرسل كتابى هذا إليه ، ولست أخشى سوى أن يصنع بك يوماً خبث الحياة ، وما يحيط بنا من صمم وعمي ما صنع بأكثرنا فيقتل الهمة التي لا يقوم كاتب بدونها ، أوعلى الأقل كاتب مما تحتاج روسيا إليهم » .

وأثبت تولستوى فى يومياته ما لا ينم عن غضب عظيم كما كان يُتوقع أن يحدث ، فقد قال إنه يظن أنه تحت رقابة السلطة بعد هاتين المقالتين وذكر أن روسيا فى حاجة أبداً إلى كتاب الفضيلة وأنه لا يستطيع أن يكون كاتباً يتملق المجتمع ، ولا أن يكتب شيئاً بغير فكرة معينة أو بغير غرض مقصود ؛ إلى أن قال « وعلى الرغم من لحظة الغضب الأولى ؛ تلك اللحظة التى أقسمت فيها ألا أشرع من بعد قلماً ؛ فإنى أحس أن النشاط الأدبى ينبغى أن يكون المسيطر على جميع نزعاتى وأعمالى » .

وأولع تولستوى من ذلك الحين بالصدق فى الأدب ولوعاً عظيما ، وسوف يكون ذلك فيما بعد أبرز جوانب فنه ، وسوف يبلغ فيه القمة فيما يأتى من آثاره ولعل فى هذا أعظم سحره وأقوى قوته ، فإنك لا تكاد تطالع صفحة من قصصه إلا وجدت نفسك مسحوراً تملأ نفسك لذة قوية ، وما ذلك إلا لأنك ترى الحياة أمامك واضحة كأنك تعيشها لا تقرؤها فى كتاب ، وتحسب ذلك هيناً وهو ما لا يتعلق به إلا كل جبار طويل الباع فى التخيل والتصوير ، راسخ القدم فى الخلق والابتكار ... ولن تجد فى وصف ولوعه بالصدق فى فنه خيراً مما اختتم به « سباستبول فى مايو » إذ يقول : « إن بطل أقصوصتى ذلك الذى أحبه بكل ما فى روحى من قوة . والذى حاولت أن أصوره فى أكمل جمال ... ذلك الذى كان جميلا والذى أراه جميلا والذى سوف يبقى جميلا .. إنما هو الصدق » .

ولم يغظ تولستوى ذوى السلطان فى الجيش بوصفه سباستبول فى مايو فحسب وإنما غاظهم بأنشودة نظمها وتهكم فيها وسخر سخرية مرة من القواد فى معركة شيرنايا وكان ذلك فى شهر أغسطس ، وسرعان ما ذهب لهذه الأنشودة صيت عظيم فى الجيش كله حتى صارت على كل لسان ...

وغاظهم كذلك بأقصوصته الأخيرة عن الحرب وهى « سباستبول فى أغسطس » وقد وصف فيها الهجوم الأخير للعدو وسقوط المدينة على أثر ذلك ، وقد جاء فيها أنه ذرف الدمع حين « رأى المدينة يلتهمها اللهب ، والأعلام الفرنسية تخفق على معاقل الروس » .

و بعد ذلك بشهرين أرسل تولستوى إلى بطرسبرج يحمل بعض التقارير من القيادة ، وكانت الحرب قد قربت من نهايتها فاختتم حياته جندياً وعاد إلى الحياة المدنية وهو في نحو السابعة والعشرين .

ولم تكن الجندية فى الواقع متصلة بطبعه ، وإنما أراد أن يرى ناحية من الحياة لم يكن ليراها لولا دخول الجيش ، وصفه أحد أقرانه بقوله « إن الكونت تولستوى يقود فرقتين من مدفعية الجبل ولكنه يتجول حيث يشاء ... إن تولستوي ليشتاق إلى أن يشم بارود الحرب ولكن طوع حالاته النفسية فحسب كما يفعل كل من لا يسير علي وتيرة واحدة فيجتنب ما تأتى به الحرب من مصاعب ومشاق ؛ وإنه ليسافر إلى جهات مختلفة كما عسى أن يفعل سائح من السائحين ، ولكنه لا يكاد يسمع صوت المدافع حتى يخف إلى ساحة القتال ، فإذا انتهت المعركة عاد إلى حيث تتجه به نوازع نفسه » .





تولستوي الجندي

فى بطرسبرج

ذهب تولستوى إلي بطرسبرج وقد سبقه إليها من الصيت ما لا يتفق فى مثل سنه إلا للقلائل الأفذاذ ؛ وقد كان لما كتب عن سباستبول أجمل وقع فى دوائر الأدباء وفى جمهور القارئين بوجه عام . وكذلك كانت قصصه حديث أهل الفن كلما اتجه الحديث إلى الأدب ..

وحسبه من ذهاب صيته أن دستويفسكى قال لأحد أصحابه إنه شديد الأعجاب بالكاتب « ل . ت » وأن پانييف يروى عن ترجنيف أن أشخاصاً كثيرين كانوا يسمعونه يتلو فقرات كامله من « عهد الطفولة » عن ظهر الغيب ، وأن بسمسكى أحد نابهي فن القصة وكان يكتب يومئذ قصته الطويلة « ألف من الأنفس » قال لأحد أصدقائه فيما يشبه الكمد ، إنه لخير لنا أن ندع الكتابة فأن هذا الكاتب الشاب سوف يلقى علينا الخسوف ذات يوم .

ولقد سلف بنا كيف أن القيصر قد أعجب بفنه حتى لقد أمر أن تترجم إلى الفرنسية « سباستبول فى ديسمبر » ، ونزيد على ذلك أن الأمبراطورة قد ذرفت الدمع وهى تقرؤها ؛ وفعل ذلك ترجنيف نفسه فيما روى الرواة ، ومهما يكن مبلغ هذه الرواية من الصحة فأن من المؤكد أن ترجنيف قد كتب إلى أكساكوف ينبئه أنه لم يكتف بقراءة الأقصوصة بل لقد صاح قائلا : مرحى ! مرحى ! وشرب كأساً من أجل المؤلف ...

ووجد تولستوى نفسه مرموق المكانة ، يشار إليه و يتهامس باسمه فيما أكثر من غشيانه من المراقص والمنتديات ودور اللهو والمطاعم مع فريق من أصحابه ، حيث كان ينفق عن سعة و يستمتع بالحياة ماوسعه الاستمتاع ، كما كان يفعل قبل رحيله إلى القوقاز .. وأولم له أصحابه الولائم وأحاطوه بحفاواتهم و إعجابهم أينما التقوا به ،

وما كانوا ينصرفون إلا وقد تواعدوا على اللقاء ، وما أخلفوا قط موعداً . .

وكان تولستوى أول الأمر شديد الانجذاب نحو الأدباء الكاتبين فى مجلة المعاصر ، وكان حبيباً إلى نفسه أن يشعر أنه بات فى زمرتهم ، ولقد أحب بطرسبرج عندما جاءها هذه المرة من أجلهم ومن أجل المجلة التى يكتبون آثارهم فيها . .

وكانت المعاصر مجلة شهرية أنشأها بوشكين و بلتنيف سنة ١٨٣٦ ؛ وقد آلت ملكيتها إلى بانتييف والشاعر نكراسوف سنة ١٨٤٨ ، وكانت تعد عندما بدأ تولستوى الكتابة أقوى المجلات وأكثرها ذيوعاً .

وألفت المجلة بين جماعة من الكتاب ، كانوا فى الأكثر لا ينشرون آراءهم إلا فيها ، وكان من بينهم ترجنيف وجريجور وقتش وجونشاروف والشاعر فت وغير هؤلاء ممن كانوا دونهم منزلة وقدرة ، وكانوا ممن يؤيدون حركة أخذت تنمو يومئذ وهى حركة تحرير رقيق الأرض ، كما كانوا يعدون أنفسهم من دعاة الإصلاح العام على أساس الديموقراطية والتقدم الاجتماعي . . وكان الأمل يملأ نفوسهم أن عهد القيصر الجديد عهد إصلاح ونهوض كما كانوا يوقنون أنهم يشهدون فجر الإصلاح في روسيا .

وأظهرت هذه الجماعة للضابط الشاب القادم من القرم كل حفاوة ، وكانوا يقدمونه إلى من لا يعرفه لا على أنه كاتب ذو موهبة فنية مرموقة فحسب ، ولكن على أنه كذلك من أبطال سباستبول . .

وإن المرء ليظن بادئ الرأى أن تولستوي قد وجد هذه الجماعة خير من يصاحب ، ووجد فى بيئتهم أصلح بقعة لنمائه وامتداد جذوره . . ولقد تلقته هذه الجماعة وفى نفوسهم أنه سوف يغدو واحداً منهم يشعر شعورهم ويميل ميلهم ، ولكن ما لبثوا أن كشفت لهم الأيام أنهم كانوا مخطئين ! . .

أولموا له ذات يوم وليمة حضرها أكثرهم وكان يتقدمهم ترجنيف ، ودار الحديث حول المائدة وتشقق وتناول كثيراً من شؤون السياسية والاجتماع ، وتولستوى صامت وفى وجهه ما يشعر أنه لا يذهب مذهبهم ، حتى مال الكلام

إلى « چورج ساند » وكانت بينها و بين ترجنيف مودة و إعجاب متبادلين ، وأخذ ترجنيف يثنى عليها وعلى آرائها ما وسعه الثناء ، وشاركه في هذا الثناء أصحابه جميعاً إلا تولستوى فقد ظل صامتاً عابساً وبدا عليه أنه ضائق بهذا الكلام ؛ وما كان أعظم دهشة رفقته إذ تكلم آخر الأمر ولم يعد يطيق صبراً ، قائلا فى حماسة وحدة إنه يرى أن امرأة تذيع مثل هذه الأراء خليقة بأن تعلق إلى عربة الجلاد وتسحب فى الشوارع نكالا لها وعبرة لغيرها ! وتبادل الرفاق النظرات وفى وجوههم مع الدهشة شعور الخيبة والخجل ، وقد كانت بين الحاضرين زوجة پانييف وكانت جد معجبة بما تقول چورچ ساند !

والتقوا بعد ذلك في بيت نكراسوف ، وطلب إلى تولستوى لسوء الحظ أن يتلو على الجماعة كتاباً جاءهم من أحد الأغنياء من مالكى الضياع وكان يعشق الأدب ، ولم يكن يعلم أحد ما جاء بهذا الكتاب ، وقرأ تولستوى فإذا بالرجل يشير فى أكثر من موضع إلى أن تولستوى لا يعطف على الاتجاه السياسى الحر وأبدى عجبه من هذا . . . وكتم تولستوى غيظه حتى خرج فكتب إلى هذا الرجل يدعوه إلي مبارزته ، الأمر الذى ساء وقعه فى نفوس الجماعة حتى كادوا يضيقون بهذا الرفيق الجديد ... وأصر تولستوي على المبارزة على الرغم من سعى أصحابه ليسحب تحديه ، ولكنهم نشطوا ليقنعوا ذلك الغنى بأن يتغافل عن هذا التحدى فكان لهم ما أرادوا .

وازداد الخلاف بينه و بين أصحابه فى كثير من أوجه الرأى مما كان يشغلهم يومئذ من شئون السياسة والأدب والاجتماع ، حتى أوشك أن ينقلب هذا الخلاف جفوة فإنه ما يلقي أحداً منهم إلا شعر هذا حياله بشيء من الانقباض و برغبة فى التحفظ مخافة أن يجبهه تولستوى فيؤذيه ..

ويمكن أن نرد مسلك تولستوى نحو أصحابه إلى بواعث مختلفة وإن كنا لا نستطيع أن نجزم أى هذه البواعث كان أشدها سيطرة عليه . .

كان تولستوى أرستوقراطي المزاج بحكم نشأته ولذلك كان ينقصه التحمس

لما يحلم به أصحابه من الديموقراطية و بخاصة لأنه لم يتبين حقيقة ما يريدون ..

لهذا وقف تولستوى موقفاً بين الرجعية والتقدم فهو وإن لم يكن رجعياً إلا أنه لا يستطيع أن يشايع ما يحس حوله من نزعة تقدمية ليس يدرك أصحابها أنفسهم على أى صورة يكون ما يطلبونه من التقدم ، وقصارى ما أقره يومئذ ورغب فى تنفيذه هو تحرير رقيق الأرض . . وقد كان أنصار الأصلاح يريدون أن يأتى الأصلاح على يد الحكومة ، فى حين كان تولستوى من أول الأمر ممن لا يؤمنون بالحكومات فى صورة تكاد تجعله من أنصار الفوضى .

وكان يكره تولستوى أن يربط نفسه بجماعة أيا كانت هذه الجماعة لأن ذلك يقتضيه شيئاً من المسايرة والمصانعة حتى يعايشها وهذا مما لا يتصل بطبعه فى كثير ولا قليل ، لأنه لا يحب أن يخضع رأيه لرأى غيره . .

وكان تولستوى سريع الغضب كما قدمنا ، لا يلبث أن يحتد إذا رأى من من الكلام ما لا يعجبه ، ومن الآراء ما لا يتفق وما يرى كما حدث منه حين سمع الثناء على جورج ساند . .

ويتصل بذلك فى أخلاقه ولوعه الشديد بالمعارضة لذاتها ، فما أن يسمع رأياً من متحدث إلا وثب عليه برأى يعارضه ويسفهه ، وسرعان ما تبين ذلك فيه أصحابه فكرهوه وكان من أسباب نفورهم منه وازورارهم عنه ، ولقد أجمعوا فيما بينهم على أن تولستوى يحب أن يسخر من محدثه وأن يغالبه وأنه يشتد فى ذلك كلما أحس من المتحدث أنه يجعل من نفسه مصدراً وثيقاً أو يعتد بمتانة منطقه وشدة عارضته وقوة مراسه فى المطاولة والمصاولة ، فتراه عند ذلك يتحمس فى مغالبته ابتغاء أن يظهر عليه .

وقد كان تولستوى يفطن إلى هذه النزعة فى سلوكه فقد أثبت فى يومياته ذات يوم يقول « غذاء لترجنيف حيث أدت بى حماقتى إلى الغضب من أنشودة لنكراسوف . . . لقد قلت كلاماً كريهاً لكل امرئ هناك . غادر المكان ترجنيف مغضباً .. إن ذلك ليحزننى وبخاصة لأنى لا أكتب الآن شيئاً »

وذكر الشاعر الشاب فت أنه لم يكد يرى تولستوى حتى لاحظ اندفاعه الغريزى إلى مدافعة الآراء المسلمة جميعاً ؛ ولما رآه عند نكراسوف هو وترجنيف لأول مرة شاهد مبلغ ما بعثه من الحنق فى نفس ترجنيف من فرط مخالفته إياه ومعارضته وتسفيه آرائه . .

وثمة أمر آخر باعد بين تولستوى وأصحابه وذلك أنه كان قليل الثقـة فى إخلاص المخلصين وتحمس المتحمسين ، يحنقه أن يرى الفرق عظيما بين ما يقولون وما يفعلون .. قال ترجنيف « إن تولستوي لم يصدق قطما يبدو من إخلاص الناس فكل حركة مردها إلى الروح تبدو عنده زائفة ؛ وإنه ليثبت عينيه النافذتين فيمن يقع عليهم تشككه فكأنه يخزم بهما »

والحق أن قدراً كبيراً من حماسة المتحمسين يومئذ كان متكلفاً ، فقد انساق أكبر الكتاب فى الدعوة إلى الإصلاح كما ينساق الناس وراء ما يستهويهم من أساليب الزى مثلا أو ضروب اللهو والزينة وغيرها مما يبتدعه العصر .. قال تولستوى يشكو من ذلك إلى نكراسوف « إن من الآراء الجارية فى هذه الأيام أنه مما يستحسن فى النقد والأدب والاجتماع أن يبدى المرء تململه وتضجره وترفعه وعندى أن ذلك أمر كريه »

ولقد زاد أصحابه نفوراً منه وضيقاً به أنه كان يفعل ذلك الذى ينكره منهم فكثيراً ما كان بين آرائه وأعماله اختلاف كبير ؛ وكثيراً ما اعتزم إصلاح أمره وصمم أن يسير وفق قواعد هداه إليها طول النظر ثم يلبث أن يعود إلى ما كان يعده على نفسه من العيب !

ولئن كان يكره من دعاة الأخلاق من أقرانه عدم صدقهم لبعد ما بين أقوالهم وأعمالهم فلقد كان وقوعه فى نفس هذا الخطأ ثم أخذه أقرانه مع هذا باللوم الشديد مما يملأ نفوسهم حنقاً عليه وعجباً من تناقضه المزدوج !

ولم يكن تولستوى يخفى عن أصحابه ما يفعل أو يبالى بما عسى أن يقولوا ؛ دخل الشاعر فت بيت ترجنيف قبل معرفته بتولستوى فرأى سيفاً معلقاً على

الجدار فسأل الخادم لمن هذا السيف ؟ فأجابه إنه سيف الكونت تولستوى وأنه نائم فى حجرة الاستقبال ؛ ودخل الشاعر فكان يكلمه ترجنيف فى صوت خافت مخافة أن يوقظا تولستوى ،وأشار ترجنيف إليه قائلا « هكذا تراه أبداً ... الخمر والفجريات ولعب الورق طول الليل ، ثم ينام هكذا كأنه جثة هامدة حتى الساعة الثانية بعد الظهر ؛ ولقد حاولت أول الأمر أن أصده عن وجهه ، ولكنى الآن نفضت يدى وتركته يفعل ما يحب »

ولعلنا نجد في اضطراب تولستوى وفى اختلاف ما يعمل عما يطمح إليه من كمال ، بعض السبب فى حب المعارضة ، فلقد يعترض على الرأى مرة ويعترض على نقيضه مرة أخرى بدافع ما فى وعيه الباطن من قلق وحيرة ...

ولقد كان اضطرابه هذا وعدم استمراره فى اتجاه واحد فى الأمر الواحد مما يثير غضب محدثه ، ومما يحمله على مجافاته والإعراض عن مجادلته . .

* * *

ولقد اشتد النفور بينه و بين ترجيف بوجه خاص حتى أوشك أن يستحيل النفور فى أكثر من موقف عداوة شديدة ...

فى اليوم الذى بلغ فيه تولستوى بطرسبرج قادماً من سباستبول فى شهر نوفمبر سنة ١٨٥٥ ، قصد من فوره إلى بيت ترجنيف ، وكان قد تلقى دعوة منه وهو فى طريقه إليها ليقيم عنده ، وتلقاه ترجنيف مرحباً به وقدمه إلى دوائرالمدينة الأدبية والفنية متحمساً فى الثناء عليه .

وكان يعد ترجنيف زعيم الكتاب بعد موت جوجول ومنذ أن أخرج للناس كتابه « مذكرات رجل من رجال الصيد » ولقد أعجب كما قدمنا بكتاب تولستوى « عهد الطفولة » وقرأه على أخت تولستوى فى تحمس ظاهر قبل أن يعرف أن مؤلفه « ل . ت » هوليو تولستوى ..

وكتبت أخت تولستوى إلي أخيها تنبئه بما كان من إعجاب ترجنيف بكتابه ، ووقع كلامها فى نفس أخيها موقعاً عظيما زاده كما قال قدراً لنفسه ، و بث فى قلبه الإقبال على العمل ..

وتبادل الكاتبان الرسائل وتوثقت بينهما المودة ، وجعل تولستوى إهداء قصته « قطع الغابة » إلى مؤلف « مذكرات رجل من رجال الصيد » .

وسرعان ما دب الخلاف بين الرجلين حتى أوشكا أن يتقاطعا ؛ ويرد الكتاب أسباب هذا التنافر إلى ما بين الرجلين من اختلاف فى مزاجيهما وفي أسلوبهما في الحياة وكيفية استجابة كل منهما إلى مؤثرات العصر الذى عاشا فيه .

وأحسب أن خلافهما إنما يرد إلي نوع من التنافس أوشك أن يكون حقداً بينهما ، فكل منهما يحس فى أطواء نفسه شيئاً من الخوف أن يطفىء الآخر نوره ، ولا عبرة فى هذا بما كان من إعجاب كل منهما بآثار صاحبه ، بل لعل هذا الأعجاب كان الطلاء الذى يخفى الحسد والقلق ...

هذا تولستوى تحدثه نفسه بما سوف يكون له من خطر فى أدب قومه ، ويجد الثناء عليه عظيما وهو لم يزل بعد حدثا ، ولكنه يخشي أن يكون ما ذهب لترجنيف من الصيت وما انعقد له من الزعامة وهو يكبره بعشر سنوات ، هو العقبة فى سبيله إلى التفوق وذيوع الصيت .

وهذا ترجنيف يوقن بما أوتى تولستوى من مواهب فنية ، ويرى أن هذه المواهب ولم تزل بعد براعم وليدة قد لفتت الأنظار إلى صاحبها فكيف إذا مدت أقصى مدها ؟

أحسب أن هذا هو سر الخلاف بين الرجلين فإن هذا التحاسد الخفى بين نابهى عصر فى فن من الفنون يكاد لا يخلو منه عصر من عصور الأدب .

ولولا هذا الذى أزعم أنه سر الخلاف لكان من أيسر الأمور أن يغضي كل منهما عما ينكر من صاحبه ، فما أحسب أن الأمر كان يصل بينهما إلى ما وصل لو أن أحدهما كان شاعرا أو كاتب مقالة مثلا وكان الأخر كاتب قصة ...

وما هذا الذى أنكره كل منهما من صديقه ؟ يقول الرواة إن تولستوى كان يكره من ترجنيف إخفاءه فى نفسه ما لا يتفق وما يقول وما يتظاهر به ، فهو يشايع النزعة الديمقراطيه الحرة ولكن عين صاحبه النافذة كانت تستشف من وراء

ذلك أنه لا يستجيب حقا لهذه النزعة فهو يتأبه و يحرص على أرستوقراطيته ولا يفتأ يفخر بضياعه و بالألفين من رقيقه ...

و يقول الرواة إن تولستوى كان صريحاً لا يلتوى ، و يعد من الشرف أن يبدى كل مافى نفسه من أوجه الرأى وأن يجعل كلامه واضحاً كل الوضوح فى كل مسألة مما يطرح للمناقشة ، بينما كان ترجنيف يتحفظ و يتحرج و يجامل .

وكانت في تولستوى حدة تكاد تصل به إلى الحماقة ، وكان كذلك ترجنيف يعصف بالكلام إذا غضب عصفا شديداً حتى ما يبالى كيف يكون وقع كلامه .

وكان تولستوى يكره من صاحبه ما لا يفتأ يشعره به من رعايته ومن زعامته لأن ذلك يظهره بمظهر الناشىء الذى يحتاج إلى من يرشده و يعينه على أمره ، وهو يرى أنه لم يعد بعد صغيراً وأنه كسب لنفسه من الصيت ما لم يعتمد فيه إلا على موهبته ...

وكان ترجنيف يكره من تولستوى إشارته إلى لقبه و إلى نشأته الأرستوقراطية ولقد شكا من ذلك إلى أصحابه قائلا إنه ليعجب كيف يتعلق رجل كتولستوى له مثل هذا الذكاء تعلقا مضحكا بذكر لقبه أو الإشارة إليه فى أكثر أحاديثه .

وكان يضيق ترجنيف بحب تولستوى للمعارضة ، ووثوبه على كل متكلم بآرائه فى عنف وفى لهجة تنم عن التهكم والزراية والاستهزاء بمحدثه .

كل أولئك يذكره الرواة وكل أولئك كان التغاضي عنه ميسورا فيما أحسب لو لم يكن بين الرجلين ما يكون بين نابهين في فن واحد من تنافس .

ولقد يغار المرء من شخص يحسب أنه قاهره في أمر ، فيصور كل ما يصدر عنه بما في نفسه من اضطغان أو تجن عليه ، ولو لم يكن في نفسه هذا التجنى لرأى من صاحبه غير ما يرى .. وهكذا تختلف النظرة والفعل واحد لم يختلف .

و إنا لنحس صحة ما نذهب إليه فى تعليل الخلاف بين الرجلين فيما كتبه ترجنيف إلى صاحبه من باريس بعد ذلك بنحوسنة قال « أشعر أنى أحبك رجلا فأن حبي لك كاتبالا يحتاج إلي بيان ، ولكن فيك كثيراً من الصفات لا تحتملها أعصابى ، وقد تبنيت آخر الأمر أنه خير لى أن أبتعد عنك ؛ ولئن قدر لنا أن



ترجنيف فى أواخر حياته

نلتقى فلنحاول أن نكون أكثر صبراً ، وعندئذ تجرى الأمور بيننا على ما نحب . إن شعورى نحوك إذا ابتعدت عنك هو شعور العطف الأخوى ، مع ما قد يبدو فى هذا القول من غرابة » ... وقال فى كتاب آخر « لعلك وجدت فى كتبى شيئاً من المتعة ، ولعلها أثرت فيك بعض الأثر ، وكان ذلك حتى فطنت إلى نفسك فوعيتها ، ولست فى حاجة بعد إلى أن تدرسنى فإنك لن تعود من هذا إلا بما تجد من اختلاف فى سلوكي وماترى من أخطائي وما يشهد بقصورى عما أرمى إليه من مدى ؛ إنما ينبغى أن تدرس نفسك اليوم أيها الرجل وأن تدرس من يعدون من عظماء الكاتب حقاً » .

قضي تولستوى أشهر الصيف فى ياسنايا بوليانا ، فقد غادر بطرسبرج فى منتصف شهر مايو سنة ١٨٥٦ .

وما عاد من زيارته بطرسبرج إلا بنفوره كما يبنا ممن عرف من رجال القلم و بضيقه بما كان يرى من سلوكهم وكم كان ينفر طبعه الصريح مما يسمونه صداقة بينهم وماهو إلا تقارض الثناء ولو في غير موجب للثناء ، ومما يزعمونه تسامحا واعتدالا وما هو إلا قلة اكتراث بما تفرض قواعد الخلق ؛ ومما يدعونه أنه تحرر عقلى وما هو إلا نقص فى معرفتهم بالدين وقصور عن التفقه فى عقائده ... كتب فى نوفمبر يقول فى يومياته « إنى لضائق بهم جميعاً فأنى أطلب المودة والصداقة وهم غير خليقين بها ... إن الجو الأدبى يضايقنى أكثر مما يفعل أى شيء آخر »

وسرعان ما أرسل تولستوى ما يكتب إلى مجلات أخرى غير المعاصر وأخذ يقطع صلته بهذه الصحيفة ...

على أن الصداقة الصحيحة قد ربطت بين تولستوى وبين عدد من رجال القلم والفكر ، ومن هؤلاء تايتشوف الشاعر الذي أحب تولستوى وأكبره وزاره منذ وصل إلى بطرسبرج ودعاه إلى بيته ، ومنهم بوتكن وهو كاتب ملحوظ المكانة في النقد ودروشنين مترجم شكسبير إلى الروسية والشاعر فت الذى أحس تولستوى نحوه من الحب بقدر ما لمس من محبته له ، والذى سوف يشترى ضيعة فى مكان غير بعيد من ياسنايا ليكون على مقربة من تولستوي ...

روسيا بين الغسق والفلق !

ولى الاسكندر الثانى عرش روسيا سنة ١٨٥٥ ، وما تزال حرب القرم دائرة الرحى ، وبولاية الاسكندر نظر الناس فأذا على الأفق بشائر الفلق ...

لم يكن القيصر الجديد كسلفه « عسكرى تدريب متوجا » كما اعتاد الناس أن يسموا نقولا ، ولكنه بدا من أول الأمر رجلا تخالجه نزعة إنسانية ورغبة صادقة فى الإصلاح ...

كان الاسكندر فى الواقع محافظاً بطبعه ، ولكن ذلك لم يمنعه كما كان عسيا أن يمنع غيره ، من أن يحس أن فى البلاد تطلعا إلى نوع من الإصلاح وإن لم يدره على وجه التحديد ، وأنه إن لم يجارها إلى شىء ما تتطلع إليه انقلب تطلعها تمردا وولد تمردها ثورة ...

استهل هذا القيصر عهده بالعفو عمن لم يزل على قيد الحياة من «الديسمبريين» فعادوا إلى وطنهم بعد ثلاثين سنة من الغربة فى المنفي ، كما شمل عفوه غيرهم من السياسيين .

وسمح الاسكندر بشيء من حرية النشر إذ خفف وطأة الرقابة ، كما تفضل على الجامعات بقدر من الحرية ، وقضى علي ما وضعه نقولا من عوائق كانت تعتاق السفر إلى خارج البلاد .

وانتشي الناس بهذه الأنسام ، وطربت أنفسهم لنور الفجر يمحو غسق الليل ، وأيقنوا أن الصباح عما قريب منهل وأن روسيا بعده سوف تنعم بنور الضحى .

وذهب الناس كل مذهب بآمالهم لا يقفون عند حد ، ولا يتصورون أن عقبة تعترض لهم بعد اليوم فى سبيلهم إلى غايتهم من النهوض والحرية .

وقال الناس فيما قالوا « لنشكر الحرب التى وجهت أبصارنا إلى الجانب الأقتم من حياتنا السياسية ومن وضعنا الاجتماعى و إن واجبنا الآن أن نفيد من هـذا الدرس » وقالت إحدى الصحف الـكبرى « إن روسيا سوف تحقق بالسلم فى غير عناء من الإصلاح ما اقتضى تحقيقه دول أوروبا قرونا طويلة من الـكفاح و بذل الدماء . . ولن يقف جهد روسيا عند هذا فلسوف تبلغ مالم تبلغه بعد أوروبا بسبب ما تخلف فيها من تقاليد الإقطاع ومن اتباع الهوى فى نظرة طبقة إلى طبقة » .

ولم يخالج الناس يومئذ نفور من الملـكية ، بل لقد كانوا يرجون الخير على يد هذا القيصر المصلح ، الذى يبدو أنه يساير أهواءهم ، والذى أوحى إليهم بهذا كيف يزدادون تعلقا به .

ولـكن الذى خفى عن الاسكندر هو أن الخطر الحقيقى كان يكمن فى هذا التحمس له ، إذ أن أي انحراف عن هذا النهج الذى انتهجه خليق بأن يفعل فى إثارة النفوس و إزعاج الخواطر مالم يفعله استبداد نقولا نفسه ، فما أفظع ما يتحرق جوف الظمآن حيل بينه و بين الماء وقد أصاب قليلا منه لم يطفىء غلته ...

كان أجل عمل عمله الاسكندر هو تحرير رقيق الأرض ، والقضاء على هذا الوضع الشائن ، الذى أجمع دعاة الإصلاح على وجوب القضاء عليه إذا أريد بناء الأمة على أساس جديد ..

كان المصلحون يردون إلى هذا النوع من الاسترقاق كل ما يحسون من ركود علمي أو معنوى أو اقتصادى فى حياة روسيا ، لأنه في جوهره إنـكار للـكرامة الإنسانية ، ولن يرجى لشعب يسترق أن يطمح للنهوض إلا كما يرجى النماء فى جامد الصخر ...

وكان يفطن القيصر إلى أن هذا الرق ينذر بشر مستطير ، فما هذا السكون الذى يبدو فى مواطن الرقيق إلا تجمع الحمم فى جوف البركان ليضطرب فإذا به زلزال قد ترجف بعده الراجفة .

ولقد شهد تقولا تجمع هذا الحم فى أكثر من موطن بل لقد أحس زلزلة هنا وزلزله هناك ؛ فلما أبرم عقد الصلح سنة ١٨٥٦ عقد الاسكندر عزمه وجمع رأيه على أن يمحو هذا الرق ، قال ذات يوم لبعض النبلاء ينذر بالثورة على الرق « إننا نعيش فى عصر كل شيء فيه ينذر بأنها واقعة لا محالة إذا جاء وقتها وأظنكم تقروننى على ما أذهب إليه ، ولأن تأتى من أعلا والحال ما ترون ، خير من أن تأتى من أسفل » ...

ولقى الاسكندر معارضة شديدة من ما لكي الأرض أخرت بعض الوقت ماجمع له عزمه ، ولكنها لم تزعزع قط ذلك العزم ، فلما كانت سنة ١٨٦١ أصدر القيصر فى التاسع عشر من فبراير مرسوم التحرير ، فقضي علي هذا العيب القديم بجرة قلم ، وأضاف إلى السجل الإنسانى صفحة من الصحفات الخوالد في تاريخ الحرية ... فقد منح بمرسومه هذا ما يزيد عن أربعين مليونا من البشر ما كانوا يتوقون إليه من حرية ، وافتتح بذلك فصلا جديدا فى تاريخ بلاده ...

ولننظر ماذا كان من أثر لهذا المرسوم فى حياة الفلاحين . قضى هذا المرسوم بأمور ثلاثة للفلاح : أولها أنه منحه بعض الحقوق المدنية وأزال عنه ما كان من سيادة لمالك الأرض عليه توبق روحه وترهق بالسخرة والقسوة بدنه ، وتخلص الفلاحون من تدخل النبلاء فى صميم شؤونهم الخاصة ذلك التدخل الذى يصل إلى حد النظر فى أمر الزواج مثلا ؛ ولم يعد الفلاح كدواب الأرض يباع ويشتري وينقل من موطن إلى موطن ، ويجعل من خدم المنازل أو يترك فى المزرعة حسب مشيئة سيده ... وثانيها أنه جعل له حق امتلاك الأرض على ألا يكون ذلك على أساس شخصى فردى ولكن على أساس أنه عضو فى طائفة مشتركة متضامنة فى دفع الضرائب هي الكومون الزراعى أو الشعبة القروية ، فقد قسمت الأرض بين النبلاء فى كل جهة وبين فلاحيها مجتمعين ، وذلك لكى يحول المرسوم دون الإخلال بالتوازن فى توزيع الأرض ودون ظهور طبقة محرومة كل الحرمان من الملك . وثالثها أنه قضى بأن تمد الحكومة كل « كومون » زراعى فى القرى بقرض

يتناسب مع قيمة ما يمتلك هذا الـكومون من أرض بربح قدرة ستة جنيهات فى كل مائةجنيه ، ويسددفى مدى تسعة وأربعين عاما ؛والغرض منه إعانة الفلاحين الذين يتكون منهم الـكومون على دفع ما فرض عليهم من تعويض نقدى أو عينى للنبلاء عما تنازلوا عنه مما كانوا يمتلـكونه من أرض .

من هذا نرى أن ماعاد علي الفلاحين من مرسوم التحرير كان أمراً معنويا فحسب، أما جانب الاقتصاد فقد نظروا فإذاهم بما يطلب منهم من ضرائب ومن تعويض ومن ربح للقرض لا يزالون يحسون العبودية ولن يزالوا يحسونها طالما تنقض هذه الأوزار ظهورهم ... ولذلك لم يتحمس الفلاحون لقرار التحرير كما كان ينتظر منهم بل إنهم فى كثير من الجهات كرهوه وودوا لو لم يكن !

كره الفلاحون هذا التعويض الذى يتقاضاه النبلاء ورأوا فيه نوعا من الظلم ، وبخاصة لأن النبلاء فى رأيهم لم يعد لهم حق في ادعاء ملـكية الأرض جميعا بعد أن أعفتهم الحـكومة من الخدمات العسكرية الجبرية ؛ فما أخذ منهم من الأرض إنما رد إلى الدولة ، وقضت الدولة بأن يمتلـكه فى كل قرية كومون أو طائفة مشتركة ...

والواقع أن الفلاحين لم تتحسن حالهم الاقتصادية إن لم تزدد سوءا ، وإن كانت ارتفعت درجتهم الاجتماعية ... على أنهم لم يأبهوا كثيراً لهذا المعنى ، وستظل أوزارهم التي ينوءون بها موضع شكواهم حتى تكون في أوائل القرن العشرين العامل الأول فى ثورتهم الـكبرى . .

ومهما يكن من مغزى هذا التحرير ، فإنه لم يصل إلى حد المساواة بين الفلاحين والنبلاء كما صنع إعلان حقوق الإنسان فى فرنسا مثلا ، فلا تزال بعض القيود تنقص من حرية الفلاحين ومن ذلك نظام الشُعب أو الطوائف المشتركة فقد جعلت الحـكومة لهذه الشعب سلطة تجبر أعضاءها علي البقاء فى نطاقها ، ومعنى ذلك أن هؤلاء الأعضاء محرومون من حرية الانتقال ومن حرية العمل ، ولا يمكن القول مع هذا بأن الروس جميعاً أمام القانون سواء .

وثمة شيء أخر جعل الفلاحين فى مواطن كثيرة يحسون غل العبودية فى أعناقهم و إن قيل لهم إن القيصر قد حطمه بمرسومه ، وذلك أنه نظرا لقلة الأرض فى بعض الجهات وكثرة السكان ، كان النبلاء يأجرون هؤلاء أجراً زهيداً على أعمالهم ، وليس فى هذا كبير اختلاف عن الاسترقاق ، كما أنهم كانوا يؤجرون لهم أرضهم فيغالون فى الأيجار و بذلك يسخرون هؤلاء المساكين كما تسخر الدواب.

* * *

وتناول الاسكندر القضاء بشيء من الإصلاح ، فأدخل فى سنة ١٨٦٤ على نظام التقاضي تعديلات اقتبسها من فرنسا وإنجلترة ، فقد فصل بين السلطة القضائية والسلطة الإدارية ، ووضع أساس استقلال هيئة القضاء وأدخل قاعدة المحاكمة العلنية ونظام المحلفين . . ، وأعاد تقسيم المحاكم درجات على قاعدة تمكن المحكوم عليهم من استئناف الأحكام ..

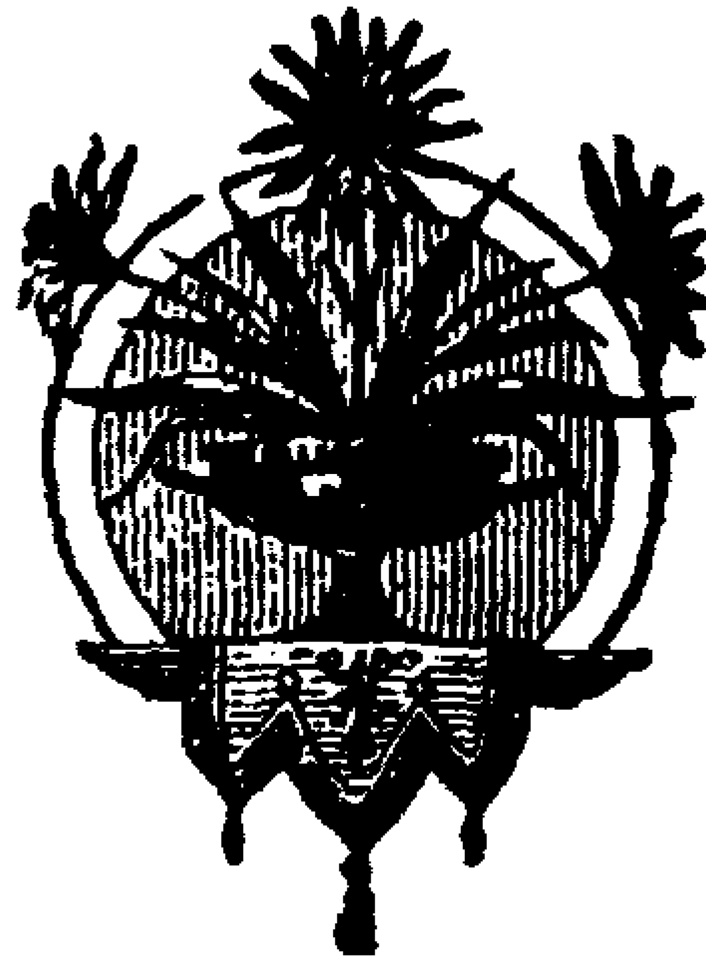
وامتد إصلاح الاسكندر إلى النظام الإدارى ؛ فقد كان يوجد قبل عهده ثلاثة أنواع من المجالس الإدارية : مجالس للنبلاء فى الجهات المختلفة ترفع للحكومة ما يعرض لها مما يتطلب النظر ؛ ومجالس القرى و يسمى الواحد منها « مير » ؛ ومجالس أكبر من هذه يسمي واحدها « الفلست » وهى لناحية من النواحى تشمل ، بعض القرى .

وأضاف الاسكندر إلى هذه مجلسين قضي بهما على سلطة النبلاء فى المقاطعات أحدهما يمثل إقليما يضم عددا من النواحى ، و ينتخب أعضاءه الناس من النبلاء وغير النبلاء علي سواء و يسمى « زمستف » ، وثانيهما يمثل المقاطعة كلها و يسمى « جو برنيا » ويختار المجلس الأول أعضاءه ؛ وللمجلس المقاطعة حق اختيار صغار القضاة والنظر فى إصلاح الطرق والجسور والإشراف على التعليم الأولى والشؤون الصحية والعمل على تجنب المجاعات .

ولكن هذه المجالس كانت خاضعة لحكومة المقاطعة إذ كان من حق هذه الحكومة إلغاء قراراتها كما أنه كان ينقصها المال اللازم للأصلاح .

وكان هذا قصارى مافعل الاسكندر إذ أنه لم يشأ أن يخطو خطوة حقيقية نحو الشورى ولذلك فهو لم ينشىء مجلسا عاما لروسيا يمثل الشعب فيه نواب منه ، وبقيت السلطة كلها فى يده ؛ ولكنه على أى حال هيأ الأفكار لمابعد هذه الخطوة الصورية من صحيح الخطوات .

واطمأن الاسكندر إلى أن هذا الذى صنع من ضروب الإصلاح مؤد إلى السلام والأمن ولكن الظمآن لن ينقع غلته سراب والجائع لن يشبع جوفه الوعد بالطعام ، ولسوف يستأنف الحمم تجمعه وتيأهب البركان للثوران ولئن لم يشهد هذا القيصر ألسنة اللهب فى عهده فلسوف يرى ما يسبقها من دخان . .



شواغل ونوازع

أخذ تولستوى يتفكر فى علاقته برقيق أرضه ولم يمض طويل وقت على عودته من القرم ؛ وما لبث أن وجد هذا الأمر يشغل باله حتى « ليسبب له قلقا عظيما » على حد قوله ؛ ولقد بلغ من نفسه مبلغا عظيما قول الاسكندر إن القضاء على الرق واقع لا محالة ولأن يأتى من أعلا خير من أن يأتى من أسفل ؛ وتأثر تولستوى كذلك بما شاع يومئذ في البلاد كلها من رغبة فى التقدم ، وبما كان يملأ الآفاق من حديث الحرية قبل تتويج القيصر الجديد وبعده ، وبما أحس من ميول أصحابه وما سمع من أحاديثهم عن الاتجاه القومى الجديد وإن كان لم يؤمن بصدقهم فيما يزعمون كما أسلفنا ...

ورغب تولستوى فى أن يطلق رقيقه من قيد العبودية وأن يرام فضلا عن تمتعهم بالحرية يتمتعون بامتلاك جانب من الأرض . .

واعتزم تولستوى أن يمنح كل أسرة فدانا ونصف فدان من الأرض بالمجان ، وأن يبيعها أحد عشر فدانا يسدد ثمنها في نحو ثلاثين سنة فى صورة إيجار شكلى بحيث يستغرق في هذا الثمن ما كان عليه من دين ؛ وكان منه هذا العزم بعد أن زار الباحثين في هذا الأمر من طلاب الإصلاح ومن رجال الحكومة .

ولشد ما دهش تولستوى أن يجد من الفلاحين تراخيا وفتورا حين جمع ذوى المكانة منهم وعرض عليهم ما عقد عليه عزمه ...

ومرد هذا التراخي إلى أن الفلاحين كانوا فى كل جهة يظنون بسادتهم الظنون وقد شاع فيهم أن القيصر الجديد سوف يقضى على الرق وسوف يمنحهم الأرض دون أن يتقاضاهم شيئاً ، وما يعرض السادة اليوم من اقتراحاتهم إن هو إلا مكر سيء ...

ولقد ظن الفلاحون بتولستوى هذا الظن ؛ كتب فى يومياته فى اليوم العاشر من يونيو سنة ١٨٥٦ يقول « لقد عقدنا اجتماعا فى المساء ، ولقد رفضوا رفضاً باتا أن يوقعوا ... سوف أذهب بنفسى فى الصباح إلى الفلاحين فى كل ناحية فأتبين رغباتهم وأحاول أن أقنعهم بالتوقيع فرادى » .

ولـكن محاولته هذه ذهبت كذلك عبثاً ، الأمر الذي ضايقه أشد الضيق ولقد وصف ذلك تولستوى فى قصته « صباح أحد المالـكين » ثم عاد إلى وصفه بعد ذلك بأعوام طويلة وهو فى نحو الثانية والسبعين من عمره وذلك في قصته العظيمة « البعث » .



لم يكن أمر علاقته بفلاحيه لحسب ما يشغله ويقلق نفسه ، وإنما كانت هناك أمور أشار إليها تولستوى فى قوله « إن تيارات أربعة من تيارات الشعور تتملك نفسي ، الحب ، ووخزات التأثم مع ما فيها من لذة ، والرغبة فى الزواج لأتخلص به من هذه الوخزات ، والطبيعة » .

هذه نوازع نفسه ، ولقد كانت الرغبة فى الزواج أشد هذه النوازع إلحاحا عليه وأعظمها استثارا بتفكيره وقلبه ؛ ولا بد من نظرة نبين بها سبب تلك الوخزات التى يشير إليها قبل أن نسرد ما كان من أمر رغبته فى الزواج ..

لعل مردهذه الوخزات إلى ما كان من إطاعته شيطانه أكثر من مرة إذ يستجيب إلى رغبات جسده ، ولقد ذكرنا من قبل أنه كان ذا شهوة عارمة ، وطالما استعان الرياضة والقراءة ليصرف بهما خياله عن مهاوى الفتنة ، ولـكن جسده كان يلح عليه إلحاحا قويا لايلبث معه أن ينقاد لشيطانه ؛ ثم يستسلم بعد ذلك للندم ليغريه الندم أو لتغرية تلك الوخزات اللذيذة بالإثم فيقع فيه ثانية ، ثم لايزال يسلمه الإثم إلى الندم ويغريه الندم بالإثم كما رأينا من حاله في لعب الميسر والعزم مرات في غير جدوى علي التخلص منه ...

ولقد ظل هذا التأثم في نفسه إلى نهاية عمره الطويل ؛ زاره أحد النقدة وهو

بيروكوف قبل موته بثلاثة أشهر فقال له تولستوى « إنك تكتب عنى دائما ماهو خير وهذا عمل مضل كما أنه ناقص ، إذ يجب أن يذكر كذلك جانب الشر من حياتى لقد عشت عيشة خبيثه فى حداثتى ، وثمة حادثتان على وجه خاص لا تزالان حتى اليوم تثيران في نفسى الألم ، و إنى إذ أطلعك عليهما أطلب إليك أن تذكرهما فى فى ترجمتى ، أما الحادثتان فهما . فعلة فعلتها بأمرأة من قريتنا قبل زواجى وقد أشرت إليها في قصتى « الشيطان » ، ثم جريمة أخرى اقترفتها قبل ذلك بزمن طويل إذ أغويت خادما كانت عذراء فى بيت عماتى تدعى ماشا فاستلبتها أعز ما تملك وقد ترتب على ذلك طردها فأوردت موارد الهلاك حتى هلكت » .

ولقد كان لتولستوى غير هاتين الحادثتين ، حوادث أخرى كثيرة ، لم يتألم منها كما تألم من هاتين و إنما كان يحس أنها تخزه وخزات لا تخلو من لذة ، وكان ذلك منه مع نساء وفتيات لم يعد لديهن ما يستلب ، وظل بدنه يلح عليه و يقهر عزمه وهو فى سن الحداثة والعرامة ؛ جاء فى يومياته فى اليوم الثامن من مايو سنة ١٨٥٣ « كتبت اليوم قدراً كبيراً . لا بد لى من امرأة ، إن الشبق لايدع لى لحظة من الراحة » وجاء فى التاسع من يوليو « لقد انجذبت بالأمس إلى غجرية حسناء ولكن الله نجانى . . تجنب مجتمعات النساء التى تصل إليها فى يسر وحاول أن ترهق نفسك بالعمل الجثمانى إذا ما اشتدت بك الرغبة » .

على أن تولستوى قد تفتح قلبه للهوى العذرى مرات على الرغم من استجابته لنوازع جسده ؛ ولقد كانت هذه العاطفة مبكرة فيه على صورة غير مألوفة كما سبق القول ، فأحس فى طفولته أنه يحب إسلنيف تلك البنت الصغيرة التى كانت تعيش فى كنف أسرته والتى كان يغار عليها أشد الغيرة والتى سوف تغدو فيما بعد أم زوجته ! وأحب بنتا أخرى تسمى سونيا أو سونشكا ، وكانت عاطفته نحوها عميقة صادقة على الرغم من حداثته .

وأحب فى شبابه ألكسندرا دياكوف أخت صديق من أصدقائه فى الجامعة ؛ وفي قازان ملكت قلبه زياندا مولستغوف حتى تغنى بحبها ، ولقد لقيها كما أسلفت

بعد ذلك بنحو خمسة أعوام وهو في صحبة أخيه فى طريقهما إلى القوقاز فعاد ينبض بحبها قلبه ، ثم فرقت الأيام بينهما إلى غير عودة .

وفى القوقاز أحب الفتى قوقازية جميلة تصورها لنا شخصية ماريانا فى قصة « القوزاق » فما كان حب أولينين بطل القصة ، فتاته ماريانا إلا حب تولستوى تلك القوزاقية ..

ولقد كان تولستوى كما أسلفنا يحلم في القوقاز أحلام الحب والزواج والأسرة ويمني نفسه باليوم الذى يكون له فيه زوجة يسكن إليها و بنون ينعم بزياطهم حوله .

وكان الذي يساور خياله من الفتاة التى يتزوجها عقلها وقوة بدنها وصدق طويتها ، ونظرها إلى الحياة نظر زوجها كأنها ترى بعينيه ، وكان يريدها أن تستخلصه لنفسها فلا تجعل للمجتمعات والمجالس همها ، وإن كانت لتتحلى من الصفات بمايجملها لتلك المجتمعات أهلا . .

ولعله كان يخشي العاطفة القوية التى تخيل إليه أنه وقع علي طلبتة وإن لم يكن فيها ماينشد من صفات . .

وهكذا جعل تولستوى من المرأة فصيلتين ، فامرأة يستجيب لها جسده وما هي إلا متعة ساعة ثم لا يكون فيها شيء ، وامرأة ينشدها قلبه هى متعة الدهر كله وله فيها كل شيء ..



عرج تولستوى على موسكو وهو فى طريقه إلى قريته ، فقضى فيها عشرة أيام ؛ وهناك زار من ساكنيها قوما عرفوم منذ حداثته ، وكان قلبه يفيض بعاطفته القديمة ، عاطفة الطفولة البريئة التى جعلته يحب الناس جميعاً،وقد انبعثت فيه وهو يولى بطرسبرج ظهره ...

زار بيت سونشكا ولكنه لم يجدها ، ففارد البيت ثقيل القلب ؛ ثم زار إسلنيف وهى يومئذاك زوجة طبيب يدعى بيرز وكانت هى بعينها تلك البنت الصغيرة التى كان يغار أشد الغيرة عليها وهو غلام ، والذى دفعها ذات يوم فألحق بساقها الأذى فى لحظة غيرة؛ واستبقته إسلنيف فتغذى معها ، ولعب بعد الطعام

مع بناتها الصغيرات الثلاث فى مرح وسرور عظيمين .. وقد جاء فى يومياته « لقد كان البنات يقمن على خدمتنا اثناء الطعام ... ما أعز هؤلاء البنات الصغيرات وأكثر مرحهن » ... ولم يكن يدرى تولستوى أن وسطى هؤلاء البنيات المرحات وهي يومذاك فى الثانية عشرة من عمرها سوف تكون بعد سنوات ست زوجته الكونتس تولستوى ! ...

وزار تولستوى ألكسندرا دياكوف وكانت يومذاك البرنسس أبو لنسكي زوجة البرنس أبو لنسكي وأحس تولستوى شيئاً كأنه الحب حيال هذه السيدة!... قال فى يومياته « ٢٢ مايو ... لم أعرف مدام أبو لنسكى أول الأمر ... شد ما تغيرت ... يشملنى حب قوى ... أجل ، إنه ليؤذينى ، ويؤذينى الآن أن أفكر فيما كنت أنال من سعادة هى اليوم نصيب أبو لنسكى » ... وقال بعد ذلك بيومين وقد علم أنها فى بيت أحد الأصدقاء فذهب إلى هناك « لم تتكلم كثيراً.. ولكنها أصاخت إلى وأقبلت بكليتها على حين تحدثت مرة أو مرتين؛ كلا إننى لا أغلو إذ أقول إنها أحلي امرأة عرفتها مدى عمرى ؛ إنها أعظم النساء أناقة وأكثرهن فنا . يضاف إلى هذا فى نفس الوقت طبع مهذب » .

ورآها تولستوي بعد ذلك فى ضيافة أسرة دياكوف فكتب يقول « بنت ألكسندرا مريضة . لقد قالت لسرجى سخوتين وأنا حاضر أنها لم يكن لها عشاق أيام كانت مخطوبة ؛ لم يكن زوجها حاضرا ... هل كانت تريد بذلك أن تقول لى إنها ليس يربطها به حب ؟ وحين ودعتني بعد ذلك مدت إلى يدها فجأة وكانت الدموع فى عينيها إذ كانت تبكى لمرض ابنتها . ولكننى شعرت بفيض عظيم من الغبطة . ثم إنها بعد ذلك خطت تشيعنى إلى الباب على غير توقع منى ... حقاً إننى منذ أيام سونشكا لم أذق مثل هذا الشعور القوى الطيب ، وأقول الطيب لأن تمثله يبث فى نفسى السرور وإن كان لا أمل من ورائه . انى أرغب رغبة قوية فى أن أعمل لأتمام كتابى « عهد الشباب » وأظن أن مرد هذه الرغبة إلى أن مثل هذا الشعور يتجدد فيه »

ولما عول تولستوى على السفر دعاه سخوتين وأبو لنسكي ليوافيهما فى بيت ديا كوف . يقول فى ذلك « ذهبت وتحريت مع ألكسندرا ثلاث ساعات أحيانا وحدنا ، وأحياناً وزوجها حاضر وإنى لأعتقد أنها تعرف شعورى وأنها لذلك مغتبطة . لقد أحسست بالغبطة إحساسا قويا عميقاً » .

ثم مالبث أن انقضى هذا الحلم الجميل بسفر تولستوى إلى قريته ياسنايا بوليانا

***

ازدادت في نفس تولستوى رغبته في الزواج ، فما تبارح فكره وخياله ، وقد أوقدت جذوتها في نفسه ما رأى من هناءة إسلنيف وألكسندرا وهناءة زوجيهما

وحدث أنه سافر صحبة الآنسة الفرنسية ڤرجانى ، وكانت مربية ڤاليريا ، تلك الفتاة اليتيمة التى كان له الولاية عليها ، فعرج تولستوى على سودا كوڤو تلك الضيعة التى لا تبعد سوى خمسة أميال عن ياسنايا والتى كانت تقيم فيها ڤاليريا أرسنيف وأخاها وأختيها فى رعاية عمة لهما ...

ورأى تولستوى ڤاليريا ، فإذا بهذه الفتاة التي عرفها طفلة ساذجة ، تبدو اليوم لعينيه كالزهرة أخذت تتفتح عنها أكمامها ، فهى فى أول عهدها بالشباب .

وأقام فى ياسنايا أياما فما بارح قلبه سحر ڤاليريا ، وكانت نفسه تحدثه أنها الفتاة التى طالما تعلق بها خياله .

وكان كل ما حوله فى هذا الصيف يوحي إليه أنه ينقصه الزوجة الحبيبة ليحس جمال الكون ويستمتع بالحياة ...

وأجال بصره فى ملاعب طفولته ومسارح لهوه ، فاستوحش جانب القصر الذي هدم منذ أن باعه ، وكأنما زادت هذه الوحشة معنى الوحدة فى نفسه إلى الزوجة ... وعاد يحزن نفسه موت أخيه ديمترى الذى قضي نحبه بذات الصدر أول هذا العام فى مدينة أوريل ، وكأنما كان يستحثه على الزواج خروج أخيه من الدنيا ولم يتزوج .

ولم يصرف خياله شيء عن ڤاليريا وقد توسم فيها النبل والطهر ؛ فلما عاد

ذات يوم من زيارة ترجنيف وكان قد ذهب إليه فقضى أياما معه فى ضيعته ، أحس أن قد مس قلبه الحب ... وخيل إليه أنه وقع أخيراً على الفتاة التى يرتضيها زوجة له ..

وعملت فرجانى فى مهارة ولباقة على أن تربط بينهما ، فمهدت أكثر من مرة للقائهما منفردين ؛ وأوحى إليه صديقه ديا كوف أن ڤاليريا خير من يصلح له وأثنى على صفاتها وامتدح جمالها .. وقد كان ديا كوف على علم بما يعتلج فى أطواء نفسه .

وأصبح الفتي وليس يشغله إلا ڤاليريا ، فأذا جلس إلى مكتبه ليتم كتابه « عهد الشباب » كتب ساعة ثم إذا بخياله يطير به كل مطير فيما يتصل بڤاليريا والزواج من ڤاليريا ، وإذا تفكر لحظة فى علاقته برقيق أرضه قطع عليه تيار فكره خيال ڤاليريا .

وكان أول الأمر كلما لقيها أحس كأنه يرى من محاسنها سيئاً لم يره من قبل ، وحدثته ذات مرة حديثاً طويلا عن الملابس وعن الاحتفال القريب بتتويج القيصر الجديد ، فأعجب بحديثها على تشققه وتشعبه فى غير نظام ورآها ذات يوم في ثوب جديد أبيض فأحس من سحرها مالم يحس من قبل ، وكتب أنه قضي يوما من أبهج أيام حياته .

على أنه يسأل نفسه أيحبها حقا كما يكون الحب ؟ ثم أتحبه هى وتفطن إلى شعوره حيالها ؟ ذلك ما يريد أن يستوثق منه ..

وتضله الأوهام وتذهب به كل مذهب ، فها هوذا وقد كثر ذهابه إلى سودا كوفو يكتب عن ڤاليريا « أنها فتاة ساء تعليمها إلى أبعد مدى ، وأنها جاهلة إن لم تكن غبية » ثم يذهب إلى أبعد من ذلك فيقول إنها ينقصها دماثة القول وذلك أن لسانها جرى أمامه مرة بلفظة أحزنته وكادت تذهب من نفسه كل سحر .

وكأنما انجابت عن بصره قوة ساحرة كانت تريه صفاتها جميعاً محاسن ، فهاهما ذراعاها تبدوان وقد تعرتا غير متسقتين ؛ وإنه لينظر إليها وفى عينيه قسوة

النقد ، و إنها لتحس ذلك فما تكاد تتم ابتسامتها لديه ؛ و إن عينيها لتتنديان غيظا ، و إنها لتتصنع الجمود نحوه وعدم الاكتراث له ؛ ثم إنها لتطلعه على كتاب إلى أختها ترميه فيه بالأثرة و بما هو أقسى من الأثرة ؛ و يغضب الفتى فيعنف عليها ، ولكنه يراها « حلوة بالغة الحلاوة » إذ تطلب إليه والدمع فى مقلتيها أن ينسى كل شيء وأن يدع الأمور لتعود كما كانت قبل أن تكون بينهما صلة .

وظلت هذه حاله أياما يراها مرة جميلة ساحرة لطيفة الحديث ، ويراها مرة سخيفة لا تتعلق بالجد من الأمور ، متكلفة أشد التكلف ، غبية لا شك فى غبائها ..

ولما قرب رحيلها إلى موسكو لتشهد حفلة التتويج اشتد حنينه إليها ووجده بها وذهب فزارها مودعا قبيل سفرها فوجدها « جميلة ظريفة ترسل نفسها على سجيتها » ... وكتب يقول : « أود أن أعرف أأنا أحبها حقاً ؟ »

وضايقه ألا تكتب إليه من موسكو ، وألهبه ذلك تطلعا إلى أنبائها ، وملأه حنقا عليها بقدر ما زاده تعلقا بها !

والحق إن من يتعمق النظر فيما كان من صلة بين تولستوي وفاليريا ليجد أن الأمر من جانب تولستوى كان رغبة منه فى أن يثير فيها الحب وقلقا خفيا يساوره علي مبلغ نجاحه فى ذلك أكثر منه حبا صحيحا تستشعره نفسه ولقد عرفناه منذ نشأته شديد الشعور بذاته ، يجعل ذاته و إن لم يشعر أساس كل تفكير له ومبعث كل عمل .

وأثرت حيرته فى صحته فتمشى فى بدنه السقم ، وحاول أن ينسي آلامه النفسية والبدنية فى إتمام كتابه « عهد الشباب » ولكن أنى له ما يقتضيه هذا العمل من هدوء البال وصفاء الذهن وبهجة الخاطر ؟

وأخيراً كتبت فاليريا ، ولكن إلى العمة تاتيانا ! ولعلها فعلت ذلك بوحي من فرجانى ، وراحت تصف فى كتابها ما أبهج نفسها من حفلة التتويج ومبلغ

ما كان من نجاحها فى المجتمعات ، وكيف أنقذها وأنقذ ثوبها الحريرى الأبيض من الزحام ذات يوم ضابط وجيه ...

وقرأت تاتيانا الكتاب على ابن أخيها فأثار فى قلبه الغيرة والحنق ، ونهض لتوه فكتب بدوره « إلى آنسات سودا كوفو بموسكو » وفى هذا الكتاب قسا على فاليريا كل القسوة وراح يوجه الكلام إليها ، وأخذ يسخر من تطلعها إلى درجة العلية وليست منها بسبب ، كما راح يشير إلى مبلغ ما يكون من الأمانة فى حب المجتمعات دون حب الرجل ، ونال بالتهكم والقدح هذا النمط من الضباط الذين أشارت فاليريا فى كتابها إلى واحد منهم ...

وأفاض فى السخرية مما زعمت من خطر تعرضت له أو تعرض له ثوبها الحريرى قائلا « إن پكوك وحده وما قرأتِ قصته هو الذى كاد يذهب به خطر الزحام » وهو يشير بذلك إلى تلك الشخصية المعروفة التى ابتدعتها عبقرية القصصي الإنجليزى شارلز دكنز ، ثم أخذ الفتى يصف مايستمتع به من لهو فى قريته بالصيد من مطلع الشمس إلى مغربها ، وكيف يجد فى ذلك من البهجة مالا يظفر به من صحبة أية غانية ترتدى غالى الحرير ...

ولم ترد فاليريا فزادته حنقا على حنق حتى ليكاد المسكين يتميز من الغيظ ولما عادت وأهلها من موسكو ذهب تولستوى فزارهم فى سودا كوفو ، وكتب فى يومياته يقول فى الخامس والعشرين من سبتمبر « إن فاليريا حلوة ولكنها وا أسفاه غبية » وفى التاسع والعشرين دب دبيب الغيرة فى قلبه فقد تطرق الحديث إلى موسيقى عظيم هو مورتير وأثنت عليه فاليريا أعظم الثناء حتى إنها لتحس نحوه الحب ؛ وكتب تولستوى « لقد أداروا الحديث إلى مورتير وقد ذكرت أنها تحبه . يا عجبا ! إن ذلك يؤلمنى ... لقد أحسست بالخجل لى ولها ولكننى للمرة الأولى استشعرت شيئا كأنه الميل إليها » .

وفى مستهل أكتوبر كتب يقول « إنها ضحلة جدا لا مبدأ لها وإنها باردة كالثلج ، وإنها كثيرة الذهاب بنفسها » .

وجاءت ڤاليريا صحبة ڤرجانى تزوران ياسنايا وقضت أياما مع تولستوى يتحدثان فى أمسيات الخريف الهادئة وفى أصباحه الندية ويمشيان جنبا إلى جنب فى ممرات الحديقة كما يفعل خاطب وخطيبته ، وتوقعت عمته كما توقعت ڤرجانى قرب إعلانه خطبتها ...

وكان يقرب أكتوبر من نهايته ، وتزداد ڤاليريا قربا إلى قلب تولستوى ؛ كتب في الرابع والعشرين يقول « ذهبت معها إلى المرقص ، لقد كانت فاتنة . أكاد أحسب أنى أحبها » .

وبعد ذلك بثلاثة أيام أطلعها فى لحظة من لحظات العاطفة المشبوبة على ما كتبه أخيراً فى يومياته فإذا بها تقرأ وقلبها يخفق وفى وجنتيها مثل اللهب ، « إنى أحبها » ...

ورآها فى اليوم التالى فكتب فى يومياته « ٢٨ أكتوبر ... ذهبت إلى ڤاليريا ... لقد صفت شعرها وفقاً لبدعة مرعبة وارتدت رداء قرمزيا من أجلي... لقد شعرت بالألم والخجل وقضيت يوما حزيناً ... ومع ذلك فقد كنت منها ، غير مخير ، فى موضع خاطب لها على صورة ما ، وهذا مايثيرنى » .

وبعد ذلك بثلاثة أيام ذهب إلى سودا كوفو وصحب ڤاليريا إلي المرقص وكتب يقول إن ڤاليريا بدت ساحرة وإن الناس كانوا ينظرون إلينا نظرتهم إلى فتى وخطيبته ...

وما كاد يعود إلى ياسنايا ، حتى اشتد ضيق نفسه أنه اندفع فوقع فيما كان يخشى ، وأنه يجد نفسه منذ اليوم في قيد أبدى يربطه بفتاة جميلة تافهة ليس فيها مما يرجو لنفسه إلا ما عسي أن يجده من الراحة مما تلح به عليه نوازع جسده

وفى اليوم الثانى من نوفمبر أفضى إلي عمته لا بعزمه على الزواج كما توقعت أن يقول ، ولكن بعزمه على الرحيل إلى موسكو ، معتلا بأنه يريد أن يتبين حقيقة شعوره بعيدا عن ڤاليريا ؛ ولكنه كان فى الواقع يريد أن يتبين هناك كيف يفلت من قيده ... ودهشت عمته وقالت لمن معها « إنه بدل أن يذهب

إلى الكنيسة قد ذهب إلى موسكو »

وكتب إلى ڤاليريا من موسكو مرة يقول إنه أحب فيها جمالها فعلا، ولكنه أخذ فى حب ما هو أثمن من الجمال فيها وأخلد ألا وهو قلبها وروحها ... ومعنى ذلك أنه لا يزال فى موقف من لم يقطع برأى بعد ؛ وكتب إليها مرة أخرى ينصح إليها أن تعنى بالرياضة وأن تعد كل ليلة برنامج اليوم التالى فى ورقة فتمحو منها فى المساء ما أنجزته فتجد بذلك مسرة عظيمة حين تحدث نفسها أنها خير من ذى قبل ...

وسافر من موسكو إلى بطرسبرج ، وعكف على الكتابة علّه ينسى حيرة نفسه ، ولكن أمرين عادا به إلى تلك الحيرة ، فقد آلمه وحرك كبرياءه أن ڤاليريا لم ترد عليه ، ثم إنه قد أثار غيرته ما علم من أنبائها أثناء حفلة التتويج وذلك أنها سمحت لمورتير أن يغازلها فى غير خفاء عن الناس ...

وكتب إليها تولستوى غيران مغضباً يقول لها « إن ما كان لن يعود أبداً كما قال بوشكين ... لن أشعر قط بعد اليوم ما كنت أشعره من تلك الصلة الهادئة بك ، ولا من ذلك الاحترام والثقة فيك قبل رحيلك إلى حفلة التتويج ... يومذاك أسلمت نفسي فى سرور إلى مشاعرى ، ولكننى اليوم أجفل منها ... إن أهم سؤال هو هل يمكن أن نكون أصدقاء وأن يحب كلانا صاحبه ، ومن أجل ذلك فمن الضرورى أن نظهر الجانب السيئ من أنفسنا لنحاول أن نصالح أنفسنا عليه ، وألا نخفيه ، وإلا باغتتنا الخيبة فيما بعد »

الحق أنه لم يكن منها فى موضع المحب العاشق ، وإنما كان يغلب على نفسه أحياناً تخيله أنها الفتاة التى تليق أن تكون زوجا له ، ويضعف هذا الخيال أحياناً فيرتاب ، وقد يؤدى به الحال إلى أن يظن أنه يكرهها ؛ ولعل ميله إلى أن يراها تحبه ، وتطلعه إلى معرفة أى مدى بلغ حبها إياه هو العامل اللاشعورى الأول الذى كان يلد عواطفه وخيالاته .

كتب إليها بعد كتابه السالف يقول إن فى الناس من لا يعرفون الفرح

ولا الألم من الناحية المعنوية طيلة حياتهم وأنه يخيل إليه دائماً أنها من هذا القبيل الأمر الذى كثيراً ما يؤلمه ، ويطلب إليها أن تدله أهى حقاً من هذا الصنف ؟ ثم يقول إنه وإن كان يفكر فيها الآن أقل مما كان يفعل وهو بقربها ، وإن كان تفكيره أكثر هدوءاً من ذى قبل ، إلا أنه لايزال يفكر فيها أكثر مما فكر فى أى امرأة قط . ويتوسل إليها أن تكتب إليه كل يوم في غير تكلف ودون أن تراجع كتبها ليتبين حقيقة إحساسها نحوه إلى أن يقول « إنى أعرف نساء كثيرات هن أكثر ذكاء منك ولكنى لم أعرف قط أمرأة أكثر أمانة . إنى أرغب رغبة قوية فى أن أحبك حتى إننى لأعلمك كيف تجعليننى أهواك والحق إن أعمق شعور أشعره نحوك ليس هو الحب بعد ، وإنما هو رغبة حادة فى أن أحبك بكل قوتى »

وكان تولستوى يتم كتابه « عهدالشباب » وقصة « صباح أحد المالكين » ، ولكن ذكر ڤاليريا كان لايبرح خياله ، ثم إنه حين رجع البريد وليس فيه كتاب منها قد عظم ألمه فكتب إليها يقول إنه يحس أن من السخف أن يكتب إليها ولم ترد على كتبه ، ولكنه لم يتمالك نفسه وساق لها قصة صغيرة ابتكرها لم تكن فى الواقع قصه وإنما اختار اسم فتى ما واسم فتاة ما وقال إن من صفات الفتى كيت وكيت وهو يقصد صفاته هو ، وإن من صفات الفتاة كيت وكيت وسرد صفاتها هي؛ « وهذان الاثنان على ما فى نزعاتهما من تعارض وقعا على مايظهر في شرك الحب. ربما كنت أكذب نفسي ولكنني فى هذه اللحظة أحبك حباً مريعاً . والآن ماذا يعمل الحبيبان كى يعيشا معا ؟ إن عليهما أول الأمر أن يتنازل كلاهما عن شيء كى يرضي الآخر ، ثم إنه يجب على ذلك الذى ترى نزعاته أبعد من نزعات صاحبه عن الخلق أن يكون تنازله أوسع مدى »

ورجع البريد مرة ثانية وليس فيه رد منها فجن جنونه وكتب إليها يقول ، إنه لن يكون من علاقتهما الحالية إلا الشقاء لكليهما ، وخير لهما أن يقفا عند هذا الحد قبل أن يصبحا وليس فى الأمر حيلة .

و بعد ذلك ببضعة أيام حمل إليه البريد كتابين منها ، فسرعان مانسى آلامه ونسى حنقه عليها ، وعادت محببة إلى نفسه ، حلوة فاتنة ؛ وكتب إليها يعتذر عما جاء فى كتابه الأخير إليها و يسألها الصفح والمغفرة ، بل إنه ليبدأ هو فيتنازل بعض الشيء كى يرضيها ، فإنه يقول لها فى كتابه أن لا ضرر يلحقها من ذهابها إلى المرقص ، فهناك سوف تجد فرصة لاختبار شعورها ، و إنه ليرجو منها أن تكتب إليه بما تحس ، أما هو فإنه يؤكد لها أنه لم تسترع انتباهه امرأة واحدة فى الأسابيع الثلاثة الأخيرة ...

وجاءه كتاب آخر بعد أيام فتحمس فى الرد عليه وصار يخاطبها بقوله : حبيبتى ، و يسألها ألا تغضب من هذا فإن الكلمة تصور حقيقة شعوره إلى أن يقول « إنى يخيل إلى من كتابك أنك بدأت تحبيننى وأنك أخذت تنظرين إلى الحياة نظرة فيها من الجد أكثر مما سلف ، وأنك تحبين الخير وتجدين السرور فى مراقبة نفسك إذ تتقدمين فى سبيلك إلى الكمال ... أعانك الله ياحبيبتى ... تقدمي ... عليك بالحب ، عليك بالحب ، ولا تقصرى حبك على ، بل أحبى دنيا الله كلها ، الناس والطبيعة والموسيقى والشعر وكل ما هو جميل فيها » .

وزاده ثناء على ڤاليريا ما جاء فى كتاب لها بعد ذلك من أنها تحب أن تقضى حياتها بين أهلها وأصدقائها فى الريف ، وهى تريد بذلك أن توحى إليه أنها تتنازل كذلك بعض الشيء كى ترضيه ...

بعد ذلك أخذت تخبو جذوته ، وليس هذا بعجيب ، فقد أرضي كبرياء نفسه بحملها على الكتابة إليه ، وقد شفى نفسه أنها تحبه وأنه جدير منها بالحب وأنها تتنازل عن نزعاتها بعض الشيء لترضيه ، وذلك فيما أعتقد شأن كل فتى وفتاة يلعبان لعبة الحب ولا يرتبطان حقاً بوثاقه ، فإنه متى تغلب الفتى بدأ فتوره أما الفتاة فكثيراً ما يكون تغلبها بدء حرصها على أن تمتلك ، وهي ماتدل وتعبث وتتصنع الفتور والنفور والزهد إلا لتستوثق ، وما ذلك جميعا إلا حبائل شركها تمدها فى مهارة هى في أصل طبيعتها ...

وأحست فى كتبه إليها بعض الفتور فعادت تذكر مورتير الموسيقى تظن أنها تثير بذلك غيرته ، ولم تدر أنها أثارت سأمه ؛ ولو أنها فعلت ذلك قبل أن تكشف له عما فى نفسها لبلغت ما تريد ، أما الآن فما يقع في نفسه من ذكرها إياه إلا أن ذلك منها جهد اليائس ؛ كتب إليها في أحد كتبه فى شهر نوفمبر يقول « إن كتبك إلى لا تثير فى نفسى من طيب الأثر ما كانت تفعل من قبل ؛ ولست أدرى هل يرد ذلك إلى أنها ليست كما كانت من الظرف ، أم إلى أنى بدأت أتغير ، أم إلى أنك أشرت مرة إلى مورتير » .

ثم إنه يؤنبها فى عنف أن لم تقطع صلتها به فى صورة يعلمها الناس ويقول لها « لو أنه حدث أن مورتير كتب رسالة غرام إلى زوجتى أو قبل يدها — وماذا يمنعه من ذلك الآن ؟ — وأخفت ذلك عنى ، فأنى إن كنت أحب زوجتى أقتل نفسى برصاصة ، وإن لم أك أحبها فأنى أطلقها على الفور وأهاجر إلى أقصى الأرض احتراما لها ومحافظة على اسمى وفراراً من خيبة آمالى فى أحلام المستقبل . ليست هذه كلمات فارغة فأنى أقسم لك بالله أنى أعرفها كما أعرف نفسي ، وذلك هو ما يخوفنى من الزواج لأنى أنظر إليه نظرة بالغة الخطورة فى غير أدنى التواء . إنى أجازف بكل شيء دفعة واحدة ، فإذا لم أجد السعادة التامة فأني أخرب كل شيء بما في ذلك مقدرتى العقلية وقلبى ، وسوف أغدو سكيرا مقامرا ، وإذا لم تكن لدى الشجاعة لأذبح نفسي فسوف أسرق » .

وازداد تعلقه بعمله بقدر ما ازداد فتورا فى صلته بڤاليريا ، وكان يحب أن ينفض يده من المجلات ليتفرغ إلى ما يراه أسمي وأجدى من ضروب الكتابة ، وما جاء آخر نوفمبر حتى كتب فى يومياته يقول « لا أفكر فى ڤاليريا إلا قليلا ، وعلى صورة غير سارة » .

وعاد تولستوى فى أوائل ديسمبر إلى موسكو ، وكتب يرد على عمته تاتيانا التى كانت لا تزال تنتظر كلمة منه فذكر عن صلته بڤاليريا أنه يتمنى لو استطاع أن يقول إنه يحبها فإنه لا يشعر نحوها إلا بعرفان الجميل لما أولته من محبتها ،

وكتب إلى ڤاليريا يرد على معاتبتها إياه لفتور كتبه إليها يقول « صدقيني أني كنت مخلصا ما وسعني الإخلاص في جميع صلاتي بك ، وأني حفظت لك الود ولا زلت أحفظه ، ولقد أحببتك ولا زلت أحبك أكثر مما أحببت أي امرأة عرفتها حتى اليوم ولكن ذلك كله ليس بكاف بعد » .

وصمم تولستوى على أن يغادر روسيا كلها بضعة أشهر ليضع حدا لما خلفة صلته بڤاليريا من خجل وحيرة في نفسه ، وليقضي على أحاديث الناس عنهما في مدينة تولا ، وليخلص من تأنيب عمته وأخته فقد رأتافي مسلكه ما بعد به عن الخلق القويم ، ولينجو من حملة ڤرجاني عليه فقد كتبت إليه تعنفه على ما كان من مسلكه البهيمى .

وعاد تولستوى إلى بطرسبرج يلهو بما كان يلهو به من عبثه الأول وينسى ڤاليريا بين كثيرات غيرها من الغانيات .

وانقلب الوضع فباتت ڤاليريا هي التي تبحث عنه وتتألم من سكوته عن الكتابة إليها ، فبعثت إليه برسالة مطولة حارة حاولت بها أن تغير ما بنفسه فتجذبه إليها ، ولكن رده عليها بلغ من البرود حداً جعلها ترسل إليه تنبئه في صراحة أنها لن تسمح له بعد اليوم أن يكتب إليها ؛ ولعلها أرادت بذلك أن تجرب سياستها الأولى نحوه ، سياسة اجتذابه إليها بنفورها منه ، ولكن فاتها أن قد بطل السحر منذ أظهرته على دخيلة نفسها .

ولم يمنعه ما أرادت من منع ، فكتب إليها لا ليندم ويصفح كما كان يفعل من قبل ولكن ليسمعها عبارة الوداع في غير مواربة أو التواء قال « ليس ثمة من شك في أني أجرمت في حقك وفي حق نفسي إجراماً شديداً ، ولكن ماذا عسي أن أصنع ولست أستطيع أن أجاوبك بمثل ذلك الشعور الذي يفيضه قلبك الطيب علي ؟ وداعا يا عزيزتي ڤاليريا ڤلاديموروڤنا ، إني أشكرك ألف مرة على ما كان من صداقتك وأطلب منك الصفح والمغفرة عما عسي أن أكون قد سببت لك من ألم بصداقتي » وسألها ألا تبخل بكلمة تودعه بها في سفره إلى باريس ، ثم اختتم

كتابه بقوله « إنى على يقين أنك سوف تجعلين شخصاً ما من ذوى الطيبة والظرف سعيداً ، أما أنا فمهما بلغ ما يصل إليه قلبي فلست أستحق قلامة من ظفرك ، ومثلى من يجعلك شقية تعسة » .

وكتب إلى عمته يعتذر عما قد يكون فى سلوكه من عوج تجاه فاليريا وينبئها أنه حصل على رخصة للسفر إلى باريس ؛ وأنه قد نفض يديه من فاليريا وأنه لا يستطيع بعد اليوم أن يخدعها أو يخدع نفسه . .

وكتبت إليه عمته وهو فى باريس فلم تزل عنيفة عليه ، ورد عليها يدافع عن نفسه ويتساءل لم تكون العلاقة بين فتى وفتاة قاصرة على الحب والزواج؟ وكيف لا يكون للصداقة الخالصة موضع ؟ ثم إنه يشير في كتابه إلى قسوة فرجاني عليه فى كتبها إليه ويحملها كثيراً من اللوم فهى التى دفعته دفعاً إلى أبعد مما أراد ، ومهما يكن من أمره فليس يحق لها أن تنعته بأنه حيوان وأن تجعل كل امرىء يظن ظنها . .

وكتب آخر كتبه إلى فاليريا وهو فى باريس ، وكان ذلك رداً على الكلمة التى طلبها منها والتى لم تبخل بها عليه قال « لقد أفاض على السعادة كتابك الذى تسلمته اليوم يا عزيزتى فاليريا فلاديمورفنا ؛ وبرهن على أنك لا ترين فى شقياً أو وحشاً ، ولست عندك إلا رجلا أوشكت أن تصلى في علاقتك به إلى أبعد مما ينبغى من مدى ، ولكنه لايزال خليقاً منك بالصداقة والاحترام ؛ وإنى أقولها لك كلمة أقسم على صدقها بشرفى أنه لم يكن ثمة سبب لم ترين الآن من تغيرى ، بل إنه إذا أردت الصواب لم يكن تغيرما ؛ لقد كنت أذكر لك دائماً ؛ أنى لا أتبين أى نوع من أنواع الشعور ذلك الذى شعرته نحوك ، وكان يخيل إلي دائماً أن ثمة فى الأمر خطأ ما ؛ وقبل أن أترك القرية ، كان لعزلتى وللقائي إياك غالباً ، وأهم من ذلك كان لمرآك الجميل ولأخلاقك بوجه خاص ، كان لهذا جميعاً من عميق الأثر في نفسى ما جعلنى أعتقد أنى أحبك . . . ولقد عشت فى بطرسبرج عيشة العزلة ، ولكن هذه الحقيقة وحدها على الرغم من

ذلك وهي أنى لا أراك برهنت لى أنى لم أكن قط ولا ينبغى أن أكون مرتبطاً وإياك برباط الحب .. وإن جهلنا بهذه الحقيقة معناه مأساة لى ولك » .

هذا ما كان من أمر علاقته بڤاليريا ، وما نراه كما قدمنا إلا حبه أن يتبين ما يستطيع أن يثير فى نفسها من محبة له ، وكان مبعث ذلك فرط شعوره بذاته ، ولو أنه كان يحبها حقاً لقضى الأمر بينها وبينه بالزواج ، ولقد رأينا ما كان من تشوقه إليها وتوجده وضيقه حين أبطأت كتبها إليه ، فلما كشفت له أنه غلبها على أمرها هانت عنده ، فقد أحس أنه أشبع فى نفسه رغبته فى حمله إياها على محبته

* * *

ويجدر بنا قبل أن نتتبع ما كان من أمر رحلته إلى أوروبا أن ننظر فيما كان من قراءاته وكتاباته في هذه الحقبة من حياته منذ رحل عن القرم .

قرأ تولستوى من آثار جوتيه آلام ڤرتر وهرمن ودروتيه ، وقرأ لفكتور هوجو ، نوتر دام دى پارى ، ولهومر الألياذة والأوديسة ولدكنز دورت الصغيرة وپكوك ، ولثكرى نيوكمز ، ولموليير بعض مسرحياته ، ولشكسبير الملك لير .. كما قرأ بعض كتب أفلاطون من الأقدمين . .

وقرأ من الأدب الروسى بعض أشعار بوشكين وبعض قصصه النثرية ، كما قرأ جونشاروف وأستروفسكى وكان هذا الأخير أشهر كتاب الدراما الروسيين . . وتايشوف ، وفت .

وكان يثبت فى دفتره ما تركته بعض الكتب من أثر فى نفسه فمن ذلك ما أثبته عن آلام ڤرتر وهو قوله إنها ساحرة ، وعن الألياذة والأوديسة وهو قوله إنهما تركتا فى نفسه أثراً عميقاً ؛ وقال عن پكوك إنها طيبة جداً وله رأى في دكنز يضمنه قوله فى هذا الصدد « إن أول شرط فى شهرة كاتب ما ، هو الحب الذى يتناول به شخصياته . ذلك هو السبب في أن أشخاص دكنز هم أصدقاء البشر جميعاً . فإن هؤلاء الأشخاص هم نوع من الرابطة بين الرجل فى أمريكا والرجل فى بطرسبرج ؛ ومما يحمد أن يتخذ المؤلف موقفه خارج موضعه ،



دستويفسكي

وعلى ذلك يدع المرء فى حيرة أبداً هل يعد ما يقرأ ذاتياً أم يعده موضوعياً »

وقد أعجب بموليير إعجاباً عظيما ، ورفع آثاره مكاناً علياً ، ولكنه لم يحب شكسبير ، وسوف يكون له رأى عن شكسبير فيما ينشره تحت عنوان شكسبير والدراما فيخالف به جمهرة المثقفين .

أما عن الكتاب من بنى قومه فقد أثنى ثناء عظيما على بوشكين ، وكأنه ما قرأه قبل اليوم وكلما عاد إلى قراءته ازداد به معرفة وله قدراً ، وكذلك أثنى على أستروفسكي ونوه بجده و إخلاصه وطابعه الروسي فى فنه واعتماده على نفسه وأصالته

وكان لا يزال دستيوفسكى فى منفاه بسيبريا ولذلك لم يقابله تولستوى ، أما عن ترجنيف فقد توثقت بينهما المعرفة خلال ستة أشهر منذ بدأ تعارفهما و إن لم تتوثق المحبة ؛ زاره فى الحادى والثلاثين من مايو سنة ١٨٥٦ وكان على مقربة من إحدى ضياعه إذ كان يزور أخته فى ضيعة لها قال « لم يكن ترجنيف فى منزله ؛ ثم عاد فتغذيت ومشيت معه وكان بيننا حديث بهيج جداً ثم أويت أريد النوم .. أحب أن أكتب قصة موضوعها حصان »

وكان قد وقع بصره وصاحبه على حصان كبير يرعى فنظر إليه تولستوى ثم أخذ يصف لصاحبه ما عسى أن يكون شعور الحصان ساعتئذ ، وفعل ذلك في صورة جعلت ترجنيف يقول له متعجباً « إنى لعلى يقين يا ليونيكولافتش أنك نفسك لا بد كنت حصاناً ذات يوم » . .

أما عما كتبه هو ففى يناير سنة ١٨٥٦ نشر سباستبول فى أغسطس ، وفى مارس نشر أقصوصة بعنوان « العاصفة الثلجية » وفى مايو نشر قصة فكاهية كانت له الأولى كما كانت الأخيرة من هذا النوع ، ونشر فى أواخر السنة قبيل رحيله إلى أوروبا قصتين وصف فى إحداهما وهى « صباح أحد المالكين » وقد سلفت الأشارة اليها ، ما كان من أمر علاقته بفلاحيه بماذا أراد لهم من اصلاح لم يتقبلوه كما كان يرجو قبولا حسناً ، وترينا هذه القصة بوجه خاص كيف كان يستمد تولستوي مادة فنه من الحياة حتى لتعد آثاره الفنية جميعاً كما قال جوتية عن آثار نفسه ، اعترافات مبعثرة اذا أضيفت بعضها الى بعض تألفت منها حياته..

رحلته إلى أوروبا

رحل تولستوى فى اليوم العاشر من شهر فبراير سنة ١٨٥٧ فبلغ باريس في الحادى والعشرين من الشهر وقد ركب إليها القطار من وارسو .

والتقى فى باريس بنكراسوف وترجنيف ، وسرعان مادب الخلاف بينه و بين ترجنيف حتى لقد بلغ الأمر بتولستوى أن دعا صاحبه إلى مبارزته ، ولكن نكراسوف مالبث أن أصلح بينهما فنسيا ما كان من غضب .

وقضي تولستوي ستة أسابيع فى باريس يمتع نفسه بكل ما يستطيع أن يستمتع به شاب اجتمع له المال والشباب والبطالة ، فغشى أمكنة اللهو وانزلق أكثر من مرة فى مزالق الفتنة ، وتعرف إلى طائفة من أشهر المغنيات والممثلات ، وزار المسارح ودار الأوپرا ومتحف اللوفر ووقف على قبر نابليون ، وشاهد الكنائس القديمة ، وركب إلى فرساى وفنتنبلو ، وشهد بعض المحاضرات فى الكوليج دى فرانس وفى السوربون ، وكان يتلقى دروسا علي معلمين أحدهما للانجليزية والآخر للطليانية . .

وكان يحرص بين الروسيين فى باريس على أرستوقراطيته فينفق عن سعة ويولم الولائم لأصحابه ، وممن كان يزورهم في باريس البرنسيس لفوف وابنتها ، وسرعان ما أحس ميلا شديدا نحو الإبنة فأثبت فى يومياته يقول « إنى أميل إليها ميلا شديداً وأظن أنى أكون أحمق إن لم أحاول أن أتزوجها ، ولئن قدر لها أن تتزوج من رجل خير جدا وكانا سعيدَين معاً فأن ذلك يدفعنى إلى اليأس » . .

وذهب في شهر مارس صحبة ترجنيف إلى ديجون فقضيا هناك بضعة أيام ، وأخذ تولستوى يكتب أقصوصته « ألبرت » وكان بطلها شابا يجيد الضرب على القيثار عرفه فى بطرسبرج .

وكتب إلى أحد أصحابه وهو بتكن فى الخامس من أبريل يصف مبلغ استمتاعه بحياة باريس ، ويشير إلى أنه أحس بجهله إحساساً شديداً ولكنه يشعر أن جهله هناك لا يستعصى على العلاج؛ ويذكر « فوق ذلك كله هذه الحرية الاجتماعية التى لا نعرف شيئاً عنها فى روسيا » ...

وذهب فى اليوم التالى ، بدافع الحرص على ألا يفوته شيء ، إلى حيث رأى رجلا حكم عليه بالموت تقطع المقصلة عنقه ، ولقد كان هذا المنظر بعيد الأثر فى نفسه وفى فكره ، أثبت فى يومياته قوله « ذهبت لأشهد تنفيذ حكم الموت .. عنق وصدر غليظان أبيضان : ثم الأنجيل ثم بعد ذلك ... الموت . ما أفرغ ذلك من المعنى! لست رجل سياسة .. الفن والآداب هما ما أعرف وكذلك الحب .. لقد حالت الجيلوتين بيني وبين النوم وجعلتنى أتفكر »

وإن الذى أجدنى على يقين منه هو ألا أخدم بعد اليوم حكومة أبداً ، فكل الحكومات فى هذه الدنيا متكافئة فى مبلغ ما تأتيه من خير أو شر وإن المثل الأعلى الذى لا مثل غيره لهو الفوضى »

وفى اليوم التالى كتب فى دفتره « نهضت من نومى متأخراً غير مستريح .. قرأت قليلا ، ثم طرأت على فكرة بسيطة ، معقولة هى أن أغادر باريس »

وكتب إلى بوتكن يقول « لقد شهدت كثيراً من المفزعات أثناء الحرب وأثناء مقامى بالقوقاز ، ولكن لأن يمزق أمام عينى رجل ألف قطعة أخف هولا عندى من تلك الصورة التى بها يورد رجل قوي نشط بادى الصحة مورد الحتف فى ثانية ، بهذه الآلة اللعينة »

ولقد ظل هذا الحادث عالقاً بخياله عميق الأثر فى نفسه إلى بعد ذلك بسنوات طويلة ، كتب بعد عشرين عاماً يصف وقعه فى كتابه « اعترافات » فقال « عندما رأيت الرأس وقد فصل عن الجسد وسمعتهما يقعان أحدهما بعد الآخر فى الصندوق أدركت لا بعقلى وحده بل بكيانى كله أنه ما من نظرية من تلك التى يدافع بها عن التقدم تبرر هذا العمل ؛ وإنه على الرغم من أن كل امرىء منذ بدء الخليقة

يقول بضرورته ، ولا عبرة فى ذلك بما عسى أن تكون النظرية ، فانى أقرر أنه شر وأنه لا ضرورة له ... وعلى ذلك فإن معيار الخير والشر ليس ما يفعل الناس وما يقولون ، وليس هو التقدم ، و إنما هو قلبي وذاتى »

عكر هذا الحادث صفو أيامه فى باريس ونغص عليه المقام بها ، فما وسعه إلا الرحيل ، وفى الثامن من أبريل فاجأ ترجنيف بعزمه وكان فى عينيه الدمع إذ يستأذنه ، وركب قطار الصباح من باريس متجهاً صوب جنيف فبلغها فى اليوم التالى

* * *

والتقى تولستوى فى جنيف بإحدى قريباته وهى الكونتس الكسندرا تولستوى ، ولعل وجودها بجنيف كان بعض ما دعاه إلى مغادرة باريس ...

كانت الكسندرا ذكية ذات ثقافة واسعة ، وكانت رقيقة القلب متقدة العاطفة فى غير نزق ، وكانت رشيقة المظهر والحركة فى غير تكلف ، كما كان لها دماثة واحتشام جاءا من طبعها أولا ثم مما تقلبت فيه من مقامات عالية ، إذ كانت وصيفة شرف لابنة الاسكندر الثانى وكانت يومذاك تصحبها فى سويسرا ...

وكانت الكسندرا ذات عقل ودين تتمسك بأهداب الفضيلة وتغار على دينها وتخلص له ، كما كانت ذات ملاحة وصوت بلغ حداً عظيما من الجمال ؛ وكانت حسنة الذوق فيما تختار من ثيابها وزينتها وفيما تدير من أحاديثها ...

وكانت تعرف ألكسندرا كثيراً من العلية من رجال الدولة ومن رجال الأدب ، فأضافت بذلك الى صفاتها خبرتها بالعصر وما فيه من آراء وميول . ومقدرتها على تعرف مواهب من تلقاهم من الرجال .

و إن أنثى هذه صفاتها لخليقة بأن تملأ قلب تولستوى وعقله ، ولكنها كانت تكبره بإحدى عشرة سنة ؛ ولقد سبق أن رآها بحكم القرابة إذ أنها ابنة عم والده : وكان ليو يقول لها مازحا إنها أصغر سناً من أن يدعوها عمته وعلى ذلك فهو يسميها جدته!

وقضى تولستوى معها وأختها أياما فى جنيف كانت عنده من أسعد أيام حياته ، وكثيراً ما جلسوا على شاطئ البحيرة أو صعدوا الجبال القريبة ، نعزف

تولستوي لحنا وغنت الـكسندرا .

وكان يحس معها أنه فى أحسن حالاته فكرا ووجدانا وهدوء بال ، وكل ما أثبته في مذكراته ينم عن إعجاب شـديد بقريبته ، وكثيراً ما ردد قوله « آه لو كانت ألـكسندرا أصغر مما هى بعشر سنوات » وتوثقت بينه و بينها الألفة وازداد إعجابه بها ازديادا ترك فى قلبه عاطفة أليمة ، فهى أكبر من أن يحبها ، وهى أثمن وأعظم قدراً من أن يدعها كما يدع غيرها من النساء ، و إن قلبه ليحدثه إذ تثنى على مقدرته ومواهبه أنه ليس وحـده الذى يصرخ من أعماق قلبه « آه لو كانت ألـكسندرا أصغر مما هى بعشر سنوات » .

ولقد ظل تولستوى على اعجابه بها طيلة حياته على الرغم من اختلافهما فيما بعد اختلافاً كبيراً فيما يتصل بالدين من رأى ؛ قال لبعض أصحابه قبيل وفاته وقد نظر نظرة فيما كان بينه و بينها من رسائل « ان ذكرياتى عن ألـكسندرا ظلت فى حياتى المظلمة الطويلة بقعة وضيئة تشـبه الضوء الذى يلتمع من تحت الباب فى نهاية غرفة مظلمة ».

وقضي تولستوى نحو شهرين فى سويسرا ، حيث كان أكثر وقته مع قريبته على بحيرة لوسيرن ، وجال جولات قصيرة فى بعض المدن القريبة وذهب مرة إلى شمالي إيطاليا ليقابل بعض أصحابه .

وتفيض كتبه إلى عمته تاتيانا بإعجابه بما كانت تقع عليه عيناه في الـكون أينما اتجه من جمال وسحر ، وتشعر تلك الـكتب بأنه كان رضي البال ، يغمره الجذل ، و يشيع فى جوانب نفسه اشراق صوفى عجيب كان مرده لاريب فضلا عن جمال الطبيعة وطلاقة الربيع وصفوه ، إلى صحبته ألـكسندرة وتذوقه السعادة حق السعادة إلى جانبها .

وقضي تولستوى فى تلك الأيام أرب مشاعره من الجمال ، وتزود من ألوان الخبرة بالحياة والناس بما سوف يكون مادة غزيرة لفنه ، فى دفتره كثير من

ملاحظاته عما يتصل بالناس والحوادث وكان الناس أنماطا فى تلك الجهة .

ولم تخل تلك الأيام السعيدة من عبثه ، فقد أومأ إليه الناس ذات يوم وتهامسوا بما كان منه حيال إحدى الخدم من اقتحام مرذول مستهجن .

واتخذ مسكناً له فى شهر يوليو على بحيرة لوسيرن ، ولقد كتب إلى صديقه بوتكن يصف روعة الماء والسماء والجبال ، وما يشمل المكان كله من هدوء تستغرق فيه النفس وينتشي الخاطر .

ووقع له هناك ما اتخذه مادة لتلك القطعة الوصفية التى كتبها وسماها «لوسيرن» فقد اتفق أثناء عودته ذات ليلة والقمر يشق السحب أن كان يغنى رجل نحيف على قيثارة غناء أخذ بمجامع قلبه ، فأعطاه شيئاً من المال ودعاه ليغنى حيث كان النزلاء يسمرون فى ناحية من البحيرة ؛ وغنى الرجل والناس منصتون فى سرور حتى فرغ ومد لهم قبعته فلم يعطه أحد شيئاً ؛ فانطلق راجعاً من حيث أتي والخجل في وجهه وإنه ليتمتم فى غيظ والقوم يضحكون منه ؛ ولكنه لم يمض غير بعيد حتى أدركه تولستوى ودعاه ليعود إلى النزل ليأكل وليشرب معه شيئاً من الخمر ؛ وعاد معه فدخلا حجرة وكان الرجل رث الهيئة ولكنه كان طيب القلب ؛ وجلسا يشربان ويطعمان على مائدة واحدة ؛ وضحك بعض النذل والخدم فثارت ثائرة تولستوى وعنفهم وصرفهم متهدداً وقد بلغ به الحنق كل مبلغ ..؛ وقد أراد تولستوى بإكرامه الرجل هكذا أن يؤنب أولئك السادة على شحهم وغلظ قلوبهم وتعاليهم .

وأحدث جمال الليل وسحر الغناء وما كان من عطفه على ذلك الفقير ، فى قلبه الشاعر أثراً بعيداً حتى إنه ليسمو وجدانه فينزع إلى آفاق عليا أشار إلى ذلك فى دفتره فقال « كانت الليلة رائعة ولم أدرك ماذا كنت أريد ولا ماذا كنت أتطلع إليه فى لهفة ، ولكنه لم يكن شيئاً ينتمى إلى نعيم هذه الأرض وكيف يسع المرء ألا يؤمن بخلود الروح إذ يرى لروحه هذا الامتداد الذي لا يحد . نظرت نظرة من النافذه ... ظلام وسحاب شتيت وضوء ، مرحباً بالموت! يا إلهى!

أي شيء أنا و إلى أين أذهب وأين مقامي الآن ؟ »

وخطر على ذهنه خاطر سوف يكون له أثر بعيد فى نفسه وذلك أن لا معنى للحياة إلا أن يعمل الإنسان فى دأب ونشاط فى سبيل إسعاد غيره ...

وفى الثالث والعشرين من يوليو أثبت فى دفتره وهو فى طريقه إلى بادن عائداً إلى وطنه ، أن ثمة فكرة واضحة قد طرأت على باله وهي أن يفتتح مدرسة فى قريته يعلم فيها أبناء الفلاحين فى الجهة كلها ...

و بلغ بادن فى اليوم التالى وهناك أقبل على مائدة الميسر إقبال المنهوم على شهي الطعام ، فخسر ما كان معه من المال جميعاً ، واقترض مالا من رجل فرنسى فخسره كله ، واتفق أن مر ترجنيف ببادن فأقرضه كذلك مالاً فخسره لم يبق منه شيئاً ..

وأحزنه ذلك وكدره ، وثقل على نفسه لولا أن التقى بألكسندرا فى فرنكفورت فنسي بلقائها كل هم ...

و بلغ درسدن فى الخامس من أغسطس فاستمتع بشرب البيرة فى مقاهيها وزيارة مسارحها وشراء الكتب وأدوات الموسيقي من دكاكينها ... وعلم فى درسدن أن آل لفوف على مقربة منه فزارهم ثم إنه قابل البرنسس لفوف فى الطريق ذات يوم ، فكتب إلى ابنة عمه ألكسندرا يقول إنه كان عند لقائها فى تلك الحال التى يصلح فيها المرء للوقوع في شرك الحب ، فقد خسر ماله فى الميسر وكان ساخطاً على نفسه « و إن لى رأياً فى الحب وهو أنه يولد حيث يريد المرء أن ينسى نفسه ، وعلى ذلك فهو كالنوم يأتى حين لا ترضى عن نفسك أو حين تحس أنك غير سعيد ، إن البرنسس وجيهة ذكية ذات أمانة وعطف ، ولقد حاولت جهدى أن أحبها فما عدت من ذلك بطائل »

و بعد ذلك بأسبوعين كان فى ياسنايا بعد أن قضى بضعة أيام فى بطر سبرج

بين ياسنايا والمدينتين

عاد تولستوى إلى قريته وقد عقد العزم على ثلاثة أمور : ما يقتضيه واجبه نحو أسرته ، وعمله الأدبى ، والنظر فى شئون ضياعه ...

ولكن القلق كان ملء نفسه ! يتبين ذلك مما أثبته فى دفتره غداة بلوغه القرية فقد شكا من إلحاح جسده عليه من جديد ، وشكا من الضيق والسأم والحزن وخيبة الآمال ، وتساءل ما جدوى العمل وذيوع الصيت والمال ، وما جدوى مسرات الحياة إذا كان عقبى ذلك كله ليلا أبديا ؟

ورحل إلى موسكو صحبة أخيه نيقولا وأخته ماريا فى شهر أكتوبر ؛ ثم سافر بعد أيام إلى بطرسبرج فقضى بعض الوقت ، وشد ما آلمه أنه كاد يُنسى ، فالناس فى شغل بالإصلاح الاجتماعى عن كل شيء ... وأحس أن عليه أن يعمل ليستعيد ما كان له من صيت وليزيد هذا الصيت وإلا فقد ضاع كل ما سلف له من جهد .

ورجع إلى موسكو وأقام مع نيقولا وماريا وكانت قد هجرت زوجها ؛ وكان أكثر أصحابه صلة به يومئذ الشاعر فت ..

وعاد تولستوي إلى لهوه ومجونه بدل أن يعود إلى جده ودأبه ، فالملابس الأنيقة والقبعات اللامعة وصالات الرقص والسهرات الممتعة ، والطعام فى أكبر المطاعم ، كل أولئك متاع ليله .

وكان يقضى نهاره فى الاستمتاع بالموسيقى ، وباللعب والوثب والرياضة الخشنة القوية فى أندية أعدت لذلك ، ولقد كانت قوة بدنه ومهارته فى فنون اللعب مما يتحدث الناس به ...

وراح الفتى بهذه الحياة وهو يومئذ يقرب من الثلاثين يدرأ عن نفسه السأم ، وينفض عن ذهنه الخواطر السود ، ولكن قلبه كان لا يفتأ يحدثه أن شيئاً ينقصه

ومهما يكن ما يملأ به وقته فإن روحه ما تزال قلقة حائرة ...

ودأب على زيارة من عرف من الأمر ليرى من أوانسها من سبق أن خفق لهن قلبه ، فزار آل أرسنيف ولفوف ودياكوف والشاعر تيتشيف وكان لابنته منزلة فى نفسه كما زار ابنة عمه الكسندرا ، وكانت لا يزال لها عنده أثر عظيم وقد تحدث إليها عن الزواج والحب وأطلعها على ما كان يهجس فى نفسه ؛ ولكن سحره بها أخذ يتناقص .

وأحس أن لأخت دياكوف بينهن جميعاً أعظم السيطرة عليه حتى إنه ليحمد لها أنها لاتزال تمسكه بخيط ولقد بلغ به الحال ذات ليلة أن كاد يعتقد أنه يحبها ، ولولا أنها غادرت موسكو لتبعد عنه حين أحست حرج موقفهما لتعقدت الأمور بينهما من جديد .

ولم يبق أمامه إلا كاترينا ابنة تيتشيف الشاعر والبرنسس لفوف و إن كان لايدرى أيتهما أقرب إلى قلبه ، و إنه ليسأل نفسه هل يحس حقاً نحوهما شيئاً من الحب ؟

هكذا انصرف تولستوى عن الجد ، وأسرف فى اللهو ؛ على أن أيامه تلك لم تخل خلوا تاما مما يعد من مظاهر جده ، فإنه بمعونة صديقة بوتكن وصديق آخرله يدعى برفيليف ومنافسه السابق فى حب فاليريا وهو مور تيير ، قد أسس جمعيةموسكو للموسيقى ؛ ثم إنه انضم إلىجمعيةأدبيه فى موسكوهى جمعية المعجبين بالأدب الروسى .

أما عن عمله الأدبىفإنه أخذ يكتب قصة « أهل القوقاز » ؛ ثم إنه أثناء إقامته ضيفاً بضعة أيام فى مستهل عام ١٨٥٨ عند ابنة عم لأمه هىالبرنسس فولكنسكى قد كتب أقصوصة عنوانها « الموتات الثلاثة » وقد نشرها فى مستهل العام التالى وأخذ كذلك يكتب « سعادة الأسرة » وهى قصة تدور على ما كان بينه و بين فاليريا ، وقد جعلها تنتهي بالزواج ، ولكنه زواج يقضي إلي تناكر وتنافر بين الزوجين ، ولقد أراد أن يشير بذلك إلى ما كان عسيا أن يحدث بينه و بين فاليريا لو أنه تزوجها ..

ولم يرض تولستوى عن القصة بعد أن أتمها وكان لايفتأ ينفر منها و يتلون وجهه كلما جاء ذكرها ...

* * *

عاد تولستوى إلى القرية فى شهر أبريل سنة ١٨٥٨ وقد أغراه الربيع بهذه العودة ، وكان قد جاءها في فبراير ثم مالبث أن رحل عنها إلى موسكو ، وسافر فى مارس إلى بطرسبرج فقضى هناك أياماً ...

وركن إلى عمته الحبيبة تاتيانا وسكن إليها ، حتى ليحس بينه و بين نفسه أنه سوف لا يغادر القرية بعد ، وأقبل على الفلاحة كأنه فلاح لم يخرج من القرية قط ، فهو يحكي الفلاحين فى لهجتهم ويشهد بنفسه عملهم ، بل إنه ليعجب بقوة أحدهم فى الحراثة فيأخذ منه المحراث و يقف وقفته و يحاول أن يدفعه فى الأرض كما يدفعه كأنه زميل له ، و يمضى خلف المحراث حتى ينال منه التعب .

و إنه لينظر فى أخلاق الفلاحين وصفاتهم و يحاول أن يلم بأحوالهم جميعاً ، و يبلغ من ذلك مبلغاً عظيما سوف يظهر أثره فيما بعد فى وصفه حياة القرية فى قصته العظيمة « أنا كارنينا » فيدهش القارئ بما فى وصفه من دقة و إحاطة تجعلانه يحس كأنه يعيش هذه المعيشة لا يقرؤها في سطور كتاب .

ونجد هذا الأرستوقراطى الذى عاش عيشة الترف فى موسكو و بطرسبرج يحب فلاحة كما لو كان فلاحاً مثلها و يقول « إنه لم يستغرق فى الحب مثل هذا الاستغراق من قبل » وتلد له هذه الفلاحة ابناً سفيحاً هو ثمرة هذا الحب الذى استغرق فيه .. والذى ما كان فى الواقع إلا مظهراً من عرامة جسده .

وكان يخيل لمن يعرفونه في هذه الأيام أنه سوف يعيش فى القرية و يموت فيها كما سوف يفعل أخوه سيرجي وكما يفعل الكثيرون من الأثرياء فى روسيا حين يسأمون حياة المدينة ...

ولكنه أخذ يحس السأم من حياة القرية فى نوفمبر وكتب فى دفتره « إنَّ الفلاحة عمل خشن لا طاقة لى به » ؛ وقد شكا منذ يونيو من أنه لا يكتب ولا يقرأ ولا يفكر ..

وكان يعنف أحياناً على الفلاحين ثم لا يلبث أن يندم حتى ليطلب إليهم الصفح ، ومن أمثلة ذلك ما أثبته فى دفتره فى السابع والعشرين من نوفمبر إذ يقول « كذب على اليوم ريزون فغضبت وأمرت به وفقاً لعادة بغيضة أن يضرب ... ثم بدا لى فأرسلت من يمنع هذا الضرب ولكن الرسول وصل متأخراً . سوف أطلب منه الصفح .. ولن أعود إلى ضرب الناس ثانية دون أن أفكر في الأمر ساعتين . . سألته الصفح وأعطيته رو بلتين ، ولكن العمل لا يزال يؤلمنى » .

ووقع لتولستوى فى ديسمبر حادث كاد يودى بحياته ، فقد خرج مع رفقه لصيد الدب فى الغابة وكان فيهم أوستاسكوف أحد مهرة الصيادين ! وأشار أصحابه عليه والبندقية في يده أن يمهد الثلج من حوله ليتحرك فى يسر ، ولكنه لم يعبأ بما أشاروا به قائلاً وهو يضحك إنهم إنما جاءوا ليقتلوا الدب لا ليصارعوه بالملاكمة . . وجاء دب فأطلق عليه الرصاص فأخطأ أول مرة ثم أصابه بجرح خفيف في المرة الثانية ، ولم يكد يصوب إليه البندقية مرة ثالثة حتى وثب عليه فضربه ضربة أكبته على وجهه في الثلج ، وحاول جهده أن يخفى عنقه بين كتفيه كي لا يعضه الدب إلا في غطاء رأسه الصوفي السميك : قال يصف الحادث فيما بعد « لم أشعر بألم وأنا طريح تحت الدب أنظر إلي فمه الدافىء ذى الأسنان البيضاء المنداة ، وتنفس فوق رأسي ، ورأيت كيف أدار رأسه ليصبح فى وضع يعض منه عاتقي فى سرعة ، ورأيته فى سرعته أو فى نهمه يعض عضة فى الهواء فوق رأسي مباشرة ثم فتح فمه ثانية ، ذلك الفم الأحمر المبلل الجائع الذى يتحلب لعابه ، وأحسست أن بينى و بين الموت لحظة ونظرت فى أعماق ذلك الفم كما ينظر المحكوم عليه بالموت في القبر الذى احتفر له ... نظرت وأذكر أنى لم أحس خوفاً ولا هلعاً ، ورأيت بأحد عينى من وراء هذا الفم قطعة من زرقة السماء تلمح بين السحب الحمراء قد توشحت فى صورة شوهاء ، وخطرت على فكرى روعة هذه الزرقة هناك فى عليائها »

أما الدب فقد عضه عضة قوية مزقت خده تحت عينه اليسرى والجانب الأيمن

من جبهته ، وما كاد يعضه ثانية حتى قدم أوستاسكوف فأفزعه فهرب ... ثم إن أصحابه حملوه فأسعفوه ، وقد ظل هذا الحادث فى قرارة نفسه حتى استغله وهو الفنان الذى جعل الصدق غاية فنه ، إذ وصف كيف واجه الموت البرنس أندرو أحد أبطال قصته الكبرى « الحرب والسلام » حين سقط جريحا في ساحة الوغى ...

* * *

قضى تولستوى الأشهر الأولى من سنة ١٨٥٩ فى موسكو ، وهناك لبى دعوة جماعة محبي الأدب الروسي وألقي لأول مرة فى حياته خطاباً عاماً على شدة كرهه لهذا العمل ، وكان موضوع خطابه أن العنصر الفنى في الأدب مقدم على غيره وهو رأى سوف يخالفه تولستوى حين يكتب عن الفن بعد ذلك بنحو أر بعين سنة. ورد عليه أحد أنصار الجماعة السلافية يدافع عن العنصر الإصلاحى فى الأدب ، فليست وظيفة الأدب مقصورة على ناحية الفنية ، وليست هذه الناحية الفنية هى المقدمة دائماً على غيرها ، فالأديب يحس و يفكر وهو يحب أشياء و يكره أشياء ، ولا مندوحة له عن أن يتهم و يلوم و يستنكر و يدعو إلى الإصلاح .

وفى أبريل من هذه السنة سافر إلى بطرسبرج فقضى مع ابنة عمه ألكسندرا « عشرة أيام من أسعد أيامه » ؛ ولكنه سافر دون أن يخبرها ثم كتب إليها يعتذر بأن كل شيء حوله كان جميلا وأنه كان يزداد كل يوم جمالا بحيث أنه لولم يغادر المدينة حين غادرها ما وجد بعد ذلك أبداً ما يدعوه إلى مغادرتها ...

وردت ألكسندرا على هذه الإشارة اللطيفة إلى ما كان يخفق به قلبه ، تقول إن علمها بسفره كان كما لوأنها رأت الصقيع في الربيع ، وكان حالها حال من أرسل فى أمر أثناء وليمة حافلة ولم يشبع أويرو غلته وما يحزنها حقاً بالا أنه سوف لا يجدها هى نفسها فى مثل ما كان عليه قلبها من استجابة للمؤثرات وتهيؤه للاخلاص أتم ما يكون الإخلاص ...

أما هوفلم يكن قلبه يومئذ يستجيب لشيء كأنما كان قطعة جامدة من الصخر . « إن قلبي فى هذة السنة صامت حيال كل شيء حتى الحزن نفسه . ولم يعد ثمة

الارغبة واحدة هي أن أعمل وأنسى ، ولكن أى شيء أنسى؟ ليس هناك شيء كى أنساه ... إلا أن يكون أن أنسي أنى أعيش» هذا ما أثبته ذات يوم فى كراسته .

ذلك أنه كان فى تلك الأيام يعصف الشك بنفسه ويختم على قلبه ، ومازادته نصائح ألكسندرا إلا نفوراً ؛ ورد عليها يقول إنه لا يجحد بالدين ولا بما للدين من عظيم الأثر فى إسعاد النفس ، ولكنه يكافح بكل ما فى عقله وقلبه من قوة فى سبيل الإيمان ؛ ويعتب على ألكسندرا لسخريتها من ركونه إلى الطبيعة ومباهجها وإن ذلك ليؤدى به إلى سبيل الإيمان فلكل نفس سبيلها الخاصة بها »

وفى أواخر مايو يذكر الفتى فى دفتره مبلغ ما يحس من ضجر ، ويسخط على نفسه ، ويري أن خير ما يلوذ به أن يشرع من فوره فى كتابة قصة « أهل القوقاز » ...

ولكن ضيقه يأخذ بخناقة وتشككه يكاد يزهق روحه ، ويظل على هذه الحال الأليمة حتى ربيع سنة ١٨٦٠ ؛ فيخطرله خاطر وذلك أن فى العمل البدنى خير ما ينسيه ما هو فيه ، فليعمل بيديه بين العاملين من الفلاحين ...

وينهض ذات يوم مبكراً فيعمل في تسميد الأرض بنفسه فى زمرة الفلاحين ومايزال فى نصبه حتى يغرق العرق بدنه ويحس بالانتعاش يدب فى هيكله ولا يجد فى المساء ما كان يجده من غضب وضيق ، بل إنه ليجد كل شيء حسناً ويغرم بكل إنسان »

وفكر فى أن ينشيء في القرية تلك المدرسة التى خطرت له وهو في سويسرة ثم أنشأ هذه المدرسة فعلا في حديقة بيته وفى بعض حجراته وأخذ يعد العدة لأقامة بناء خاص بهذه المدرسة ؛ ودعا إليها أول الأمر عدداً صغيراً من أبناء الفلاحين أخذ يعلمهم بنفسه ريثما يختار لهم من يريد من المعلمين ....

ولكن مرض أخيه نيقولا وسفره إلى أوروبا طلباً للعلاج ، واعتزام أخته السفر لتعنى بأمره ، وضيقه ممايهجس فى نفسه ، كل أولئك جعله يطلب السفر عل فيه راحة لنفسه ، ثم لعله يطمئن قلبه فما أشد ما يزعجه مرض أخيه .

رحلة ثانيـــــة

فى الثالث من شهر يوليو سنة ١٨٦٠ ، خرج تولستوى فى رحلته الثانية إلى أوروبا ، وكانت هذه آخر رحلة له فلن يبرح وطنه بعدها أبداً ...

وكان يريد أن يقف على نظم التعليم فى ألمانيا كما كان يريد أن يرى أخاه كما ذكرنا ؛ وقضى تولستوى نحو شهرين يزور المدارس في برلين وفى غيرها من المدن ، بينما ذهبت أخته مارى إلى حيث كان يقيم أخوها فى سودن ..

وحضر تولستوى بعض المحاضرات في جامعة برلين بعد أن قضى بضعة أيام يعانى آلاماً شديدة فى أسنانه ، وشهد الدراسات الليلية للعمال ، وزار بعض السجون حيث أدخل نظام الحبس الانفرادى .

وزار بعض المدارس فى ليبزج فكانت فى رأيه « شيئاً مخيفاً ، حيث الدعاء للقيصر والضرب بالسياط وحفظ كل شيء عن ظهر قلب ، وحيث يخوف التلاميذ وتشتت أذهانهم »

وفى درسدن زار القصصي أورباخ ، ودهش أورباخ إذ قدم تولستوى نفسه باسم أحد شخصيات قصصه ، وأوجس المؤلف خوفاً أول الأمر ثم ما لبث أن فطن إلى ما فى ذلك من مزاح .

وتوجه إلى كسنجن وكانت علي سفر خمسة أيام من سودن ، وكان أثناء سفره يقرأ كتباً في التربية ، فهو إذا اهتم بأمر جعل له كل تفكيره ، وكتب إلى عمته من كسنجن ، يطلب إليها أن تكتب إليه عن أنباء ضياعه وعن حال مدرسته وكيف يسيرالعمل بها ، وينبئها أنه سوف يعنى بهذه المدرسة كل العناية متى عاد إلى ياسنايا . .

وقرأ أثناء مقامه بكسنجن بعض كتب بيكون ولوثر ، وتعرف إلى جولياس فروبيل ، أحد المشتغلين بشئون التربية على غرار عمه مبتكر رياض الأطفال



تولستوي سنة ١٨٦٠

وكان جولياس خير من يشرح نظريات عمه لتولستوى وقد تعجب من تمسك تولستوى بآرائه أثناء مناقشاتهما ؛ وكان يرى تولستوى أن التعليم العام أجدى فى روسيا حيث لم تفسدها التجارب ، منه فى ألمانيا ، كما كان يري ألا يكون إجباريا كي يطلبه الناس كما يطلب الجائع الطعام ...

وزار تولستوى الجهات القريبة من كسنجن ومنها ورتبرج حيث سجن لوثر وشهد الحجرة التى بدأ فيها لوثر يترجم الإنجيل وأثبت فى دفتره قوله « حقاً لقد كان لوثر عظيماً »

وكان لا يفتأ تولستوى يزور أخاه فى سودن ثم يعود إلى كسنجن حيث يستغرق فى القراءة والتأمل ، وفى أواخر شهر أغسطس ساءت حال أخيه فأشار الأطباء بنقله إلى الجنوب ، واختاروا له هيرس على شاطىء البحر المتوسط غير بعيد من طولون ...

ورحلوا جميعاً إلى هيرس ، مارى وليو ونيقولا المريض ؛ واستراحوا بعض الوقت فى فرنكفورت حيث كانت تقيم حينذاك ابنة عمه الكسندرا تولتسوى .

وفاجأ ليو ابنة عمه بزيارة فدخل عليها فى «هيئة الأسباني فى ظهر بطاقة البريد» كما وصفته ، وكان معها أمير هس وزوجته ؛ وسرعان ما انصرف تولستوى وقد رأى في وجهها شيئاً من الخجل لمرآه وأحس في نفسه نفوراً من الأمير وزوجته ؛ ولما خرج سألا عنه فما كان أشد دهشتهما إذ علما أنه ليو تولستوى ! وقالا لابنة عمه « هلا أخبرتينا ... لقد طالما تشوقنا لرؤيته منذ أن قرأنا له » وأثنيا عليه بما طابت به نفسه حين أفضت به ألكسندرا إليه ...

وفى هيرس اشتدت وطأة المرض على نيقولا وفى الثامن والعشرين من سبتمبر قضي نحبه بين ذراعى أخيه ؛ ويحس المرء مما كتبه تولستوى عظم وقع المصاب فى نفسه ، فقد كان لأخيه عنده منزلة عظيمة ، وقد ازداد حبه له منذ حدثه عن الغصن الأخضر وعن أخوة النمل ، وكثيراً ما ذكر ليو أنه لا يطيق الحياة إذا خلت منه أو من العمة تاتيانا ... كتب إلى فت عقب وفاة أخيه فقال « لم يؤثر

قبل فى حياتى شيء كما أثر هذا الحادث . لقد قال حقاً إذ تعود أن يذكر أنه ليس أسوأ من الموت ، وإن المرء إذ يتبين أنه النهاية يجد أنه ليس أسوأ من الحياة ... وفيم يكدح المرء ويسعي إذا رأينا أن من كان من قبل نيقولا تولستوى لم يبق منه شيء إنه لم يقل مرة إنه أحس باقترابه من الموت ، ولكنى أعلم أنه سار نحوه خطوة خطوة وأنه كان على يقين كم بلغ من القلة ما بقي له فى الحياة ، ولقد أخذته غفوة قبل موته بدقائق ، ثم أفاق بغتة وهو يتمتم فى رعب : ولكن ما هذا ؟ لقد رأى كيف يفنى المرء وكيف يذوب حتي يصبح فإذا هو لا شيء ... ولئن لم يجد هو ما يتعلق به ، فماذا أنا واجد ؟ إنى لأقل حياة ... وأى فائدة لشيء ما إذا كانت آلام الموت وما يصحبها من كره شديد لباطل الحياة وغرور النفس ، تبدأ غداً ، وإذا ما بدأت انتهى كل شيء إلى العدم ، إلى النسيان المطلق ؟ إنه لوضع مضحك حقاً ! كن نافعاً ، وتمسك بالفضيلة وعش سعيداً ما دمت حياً ، هكذا يقول الناس بعضهم لبعض ، ولكنك أنت نفسك وسعادتك وفضيلتك ونفعك كل ذلك ينتهي إلى هذه الحقيقة فحسب ، هذه الحقيقة التى عرفتها اثنتين وثلاثين سنة من العمر ألا وهى أن الوضع الذى نحن فيه وضع مخيف ... خذ الحياة كما هى عليه ، هكذا يأخذ الناس فى القول ، إنك أنت الذى وضعت نفسك هـذا الوضع ، وهذا حق لا ريب ، وإنى لآخذ الحياة كما هي عليه ، ولكن الإنسان إذا بلغ أقصي ما يبلغ بحياته ينظر فإذا هى شيء فارغ وإذا هى خدعة ، ويرى أن الحق الذى لا يزال عنده أسمى من كل شيء إنما هو أمر يملأه رعباً ، وإنك إذا نظرت إليه نظرة صائبة وتبينته ، أفقت فى رعب قائلا كما قال أخى : ولكن ما هذا ؟.. على أنه بالضرورة طالما يرغب الإنسان فى أن يعرف الحق وأن يفصح عنه فإنه يحاول أن يفعل ذلك ، وذلك كل ما بقي لى من دنيا الفضيلة ولست أستطيع أبعد من ذلك . وسوف أفعله وحده ، ولكن ليس فى صورة الفن ، إن الفن أكذوبة ولن أحب بعد اليوم أكذوبة جميلة ... سوف أقضي الشتاء هنا وما ذلك إلا لأنى لم أعد أبالى أى مكان أعيش فيه ... أرجو منك أن تكتب إلى فإنى أحبك كما كان أخى يحبك ، ولقد ظل يذكرك حتى آخر لحظة » .

ولم يكن مرد هذا التشاؤم إلى موت أخيه ، و إنما كان حزنه على أخيه ، مثيراً لمـا كان كامناً فى نفسه ، مؤيداً له ؛ أما ماجاء فى كتابه هذا عن الفن فعجيب ذلك منه ولم يمض إلا نحو ثمانية عشر شهراً على محاضرته التى دافع فيها عن الفن فى ذاته وأنكر مبدأ القائلين بالإفادة من الفن فى الإصلاح الاجتماعى ... و يبدو لى أن نفوره من الفن لم يكن كذلك إلا رغبة في تلبية نداء خفي فى نفسه للاشتغال بالدين ، وقد أثار موت أخيه هذه الرغبة فقد أثبت فى دفتره في منتصف أكتوبر يقول « حدث في وقت الجنازة ذاته أن خالجتنى تلك الفكرة وهى أن أكتب الإنجيل من ناحية مادية أعنى حياة المسيح كرجل من رجال المذهب المادى » .

وفى منتصف أكتوبر كانت قد ذهبت عنه غاشية الحزن الشديد ، والحق أن تشاؤمه كما ذكرنا كان نوعاً من الفلسفة أكثر منه حزناً ، فإنه كان يكتب فصولا من قصته « أهل القوقاز » ، وهى قصة مليئة بمباهج الحياة وروعة الفن ، مشرقة بالحيوانية المرحة القوية ، ومثل هذا لا يصدر عن كاتب مستغرق فى الهم ...

ولقد كان تولستوى ممتلأ بالحياة والنشاط فما يقعده حزن أو يظلم جوانب نفسه تشاؤم ، ولقد كان فى هيرس كما كان فى القوقاز والقرم مبعث المرح والبهجة فى كل حلقة من الرفاق يتوسطها ، بل لقد عاد فى هيرس إلى نوع من الحب على طريقته ؛ ثم بدا له فسافر إلى إيطاليا وطوف فى فلورنسا وروما ونابلى ، وفى شهر يناير سنة ١٨٦١ عاد إلى فرنسا وقصد إلى باريس حيث قضى أياماً في مقاهيها يقلب بصره فى الناس ؛ وهناك التقي بترجنيف ثم سافرا معاً إلى لندن ...

وفي لنــدن استمع تولستوي إلى بعض المحاضرات وشهد بالمرستون يخطب فى مجلس العموم ، ثم زار وترجنيف الـكاتب الروسي الحر هيرزن وكانت لنــدن منفاه ؛ وعجبت ابنة هيرزن أن رأت مؤلف « عهد الطفولة » رجلا يلبس ملابس ثمينة وفق آخر طراز و ينفق المال عن سعة ...

وقاسى فى لندن الألم الشديد فى أسنانه مدة ستة أسابيع وهو يرفض أن يزور طبيباً لأنه يحب أن يرد الأمر فى الصحة والمرض إلي الطبيعة ، فـكما أصابته الطبيعة بالمرض فهى التى تذهب الألم عنه ...

وفي شهر فبراير سمع وهو فى لندن عن قرار التحرير الذى أصدره القيصر وعلم أنه اختير حكما فى إقليمه فاعتزم العودة إلى وطنه .

وأقام تولستوى أياماً فى برسل وهو فى طريقه إلى وطنه ؛ وزار فى هذه المدينة بعض مشاهير رجالها من الكتاب والمؤرخين ، وكتب فى برسل أقصوصته « بوليكوشكا » وهى مأساة تدور حول الرق وما يعانى رقيق الأرض فى أغلالهم ولعلها أقوى ما كتب فى الأدب الروسي كله عن هذا الموضوع ، وسوف تنشر سنة ١٨٦٣، ولقدأعجب بها ترجنيف إعجاباً شديداً فى كتاب أرسله إلى فت عقب قراءته إياها ومما جاء فيه عن هذه الأقصوصة قوله « إنها ترسل رعشة باردة حتى فى ظهرى أنا ، الذى أصبح ظهرى سميكا غليظاً ... ألا إنه إمام ... ألا إنه إمام » .

ونزل ضيفاً فى ويمر على السفير الروسى فحصل له على إذن لزيارة منزل جوتيه ، وكانت زيارته ممنوعة عن عامة الناس .

وبلغ تولستوي موطنه فى أواخر شهر أبريل ، بعد أن قضى فى رحلته هذه نحو عشرة أشهر بعيداً عنه ، ولسوف يكون هذا آخر عهده بأوروبا فلن يبرح روسيا بعد ذلك مدى حياته كما أسلفنا ..



معـــــلم وحكم

عاد تولستوى إلى وطنه وملء نفسه الاهتمام بمدرسته ، يريد أن يجعلها كما استخرج لنفسه من قراءاته ومن مشاهداته في أوروبا ... ولم يشغل تولستوى نفسه بما كان يشغل به الناس أنفسهم من شئون ترتبت على قرار التحرير ، ولا بغيرها مما يتصل بأمور السياسة والمجتمع ؛ ونحب قبل أن نذكر أنباء مدرسته وعمله حكما وأسباب تجنبه ما كان يشغل الناس ، أن نقص نبأ خلاف جديد شجر بينه و بين ترجنيف .

* * *

كتب تولستوى حين عاد إلى روسيا إلى فت يشكره « على كتابه وعلى صداقته وعلى أنه هو فت » ويقول « أما عن ترجنيف فإنى أحب أن أراه ولكن حبي أن أراك يزيد عن ذلك عشر مرات »

ومن ذلك نرى أنه لم يكن بين تولستوى وترجنيف من خالص الود ما كان بينه و بين فت ، ومرد هذا كما أسلفت إلى هذا التباغض الخفى بين متنافسين يحاولان أن يخلقا بينهما الألفة فيفسد التنافس ألفتهما .

وذهب تولستوى فى آخر شهر مايو لزيارة ترجنيف في ضيعته تلبية لدعوة منه وهناك أحضر له ترجنيف قصه حديثة له لم تطبع بعد وهى قصته المسماة آباء وأبناء ليقرأها وليبدى رأيه فيها ؛ وجلس تولستوى يقرأها وحده ودخل عليه ترجنيف بعد حين فإذا به يغط فى النوم ؛ وتسلل ترجنيف من الحجرة على أطراف أصابعه وفى محياه الأسف ، ولكنه لم يكد يغادرها حتى كان صاحبه قد فتح عينيه فوقع بصره على ظهره ؛ وساء ترجنيف نوم صاحبه فما يفسره إلا بأنه لم يجد فى القصة ما يعجبه ، ولقد كان من الجائز أن يرد ترجنيف سبب ذلك النوم إلى تعب صاحبه ، لولا أن صاحبه أمسك بعد ذلك عن ذكر القصة وعن قراءتها فتأكد

له الرأي الأول فآلمه ذلك وكدره .

وذهبا بعد ذلك بيومين فزارا صديقهما فت ، وحدث أثناء تحلقهم للطعام فى الصباح و بينهم زوجة فت ، أن أخذ يتحدث ترجنيف عن تعليم ابنته و يثنى على مر بيتها الإنجليزية ، وكيف جعلتها تصلح بيديها ملابس الفقراء ؛ ونظر تولستوى نظرة من ينكر هذا وسأل صاحبه في شيء من الحسرة « وهل تظن ذلك صوابا ؟ » وأجابه ترجنيف أنه يراه صواباً فإن ذلك مما يجعل المحسن يقف بنفسه على حقيقة بؤس البائسين ؛ ورد تولستوى محتداً فقال « إنى أرى أن فتاة ترتدى نظيف الملابس إنما تأتى باطلا من العمل وتلعب لعبة مسرحية إذ تضع في حجرها وبين يديها ملابس قذرة عفنة » وصاح به ترجنيف قائلا « أرجو منك أن تمسك عن هذا الكلام » وأجاب تولستوى « ولم لا أقول ما أعتقد ؟ » فرد عليه ترجنيف بقوله « إنك إذن ترى أنى لا أربى ابنتى كما ينبغي أن أفعل » ، وأجاب تولستوى أنه لايحب أن يصل الأمر الى أبعد من ذلك ، و ان كان يعتقد أن كلماته تطابق فكره

ومشت صفرة شديدة فى محيا ترجنيف ، ووجه الكلام إلى تولستوى فى عنف قائلا « إن عدت إلى مثل هذا فسأدق رأسك » ونهض فخرج من الحجرة غضبان يمسك رأسه بيديه ، ومالبث أن عاد يعتذر لر بة الدار عما قد يعد منه سوء أدب ، وتجاهل تولستوى تجاهلا تاماً وانطلق عائداً إلى ضيعته ...

وما أظن ترجنيف كان يبلغ غضبه ما بلغ لوأن صاحبه قد امتدح قصته ، وهو إنما أراد بدفعها إليه ليقرأها أن يشعره بمودته ..

وكتب تولستوى يطلب إليه وهو فى طريقه أن يرسل إليه اعتذاراً يطلع فت وزوجته عليه قائلا إنه ينتظر هذا الكتاب فى بوجاسلوف ؛ وأرسل ترجنيف هذا الاعتذار ولكنه تأخر فلم يبلغ تولستوى فى المكان الذى حدده ، فكتب إليه تولستوى يدعوه إلى مبارزته !

وغضب تولستوى على فت لأنه حاول أن يصلح بينهما ؛ و بعد أر بعة أشهر غادر ترجنيف روسيا إلى أورو با فساور تولستوى الندم على ما كان منه فى وقت

غضبه ، وكتب إلى ترجنيف يطلب منه الصفح . .

وضل هذا الكتاب عن طريقه إلى ترجنيف ؛ وعلم ترجنيف فى غربته أن تولستوى يطلق فيه لسانه بالطعن فى كل ناد فاشتد به الغضب حتى لقد كتب إلى تولستوى يتحداه بدعوة إلى المبارزة !

ولكن تولستوى رد عليه أنه لا يرغب في مبارزته علي الرغم مما لحقه منه من إهانة ويرجو منه أن ينسى ما عسى أن يكون فى نفسه من ضغن عليه ؛ ثم تلقى ترجنيف ذلك الكتاب الذى ضل عن طريقه من قبل فطابت نفسه ، وكتب إلى فت يرجومنه أن يبلغ تولستوى أنه يقدره وأنه يحبه كلما كان بعيداً عنه ، وأن الخير فى أن يعيشا كما لو كان كل منهماينتمى إلى كوكب أو إلى عصر غير كوكب صاحبه وعصره ... ولم يلتق الرجلان إلا بعد عشرين سنة أو دون ذلك قليلا ...

* * *

صرف تولستوى همه إلى مدرسته ، وكان شديد التعلق بأفكاره فى التربية مولعاً أشد الولع بتحقيقها حتى لقد كتب إلى عمته ذات مرة يقول « إنهـا اليوم المتعة الوحيدة التى تربطنى بالحياة » .

بنى تولستوى مدرسته فجعلها ثلاث حجرات كبيرة ، وجعل إحداها متحفاً للنبات والحيوان وأنواع الصخر وأدوات العلوم الطبيعية ! وكان بها ثلاثة معلمين هو أحدهم ، وقسيس كان يزورها مرتين فى الأسبوع .

وكان أكثر ما يتلقى التلاميذ دروسهم فى الحديقة حيث يتحلقون أمام معلمهم بين شجرات التفاح ، وكان يتعلم التلاميذ اللغة والدين والرسم والعلوم الطبيعية والرياضة والنبات والحيوان والموسيقى والأناشيد ...

وجعل أساس خطته أن يشعر التلاميذ باللذة في كسب المعرفة ، فأحاطهم بكثير من الحرية فهم يجلسون حيث يشاءون، وهم يستمرون فى الدرس إذا أعجبهم دون التقيد بزمن حتى ينصرفوا عنه من تلقاء أنفسهم ، وهم يظهرون معلمهم على ما يعجبهم وما لا يعجبهم ، ولن يؤنب تلميذ على تأخره عن الميعاد ، وقليلا ما كان يتأخر

أحد إلا الكبار الذين يضطرون إلى معاونة آبائهم فى بعض أعمالهم ثم يأتون سراعاً إلى المدرسة ؛ ولا يكلف التلاميذ بأعمال في منازلهم أو يطلب اليهم إحضار دفاتر أو كتب معينة معهم ، و إذا جاءوا قبل المعلم تركوا فى زياطهم ولعبهم لا يلزمون بشيء ممـــا تسميه المدارس بالنظام ، فما يطلب منهم إلا النظافة والانتباه والصدق فى القول ؛ وكان يوجه كل غلام الوجهة التى يميل اليها لتمد موهبته أقصى مدها ، ولا يحمل أحد قط على غير ما يحب ...

وأحب التلاميذ معلميهم حباً قوياً و بخاصة تولستوى ، فقد كان فى غير أوقات الدروس يلاعبهم ويضاحكهم ، يصحبهم الى الغابة ويسابقهم فى العدو ، و إنه ليرى أثناء ذلك كيف تشكل عواطفهم وكيف تتفتح نفوسهم للحياة .

واستطاع تولستوى أن يحدث أثراً عميقاً في نفوس تلاميذه ، فأذا أخذوا في حديث معه أو إذا ألقى عليهم درساً لم يحبوا أن ينصرفوا ، بل إنهم ليريدون أن يبقي بينهم مهما استطال الزمن ؛ ولقـد نهاهم أن ينادوه بألقاب التعظيم قائلا لهم « إن اسمى هو ليو نيقولا فتش » .

وكان أحب شيء إلى قلبه ما يراه من نجاح خطته فى جعل التلاميذ يتطلعون إلى المعرفة فى شوق ولذة ويحاولون الوصول إلى مايريدون ؛ وكم كان يبهج نفسه أن يرى محاولتهم وأن يمد لهم يده ببعض العون ثم يكلهم إلى جدهم و إرادتهم ..

وكان يبدأ معهم قصة ثم يطلب إليهم المشاركة فى إتمامها ويستمع لآرائهم ويستشف ميولهم ومواهبهم ، فهذا الغلام شاعر وهذا متوقد الخيال وذاك فيلسوف صغير ؛ فإذا تمت القصة ناقشهم فى بنائها ومبلغ ما فيها من ابتكار ، وعلمهم بذلك من حيث لا يشعرون درساً فى النقد يأتى بعد ذلك الدرس فى الإنشاء ...

وفى تعليمهم القراءة كان لا يحملهم على قراءة شيء بعينه ، و إنمـا كان يدعهم يختارون ما يحلو لأنفسهم فأذا آنس فى أحدهم ميلا إلى ناحية زاده منها ودفعه إليها خطوات ثم تركه يسلك سبيله ...

وكان المعلمون يدونون ما يلاحظونه ثم يتبادلون هذه الملاحظات أيام الآحاد

وكان يعنى تولستوى بكل صغيرة وكبيرة مما يذكرون ...

ونشر تولستوى مجلة سماها « ياسنايا بوليانا » ، أراد بها أن تكون متممة لمشروعه فى التربية فكان يكتب فيها آراءه فى التربية والتعليم ويستعرض آراء فحول التربية فى الغرب ؛ ولم يصدر من هذه الصحيفة إلا اثنا عشر عدداً وقد خسر تولستوى ثلاثة آلاف من الروبلات فى هذه الأعداد .

وقد قابل الناس مدرسته أول الأمر بشيء من التشكك ولكن فى غير سوء فلما رأوا مبلغ ما أصاب تلاميذه من تقدم ، أحسنوا بها الظن حتى لقد أرسل إليها بعض الأغنياء بنيهم على ما كان بينهم وبينها من بعد الشقة .

وكان غرضه من هذه المدرسة أن يتبين مبلغ ما فى آرائه فى التربية من نجاح ليصل إلى منهاج للتعليم تأخذ به روسيا كلها ..

ذلك أن تولستوى كان يعتقد أن روسيا تتعثر فى خطوات تقدمها ، وما ذلك إلا لأنها لا تتبين طريقها ، فإذا اتضح أمامها الطريق وأصلح المنهاج ظفرت بالتقدم الصحيح وبلغت هدفها من أقرب السبل إليه ..

ولقد كان سروره عظيما إذ علم أن ثلاث عشرة مدرسة على نمط مدرسته قد افتتحت فى الجهات المجاورة ، وقد كان أصحاب هذه المدارس يرجعون إليه فى اختيار المعلمين ...

على أنه لم ينج من سوء الظن من جانب بعض المشتغلين فى روسيا بشئون التعليم ، ومن جانب وزير الداخلية ، الذى بلغ به الاهتمام أن أرسل إلى وزير المعارف ينبهه إلى ما فى آراء تولستوى من سفسطة وشذوذ لا يخفى ما لها من خطر فى الإخلال بنظم التعليم المقررة ، وإن لم ير فيها نزعة إجرامية أو دعوة إلى الفوضى

ولكن وزير المعارف رد عليه بأن عمل الكونت تولستوى فى التعليم جدير بالاحترام كله ، وأن وزارة المعارف تميل إلى إعانته وتعضيده ولو أنها لا تسلم بآرائه كلها

على أن تولستوى ما لبث أن فترت حماسته لمدرسته ، بسبب ما تفتحت له نفسه واتجه إليه ذهنه من جديد الأمور ؛ ولقد كان من أبرز خصائصه أنه لا يستقر

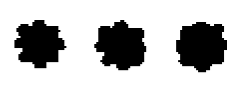
على حال فهو يتطلع أبداً إلى جديد من الحياة يلتمس فيه المتعة و يأمل أن يحقق به رغبة نفسه ، وما أكثر ما كانت تهجس الرغائب فى هذه النفس المتوثبة المتطلعة . وكان الزواج أقوي رغباته يومئذ وأشدها إلحاحاً على نفسه ، ومتى اتجه تولستوى إلى شيء فقد استغرق تفكيره كله حتى كأنه لم يفكر قبل فى غيره ، ولندعه يقص علينا حديث مدرسته وانصرافه عنها قال « أقمت فى القرية عقب عودتى من الخارج لأشغل نفسى بالمدارس القروية ، وكان هذا العمل ملائماً لى لأننى لن أجد فيه ذلك الباطل الذى اتضح لى والذى كان يواجهنى حينما أردت أن أعلم الناس وأرشدهم متخذاً الأدب وسيلتى ؛ ولقد عملت هنا كذلك فى سبيل التقدم المنشود ولكنى نظرت فى التقدم نظرة الناقد وقلت لنفسى : لقد سار التقدم فى بعض خطواته سيراً خاطئاً ، وعلى المرء أن يسلك مع السذج من بنى الفلاحين طريق الحرية التامة فيدعهم يختارون لأنفسهم ما يشاءون من سبل التقدم ؛ على أننى كنت فى الواقع أدور حول معضلة تستعصى على الحل ، مؤداها : كيف أُعلم دون أن أدرى ماذا أعلم ؟ لقد تبينت فى مسالك الأدب العليا أنه لا يستطيع الإنسان أن يعلم شيئاً ما لم يدر ما يريد ، وذلك لأنى رأيت الناس قد عُلمو وفق صور مختلفة ، وأنهم باختلافهم فيما بينهم إنما نجحوا فى أمر واحد وذلك هو إخفاء جهالاتهم بعضهم عن بعض . ولكنى هنا وسط الأطفال القرويين فكرت أن أتجنب هذا الصعوبة وذلك بأن أدعهم يختارون من العلم ما يحبون ؛ و إنى لأجد نوعاً من التسلية الآن كلما تذكرت كيف كانت تأخذنى الحيرة إذ كنت أحاول أن أحقق رغبتى فى التعليم في حين كنت أشعر فى أعماق نفسى أنى لا يمكننى أن أعلم شيئاً مطلوباً لأنى لم أكن أعلم ما ذلك الذى يطلب ...

« و بعد أن قضيت سنة فى عملى المدرسي سافرت إلى الخارج مرة ثانية لأكتشف كيف أعلم غيرى في حين أنى لا أعلم شيئاً ... ويظهر لى أنى تعلمت ذلك فى الخارج ، ثم إنى عدت إلى روسيا سنة التحرير مسلحاً بكل هذه الحكمة ، وأخذت وقد عينت حكماً أعلم الجهلاء في مدرستى والمتعلمين فى صفحات مجلتى ؛

وسارت الأمور سيراً مرضياً أول الأمر ولكن ما لبثت أن أحسست أن عقلي ليس من السلامة كما أحب وأن الأمور لا يمكن أن تستمر فى هذا الاتجاه …

وكنت خليقاً يومئذ أن أبلغ من اليأس ما بلغت بعد ذلك بخمسة عشر عاماً ، لو لم يكن أمامى جانب من الحياة لم أكشفه بعد ، جانب يعدنى بالسعادة ، ألا وهو الزواج …

« وشغلت نفسى سنة بعملى حكما وبالمدارس وبالمجلة ، ولقد أجهدنى ذلك وبخاصة ما كان من اضطرابى العقلى … وكان عملى فى شؤون التحكيم شاقاً ، وكانت نتائج عملى فى التربية تحجبها الظلمات ؛ وكانت جهودى فى المجلة تبعث على السأم حيث أنى كنت أرغب أن أرشد الناس جميعاً وأن أخفى عنهم هذه الحقيقة ، ألا وهي أنى لا أدرى ماذا أعلمهم … كل أولئك أدي بى إلى المرض وأحسست بالعلة فى عقلى أكثر مما أحسستها فى بدنى ، فنفضت يدي من كل شيء ورحلت إلى باشكيرز فى السهول لأنشق الهواء النقى ولأشرب الكوميس[1] ، ولأعيش عيشة حيوانية » .



وقد أتعبه عمله فى التحكيم لأن الأمراء نقموا منه عطفه على الفلاحين كلما حكموه فيما ينجم بينهم وبين السادة من خلاف ، ولقد اشتكى الأمراء منه إلى الحكومة أكثر من مرة ، وهددوه وأنذروه بسوء العواقب ولكنه لم يحفل لهم نذراً …

وطمع الفلاحون فى عطفه ، فطلبوا إليه أكثر مما تطيقه النصفة ، فلما لم يجبهم إلى ما أحبوا ، غضبوا منه وأطلقوا فيه ألسنتهم بالسوء من القول ، وكدره ذلك وعظم وقعه عليه …

وكان لا يفتأ يتحين الفرص ليخلص من هذا العمل وبخاصة لأنه لم يجد فيه إلا قليلا مما عسى أن يفيده من الملاحظات ؛ ولكنه آثر أن ينتظر حتى تهدأ

(١) شراب يتخذ من لبن الخيل على طريقة خاصة وكان الروس يعالجون به أمراض الصدر .

عاصفة الأمراء كيلا يفسر تركه العمل بأنه هروب الخائف ... فلما سكنت من حوله ريحهم كتب إلى أولى الأمر يستقيل من عمله معتلا بأن أكثر ما يقضى به لا ينفذ ، وتم له ما أراد فأطلق من هذا العمل ، وما كان ليستطيع وقد سئم من مدرسته التى أحبها أن يطيق صبراً على التحكيم حتى ولو لم يكن فيه ما ذكرنا من المتاعب ، فإن روحه القلقة كانت يومئذ فى أقصى حالات سأمها ...

* * *

ومما يعجب له المرء أن تولستوى كان يبدو يومئذ وكأنه بمنأى عن ذلك التحمس الروحى العقلى العام ، الذى كان فى روسيا أشبه بما كان فى غربى أوروبا إبان الثورة الفرنسية ، فكان ينظر إلى تلك الحركة التى كان تحرير الرقيق أحد مظاهرها نظرة من لا يكترث لها ، ولعله كان يميل إلى معارضتها ، ولعل مرد ذلك كان إلى ميله للمعارضة فى ذاتها ، ولعله كذلك كان لفرط شعوره بذاتيته مما لا يسهل معه أن يلتقى بنفسه فى تيار عام ؛ ولقد أخذ فيما بعد بأكثر تلك المبادىء التى كان ينفر منها فى ذلك الوقت ، وزعمها لنفسه .

كان يسخر تولستوى ممن يطلبون الإصلاح على نمط أهل الغرب وبخاصة طلاب الحكم الدستورى لأنه فى زعمه لم يكن يلائم مزاج روسيا ؛ وكذلك رغب تولستوى عن دعوة الداعين إلى العلم الحديث والتقدم المادى قائلا إن هذا النوع من التقدم إن هو إلا سراب خادع ...

ومن كان هذا شأنه كان خليقاً أن يميل إلى أصحاب المدرسة السلافية ، ولكنه عارض هؤلاء كما عارض طلاب المدنية الغربية ، ولعله كان أشد صرامة على السلافيين ، الأمر الذى لا ينقضى منه العجب ، والذى يحمل المرء على أن يأخذ ذلك منه إما على أنه معارضة من أجل المعارضة فحسب ، وإما على أنه اضطراب عقلى جعله فى حيرة لا يدرى ماذا يأخذ وماذا يدع ؛ ولقد كان صديقه بوتكن يميل إلى ثانى الاحتمالين ، فعنده أن « عقل تولستوى كان لا يزال يومئذ فى عماء ، فلم يكن وصل بعد إلى نظرة محددة فى الحياة وأمور الدنيا ، وهذا سبب

تغييره نظراته دائماً وتذبذبه من الشيء إلى نقيضه ؛ وإن روحه لتتحرق فى ظمأ لا يطفأ ... وترى ما أرضاه بالأمس يذهب بدداً إذا أخذ فى تحليله اليوم »

أنـكر تولستوى على السلافيين ما آمنوا به من مقدرة « روسيا المسيحية » أن تشق لنفسها سبيل خلاصها على هدى من تقاليدها وتاريخها وذاتيتها ، وأنـكر عليهم كذلك إيمانهم برسالة مؤداها أنهم قادرون على أن يغيروا عالماً مادياً منهاراً بمثلهم الروحية .

وكان يضحك منهم لأنهم فى رأيه يثيرون حرباً فى غير عدو ، ولأن نظرتهم إلى الحياة كانت فى زعمه ضيقة مبهمة ؛ ولـكنه بينه وبين نفسه كان يميل ميلهم صوب حكومة أبوية يكون حاكمها الأوتوقراطى أشبه بأب الأسرة من أسرته له عليها حق الطاعة ولها عليه حق الرعاية ... ويدرك الأب ما تحتاج إليه أسرته دون أن ينبهه أحد إلى ذلك فيؤديه لها فى غير من عليها ، فلا حاجة به إلى ممثلين لها يطلبون إليه كيت وكيت ويسألونه أو بالأحرى يسألون وزراءه عن كيت وكيت

* * *

رحل تولستوى إلى سهول سمارا شرقى الفلجا فى شهر مايو سنة ١٨٦٢ يصحبه خادمه أليـكسي وتلميذان من نابهي تلاميـذه ... وقد مر فى طريقه بموسكو ، وهناك عاوده ميله إلى الميسر فلعب لعبة صينية مع شخص يجهله وخسر فى ذلك ألف روبل ، مع أنه قبل ذلك بنصف ساعة كان يبدى دهشته كما ذكر بعض أصدقائه إذ علم أن أحد الأشخاص قد خسر فى اللعب سبعة آلاف روبل قائلاً : « لست أدرى كيف يقدم الناس على مثل هذا العمل ؟ » .

وقد اضطرته خسارته إلى أن يبيع قصته « أهل القوقاز » ، ولم يكن أتمها بعـد ، إلي أحد الناشرين بألف روبل وهو المبلغ الذى فقده في الميسر ، ولـكم آلمه ذلك وكدره ...

وعلم وهو في إقليم سمارا بحادث وقع فى ياسنايا أثار نقمته على حكومة روسيا وعلى الحـكومات جميعاً ؛ وذلك أن فريقاً من الشرطة يقودهم رئيس لهم قد اقتحموا

بيته ومدرسته على أعين الناس ، ففتشوهما وقلبوا كل شيء فيهما رأساً على عقب ، ونقبوا الأرض بالفؤوس فى حظائر الخيل ، ولم يدعوا صواناً أو قمطراً أو صندوقاً إلا فتحوه وفتشوه ؛ ولم يتورع رئيس الشرطة أن يقرأ علانية مذكرات سرية خاصة لتولستوى على مسمع من أخته واثنين من رجال القوة كما قرأ جميع ما وقعت عليه يده من رسائل ؛ وقصد الشرطة إلى المدارس الأخرى ففتشوها كذلك وقبضوا على بعض المعلمين ...

ولم يعثر الشرطة على شيء سوى آلة تصوير وكانت يومذاك من الأشياء النادرة فى روسيا ، الأمر الذى أثار ظنونهم حول الغرض من وجودها و إن كانوا ليعلمون أنها آلة تصوير لا شيء أكثر من ذلك ...

ور بما كان هذا التفتيش بعض ما كاد له به كارهوه من مالكي الأرض لما كان منه فى التحكيم ، ور بما كان بعض تجسس الشرطة لاضطغان وزير الداخلية عليه وعلى أسلوبه فى التعليم .

وذكر كذلك من أسباب هذ التفتيش ، أن الحكومة كانت توجس خيفة مما كان بين تولستوي وهيرزن من صلة أثناء وجود تولستوى فى إنجلترة ، ولقد عادت بعض مقالات هيرزن إلى الظهور ، فظن أن تولستوى هو الذى يعيد نشرها ...

ومهما يكن من سبب فقد آلمه هذا العمل إيلاما شديداً ، و بخاصة إذ علم أن عمته وأخته قد روعتا حتى ليقل الأمل فى برء أولاهما مما انتابها نتيجة للخوف ...

وساء تولستوى أن يشمت به الأعيان وأن يظن الفلاحون بأمانته الظنون ، فضلا عما فى هذا العمل من جرح لكبرياء نفس كنفسه ، لما يتضمنه من عدم الاكتراث له .

وكتب يطلب إلى عمته أن تتصل بذوى النفوذ من أقربائه ، ويذكر أنه لو كان حاضراً لكان اليوم يحاكم على ما ارتكب من قتل ثم اختتم كتابه بقوله « لن أسكن حتى أتلقى ترضية عامة كما كانت إهانتى عامة ، وسوف لا ألحق

بهيرزن فى منفاه فله طريقته ولى طريقتى ؛ وكذلك لن أختفى ولـكنى سأعلن للملأ أنى أبيع ضياعي وأغادر روسيا حيث لا يدرى المرء بين حين وحين ماذا يخبأ له » .

وكتب تولستوى إلى القيصر يطلب الترضية عما لحقه ، وحمل أحد حرس القيصر هذا الـكتاب إليه ؛ وما لبث تولستوى أن ظفر بفضل شجاعته الأدبية بأول انتصار له على الحـكومة سوف تعقبه انتصارات ، فقد أرسل الأسكندر الثانى إلى حاكم تولا أن يذهب إلى تولستوي فيعلن إليه أن القيصر يعبر له عن أسـفه عما وقع له ... وطابت نفس الـكاتب النابه بما فعل القيصر وذهب عنه شديد غضبه ..



زواج

اشتدت رغبة تولستوى في الزواج وقد بلغ الرابعة والثلاثين من عمره ، والحق أنه كان قوى الرغبة فى أن يتزوج منذ علاقتـه بتلك القروية التى فتنته وكان اسمها أكسينا ، والتى ولدت له ولداً كان يؤلمه ويكدر خاطره مرآه ، وكان يذكره بما فعل أبوه إذ كان لأبيه ولد سفيح هو أخ لتولستوى جاء قوى الشبه به ؛ وكان كلما رآه تولستوى يعمل سائقاً لإحدى عرباته اشمأزت نفسه من فعلة أبيه ومن فعلته هو مع أكسينا ، تلك التى ما فتئت تغريه بالأثم وتثير ببدنها القوى وبوجهها البرنزى ، على حد تعبيره ، شهوة بدنه ...

ولقد ظل تولستوى حائراً لا يدرى منذ أن انقضى ما كان بينه وبين ڤاليريا من يتخذها ممن يعرف من الأوانس زوجة له ؛ وكثيراً ما كانت كلمة الخطبة على أثلة لسانه منذ سنة ١٨٥٩ ، بيد أنه كان يتراجع كل مرة على الرغم من تحرقه إلى الزواج ، ولقد جاء في دفتره فى تلك السنة قوله « إما أن أتزوج هذه السنة وإلا فلا زواج قط »

ولقد تقدم فعلا فى السنة المشار إليها يطلب يد البرنسس لفوف ولـكنه لم يظفر بقبولها فعاد إلى ما كان فيه من حيرة ...

على أن القدر يخرجه من حيرته في صيف سنة ١٨٦٢ عقب عودته من سمارا



كان الطبيب بيرز يعيش وأسرته عيشة راضية فى موسكو منذ أن تزوج سنة ١٨٤٢ وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره بالآنسة ليوبوف إسلافين وكانت فتاة فى السادسة عشرة ...

كان هذا الطبيب الألمانى الأصل موفور الرزق بما كان يكسب من حرفته ومن وظيفته فى بلاط القيصر ، وإن لم يك من ذوى الثراء الواسع ؛ وكان له

ولأسرته مكانة اجتماعية مردها إلى منصبه الرسمي الذي حصل فيه على لقب النبل جزاءاً على خدماته في القصر الإمبراطوري ...

وقد أنجبت الزوجة الفتية لبعلها حتى سنة ١٨٦٢ ثلاث عشرة عاش منهم ثمانية ، ومن هؤلاء ثلاث بنات كانت كبراهن واسمها إليزابث في التاسعة عشرة ، تليها سوفيا وهي دونها بسنة ، ثم تاتيانا وهي دون سوفيا بسنتين . .

ولم تكن زوجة الطبيب يبرز إلا تلك البنت التي أحبها تولستوى وهو طفل ، والتي أدت به الغيرة ذات يوم إلى أن يدفعها من شرفة فأصابها بالعرج زمناً غير قصير ؛ لم تكن إلا إسلنيف الصغيرة التي عاشت في كنف أبيه ، وقد ولدتها أمها لرجل يدعى الاسكندر إسلنيف عاشت معه بعد أن هجرت زوجها ولم تستطع أن تحصل منه على الطلاق ...

وقد تعلم البنات في البيت على أيدي معلمين ومعلمات ألمان وفرنسيين ؛ وكان أبوهن يعدهن ليكسبن قوتهن بعملهن ، ولذلك كن يتعلمن ليكن معلمات ..

وقرأ البنات وبخاصة سوفيا كثيراً من الكتب ، وكان لقصة ترجنيف الآباء والأبناء أثر عظيم في نفوسهن وقد اشتد عطفهن على بطل القصة بازاروف ...

وفي ربيع سنة ١٨٦١ نجحت إليزابث وصوفيا في امتحان يتيح لهما الالتحاق بجامعة موسكو ...

وكان البنات في غير أوقات الدروس يخطن ويطرزن وينظفن المنزل ويقمن على مختلف شؤونه ويعلمن إخوتهن الصغار ؛ ولم يكن يكدر عليهن صفو حياتهن إلا ما يكون أحياناً من غضب أبيهن ، ولكنهن كن يرين أمهن الصبور الهادئة كيف تحتال بكل حيلة لتفثأ غضبه فأثر ذلك فيهن أثراً حميدا ..

كانت إليزابث كبرى البنات فتاة طويلة القامة ، جميلة المحيا ، ساحرة العينين ، في ملامحها كثير من الجد والسكون ؛ وكانت هادئة باردة الطبع قليلة النشاط نوعا ما ؛ وكانت أعمال البيت تضايقها وتثير في نفسها الاشمئزاز ، ولعل مرد ذلك إلى كسلها وإلى رغبتها في القراءة ، فكثيراً ما كان يرى في يدها كتاب

لا تكاد تفرغ من عمل حتى تعود إليه ...

وكانت تانيا صغراهن على نقيض إليزابث ، فتاة لعوبا مرحة لاتفتأ تثب هنا وهناك حتى لتملأ البيت كله بضحكها وصوتها الساحر الجميل ، وكانت تسمى فى البيت « الشيطانة الصغيرة » وكان لها ولع بالموسيقى ، وكانت متقدة العاطفة ، تملأ قلبها حرارة الشباب ، تحب صاحباتها فتستغرق فى الحب ، ولاتنى تظهر لكل من يراها إعجابها بنفسها وفرط إحساسها بذاتها .

وكانت وسطاهن صوفيا أو سونيا كما كانت تسمى فى البيت وسطا بين أختيها ؛ تميل إلى تاتيانا وتحب مرحها وتنكر من إليزابث سكوتها وانطواءها على نفسها...

وكانت سونيا موفورة العافية ، نشطة متوردة الوجنتين ، براقة العينين ، وكانت ذات جمال وفتنة وبخاصة عيناها الواسعتان الرماديتان . .

ولئن كانت تحب صوفيا مرح أختها تاتيانا ، إلا أنها كانت تحس أبداً أن هاجساً خفياً لا تدريه ولا تنكره يوحى إليها شيئاً من الحزن المبهم الذى يشوب مرحها دائماً ، فلا تحس سروراً إلا أحست معه شيئاً من الحزن ؛ كتبت لتاتيانا ذات مرة تقول « إن تلك الموهبة التى تحسدين عليها وهى الاستمتاع بكل شيء وبكل شخص بارزة فيك كل البروز ، أما أنا فعلى عكس ذلك ، إذ أجد ثمة شيئاً حزيناً فى كل مرح وكل سعادة »

وكانت سونيا رحيمة بأخوتها ، تؤدى عمل البيت فى غير ضجر أو كلال ؛ وكانت مولعة بالأدب والتصوير والموسيقى ؛ وقد احتفظت منذ الحادية عشرة بدفتر تثبت فيه ملاحظاتها ؛ وقد جاء فيه عن قراءتها قولها « لقد أحدث كل من « عهد الطفولة » لتولستوى و « دافيد كوبرفيلد » لدكنز فى نفسى أعظم الأثر ، ولقد بكيت حين فرغت من قراءة كوبرفيلد لأنى سوف أفترق عن أولئك الأشخاص الذين باتوا أعزاء إلى قلبى »

وكان يغشى بيت بيرز كثير من الأضياف ، وبخاصة فى يومى السبت والأحد وكانت بنات الطبيب زينة الدار ، وكانت أمهن شديدة الرقابة عليهن تحدجهن



صوفيا بيرز قبيل زواجها

حدج الملامة أمام الضيوف أو تنصح لهن بكلماتها إذا خلت إليهن ...

وأخذ البنات يغشين المجتمعات ويشهدن حفلات الرقص ويشاركن فيها ، وقد ذهب لهن صيت فى الجمال والظرف والرشاقة وحسن الذوق .

وكان أول من أعجب بسونيا معلمها الشاب ، ولكنها كانت لا تكترث له ولا تعبأ بتنهداته ، وبينما كان يعينها على نقل مقعد إذ أمسك بيدها وقبلها ، فصاحت به كيف تجرؤ على ذلك ؟ ثم أرادت أن تريه مدى احتقارها إياه فمسحت بمنديلها موضع شفتيه من يدها ؛ ثم إنها أخبرت أمها بما فعل فلم تعفها من اللوم قائلة « لم لا تسلكين مسلك أختك إليزابث من الجد والاحتشام ؟ » وأبعد المعلم المسكين عن البيت ...

وأعجب بها بعده ضابط شاب وكان ينتمى إلى أسرة غنية يدعى پوليفانوف ، وأحست سونيا انجذاباً نحوه ، ولما قبل يديها ذات مرة لم تغضب ولم تشمئز ، ولكنها أحست النشوة تشيع فى هيكلها كله وباتت تتوقع وتحلم ...

ولما هم بالرحيل صارحها برغبته فى أن يتزوجها ، وجعل لها الخيار أن تعدل عن رضائها إذا رغبت ، وذلك إذا اضطرته ظروف الحياة أن يغيب عنها ... وأخذ أهلها هذا على أنه بعض عبث الشباب .



كانت أول زيارة ذات بال من جانب تولستوى لأسرة بيرز سنة ١٨٥٦ وقد أشرنا إلى هذه الزيارة من قبل ، وقد أعدت المائدة له ولمن كان معه من الضيوف إليزابث أوليزا كما كانت تدعى وأختها سونيا ، وكانتا طفلتين يومئذ فلاعبهما تولستوى وضاحكهما ، وجلس بعد الطعام يقص عليهما القصص عن سباستبول وما كان من أنباء الحرب ، وكانتا قد قرأتا « عهد الطفولة » و « عهد الشباب » وسرهما ما جاء فى الكتابين عن جدهما لأمهما وقد كان كما ذكرنا صديقاً لأبيه ... وأحست البنتان سروراً عظيما لجلوسهما بين يدي الكاتب النابه وداخل تولستوى السرور مما أحس فى الأسرة كلها من هناءة ، وأعجب بالبنتين

وأختهما الصغيرة وما أشعنه حولهن من مسرة ... ولقد أسرعت سونيا بعد رحيله إلى الكرسى الذى كان يجلس عليه فربطت فى رجله شريطاً لتعرفه به .

وفى سنة ١٨٦١ بعد عودته من رحلته الثانية إلى أوروبا ، زار تولستوى أسرة بيرز ، فأعجبه ما رأى من تغير البنات فقد غدون آنسات يغشين المجتمعات ويأخذن زينتهن فى كل مجتمع ، وتهفو إليهن أفئدة الشباب ...

وتحدث إلى ليزا حديثاً فى الأدب والدين وأفاض فى الكلام عن مدرسته ، وأوحى إليها أن تكتب شيئاً عن محمد النبى العربى وعن مارتن لوثر ؛ وجلس مع سونيا إلى البيان ، ولعب معها الشطرنج ؛ وعابث تانيا وضاحكها وقص عليها من قصصه ...

ولم يصرفه اهتمامه بمدرسته عن أسرة بيرز فأكثر من زيارتها ، ورفعت الكلفة بينه وبينهم فكان يأتي إليهم فى أى وقت وكأنه واحد منهم ، وألفه البنات وألفهن ، وكن يشرن إليه بقولهن « الكونت » وألفه كذلك خدم الدار وبات يحبه ويأنس بلقائه كل من يراه ..

وتحدث الناس أنه عما قريب سوف يخطب ليزا إلى أهلها ، فقد قيل إنه ذكر لأخته مرة أنه إذا تزوج يوماً ما فستكون عروسه من آل بيرز ...

وبلغ حديث الناس آل بيرز فسرهم ذلك أبلغ السرور ، فنى زعمهم أن ليزا خير من تصلح زوجة للكونت ، وبات الأبوان يرتقبان الخطبة ، وسمعت بذلك ليزا فزادت من عنايتها بمظهرها ، وباتت تحلم أحلام الحب والسعادة وفى نفسها عن « الكونت » أنها قد شغفته حباً ..

ولكن تولستوى كان لا يحس فى نفسه أنه يحبها ، فقد جاء في مذكراته فى شهر مايو سنة ١٨٦١ قوله « قضيت يوماً بهيجاً عند آل بيرز ، يجب ألا أقدم على زواج ليزا » وقال فى سبتمبر « إليزابث بيرز تغرينى ، ولكنى لن أدع ذلك يحدث ، فإن مجرد الإغراء الذى لا يصحبه أى شعور ما غير مجد »

وأحس أن سونيا تزداد كل يوم قربا إلى قلبه ، كما كانت تزداد حسناً ؛

وأحست الفتاة زيادة اهتمامه بها ؛ وكان صاحبها بوليفانوف قد غاب عنها غيبة تشبه القطيعة ، وكانت تتوجد أحياناً حتى لتجهش إذا خلت إلى نفسها ؛ ولما رأت إقبال تولستوي عليها أحست مع حسرتها على صاحبها حيرتها من مسلك الكونت وباتت تسأل نفسها أهو حقاً يحبها ، ثم لا تلبث أن ترى أنها واهمة فتذكر بوليفانوف ، ولكنها لا تكاد تلقي تولستوى حتى تملأ نفسها الحيرة ...

وعرج تولستوى على موسكو فى صيف سنة ١٨٦٣ وهو فى طريقه إلى سمارا ، فزار أل بيرز ؛ وكانت سونيا يومئذ تميل بخيالها إلى تولستوى ، ولا تكاد تذكر بوليفانوف ، وكان يحس الكونت نحوها أن قد أخذ يمس قلبه الحب .

ولما قص تولستوى علي الأسرة اضطراره إلي بيع قصته قبل أن يتمها أو يهذبها ليؤدى بثمنها دينه بعد خسارته فى الميسر ، لم تقو سونيا على حبس دموعها رثاء له وتألما من مسلكه ؛ ولما رحل عنهم كانت سونيا حزينة تطيل صلواتها فدنت منها « الشيطانة الصغيرة » تاتيانا وسألتها فى خبث « أتحبين الكونت ياسونيا ؟» فأجابت أختها فى دهشة « لست أدرى ... »

ولما عاد تولستوى من سمارا إلى قريته والغضب ملء نفسه مما فعل الشرطة بداره ومدرسته ، أنساه غضبه زيارة من زوجة بيرز ومعها بناتها فى أجمل ملابسهن الصيفية لأخته مارى فى يا سنايا بوليانا ...

وشاع فى نفسه السرور بهذه الزيارة ، وكانت تراه عمته تاتيانا وأخته مارى وكأنه من فرط مرحه قد عاد إلى سن العشرين ، وباتتا ترتقبان أن يطلب يد ليزا ...

وبلغ من حفاوة تولستوى بالفتيات أن عمل مع الخدم فى إعداد سرر نومهن بنفسه ، وكن فى الحجرة التى جعلت لهن يؤدين بعض ما يتطلبه هذا الإعداد وكم ضحكن فى مرح وغبطة ؛ والتقت عينا تولستوى بعينى سونيا ، وكانت بينهما نظرة طويلة ، وكأنه لم يرها إلا فى هذه اللحظة فإن شيئاً يحسه ولا يدرى كنهه يسرى فى هيكله كله ، وإن عينيها لتحدثانه حديثاً يفهمه حتى كأنه الهمس وإن

عينيه كذلك لتحدثانها بكل ما فى نفسه . وضرجت الحمرة وجهها فاستردت نظرتها ولـكن بعد أن نفذت إلى قلبه .

وزاره فى اليوم التالي صديقه فت و بعض أصحابه فخرجوا مع البنات إلى الغابة وقضوا نهارهم فى مرح كان البنات مبعثة كما كن مبعث ما شاع حولهن من جمال وفتنة

ولما رحلن إلى إفتسى حيث أرادت أمهن أن تزور أباها فى ضيعته التى ورثها من أمها فى هذه القرية التى كانت تبعد نحو أر بعين ميلا عن يا سنايا ، لم يطق تولستوى الوحشة بعدهن ، فلحق بهن على جواد أبيض ونظرن فإذا به بينهن .

وكان القصر فى افتسي حافلا بالضيوف ، وكان عدد من السيدات والآنسات بينهن بنات بيرز يتهيأن للرقص ، ولـكن تولستوى كان فى شغل بما توسوس به نفسه عما يدور حوله ، وجلس يحدث رب الدار حديثاً كانت تـكدره خلجات وجدانه ، فإن كل شيء من مراح الشباب وزياطه يذكره بشبابه الذى ينطوى وروحه التى تخمد ، وإنه ليحس وهو بعد فى الرابعة والثلاثين كأن بينه و بين الشباب أمداً بعيدا ...

وجلس غير بعيد يترقب و يغالب ما فى نفسه من حسرة ، وجاءته سـونيا تمشى على استحياء وقد حان وقت الرقص فقالت : ألا ترقص الآن ؟ فأجابها وهو يخفى همه بابتسامة : إنى اليوم أكبر سناً من أن أفعل ذلك .

وقد جعل باله فى تلك الليلة إلى سونيا ، يدور بعينيه إلى حيث تكون ، وكانت سونيا تقابل نظراته بنظراتها وكأنما تقول له إنها تدرك ما فى نفسه ، وكان يحمر وجهها فى صررة ملحوظة كلما دنت منه .

ولحظت ذلك عينا ليزا فأفلت منها زمام أعصابها وقالت لأختها الصغرى بعد الحفلة وهي تجهش . إن سونيا لتحاول أن تأخذ مني الـكونت ... ألم ترى ذلك ؟ إن مسلـكها و إن عينيها و إن رغبتها فى أن تنفرد به ، كل أولئك يبدو الآن جلياً ...

وجلس تولستوى يحدث رب الدار وابنتـه في إحدى الحجرات ويستعيد ذكريات الماضى ، وانضم البنات إلى أمهن وجدهن ولبثن يستمعن وكانت أمهن تصيح بهن الفينـة بعد الفينة ليأوين إلي مضاجعهن ولـكن حديث الـكونت كان يسحرهن ، حتى تبين الجد فى لهجة أمهن فقمن متثاقلات لينمن .

وتبعهن تولستوى إلى باب الحجرة ، ثم استوقف سونيا قائلا إنه يريد أن يفضى إليها بحديث وخفق قلب الفتاة ، ومشت معه إلى منضدة للعب الورق فى إحدي الحجرات ، ولندع تاتيانا تقص علينا ما كان بينهما من حديث : قالت « الشيطانة الصغيرة » فى مذكراتها « لقد طلب إلي أن أغنى ولما كان ذلك آخر ما كنت أرغب فيه وقتئذ ، فقد هربت إلى الثوى واختفيت تحت البيان . و بعد دقائق دخل الحجرة تولستوى وسونيا ، وكان يبدو عليهما الاضطراب فى صورة غير عادية ، وجلسا إلى منضدة اللعب . وقالت سونيا : هكذا ترحل غداً ! ولماذا تعجل على هذا النحو؟ إننا سوف نفتقدك ؛ وأجاب تولستوي : إن مارى وحدها وهى تتأهب للسفر إلى الخارج. وسألته سونيا أتسافر معها ؟ وقال الـكونت : كلا لقد كنت أرغب فى ذلك ولكنى الآن لا أستطيع . وتراجعت سونيا فلم تسأله لم لا يستطيع فإنها تدرك ما ذا يكون الجواب ، ورأيت فى وجهها ما يشعر أن شيئاً خطيراً يوشك أن يحدث ، وودت أن أخرج من مخبئى ولـكني خجلت من ذلك فبقيت ساكنة ... وقالت سونيا : هيا بنا إلى الفناء فإنهم لا بد يبحثون عنا ؛ وقال الـكونت : لا .. أرجو منك أن تظلى لحظة ... وكان يكتب شيئاً ما على المنضدة بقطعة من الطباشير ، ثم قال في صوت متهدج من أثر اضطرابه : أتستطيعين أن تقرأى ما أكتب لك إذا استعملت الحرف الأول من كل كلمة فحسب ؟ وأثبتت فى وجهه نظرة وقالت : أظن أنى أستطيع . . وكتب تولستوى الحروف ، وكأنما أوحِي إلى أختى فقرأت: إن شبابك وتطلعك للسعادة يذكرانى تذكيراً قوياً بشيخوختى وباستحالة السعادة على ... وكان يعينها تولستوى بعض العون فى قليل من هذه الكلمات ، وكتب حروفاً غيرها ، وقال لما حاولى مرة ثانية فقرأت : إن فى أسرتك خطأ حول أختك

وحولى ، وينبغى أن تعينينى أنت وتاتيانا »

هذا ما ذكرته تاتيانا ، ونضيف إليه أنها ما كادت تجيب حتى صاحت بها أمها : سونيا إذهبي إلى سريرك . . هل تفعلين ؟ . . وأسرعت سونيا إلى مخدعها

وبعد بضعة أيام زارت زوجة بيرز وبناتها ياسنايا ثانية لتوديع مارى قبل سفرها ، وكان تولستوى ساكناً يطيل التفكر أثناء هذه الزيارة ، ولما تأهبن للرحيل قال لهن : سوف أذهب معكن إلى موسكو إذ كيف أستطيع أن أبقى هنا دونكن . إن مقامي هنا يكون من الكآبة والوحشة بحيث لا أطيقه . . ثم سافرن فكان معهن حتى بلغن موسكو ..

وذهب آل بيرز من موسكو إلى بيتهن الريفى فى قريتهم پوكروفسكوى ، ووعدهم تولستوى أن يوافيهم إليها بعد قليل .

وعادت إليه فى وحدته هواجس نفسه ، كما كانت حاله مع ڤاليريا وأخذ يسأل نفسه عما يشعر به أهو الحب حقاً أم أنها الرغبة في الحب ؟

وذهب إلى پوكروفسكوى كما وعد ، وكانت لا تزال تعتقد ليزا أنه يحبها وأنه سوف يخطبها إلى نفسه ، وكانت تتنازع الأحلام والمخاوف قلب سونيا .

ووجد تولستوى فى پوكروفسكوى معلماً شابا يدعى پوپوف فى الخامسة والثلاثين من عمره يخفي فى نفسه نحو سونيا ما يبديه تودده إليها وما يشبه الغزل من حديثه ونظراته ؛ وكانت تحس سونيا ميله إليها فأغرته بعض الإغراء ، ولكن بالها وقلبها كانا إلى الكونت وإن غاب

وفعلت الغيرة فعلها في قلب تولستوى ، فكان كثيراً ما يأتى إلى القرية وكانت على نحو اثنى عشر ميلا من موسكو وكان يؤثر أن يذهب إلى هناك ماشيا فى أكثر الأحيان ...

وبات موقفه من الأسرة غريباً فهو لا يتقدم بالخطبة إلى ليزا ، وإنه فى الوقت نفسه ليكثر من غشيان بيتهم أينما كانوا كما لو كان واحداً منهم ؛ ولذلك لم يكن عجبا أن يظن الطبيب أن جمال امرأته هو الذى يجذب إلى بيته هذا الكونت الغامض ..

وكان لا يفتأ يسأل تولستوى نفسه أما آن له أن يستبطن دخيلة سونيا وأن يدرك حقيقة عقلها ووجدانها ، فإن اختياره زوجة لا تصلح له يعد عنده كارثة لا يكون معها رجاء ...

وسألها هل تكتب مذكرات ، فقالت : لا ولكنني عبرت عن حقيقة شعورى في قصة كتبتها . وألح عليها الكونت أن يقرأها فأبت أول الأمر ثم تظاهرت أمام إصراره أنها تعطيها إياه على كره ...

ترى هل كتبت سونيا هذه القصة ليقرأها تولستوى ؟ ذلك ما يكاد يؤدى إلى الجزم به موضوعها ...

كان في القصة رجلان : أولهما البرنس دو بلتسكى ، وهو فى منتصف العمر نشط ذكى ، قليل الآراء ، ليس علي قدر كبير من الوجاهة ؛ وثانيهما فى الثالثة والعشرين ، هادئ ساكن يتمسك بكثير من المثل العليا واسمه سميرنوف

وكانت بطلة القصة تدعي هيلين وهى فتاة جميلة ذات عينين دعجاوين ساحرتين ؛ ولهيلين أختان واحدة أكبر منها تدعى زنايدا وهى فتاة باردة الطبع ، والأخرى أصغر منها وتدعى نتاشا وهى بنت فى الخامسة عشرة ، لعوب مرحة ...

وكان يغشي دو بلتسكي بيت الأسرة دون أن تخالجه أفكار الحب ؛ وكان سميرنوف يحب هيلين وكانت تحس ميلا نحوه ، وقد اقترح عليها الزواج ولكنها لم تستطع أن تقطع برأى واعترض أهلها على اقتراح كهذا من شاب فى مثل سنه وعدوه بعض عبث الشباب ثم اضطرته ظروف العيش إلى السفر فغاب غيبة طويلة ...

وكانت زنايدا تميل إلى دو بلتسكي ، وكان يكثر غشيان البيت ولكنها ظلت فى حيرة من أمره كما كانت هيلين فى حيرة من أمر شعورها لا تدرى ماذا تريد ، ولا تستطيع أن تقول حتى لنفسها إنها أوشكت أن تحب دو بلتسكي ؛ وكان يؤلمها أنها ربما كانت تخدعه وتخدع أختها ؛ وطالما حاولت أن تغالب عواطفها ولكن تلك العواطف كانت تغلبها ؛ وظهر من دو بلتسكى أنه

يحبها أكثر مما يحب أختها وذلك ما جعله يبدو فى نظرها أكثر مما كان جذباً لها ؛ ولكنها لم تفهم حقيقة شعوره وكان يتعبها و يضايقها غموضه وانطواؤه على نفسه ...

وعاد سميرنوف ، ولم تطق هيلين أن ترى ما يظهر من تألم إذ شعر أنها تحب دو بلتسكى ، فاعتزمت أن تدخل الدير ؛ ثم إنها احتالت حتى قربت بين دو بلتسكي وأختها زنايدا ، وزفت هى بعد ذلك إلى سميرنوف ...

سهر تولستوى حتى قرأ القصة ولقد وقف عند أشياء فيها ومن أهمها ما وصف به دو بلتسكى من بعد عن الوجاهة ومن غموض فى الفكر ... أهذه صورته فى نفس سوفيا ؟ لقد طالما كانت هيئته مبعث ألم لنفسه وهو صغير فهل يتجدد اليوم ألمه وهو فى الرابعة والثلاثين ؟.. ذلك ما تحدثه به نفسه و إنه ليسمى نفسه بعد قراءة القصة دو بلتسكي !

وما هذه الخاتمة التى اختارتها لقصتها ؟ أتنصرف عن دو بلتسكى فتتزوج سميرنوف ؟ أتريد بذلك إغراءه و إخراجه من تردده ، أم أنها تؤثر عليه سميرنوف ؟ ومن يكون سميرنوف هذا ؟ أهو بوبوف الذى تطارحه الحديث وتظهر له الود ، أم هو ذلك الضابط الشاب بوليفانوف ؟ وهل تعمل سوفيا على التقريب بينه و بين أختها ليزا ؟

ألا تحب سوفيا هيئته فهى لذلك غير واثقة من أنها تحبه ؟ يا لها من حيرة ! لقد كتب في مذكراته في الثامن والعشرين من أغسطس سنة ١٨٦٢ بعد قراءة القصة بيومين يقول « أيها الوجه القبيح ! لا تحلم بالزواج ... إنك لست أهلا لهذا و إن أهليتك لمن نوع آخر ، و إنه لكثير ما منحته منها » .

وعلى الرغم من ذلك ذهب إلى الضيعة فى اليوم التالى ، ولما رجع أثبت فى مذكراته قوله « لا شيء من حب كما سلف ولا من غيرة حتى ولا من ندم ، ولكنى لا أجد مثلا لحالتي وذلك ما يجعلها حلوة ... كانت ليلة لذيذة وكانت العواطف رقيقة سارة ... إن بوبوف في غايه الذكاء وفى غاية الرقة » .



تولستوى قبيل زواجه

وكتب فى مساء اليوم التالى يقول « لست أغار قط من پوپوف إذ يتحدث إلى سونيا ، ولا أستطيع أن أصدق أن يكون ذلك حقيقة حالى ... إنها كذلك تتكلم فى حزن وهدوء ... أيها الأحمق إنك غير أهل لها ... لقد قضيت الليلة معهم ... لم أنم ... إنها هى أبداً ... »

وعادت الأسرة إلى موسكو فكان يزورها كل يوم ، وما زال أهل الدار ما عدا صوفيا وتاتيانا يعتقدون أن الكونت يتجه بقلبه إلى ليزا ...

وظل على هذه الحال أسبوعين بعد ذلك لا يقطع زيارته ولا يجمع عزمه على رأي ؛ ولقد جاء فى مذكراته فى السابع من سبتمبر قوله « لقد بقيت يومين بالبيت أفكر على انفراد فى أمرى ... لا تدفع نفسك يا دو بلتسكي حيث الشباب والجمال والشعر والحب ، فإن لهذه أيها الشيخ من هم أصغر منك ؛ إن موضعك في صومعة من صوامع العمل حيث تطلع من عزلتك فى سرور وهدوء على سعادة الآخرين وحبهم ... لقد عشت فى هذه الصومعة وسأعود إليها » وأثبت بعد ذلك بيومين قوله « أى دو بلتسكى لا تحلم .. لقد كتبت لها كتاباً لن أرسله . لم أستطع أن أنام لمدة ثلاث ساعات ؛ لقد حلمت وعذبت نفسى كما يفعل غلام فى السادسة عشرة » وقال فى اليوم التالى « إنى أشعر بالحب أكثر من أى يوم سلف ... وإن الأمل لا يزال فى أعماق نفسي ، يجب أن أحل هذه المعضلة ... لقد بدأت أكره ليزا وإن كنت أرثى لها .. أعنى يا إلهى وأرشدنى .. إن أمامى ليلة طويلة فارغة أقضيها ، ذلك يؤلمى أنا الذى طالما ضحكت من آلام المحبين ! كم ذا رسمت من خطة كى أصرح لها ولتانيا ولكل امرىء ولكن عبثاً حاولت .. لقد أخذت أزدرى ليزا من كل قلبى »

كان مرد هذه الحيرة الشديدة إلى أنه يخشى ألا يكون ما يحسه نحوها حباً كما يكون الحب ؛ كان يخاف من نفسه على حد تعبيره ، ويزيده خوفاً أنه كلما تدسس إلى شعورها ليتبين ما إذا كانت بها عيوب وجد نفسه منجذبا إليها ...

وفي الثاني عشر من سبتمبر كتب في مذكراته « إنني أحب اليوم على صورة لم أكن أصدقها من قبل .. لقد بلغ بي الجنون أني أخشى أن أقتل نفسي إذا لبثت على هذه الحال ... لقد قضيت المساء عندهم ؛ لقد بدت لي بهيجة ، ولكنني دو بلتسكي القبيح .. يجب أن آخذ أهبتي وشيكا . لا أستطيع النكوص الآن ، ولوأني دو بلتسكي إلا أن الحب غيرني ... لقد سنحت لي فرص ولكني لم أغتنمها .. منعني الخوف ، ولكن كان على أن أتكلم في بساطة .. إني أحب أن أعود إليهم فأذكر كل شيء أمامهم جميعاً »

وفي اليوم التالي كتب يقول « لقد سطرت كتاباً سوف أرسله إليها في غد .. قوني يا إلهي .. ما أشد خوفي من أن أموت ، فإن مثل هذه السعادة تبدو لي مستحيلة .. رب أعني وأرشدني »

وقال بعد ذلك بيوم « لم أنم إلا ساعة ونصف ساعة ، ولكني على الرغم من ذلك منتعش ، جد مهتاج » وفي اليوم التالي كتب يقول « أخفقت فلم أحدثها ولكني قلت لها إن لدي شيئاً أحب أن أحدثها عنه »

وذهب تولستوي في مساء السادس عشر إلى آل بيرز وفي جيبه الكتاب الذي أعده والذي لبث في جيبه ثلاثة أيام ، وألفي سوفيا جالسة إلى البيان ، فجلس إلى جانبها ، والانفعال ملء نفسه و بدنه ، وأحست انفعاله فسرى إليها قدر عظيم منه فتشاغلت بدور كانت تلعبه قبل مجيئه . ودخلت تانيا فطلبت إليها أختها أن تغني تريد بذلك أن تخفي ما في الموقف من اضطراب .. وغنت تاتيانا في صوتها الرائق الحلو ، وناداها تولستوي باسم مغنية كبيرة هي مدام فياردو إعجابا بها ، ثم قال لنفسه إذا ختمت تاتيانا لحنها خاتمة جيدة فسوف يعطي صوفيا ذلك الكتاب ؛ وكانت تانيا موفقة كل التوفيق إذ ختمت لحنها ، وانسحبت «الشيطانة الصغيرة» في لباقة وقد أحست أنها اللحظة الحاسمة ، وما كادت تغادر الحجرة حتي مد تولستوي يده بالكتاب إلى سونيا قائلا إنه ينتظر ردها ، وتناولته سوفيا بيد مرتجفة ، وخرجت به فأسرعت إلى حجرتها وأرصدت الباب وراءها وجلست

تقرأ .. « أى سوفيا .. أصبح الأمر لا يطاق ؛ لقد ظللت أقول لنفسى طيلة ثلاثة أسابيع سأبوح لها الآن ، ومع ذلك كنت أخرج كل مرة وفى نفسى مزيج من الحزن والأسف والرعب والسعادة ! وكنت أنظر كل ليلة نظرة إلى الماضى فأسخط على نفسي أن لم أبح لك وأسأل نفسى ماذا عساى كنت أقول لو أنى تكلمت .. لقد ظننت أنى أستطيع أن أحبكم جميعاً كما أحب الأطفال ، وكنت فى إقتسي لا زلت أستطيع أن أقطع ما بينى و بينكم وأعود إلى خلوتى ، إلى عملى الذى يشغل وقتى كله .. ولكنى الآن لا أستطيع شيئاً . أشعر أنى أحدثت فى بيتكم شيئاً من الاضطراب وأن صداقتكم لى كما تصادقون رجلا شريفاً قد لحقتها بعض الشوائب ، ولذلك لا أستطيع البقاء كما لا أستطيع الانطلاق .. و إنى أحمل هذا الكتاب معى وسوف أقدمه إليك إذا لم أجد فى نفسى من الشجاعة ما أبوح لك معه بكل شيء .. و إنى أعتقد أن أسرتك تنظر إلي نظرة خاطئه إذ تحسب أنى أحب أختك إليزابث وليس هذا بحق ، فإن قصتك لا تبرح عقلى قط ، وذلك لأنى بعد أن قرأتها أصبحت أعتقد أنه غير خليق بى ، أنا دو بلتسكي ، أن أحلم بالسعادة ؛ لقد كتبت لك ونحن في افتسى أقول إن شبابك ومرحك يذكرانى فى صورة قوية بتقدمى فى السن و باستحالة السعادة على ... ولكنى حينذاك كنت أكذب على نفسي ولا زال هذا حالى ؛ إنك فتاة أمينة صريحة ، فدلينى و يدك على قلبك دون أن تتعجلى — و إنى أناشدك الله ألا تتعجلى — ماذا عسى أن أفعل ؟ لو أننى علمت منذ شهر أنى سوف ألقى مثل هذا الألم السار الذى عانيته طيلة هذا الشهر لضحكت حتى يقتلنى الضحك . نبئينى بكل ما في نفسك من إخلاص : أتكونين زوجة لى ؟ إذا كنت تستطيعين أن تقولى : نعم ... وأن تقوليها من أعماق نفسك ، فقوليها ، ولكن إذا كنت تحسين أدنى شك فقولى : لا .. نشدتك الله أن تفكرى مليا فى الأمر ، و إني لأمتلىء رعباً كلما فكرت فى قولك لا ، ولكنى أوطن النفس على تحمل ذلك وسوف أقوى على تحمله ؛ بيد أنه من الأمور المفجعة ألا تحبنى من تكون لى زوجة بقدر ما أحبها »

وسمعت سونيا دقات عنيفة على الباب ، وصوتا هو صوت أختها ليزا يناديها في إلحاح أن تفتح ففتحت فقالت أختها : ماذا كتب لك الكونت ؟ . . . نبئيني ... ووقفت سونيا جامدة والكتاب فى يدها فقالت ليزا صائحة : أخبريني الساعة ماذا كتب لك الكونت فقالت سونيا فى عبارة فرنسية : إنه طلب يدى فأجهشت أختها قائلة : أرفضيه .. أرفضيه من فورك !..

ودخلت أمها فعملت فى لباقة على أن تبعد بين الأختين فتخرج بهما من هذا الموقف الكريه وكان الكونت إذ ذاك فى الثوى ينتظر ، والقلق ملء نفسه ، ويداه خلف ظهره وقد استند إلى الموقد وفي وجهه صفرة لم يعرف مثلها من قبل ، وأرهف سمعه إلى وقع أقدام خفيفة وإن قلبه ليثب بين ضلوعه ودخلت سونيا فنظرت إليه قائلة : نعم ... ثم ولت مدبرة ...

وتقدمت ليزا فهنأت أختها ، ثم مشت إلى الكونت فهنأته وقبلته فى كثير من الكرم والنبل ؛ وجاءت الأم فهنأت سوفيا وفى نفسها من السرور بقدر ما فيها من الشفقة على ليزا .

وكان رب الدار قد مسته وعكة من قبل فتذرع بها وتردد فلم يهنئ الكونت ولم يبد ارتياحه لأنه كان يحسبه يحب ليزا ، وأظهر الطبيب الشيخ كثيراً من الرثاء لابنته ، ولكن ليزا نفسها ما زالت به تستحلفه والدموع في عينيها ألا يغضب أختها ، حتى اطمأن فؤاده فذهب إلى تولستوى وصافحه مهنئاً

وتصادف أن كان اليوم التالى يوم ميلاد الأم ، وكانت دار الطبيب بيرز ملأى بالضيوف فأعلنت الخطبة وأقبل الضيوف علي العروسين مهنئين .. وغابت ليزا عن الموائد متوارية من القوم ، الأمر الذى تألم له قلب تولستوى على الرغم مما كان يفيض به من فرح ، ولقد تحدث بهذا إلى عروسه ، وهو الذى لا يحب منذ طفولته أن يؤلم أحداً . .

تولستوى الزوج

كان تولستوى يستعجل يوم الزفاف ، لا يرضى بتأجيل مهما كانت المعاذير ، ولا يكاد من فرط سروره يصدق ما هو فيه من سعادة .

ولـكن نفسه لا تفتأ تحدثه فى خلوتها أحاديث ما أعجبها وما أبعدها عما كان فيه ؛ إن ماضيه يؤذيه فهو ليس نقى الصفحة كعروسه ، وإنه لا يستطيع أن يمحو ذلك الماضي ، وإذا لم يكن ذلك فى وسعه بالضرورة فلا أقل من يطلع زوجته علي ذلك التاريخ كيلا يكون إخفاؤه عنها نوعا من التدليس عليها ، ودفع إليها مذكراته لتقرأها ...

وأكبت الفتاة عليها ليلة قرأتها ، وكم عظمت دهشتها لما رأت ، وكم كان الفرق عظيما بين صورة تولستوى فى نفسها وحسها وبين تلك الصورة التى ترسمها مذكراته ؛ وكم تأثرت الفتاة وبكت وأحست كأنما يوشك أن يطغى على حبها إياه ما تشعر به مما يشبه الخيبة ...

وجاءها تولستوى فى الصباح فسألها الصفح والمغفرة ، فسرعان ما أجابته إلى طلبه ، وفى عينيها الدمع ، فنظر إليها لا يدرى ماذا يقول ، ثم إنه بكى من فرط تأثره كما بكت ...

وعادت نفسه توسوس إليه ، وما أعجب حاله يومئذ ! أهى تحبه حقاً أم أنها أسرعت فقبلت يده وهي تخادع نفسها ؟ وماذا يكون الحال لو كان الأمر كله خطأ ؟ وكتب فى مذكراته ما يشعر به « من غيرة فيما يتصل بعلاقاتها الماضية ، ومن شك فى محبتها إياه ، ومن خوف من أنها ربما كانت قد خدعت نفسها » ولقد بلغ به الأمر أنه بكر فى صباح يوم الزفاف فلقيها مخالفا بذلك ما جرى به العرف وما زال يسمعها من هواجسه حتى أبكاها ، وحتى دخلت أمه عليهما فألحت عليه فى حدة أن يبتعد عنها !

أراد تولستوى أن يقضى وعروسه شهر العسل فى ياسنايا ، فركبا عربة فخمة إلى هناك كانت تجرها ستة من الجياد ، ولقيتهما العمة تاتيانا فرحة مرحبة وفى يدها تميمة هى تمثال العذراء ، كما لقيها سيرچى مستبشراً وفى يده الخبز والملح .

ونزل تولستوى وعروسه بأحد الجناحين الباقيين من القصر الكبير بعد بيع جانبه الأكبر الذى ولد فيه ... وكانت تشغل الجناح الثانى مدرسته .

وكانت زوجته قد صورت لنفسها ما عسي أن تجد فى قصره من غالى الأثاث ، فلما رأت متاعه عجبت لبساطته بالقياس إلى ما تخليت ، وأدهشها أن وجدت حجرات النوم بغير بسط وأن رأت زوجها يتوسد وسادة من الجلد الروسى الأحمر أخلق بها أن توضع على مقعد ، ولا يريد أن يتخذ غيرها ؛ وأن وجدت الحديقة مهملة لازهر فيها ، وإنما تنمو فيها الحشائش الطويلة التى يلقى الخدم وراءها القمامة .

ولمست الكونتس بساطته فى كل شيء ، وعزوفه عن الترف وعن أبهة المظهر ولقد يكره الفرش الوثير أحيانا فينام على دكة من الجلد ؛ وإنه ليأكل من الطعام مايتفق له ، لايطلب شيئاً ولا تشتهى نفسه ألوانا مختلفات ؛ وإنه ليلبس فى القرية كما يلبس أهلها كأنه واحد منهم ، وقلما ارتدى هناك حلة من حلله التى يرتديها فى المدينة .

واتخذت الكونتس سمة ربة الدار فى لباقة وجدارة أعجب بهما زوجها ؛ وأخذت تعنى بكل شيء وتعين زوجها فى شؤونه جميعاً ، حتى مدرسته ، فكانت تزورها وتساعد التلاميذ على فهم دروسهم ، وحتى حظائره فكانت تراقب حلب الأبقار فيها وترى ما إذا كان يعنى الخدم بإطعامها وسقايتها ...

وكتبت إلى أختها تاتيانا تنبئها بما هى فيه من سعادة ، وتثنى على كل من فى القصر ، وتقول عن زوجها إنه يحبها حباً بلغ من القوة حداً تخجل وتفزع منه لأنها لا تتبين له سبباً !

ولكم عبر زوجها عن مبلغ حبه إياها في مذكراته وفي كتبه إلى ابنة عمه الكونتس الكسندرا تولستوى .

***

كانت أول كلمة أثبتها تولستوى فى مذكراته بعد مجيئه وعروسه إلى ياسنايا قوله « حظ من السعادة لا يصدق ... لست أستطيع أن أصدق أن مثـل هذه السعادة تبقى ما بقيت الحياة » .

والحق أن سماءهما لم تخل ممـا يكدر صفوها من أول الأمر ، فلقد كان بينهما على الرغم من توقد حبهما غير قليل من بواعث الخلاف والشقاق .

كان كل من الزوجين شديد الغيرة بطبعه ، فهو يفسر كل حركة منها وكل سكون بمـا تمليه عليه غيرته ، وهى لا تنظر إلى عمل من أعماله أو كلمة من كلماته أو حال من حالاته النفسية إلا وقد وسوست إليها نفسها وساوس الغيرة .

ولقد رأينا كيف فاجأها صباح يوم الزفاف بهواجسه ، الأمر الذى يعد عجباً لولا أن مرده إلى غيرته ؛ ولم يخل قلبها من هواجس ذلك الصباح نفسه ، فقـد حدث أن نسي الخادم أن يعـد له قميصاً جديداً فتأخر عن الموعد المحدد ، ريثما ذهب الخادم ففتح حقائبه فى بيت العروس وعاد إليـه بالقميص المطلوب ؛ فظنت عروسه أنه فر إلى غير عودة وضاقت بها الدنيا !..

كتبت فى مذكراتها بعـد ثمانية عشر يوماً من زفافهما تقول « إن ماضي زوجي كله مخيف حتى إننى لا أعتقد أنى سوف أقبله ... و إنه لما يدعو إلى اليأس أن أحاول أن أثبت حبي لرجل يظهر منه أنه يظن أنه تزوجنى على الرغم من نفسه دون أن تحبه زوجته ... إنه لا يدعني أقرب منه وهذا محزن ... إن المسائل الجثمانية تؤدى به إلي الاشمئزاز ؛ لم يكن يقدر أحد غيرى أن يفهم أنه انجذب إلى دون أن يحبنى ، ولم لم أدرك وقتئذ أنه سوف يدفع ثمناً يفدحه ؟ ... لمـاذا حطمت شخصاً كل امرىء يحبه ؟ إنى أرغب أن أحبه ولـكنى لا أستطيع ، و إذا غاب عنى أو انشغل بعمله فـكرت فيه دائما واستمعت إلى وقع خطاه ، فإذا جاء لبثت أنظر فى وجهه ... و إنه ليغضب كلما أخبرته أنى لا أحب أن أترك وحدي » .

وقالت فى موضع آخر : « إن زوجي مريض ، معتل المزاج وليس يحبنى ... إنه يفتر يوماً بعد يوم فى حين أنى أزداد له حباً و إنه يعتقد أنى لا أحبه » .

وأرادها زوجها مرة على أن تكتب لابنة عمه ألكسندرا فرفضت ، ولكنه ما زال بها حتى كتبت إليها فكان كتابها فاتراً مقتضباً ، الأمر الذى كدره وأغضبه ...

ولما زار موسكو فى شهر ديسمبر ، كانت تكره أن تزور من كانت بينه و بينهن مودة و بخاصة ألكسندرا أو بلنسكى ؛ ولقد تأخر ذات ليلة عن الموعد الذى حدده للعودة إلى زوجته فأحزنها ذلك ، ولقيته بفيض من الدمع و بعاصفة من القول ، وكلفه ذلك عناء شديداً ليقنعها أنه كان فى بيت صديق له حيث التقى بأحد الديسمبريين فأخذ يجمع منه المعلومات لقصة يريد أن يكتبها عن ذلك العهد ..

وكان يؤلمها فى القرية انشغاله بمجلته ومدرسته ومن فيها ، وكانت تدعو المدرسين والتلاميذ قومه ، كتبت عن ذلك تقول « إنى أشمئز من قومه و إنى أشعر أن عليه أن يختار بينى و بين قومه المحبوبين » .

وكانت لا تفتأ تنظر فى مذكراته ، ولا زالت علاقته القديمة بأكسنيا ، تلك المرأة القروية ، تلهبها غيرة ، ولقد بلغ من غيرتها أنها كانت ترتدى ملابس القرويات أحياناً ، وتمشى فى طرقات القرية لترى ما إذا كان زوجها يغازلها على أنها أكسنيا أو غيرها من القرويات ؛ ولقد كتبت ذات مرة بعد قراءتها صفحات من مذكراته « إنى سوف أقتل نفسي يوماً ما بدافع الغيرة » وكانت لا تبرح ذهنها قط تلك الكلمة التى قالها تولستوى عن أكسنيا « إنه لم يستغرق فى الحب مثل هذا الاستغراق من قبل » .

وكانت كذلك تغار من قصصه وما جاء فيها عن الحب ؛ كتبت تصف شعورها « لقد قرأت أوائل بعض كتبه ، وكنت أشمئز وأضيق كلما قرأت له شيئاً عن الحب وعن النساء ، حتى لأرغب أن أحرق جميع ما كتب ، ولن أحس مبالاة بكتبه فإن الغيرة تجعلنى أنانية مخيفة » .

ولم يكن زوجها أقل غيرة منها ؛ كتب فى أوائل سنة ١٧٦٣ يقول « إن مجيء بوليفانوف أمر يكدرنى ؛ يجب أن أوطن نفسي على تحمل ذلك بقدر ما أستطيع ...

لقد أخذت تضيق بى ؛ أكاد أقطع بذلك ؛ وإن الشيء الذى فيه نجاتى هو ألا تتجه إلى محبة شخص غيرى ... إنها تقول عن الغيرة : يجب أن يكون لدى المرء احترام .. يجب أن يكون لدى المرء ثقة ، إلى مثل ذلك . كلمات لا غير ، إن ذلك يخيفنى».

وذكرت الـكونتس لأختها ذات مرة أنها بينما كانت تتحدث إلى أحد المعلمين ، إذ تـكره لها زوجها وتهكم عليهما من فرط غيرته ثم عقبت بقولها « يغار من ذلك المعلم ؟ سبحان الله ! ... إنى لم أكن أتوقع ذلك قط فإن هؤلاء المعلمين ذوو احتشام » .

وثمة أسباب خلاف الغيرة ، كانت تعكر صفوهما على شدة محبة كل منهما زوجه ، ومن ذلك بعد ما بين عقله وعقلها ، فهو أحد ذوي العبقرية ، يتعلق قلبه بالمثل العليا ، ويمد خياله الشاعر غاية مده ، ويتسع أفق ثقافته يوماً بعـد يوم ؛ وهى وإن كانت امرأة ذات فطنة إلا أنها لا تعد شيئاً بالقياس إليه ...

وهناك الفرق بينهما فى السن والتجارب فهو في الرابعـة والثلاثين وهى فى الثامنة عشرة ، ولا عجب مع ذلك أن تختلف نظرتاهما حتي الى الأمور العادية . هذا إلى مايفرضه عليه سنه من وقار واحتشام ، بينما يميل بها سنها إلى المرح واللعب . قالت فى صدد ذلك « إنه يبدو شيخاً هادئاً جاداً ، وأنا أميل إلى أن أفعل شيئاً يظهر فيه ولوعى وتحمسى ... ولـكن مع من أفعل ذلك ؟ » .

وفى طبيعة الـكونتس إلى جانب الغيرة ميل إلى التملك والسيطرة ، تشاركها فيه كل أنثى ولـكنه كان فيها شديداً لا يقف عند حد ، كتبت بعـد زواجها بأربعة أشهر تقول « تعترينى بعض الأحيان رغبة سخيفة لاشعورية فى أن أقيس مبلغ قوتى حياله ومدى سيطرتي عليه ، وإنها في الواقع مجرد رغبتى فى أن أراه يطيعنى ، ولـكنى أجده دائماً أقوى منى ، وعلى ذلك تذهب رغبتى فى أن أفرض نفسي عليه ... » .

وكانت تحب الـكونتس أن يكون وقت زوجها فى البيت كله لها ، ولـكنه بحكم عمله ينصرف الى كتبه ودفاتره .

وكانت تكدر نفسها حياة القرية وخلوها مما ألفته من مباهج المدينة وزينتها ومجتمعاتها وصالوناتها ، كما كانت وحشة البيت الذى تقيم فيه تملأ نفسها ضيقاً ، فليست تجد فيه إلا العمة تاتيانا وهي عجوز فى السادسة والسبعين ، ونتاليا بتروفنا وهى إحدى رفيقاتها ، ولكم يذكرها ذلك بصحبة أختيها و إخوتها وأمها وأبيها ، وما كان فى بيت أبويها من حياة ...

ولما حملت أول حمل ازدادت عواطفها اضطرابا ، وازدادت وساوس نفسها من الغيرة والشك . ومن عجب الأمور أنه كذلك كانت تطوف برأسه أوهام لا تقل غرابة عن أوهامها إن لم تزد ؛ تجد مثالا لذلك فى قوله « إنى أحس فى حضورها عاطفة من المذلة لم أذق مثلها منذ أمد بعيد ، فقد بلغت من الطهر والعفة حدا لا يعبر عنه كلام ، وفى مثل تلك اللحظات أشعر أنى لا أمتلكها ، لا ولا أجرؤ على ذلك لأنى لا أستحقها ، وذلك يثير مخاوفى ، بل هو ما ينقص سعادتى ... إن شيئاً ما يعذبنى و إنى لأغار من ذلك الذى لو خلق كان يستحقها كل الاستحقاق »

وكان يضايقه أنه لا يستطيع أن يكتب فى مذكراته كل ما يريد أن يقول كما كان يفعل من قبل خشية أن تقع عيناها على ما لا يحب أن تقرأ ...

وكان يتذكر أحياناً ما كان فيه وهو أعزب من انطلاق وشعر وتأمل وتنقل بين الناس ، واستمتاع بالحياة كما يشاء هواه ، فتكتئب نفسه ، وأكثر ما كان يذكر ذلك إذا وجد زوجته غاضبة أو شاكية .

ولكن ليس معنى ذلك كله أنهما لم يكونا حبيبين ولم يكونا سعيدين ، فإن فى مذكرتيهما ما ينطق بأقوى الحب بينهما ، وما كانت هذه الغيرة الشديدة منهما إلا وليدة ذلك الحب ، و إن كتبه إلى ابنة عمه الكسندرا و إلى صاحبه فت لتفيض بوصف ما كان ينعم به من سعادة الحب ؛ وما كانت تلك السحب فى سمائهما إلا سحب صيف لا تلبث أن تبددها حرارة ما بينهما من حب ، و إنما ساء منظر هاتيك السحب ، لأنه ليس أكدر ولا أبغض من السحاب يشوب سماء صافية فى غير زمن السحب ...

كان يقيم تولستوي وزوجته فى ياسنايا كأن لم تكن لهما بحياة المدن صلة ؛ وقد جعل كثيراً من همه إلى ضيعته يتعهدها بالإصلاح ، فعنى بتربية الدواب من خيل وأبقار وضأن وخنازير ، كما عنى بتربية النحل فى خلايا أعدها له ؛ وأخذ يزرع الحدائق وينشيء الغابات ؛ وهو فى أعماله هذه شديد الدأب ، جم النشاط ، يظن من يراه أنه رجل خلق للقرية وأعمال القرية فليس له بغير الفلاحة صلة ما .

ولكن أعماله تلك على كثرتها لم تصرفه عن مهنته الحقيقية ، فهو كاتب قبل كل شيء وفوق كل شيء ، وإنه لعبقرى فنان ، كان الفن أصل طبيعته وجوهر نفسه ، حتى لو حاول بكل ما فى وسعه أن ينصرف عنه ما استطاع ، فكان لا بد إذا لهذه الطاقة الفنية من متنفس ، فهى قوام وعيه الباطن ، وهى مبعث تفكيره وفلسفته جميعا ...

نشرت فى يناير سنة ١٨٦٣ قصته « أهل القوقاز » ونشرت فى فبراير أقصوصته « بوليكوشكا » وسرعان ما أحيت القصتان صيته فى دنيا الأدب والفن ، وذكر الناس بهما قصصه الأولى ؛ وتلقي المؤلف رسائل الإعجاب من أصحابه ، ومن مئات غيرهم ممن لا يعرف من الناس ، وامتلأت المجلات بالحديث عنه وعن قصتيه ؛ ولقد أعجب النقدة بهما في غير تحفظ ، وقد أشرنا فيما سلف إلى ما ذكره ترجنيف بعد قراءته « بوليكوشكا » تلك القصة التى تصف حال رقيق الأرض ، فلقد « بعثت الرعشة فى ظهره علي الرغم مما فعلت الأيام بظهره من سمك وغلظ » ولم يقل تحمسه للقصة الأخرى « أهل القوقاز » فقد كان كلما قرأها رأى أنها ليست آية تولستوى فحسب بل آية الأدب القصصي الروسى كله كما ذكر فى فرنسا بعد نشرها بعشر سنوات ؛ والحق أن هذه القصة التى ظل تولستوى يعيد النظر فيها سنوات عشر ، تعد خير ما كتب فى فترة إنتاجه الأولى ، أى الفترة السابقة لقصتيه العظيمتين « الحرب والسلام » و« أنا كارينينا » .

وكان أول ما كتبه تولستوى بعد زواجه أقصوصة سماها « قصة حصان » ، ولكنها لم تنشر إلا فى سنة ١٨٨٨ ثم اتجه إلى التأليف المسرحى فكتب

مسرحية تدعى « نهلست » وقد مثلت فى ياسنايا وأعقبها بأخرى سماها « الأسرة التى مستها العدوى » ؛ ولـكن المسرح فى موسكو لم يقبلها إذ قال له أوستروفسكى إن موضوعها أسمى من الذوق العام ، ولقد أدى ذلك إلى فتور حماسته وقتئذ للمسرحيات …

* * *

وأهمل تولستوى مدرسته وانقطعت مجلته فلم تعد تظهر ؛ وفى شهر يونيو سنة ١٨٦٣ رزق بغلام هو أول أبنائه وقد سماه سيرچى ؛ وأحس تولستوى السعادة تغمر جوانب نفسه ، والأنس يملأ بيته ، وكان هذا الصيف بهيجاً كثرت فيه زيارة الأصدقاء وذوى القربى ، لياسنايا ، وكانت تانيا تؤنس أختها بأحاديثها ومرحها ؛ واحتفل تولستوى احتفالا رائعاً بيوم ميلاد زوجته فأولم وليمة كبرى فى شرفة البيت ودعا إليها الصحاب والأهل فسرت بذلك زوجته الشابة سرورا عظيما

وزادت عناية تولستوى بضيعته ، وكانت تعينه زوجته فى تدبير شؤونه المالية ، وفى غيرها مما تسعها طاقتها .

وقد حدث أن امتنع الفلاحون فى الضيعة لأمر ما عن العمل ، وخيف على العلف أن يتلفه تغير الفصل إذا ترك فلم يجفف ، فشمر الـكونت وزوجته ومن زارهم من الصحاب وانضم إليهم معلمو إحدي عشرة مدرسة قريبة ، وأدوا هذا العمل بأيديهم فى نشاط وغبطة !

وفى هذا الصيف اعتزم تولستوي أن يكتب قصته الـكبرى « الحرب والسلام » ولموضوع هذه القصة وكيف اتجه إليها حديث سوف نأتى به على سرده …

وقد كتب تولستوى إلى ابنة عمه ألـكسندرا ، يصف لها هناءته واستقراره ويقول « واليوم فإنى مؤلف بكل ما فى روحي من عاطفة وقوة ، فإنى أكتب وأتأمل علي نحو لم أعرف مثله من قبل » .

وقضي تولستوى نحو ست سنوات فى كتابة قصته الـكبرى ؛ وكانت زوجته تعينه أحسن العون فى نقل ما يكتب ومراجعته ، وذلك على الرغم من انشغالها

بأطفالها وتعليمهم ومراقبة نظافتهم والسهر عليهم ؛ وكانت تجد لذة عظيمة فى معاونة زوجها ، وتستشعر كثيراً من الغبطة إذ تجد نفسها زوجة مؤلف ذهب له صيت عظيم لا فى روسيا فحسب بل في أوروبا كذلك ، وإذ تجد أنها تعين هذا المؤلف العظيم في عمله العظيم .

وحدث أنه سقط من فوق حصانه أثناء الصيد سنة ١٨٦٤ فكسرت إحدى ذراعيه وأجريت له جراحة في موسكو حيث أقام عند آل بيرز ، وكانت تانيا تعنى به ؛ وقد طالما افتخرت بعد ذلك أنه أملى عليها بعض صفحات من قصته العظيمة ...

ولقد ارتاعت زوجته للحادث وأثار هواجسها ، وصارت تتخيل حالها وحال أطفالها لو أنه مات فتمتلىء رعبا وجزعا ...

وكان يبذل تولستوى جهداً كبيراً في هذا العمل الفنى العظيم ، فقد أربت قصته على الألف صفحة وكان يكتب أحياناً فى يسر وسرعة ، وكانت تشق عليه الكتابة أحياناً حتي لقد شبهها ذات يوم بالحمل والوضع من فرط ما كان يعانيه ...

وكان إذا كتب فصلا أعجبه ، فى بيته أو فى كوخه الصيفى الذى أقامه فى مدخل غابة قريبة ، بدى عليه السرور ، ولاحظت عليه زوجته أمارات الرضاء والغبطة ؛ أما إذا التوت عليه سبل الفكر أو شعر أنه لم يرض عما كتب ، فإنه إذ ذاك كان يبدو غضوباً عنيفاً ، ولقد يسرف فى ذلك فلا يملك زمام نفسه ... دخلت عليه زوجته ذات مرة وهو فى إحدى هذه الحالات ، فأغلظ لها فى القول ثم تناول صينية بما عليها من الأقداح وقذفها على الأرض صارخاً مهتاجا ...

ولكنه على الرغم من ذلك كان يذوق طعم السعادة حقاً ... كتب إلى ابنة عمه يقول « أتذكرين إذ كتبت إليك مرة أن من الخطأ أن يأمل الناس فى سعادة تامة لا يشوبها ألم أو خداع ؟ إنى لم أكن مصيباً فيما قلت فإن هذه السعادة ممكنة ، وليس الأمر أمر إمكانها فحسب بل إنى أتمتع بها فى سنتى الثالثة وكلما مرت الأيام جعلتها أعمق وأقوى » .

وكتبت زوجته فى نوفمبر سنة ١٨٦٦ تقول « إنى أقضى وقتاً طويلا فى نقل قصة ليو ... وفى هذا العمل سرور عظيم لنفسى ، وإنى إذ أنقلها أعيش فى دنيا من الآراء والمؤثرات ، وليس من شيء يؤثر فى كما تؤثر آراؤه وعبقريته ».

وكتبت بعد شهرين « لقد ظل ليو يكتب طول الشتاء وإنه لمهتاج منفعل تمتلىء عيناه أحياناً بالدموع وإنى أعتقد أن قصته سوف تكون أعجوبة ، وإن الذى يتلوه على منها ليملأ بالدمع مقلتى .. » .

على أن زوجته ظلت طوال هذه السنوات الست تعذب الغيرة نفسها ، وتكدر عليها صفو عيشتها زوجة لهذا الكاتب العظيم ؛ كتبت في مذكراتها سنة ١٨٦٥، تقول « إني لا زلت أغار من تلك المرأة القروية وإنى لأرتاب فى أمره كلما غاب عنى » .

وبلغ بها الحال أن كانت تغار من أختها تانيا ، قالت « إنى لأغضب من تانيا كلما دست أنفها دساً فى شؤون زوجي ... لقد تحركت غيرتى بالأمس فى صورة شديدة يحزننى الآن أن أذكرها ... » .

وظلت على حالها نحو ألكسندرا ، تغار من ذكر اسمها ولا تحب كتبها إليه ولا كتبه إليها . كتبت ذات مرة تقول « لقد وجدت كتاباً منها فى قمطر ، وظللت أعجب ماذا عسى أن تكون صلتها به » .

وكانت هذه الغيرة فى أصل طبيعتها كامرأة كما أسلفنا ، ويمكن أن نردها فى بعض حالاتها إلى ما يشوب سرورها دائماً من إحساس مبهم بالحزن ... ولقد رأينا كيف عبرت عن هذه العاطفة قبل زواجها فيما كتبته ذات مرة إلى أختها .

وفى سنة ١٨٦٦ ، اشتدت بها الغيرة حتى كادت تزهق روحها ، وكانت هذه المرة من زوجة أحد خدم البيت وهو القائم على شؤون الطعام ، وكانت امرأته ذات جمال وثقافة وظرف ، وكانت علي حظ غير قليل من الذكاء ؛ وكان يتحدث إليها تولستوى فى الأدب والسياسة ؛ قالت زوجته ذات مرة « إنى أحبس نفسى فى حجرتى بينما تكون هى فى الثوى مع الأطفال ... وذلك أنى لا أطيق

أن أراها ، فإن ذلك لما يثير ثائرتى كلما وقعت على جمالها وحيويتها وبخاصة إذا كان ليو معها » .

وكان ذلك الشعور المبهم الذى تحسه ولا تدريه ، شعور الحزن فى غير باعث له ، بل شعور الحزن فى أعقاب كل سرور ، يوحى إليها أحياناً خواطر سود تكاد تصل بها إلى اليأس ومن أمثال ذلك قولها « لست أطلب شيئاً سوى حبه وعطفه وهو يضن بهما على ... وأجد كبريائى كلها تمرغ فى الطين ... لست سوى دودة مسكينة محطمة ، لا يأبه بها أحد ولا يحبها أحد ... ذات مزاج سيء وذات شعور بالكرامة منهار ، وذات حب لا يحتاج إليه أحد ، حب كاد يؤدى بى إلى الجنون » .

كان مرد هذا الكلام لا ريب إلى هواجسها التى لا تقوم على شىء ، فقد كتبت بعد ذلك بسنتين أى سنة ١٨٦٨ تقول « إننى أضحك كلما عدت إلى قراءة مذكراتى فإنها ملأى بالمتناقضات ، يظن من يقرأها أنى امرأة غير سعيدة ، وهل هناك من هى أكثر منى سعادة ؟ .. إن من الصعب الوقوع على زواج أسعد من زواجنا أو أكثر منه مودة » .

* * *

كان أكثر وقته للكتابة منذ بدأ يكتب قصته ، وكانت إقامته إلا فترات قصيرة ، فى قريته ، حيث يقبل على العمل بكل ما في روحه من تحمس وكل ما في نفسه من أمل .. وعلى هذا النحو قضي السنوات الست حتى أتم كتابه العظيم .

وكان يحب تولستوى أن يتفرغ للكتابة كل التفرغ ، ولهذا كان يضيق بكل ما عساه أن يشغل باله أو يعوقه عن العمل ؛ ولم يعقه فى الواقع عائق حتى ولا حادث ذراعه سنة ١٩٦٤ ، فقد كان يملى على تاتيانا وهو يعالجه فى موسكو كما ذكرنا .

وفى هذه السنة ولدت زوجته بنتاً سماها تانيا ؛ وزاد بمولدها على زوجته عمل الأم ، وقد كان سيرچى يعانى ألم الجدرى ، الأمر الذى كان يؤلمها كثيراً ويؤلم أباه .

وزار تولستوى فى خريف سنة ١٨٦٥ مكان موقعة بورودينو ، ودرس

كيف دارت المعركة ، وتحدث إلى من بقى على قيد الحياة منذ تلك الحرب التى وقعت فى سنة ١٨١٢ ...

وكان يختلف إلى المتاحف والمكتبات فى موسكو يقرأ كل ما يقع عليه من كتب أو مخطوطات ذات صلة بعهد الاسكندر الأول وما كان فيه من نزعات سياسية أو فكريه أو اجتماعية ، وبخاصة تلك الجماعات الماسونية التى تألفت يومذاك ثم ما لبثت أن قضى عليها لما أحاط بها من شكوك ..

وكان فى قريته يدرأ عن نفسه السأم وكلال الذهن بالصيد أو المشى الطويل ، وغلب على نفسه حب القرية حتى كاد ينسيه سالف لهوه فى موسكو و بطرسبرج ؛ وكان يرد ذلك إلى الطبيعة وسحرها ، و إلى ما بات يهجس في نفسه من عزوف عن الترف وميل إلى العيشة المتواضعة ؛ ولقد كان يعجب من يراه فى القرية من أهل المدينة فى ملابسه الريفية الشعبية الفضفاضة ، تتخذ من الصوف شتاء ومن التيل صيفاً .

وفى صيف سنة ١٨٦٦ ولدت له زوجته ولداً سماه إليا ؛ وأسلم أطفاله إلى مربية إنجليزية ..

***

ووقع في تلك السنة حادث أثار سخطه من جديد على الحكومات وعلى الطغيان عامة ، فقد حدث أن لكم أحد الجند ضابطه فى فرقة كانت تقيم على مقربة من يا سنايا ، وسيق هذا الجندى إلي محكمة عسكرية ، وجاء إلى تولستوى من طلبوا إليه أن يدافع عن هذا الجندى ..

وعرف تولستوى أن الجندى كان يعمل عمل الكاتب لهذا الضابط البولندى الجنس ، وكان الضابط يشعره أكثر الأحيان باحتقاره إياه ، ويحرص علي أن يقع على خطأ فى عمله ليرده إليه و يأمره بإعادته .

وكثيراً ما كان ذلك الجندى يعب من الخمر ما يذهب بعقله ، فلما كان ذات يوم يعرض أوراقاً على رئيسه الضابط إذ عنفه هذا الرئيس متجبراً عليه فما كان من الجندى السكران إلا أن لكمه فى وجهه .

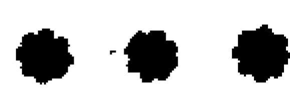
وكان يقضى القانون بقتل من يفعل مثل هذا ، واستأذن تولستوى فأذن له بالدفاع عنه كما جرى به العرف ، وإن لم يك محامياً فتقدم بدفاع مكتوب ، استند فيه إلى أن الجندى وقد ذهبت الخمر بعقله ، واشتد ملله من عمله ، لا يعد مسؤولا عما فعل ، وإذا كان القانون نفسه يجيز تعديل الحكم على من لا يملك من المذنبين عقله ، فإنه يطلب الرأفة به فلا يساق إلى الموت .

ولكن المحكمة لم تأخذ بدفاعه وحكمت على الجندى بالقتل رمياً بالرصاص؛ وعول تولستوى على رفع التماس إلى القيصر ، وأرسل إلى ابنة عمه ألكسندرا لتسعى سعيها فى هذا السبيل ، ورفع الملتمس إلى وزير الحرب فتعلل بعدم ذكر اسم الفرقة فى الملتمس ، ولم يرفعه للقيصر حتى قتل الجندى ...

واشمأزت نفس تولستوى ، واشتد حنقه على هذا الجور ؛ وازداد نفوره من الحكومات ، وذكره ذلك بما رآه في باريس تحت سكين الجيلوتين .. وبث هذا الحادث كما بث تفتيش بيته من قبل فى نفسه ثورة سوف تستقر فيها حتى تعمل عملها فيما بعد فى تفكيره ...

أما الفلاحون ، فقد أظهروا عطفهم على الجندى المسكين أثناء محاكمته ، وكانوا يحملون إليه البيض واللبن والخبز ؛ ولما سيق إلى الموت ، احتشد عدد منهم رجالاً ونساء على مقربة من العمود الذى شد إليه ، وبكي بعض النسوة ، وأخذ بعضهن الإغماء ، ثم إن أهل القرى مشوا إلى قبره وأحضروا قسيساً يقيم عنده الصلوات ؛ وفعلوا مثل هذا فى اليوم التالى ، حتي تدخل الشرطة فمنعوا هذا ، ثم سووا الأرض فوق قبره كيلا يستمر الناس فى زيارته .

وقارن تولستوى بين ما فعل الفلاحون فازداد إيماناً بفكرته وهى أن الحكومات وتنفيذ القوانين على مثل هذه الصورة ، كل أولئك شر فى شر ...



وعاد تولستوى إلى قصته وقد شغله هذا الحادث عنها أياماً ؛ وظل فى قريته المحبوبة يكتب ويراجع ، وزوجته تعينه ما وسعها العون ...

ووجهت زوجته عنايتها إلى البيت ، فأصلحت مظهره ، وأحدثت بعض التغيير فى جوانبه ، وكان زوجها يتأفف ويكظم غيظه لأنه لا يرى لذلك التغيير موجباً ، وإنه ليكره قلبه الشاعر أن يتغير من حوله ما ألف من الحياة ...

ولما جاءته زوجته بوسادة حشوها ناعم الريش وغطاؤها الحرير لتحل محل وسادته الجلدية ، نظر إليها نظرة تشبه الاستخفاف قائلا : ما حاجتى إلى هذا ؟

ولم يجد بدا تلقاء إلحاحها من أن يأمر الخدم بإصلاح الحديقة وممراتها ، واقتلاع الحشائش والأشواك من حول البيت ، وذلك على الرغم من رغبته فى أن يبقى كل شيء كما ألفه وأحبه حتى ولو لم يرق منظره ...

وأحس اعتلالا فى صحتـه فى صيف سنة ١٨٦٧ ، إذ كان يشكو اضطراباً فى معدته وأمعائه ؛ وكان يشايع روسو فى عدم الثقة بالأطباء ، فالطبيعة عنده هي الطبيب ؛ ولكنه أجاب زوجتـه إلى رجائها فزار أشهر طبيب في موسكو وهو الأستاذ زهارين فنصح له بشرب المياه المعدنية زمناً .

وأقام تولستوى وأسرته بموسكو فى شتاء هذه السنة ، وكان يزوره صديقه فت ؛ وقد حصل منه فت على فصل لم ينشر بعد من قصته فقرأه أحد أصدقائه فى حفلة خيرية فقوبل باستحسان عظيم ، الأمر الذى سر صاحبه وزاده حماسة فى عمله ...

وفى شهر مايو سنة ١٨٦٩ وهى السنة التى أتم فيها قصته ، ولد له غلام سماه ليو ؛ وإذ فرغ المؤلف العظيم من قصته تنفس الصعداء بعـد هذا الجهد المتصل فى تلك السنوات الست .

ولما تم طبع قصته فى كتاب وكان من قبل ينشرها فصولا فى إحدى الصحف ، أقبل الناس على شرائها ليعيدوا قراءتها ، إقبالا لم يعرف له مثيل فى كتاب من قبل ؛ وطابت نفس تولستوى أن يقدر الناس فنه على هذا النحو ، وطابت نفس زوجته بما جلبته القصة من مال ، وبما ذهب بها لزوجها من صيت وما بات له من مكانة فى دنيا الأدب والفن ، هى مكانة الأستاذ الذى حق لروسيا أن تفاخر به الدنيا .

الحرب والسلام

هذا العمل الفنى الفذ أجل وأوسع مدى من أن يعد قصة فحسب ، فهو حياة بكل ما فى الحياة من معان وصور وحركة ... هو صورة كاملة حية للشعب الروسى أثناء حروب نابليون من سنة ١٨٠٥ إلى سنة ١٨١٥ ...

وعلام يقوم هذا العمل الفنى ؟ ألا إن المسرح هائل فهو يشمل روسيا كلها ورقعة كبيرة من أوروبا ؛ أما الممثلون ففي مقدمتهم ثلاثة أباطرة ومع كل منهم وزراؤه وحاشيته وكبار قواده وضباطه وجيشه ... ثم يأتى بعد ذلك الشعب الروسى كله نبلاؤه وفلاحوه .

على هذا المسرح الهائل تتابع الصور وتختلف ، فمن صالونات بطرسبرج إلى ميادين القتال ، ومن موسكو إلى أنحاء القرى ...

وفى هذه القصة ، إن جاز أن نسميها قصة ؛ أشخاص حقيقيون هم الاسكندر الأول ونابليون بونابرت ، وكوتوزرف ، واسبرانسكى ؛ وأشخاص خياليون صور المؤلف كلا منهم وفق مثال ممن عرف في محيط حياته ؛ أما البطل فهو الشعب الروسي مجتمعا فى كفاحه المجيد فى وجه العدو الفاتح ...

وفى هذا العمل الفنى روح الملحمة ، فهى فى مجموعها قصيدة كبرى ... هى إلياذة حديثة ، وذلك من حيث بنائها ووقعها في النفس ؛ وإنك لتستشعر روح هوميروس إذ ينتقل بك الكاتب فى غير جلبة ولا صخب من مشهد إلى مشهد فيريك ما يفعل القدر بالأفراد مرة ، وما يفعل بالجيش مرة ؛ ولما كانت تصور ذلك الكفاح الوطنى الذى نهض له الشعب الروسى فى وجه نابليون، فقد أبرز ذلك فيها روح الملحمة ، وإن أكثر فصولها لتترك فى النفس نغمة عامة أشبه بنغمة النشيد؛ ولا يسع المرء فى أكثر الأحيان إلا أن يقول عن كاتبها ، هذا شاعر وإن لم يصطنع

الشعر، وكثيراً ما يذكر المرء نظرة جيته حين يلمس بعبقريته المشاهد المألوفة فكأن القارىء يرى فيها ما لم يره من قبل .

* * *

فى صيف سنة ١٨٦٣، نزع تولستوى كما أسلفنا ، وقد استقرت حياته بالزواج إلى كتابة قصة كبيرة وكان أول ما اتجه إليه خياله موضوعا لقصته المنشودة مؤامرة الديسمبريين من أجل الدستور والحرية سنة ١٨٢٥ فى عهد الاسكندر الأول ...

وأخذ تولستوى يقرأ تاريخ هذه الحقبة من حياة روسيا ، فأدت به دراسته إلى أن يرجع القهقرى إلى حروب نابليون سنة ١٨١٢ أثناء حملته على روسيا ، ليرى كيف كان يعيش فى شبابهم أولئك الأشخاص الذين أراد أن يصور على شاكلتهم ما يخلق من شخصيات خيالية لعهد الديسمبريين ...

ورأى تولستوى الفرق عظيما بين كفاح روسيا في وجه الفاتح ، و بين جهلها إلا فئة قليلة بالدستور والحكم الدستورى أيام الديسمبريين ، فاختار عهد ذلك الكفاح المجيد ، ونبذ مؤامرة الديسمبريين ...

ولما كان يعتقد تولستوى أن نجاح روسيا في رد نابليون على أعقابه لم يكن وليد المصادفة وإنما كان مرده إلى روح الشعب الروسي والجيش الروسى ، ولما كان كذلك يؤمن أن هذا الكفاح لم يخل من أخطاء ومآس ، فقد حمله ذلك على أن يبدأ تاريخه قبل سنة الغزو ليعرض صورة صادقه لروسيا المجاهدة ، فجعل سنة ٨٠٥ بدءا لذلك التاريخ أو لهذه القصة .

ودرس تولستوى تاريخ هذه الفترة دراسة مفصلة ، ولقى فى ذلك رهقا شديدا ، كان يخففه عنه فرط تحمسه لقصته وصدق إخلاصه لفنه ، وتصوره السار ما عسى أن تكون حين تتم ؛ وعندى أنه ما من كاتب عظيم يكتب كتابا عظيما إلا وفى نفسه القدرة على أن يتصور هذا الكتاب جملة قبل أن يبدأ فى تفصيله ، وعلى أساس هذه الصورة المجملة الكبرى التى تخلقها عبقريته فى لمحة ، يجيء ذلك التفصيل

الذى يرد إلى قريحته الفنية ... وما أظن أكثر الآيات الفنية إلا خلقت على هذا النحو ، وهذا موضع من مواضع امتياز العباقرة عن بقية الناس ...

هذه الصورة المجملة هى التى تحبب العمل إلى رجل الفن وهى التى توحى إليه كيف يجمع الأشتات ليتم له ذلك الصرح وفق ما تخيل ، وفى سبيل ذلك يهون كل جهد ، بل ويستحب كل عناء ...

كان يكتب تولستوى قصته ، وكانت تتلون الحياة كما أسلفنا حسبما يستشعره فى نفسه من رضاء أو سخط على ما يكتب ؛ وكان يقول مازحا إذا ألقى القلم إلى غد « لقد تركت كعادتى قطعة من لحمى فى المحبرة » ...

كتب إلى صديقه فت سنة ١٨٦٤ يقول « أنا غارق إلى ذقنى ولست أكتب شيئاً ... إنك لا تستطيع أن تتصور مشقة ما أنا فيه من عمل ؛ ذلك العمل الإعدادى الذى يقتضينى أن أحرث حرثا عميقاً قبل أن ألقى البذور ومن أصعب الأمور أن أفكر وأن أعيد التفكير فيما عسى أن يكون فى المستقبل حظ الشخصيات جميعاً فى ذلك العمل الواسع الذى أضطلع به ، وأن أوزان بين الآلاف مما يمكن من صور الاشتباك والتداخل لأختار منها جزءا من ألف ... وهذا ما أعمله الآن » ...

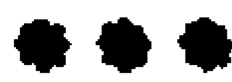
وكان يذهب تولستوى إلى موسكو لينظر فى السجلات ، وكان يقرأ من الكتب والمخطوطات كل ما عسي أن يكون فيه وصف لحياة تلك الفترة من تاريخ روسيا ومعيشة أهلها على اختلاف طبقاتهم ، وصور ملابسهم وعاداتهم وأسلوب حديثهم وميولهم وألوان ترفهم ولهوهم وأغانيهم ؛ وكان يشخص بنفسه إلى الأماكن التى كانت ميادين للقتال وكان يكتب للأخصائيين يسألهم فى كل مسألة يستعصي عليه فهمها ، وكان يستشير أصحابه ويستعينهم فى كثير من المسائل كما كان يستنبىء عما عسي أن يكون من الأسر محتفظا بسجلات أو وثائق أو صور تاريخية أو أى شىء يزيده علما وفهما لحياة ذلك العصر ...

وقد كان للكاتب العظيم خير عون من زوجته كما ذكرنا ، وكان ثناؤها على

ما يكتب وإعجابها بفنه خير حافز له على المضي فى عمــله ، كما كان يتبين وقع حوادث القصة في نفسها متخذاً من ذلك مقياساً لقارئيها في الجملة حين تتم .

ودأب على عمله سنوات ست ، يقضي فيه كل يوم نحو ثمان ساعات ؛ وهو فى كل آثاره كاتب لا يجرى قلمه حيثما اتفق له ، وإنما هو يطيل النظر فيما يكتب ويتناوله بالحذف ، فيضع كلمة مكان كلمة ، ويستبعد من هنا فقرة ويضيف هناك فقرة ، ولا يعجبه هذا الفصل أو ذاك فيعيد كتابته كله ؛ ويقع بعــد حين على شيء كان يصح إضافته الى ما سلف من وصف فيعود إليه فيضيفه ، أو يخطر له خاطر فيثبته حيث كان يجب أن يثبت ؛ ويقرأ بعض أوصافه جهراً فيحس فى الصورة غموضاً أو في فى اللفظ تعثراً فما يزال بالصورة حتى تشرق وباللفظ حتى يسلس ... وعلى هذا النحو كتب هذا الـكتاب كله ، ولا عجب بعد ذلك أن يشبه الـكتابة بالوضع وأن يقول إنه كان يترك كل مرة قطعة من لحمه فى المحبرة ؛ وإن الذين يمانون البيان من أئمة البلغاء الذين يتفطنون إلى مواقع الكلام لهم وحدهم الذين يدركون مبلغ ما كان فى عمل هذا الفنان العظيم من مشقة .

ولم تتم القصة إلا فى سنة ١٨٦٩ ، وقد نشر القسم الأول منها تحت عنوان « سنة ١٨٠٥ » ثم ظهرت أخــيراً فى مجلدات ستة باسم « الحرب والسلام » ؛ وسرعان ما ظفرت بنجاح هائل لم يظفر بمثله فى روسيا كتاب قبلها ، لا فى الأوساط الأدبية والفنية فحسب ، ولـكن فى جمهور القراء جميعاً ، وأصبح بها ليو تولستوى عند بنى قومه أستاذاً عظيما ، وبات فى سماء الفن والأدب أعظم الـكواكب تألقاً .



يجدر بنا قبل أن نتحدث عن القيمة الفنية لهذا الـكتاب وعن آراء النقدة فيه ، أن نلقى نظرة فيما عبر عنه مؤلفه من آراء كان يمتلىء بها رأسه ، وخواطر كانت تجيش بها نفسه ؛ ولما كان سبيله فى مثل هذا العمل الفنى أن يجرى آراءه على ألسنة ما خلق من أشخاص ، وأن يلمح إلى خواطره فيما يأتون من عمل أو يسلــكون من مسلك ، كان خليقاً بنا أن نلم إلمامة بقدر ما يتسع هذا المجال بأهم شخصياته ،

وهى إلمامة إن لم تكن تغنى شيئاً عن قراءة هذا الأثر الفنى الفذ والاستمتاع به . إلا أنها على أية حال تتصل بما نحن فى صدده من دراسة هذا المؤلف العظيم —

خلق تولستوى أكثر شخصياته وسواها على مثال من عرفهم في حياته ؛ فأسرته وأسرة زوجته يمثلهما فى القصة أسرتا رستوف و بولكنسكى؛ وعمته تاتيانا تمثلها سونيا في القصة، كما تخيلها وهى شابة ، وليزا بيرز تظهر واضحة فى ڤيرا ، و بولڤانوف هو بعينه دينسوف في القصة ، وتانيا تلك الشيطانة الصغيرة تظهر ظهوراً لا ينقصه إلا الاسم فى نتاشا ؛ وأخوه سيرچى هو البرنس أندرو

أما شخصه هو فقد استطاع في براعة فنية عجيبة أن يبرزه فى عدد من شخصيات قصته ، فناحية منه تظهر فى جانب من شخصية البرنس أندرو الذى يمثل أخاه ، وناحية أخرى فى جانب من شخصية بيير بزخوف ، ونواح أخرى فى غير هاتين من الشخصيات؛ ولقد بلغ من دقة تفطنه إلى نفسه أنك حين تصاحب هذه الشخصيات على شدة ما بينها من اختلاف ، لا يسعك فى كل شخصية إذا أخذتها على حدة إلا أن تقول هذا هو تولستوى نفسه ، و إن كانت هذه الشخصيات ذاتها فى مواقف أخرى تمثل أشخاصاً آخرين ... ولن يدخل مثل هذا العمل إلا في طوق فنان عظيم ، وما الإنسان ؟ أليس هو مجموعة شخصيات تألفت فيه على صورة ما ، تبعد أو تقرب من صورة تألفها فى غيره ؟ ذلك ما قصد إليه تولستوى حين صور جوانب شخصه فى أشخاص كثيرين ... و إنك لتجد صورة له فى كل كتاب غير هذا من كتبه العديدة ...

أبرز تولستوى في بيير صفاته الطيبة من أصالة ورجاحة عقل ، وطيبة قلب ، ورغبة في السمو بالنفس ، ونزوع قوى نحو التفكير العقلى المجرد ؛ وأبرز فى البرنس أندرو جوانب ضعفه كالتردد ، والكبرياء ، والغرور ، وسرعة الغضب ، واللجاج في الجدل وما إليها .

أما الأشخاص الحقيقيون فقد أرانا تولستوى كيف كانوا يعملون و يفكرون مستنداً إلى ما ألم به من تفاصيل عن تلك الحقبة من حياة روسيا التى هى موضوع القصة.

وأضاف تولستوى إلى القواد المعروفين شخصيات من خلقه تمثل روح الشعب الروسي وتبرز أهم خصائصه ، ومن أهم هذه الشخصيات كارتايف الجندى الساذج الصابر المؤمن . وكوتوزوف القائد الذى يذعن للقدر ، فلا يحاول أن يقف فى سبيله و إنما يجعل سلوكه جميعاً وفقاً لأحكامه ، وذلك فى صبر و إيمان ومصابرة طويلة للعدو .

* * *

أجرى تولستوى علي لسانى پيير وأندرو آراءه الخلقية وفلسفته القائمة على جهاده المتصل فى سبيل مسألة حيرته كثيراً واستغرقت تفكيره طويلا ، هى فهم الغاية من الحياة ...

وقد أتاح له هذا العمل الفني الواسع مواقف كثيرة للحياة والموت ، والميلاد والمرض والصحة والحب والكدح وغيرها مما يتقلب فيه بنو الدنيا من ألوان العيش وما يعترض لهم من ألغاز الوجود ، وهو إنما خلق أكثر هذه المواقف خلقاً ليقول عندها ما يريد أن يقول ...

وتتيح هذه القصة بطبيعة موضوعها الأصلى فضلا عن ذلك دراسة كثير من المسائل الكبرى فيما يتصل بالحرب والتاريخ والإنسانية بوجه عام ... وفى هاتيك الآراء جميعاً وفى طريقة أدائها الجانب الأهم من عظمة القصة ، تلك العظمة التى يكملها ما سوف نعقد له فصلا خاصاً من براعته الفنية في خلق الحوار وحسن سوقه وروعة التصوير وتفصيله ،وانسياب ذلك كله هادئاً طبيعياً فى قصصه جميعا فى تناسب وتوافق ، انسياباً يشعرك أنك تنظر فعلا إلى مشاهد وأشخاص من الحياة لا تقرأ لكاتب على صفحات كتاب ...

وأما عن المرأة وما يتصل بحياتها من آراء وما يمثل سلوكها وعواطفها وضعفها وقوتها ونظرتها إلى الحياة ، فقد خلق المؤلف لذلك فئة من الشخصيات من أهمها نتاشا والبرنسس ماري .

* * *

حارب البرنس أندرو فى معركة أوسترلتز الهائلة حيث وقف امبراطور النمسا وقيصر الروسيا فى جانب ووقف نابليون في جانب آخر ، وجرح البرنس فى المعركة ، وعاد أثناء مرضه يتفكر فى الغرض من هذه الحياة ، وقد أرته الحرب كثيراً من غرور هذه الدنيا وأكاذيبها ، وكان يكبر نابليون وهو عدوه إلى حد العبادة ، فتبين له سخف عبادته . ولما شفى من جراحه أراد أن يجد معنى للحياة فى تحرير رقيقه وإصلاح حالهم ، ولكنه ما لبث أن رأى فى ذلك ضرباً من العبث ؛ وعاد إلى القتال فعاد إلى ما لا طائل منه من تأملاته ... وأخيراً حين كان يلتى الموت فى طريقه من موسكو ، أضاءت فى نفسه فكرة الحب فى أعظم صوره ، وتبين فى هذه الفكرة مغزى الحياة « أجل . . . الحب ! ولكنه ليس ذلك الحب الذى يقوم فى النفس من أجل شيء ، أو صفة ما ، أو غرض ، أو سبب ، ولكنه ذلك الحب الذى استشعرته وأنا بين براثن الموت حين رأيت عدوى ومع ذلك أحببته . . لقد جربت هذا الضرب من الحب الذى هو خلاصة النفس والذى لا يحتاج إلى موضوع معين ؛ وإنى لأستشعر الآن هذا الإشراق .. هذا الحب الذي تشعر به نحو جارك ونحو عدوك ونحو كل شيء ؛ حب الله فى كل مظاهر وجوده ؛ إن من الممكن أن تحب أى شخص قريب منك وهذا هو الحب الإنسانى ، ولكن أن تحب عدوك فهذا ما لا تستطيعه إلا بالحب الإلهى . . وإذا أحب المرء حباً إنسانياً جاز أن يتغير حبه إلى كره ، ولكن الحب الإلهى لن يتغير . . لا فلا الموت ولا أى شيء آخر بقادر على أن يقضي عليه .. إنه خلاصة النفس وجوهرها »

تلك هى فلسفة أندرو في القصة أو فلسفة تولستوى فى الحياة ؛ وليس من فرق بينهما إلا أن البرنس أندرو قد اطمأن قلبه ، ولن يزال تولستوى يتأمل ويتفكر حتى ليكاد يقتله اليأس فيما هو مقبل من أيامه .

أما بيير فما برح كذلك يشقيه البحث عن الغرض من الحياة وهو لا يفتأ يسأل نفسه « ما الخير وما الشر ؟ ماذا ينبغى على المرء أن يحب ؟ وماذا ينبغى عليه

أن يكره ؟ ومن أجل أى شيء يعيش المرء ؟ وما عسى أن أكون أنا ؟ وما الحياة وما الموت ؟ وأية قوة تسيطر على ذلك كله ؟ »

ويرتاح بيير إلى الماسونية ، ويفهمها على أنها إعداد للنفس لتتلقى الحكمة فلن تأتي الحكمة عن دراسة العلوم مهما أحاط بها المرء ، ولابد أن يطهر المرء نفسه ويسمو بها سمواً روحياً ، ثم لابد من الإيمان ، وسبيل النفس إلى بلوغ هذا الكمال هو الضمير أى ذلك النور الذى ألقاه الله فيها . .

ويعمل بيير على تطهير نفسه والسمو بها صوب الكمال المنشود ؛ ويفهم من الماسونية معنى آخر يزيده تحمساً لها وهو أن يعيش الناس إخوة بعضهم لبعض يتعاونون فى طريق الفضيلة . .

ولكنه لا يخالط الماسونيين حتى يشك فيما يقولون ، وذلك لأنهم يقولون ما لا يفعلون ، ثم لا يلبث أن يكفر بهم ويرى أن بضاعتهم زخرف ولغو ، وأن أكثرهم يسعى وراء المطامع ويرى في الانضمام إلى جماعاتهم سبيلا إلى قضاء المآرب وجلب المنافع ، بالزلفى إلى ذوى الجاه منهم باسم التعاون على البر .

ويعظم يأسه وتسود فى وجهه الدنيا ، ويلوذ بالقراءة والدرس فلا يجد شفاء ، فيلوذ بالخمر لينسى ، ويكاد يسلم نفسه إلى الانحلال إذ يطلب معنى للحياة فى شهوات بدنه منطلقاً من كل قيد ، ولكنه لا يلبث حتى يسأم ذلك .

ويزحف نابليون على موسكو فتتجه نفسه إلى معنى للحياة هو البطولة فى فى مدافعة هذا العدو ويخيل إليه أن القدر اختاره ليقضى على « قوة هذا الوحش » ، ويتمكن منه هذا الخيال فيعود إلى نفسه الأمل ؛ ولكنه يقع أسيراً وينجو بأعجوبة من القتل بتهمة التجسس ؛ ويرى ذات مرة فرقة من الجيش تطلق النار كارهة مكرهة على فرقة من عدوها لتنفيذ حكم الموت فى هؤلاء وهم ليسوا أقل منهم براءة وسمو غرض ، فتنفر نفسه من الحرب والبطولة ويعود إليه يأسه من فهم معنى الحياة . .

ولكنه فى أسره يخالط جندياً قروياً من بنى قومه هو كاراتايف ، فتضىء

فى نفسه فكرة الحب كما أضاءت من قبل فى نفس أندرو ؛ وقد أوحى بها إليه كارتايف الذي يتمثل فيه هذا الحب البريء و يعجب پيير كيف يعجز من قبل عن وجود معنى للحياة مستعيناً بالماسونية والدراسة والإباحية والبطولة و بحبه نتاشا قبل ذلك ، ثم لا يجد آخر الأمر شفاء لنفسه إلا فيما يري من هذا القروى الذى تنطوى نفسه على الفضيلة والنبل ..

ويحلم پيير فى أسره بالحرية ؛ ولما أطلق سراحه وجد أن السجن علمه ما لم تعلمه من قبل الحياة ، فقد تعلم « أنه لما لم تكن هناك حال يكون فيها المرء سعيداً كل السعادة ، حراً كل الحرية ، فكذلك لا توجد حال تقتضيه أن يكون غير سعيد وغير حر . . . إن لكل من العذاب والحرية حدوده وتكاد تتلاقي حدود هاتين الحالين . وليس في الحياة مواقف أصعب من أن يواجهها المرء »

وتعلم من كارتايف شيئاً آخر هو الإيمان بالله الحى الباقى ، وما كان بحثه عن معنى الحياة إلا بحثاً عن الله ، وقد هداه إيمان كارتايف إلى ر به هدى عجز عن مثله كل شيء من قبل ..

هذا هو تولستوى فى پيير ، ولكن پيير اهتدى فى القصة ، ولن يزال تولستوى حائراً يبحث عن الله ولشدما سوف يلقاه من حيرته . .

***

ومن أحب الشخصيات فى القصة وأقواها بروزاً شخصية نتاشا ، وقد خلقها الكاتب مزيجاً من تانيا ومن أختها سوفيا زوجته ، فهي تانيا قبل زواجها فى القصة وهي تشبه سوفيا بعد أن تزوجت پيير

كانت تانيا بيرز توحي ، كلما زارت أختها في ياسنايا ، إلى تولستوى شيئاً مما هو بسبيله من بناء قصته ؛ وكان ينظر إليها أبداً نظرة رجل الفن الذى يستخرج من الحياة مادة فنه .. قال لها ذات مرة« أتظنين أنك تقيمين هنا فى غير جدوى؟ كلا إنى أراقب كل شيء فيك وأثبته » وكان تولستوي شديد الأعجاب بروحها ؛ كتب إليها ذات مرة يقول « حقاً إن من الصعب وجود تانيا أخرى لا وليس

من يقدرها كما أقدر » ونصح إليها مرة أخرى بقوله « تانيا ، يا صديقتى العزيزة ، إنك صغيرة ظريفة ، موهوبة ، حلوة ، فاحذرى على نفسك وعلى قلبك فإن القلب إذ مُنح مرة لا يمكن استرجاعه ، والقلب المعذب يحمل إلى الأبد أثر الجراح » .

أحبت تانيا وهي في الرابعة عشرة حبها الأول ، وكان الذى أحبته ابن عم لها ربته أسرتها كما لو كان أخا وهو ألكسندر كوزمنسكي ، ثم فتنت بعد ذلك فتى جميلا حسن الهيئة يدعى أناتول شوستاك ؛ وكان تولستوى يراقبها ويحذرها كما لو كان له الولاية عليها ؛ ولقد صرف أناتول ذات ليلة فى عنف من بيته لأنه ذهب فى مغازلة تانيا إلى أبعد مما يبيحه الذوق والعرف .

وفى سنة ١٨٦٣ ربط الحب بين تانيا وسيرجى ، ولكن سيرجى كان يعيش سراً فى ضيعة مع غجرية جميلة الصوت منذ خمس عشرة سنة وقد ولدت له أولاداً ؛ ولما علمت الغجرية بحبه تانيا برح الألم والحزن بها حتى ما يطيق سيرجى أن يرى عذابها ؛ وأطلع سيرجى أخته علي ذلك ، وأنبأت به أخاها ، واعتزم أخوها أن يظهر عليه تانيا في كياسة يتطلبها دقة الموقف ، ولما علمت تانيا بالأمر أطلقت سيرجى من كلمته على الرغم من أنها كانت لا تزال تحبه حباً شديداً .

ونال ذلك من نفسها ومن بدنها حتى لتذوى كما تذوى الزهرة يلفحها الهجير ، فقد تهامس الناس أنها خدعت وأن سيرجى فضل عليها الغجرية ؛ وعلي الرغم من تغييرها المكان عملا بنصيحة تولستوى ، فقد ألح عليها السقم حتى لتخرج بعض الدم فى سعالها ؛ ووضعت في موسكو بين أيدى ثلاثة من الأطباء .

وكانت تواسيها زوجة دياكوف صديق تولستوى، ودعتها لقضاء الشتاء عندها ولما مرضت هذه السيدة الرحيمة ، سهرت تانيا ليالى إلى جانب سريرها ؛ فلما دنا منها الموت طلبت إلى زوجها أن يتزوج تانيا بعدها فهى خير من تصلح له

وقال دياكوف إنه كان يعد نفسه سعيداً بها لولا بعد ما بينها و بينه فى العمر .

وعادت تانيا إلى ياسنايا بوليانا ، وعمل تولستوى فى مهارة حتى قرب بينها و بين ابن عمها ألكسندر حتى كان ذات يوم فسأله ألكسندر عما إذا كانت تقبل يده إذا تقدم بالخطبة فقال تولستوى « عجل فانى أظنها تعود الآن إلى حبها الأول » .. وتقدم ألكسندر فقبلته تانيا وأصبح لها زوجا ..

ظهرت تانيا فى شخصية نتاشا رستوف التى أحبت وهى صغيرة فتى يدعى بورس ، ثم خطبها البرنس أندرو ولكنها وقعت فى حب فتى جميل يدعى أناتول كوراجين وكادت تفر معه ؛ وتسامع الناس بذلك فنال منها وأثر فى صحتها وقال لها بيير ذات مرة أنه كان يسعد بها زوجة له لولا بعد ما بينها و بينه فى العمر ؛ ولما مات أندرو ، تقدم بيير فخطبها وصارت له زوجة . .

وغدت نتاشا بعد زواجها أماً أحسن ما تكون الأم ، ونسيت لهوها وعبثها ومرحها ؛ ولكنها تريد من زوجها أن يجعل لها فراغه كله ، وطلبت إليه ذلك فأدهشه ، ولكنه قبله لأن فيه ملقاً لعواطفه ، وفى هذه الحياة الزوجية صور تولستوي كثيراً مما كان بينه و بين زوجته ..

وصف تولستوى حياة نتاشا وصفاً دقيقاً وأظهرها فى مواقف كثيرة من مواقف لهوها وحبها ، وانقيادها لعاطفتها ، وتقلب صروف الزمن عليها ، و بلغ من ذلك ما لا يبلغه إلا فنان موهوب ، فأنت تأنس إلى هذه الصورة وتألفها وتعرفها أكثر مما لو رأيتها حقاً فى الحياة ، و ينقضى زمن طويل بعد قراءتك القصة ولا تزال نتاشا حية فى حسك ونفسك ..

أما البرنسس مارى فهى صورة على نقيض نتاشا ، وهى فتاة دينة تقية تبذل قصارى جهدها لإرضاء أبيها الشيخ فى أواخر أيامه ؛ وقد رفضت يد أناتول لأنه طلبها من أجل ثروتها ، وهو الذي افتتنت به نتاشا بعد ذلك ، وتحب مارى بعد ذلك نيقولا رستوف ، و إذ تراه يفتر فى تودده إليها بعد وهن ثروة أسرته ، مخافة أن تحسبه يطلب مالها ، تحب ذلك منه فتفضى إليه بحبها وينتهى الأمر بزواجها منه ...

وعلى الرغم من أنها زوجة صالحة ، فهى لا تجد السعادة فى هذه الدنيا ، ولا تزال تعنى نفسها بالمجهول وتفكر فى اللانهاية وفى الأبدية فلا تكاد تحس الهدوء

وفي نيقولا رستوف جانب من شخصية أبيه كما تخيلها ، وفى البرنسس مارى كذلك جانب مما تخيله عن أمه ...

وفى القصة غير هذه الشخصيات حشد عظيم خلقهم الفنان الكبير خلق المتمكن القادر ، فليس أكثر منهم فيمن خالطت من الأحياء ألفة إلى نفسك ولا وضوحاً فى ذهنك ...

* * *

كان أكثر ما عني تولستوى بإبرازه من فلسفته فى حياة من ذكرنا من شخصياته هو الغرض من هذه الحياة ومغزاها وكيف يعيشها الإنسان ؟

ولكن فى القصة غير حياة الأفراد والأسر ، معارك حربية اشترك فيها بعض هؤلاء الأفراد وشغلت أذهان الشعب الروسى كله ؛ ولقد كان لتولستوى في هذا الجانب الحربى من القصة عملان : عمل الفنان الذى يصور وعمل الفيلسوف الذى يفكر ...

أما عن عمله المتصل بالفن ، فلديه الموهبة ولديه التجربة ؛ فقد شهد المعارك فى القوقاز وفى القرم ، وجاء الوقت الذى يفيد فيه من حياة الجندية ، ولذلك جاء وصفه ما وصف من حياة الجند ومن المعارك وعليه طابع الخبير الذى يجعل الفن أداة فحسب للتعبير عن خبرته ، لا طابع المتخيل الذى يحتال بالصنعة لتقليد الحياة

لذلك يصف تولستوى الجيش كأنك تعيش معه ، فيطلعك على نزعات الجند وميولهم وأفكارهم ، وكيف يأكلون وينامون ، وكيف يزحفون للقتال ، وما نظرتهم إلي ضباطهم وقوادهم ؛ وهؤلاء الضباط والقواد ما خطبهم وما تفكيرهم وما دسائسهم وما أطماعهم وما حظ كل منهم من روح البطولة وما حظه من الأنانية ، إلى غير هذه من الأمور التى لن يحدثك عنها إلا من خبرها ، و بقدر ما يتوافى له من الفن يكون وقع حديثه فى نفسك وخيالك .. ثم تأتى بعد ذلك

أوصاف القتال وما يحدث فيه ، وهذه في طوق كل ذى خيال على قدر ما أوتى من قوة التخيل ...

وأما عن عمله المتصل بالفكر فما يغنى عنه إيجاز ولا إسهاب ، فإن المجال كله مجال فن وإن رجل الفن هنا يخفى الفيلسوف ويبرز بالفن فلسفته ، ولا يعمل عمل الملقن الذى يباغت النظارة فيظهر بين ممثليه فوق المسرح ويحطم التمثيل بذلك تحطيما ...

يعرض رجل الفن عليك الحياة ، ويخلق من الحوادث ما يساير ما يريد أن يقول ، وأنت تستخرج لنفسك معانيه ، فإن كان لا بد من تفسير فعلى ألسنة أشخاصه لا على لسانه هو ، وهذا هو الفن وشتان بين هذا وبين مؤرخ يكتب أو صاحب مقال يحلل ويشرح ...

وماذا يستخرجه المرء من فلسفة التاريخ فى القصة مجرداً من لباسه الفنى ؟

فى هذه الملحمة الكبرى التى سماها بعض النقدة إلياذة تولستوى معان فى فلسفة التاريخ يرد إليها جانب كبير مما لهذا العمل الفنى من عظيم الخطر ...

تدور فلسفة تولستوى التاريخية حول فكرة سماها « قانون ما ليس منه بد » فقد لاحظ تولستوى فى حياة الأفراد ، أن أموراً لا دخل فيها لإرادتهم تتحكم فى مصائرهم لأنها تؤثر فى اتجاهاتهم من حيث لا يشعرون ولا يريدون .

وليس الأمر قاصراً على الأفراد ، فهذا القانون يعمل عمله فى الحوادث العامة فيأتى بها على صورة لم تكن وليدة إرادة سابقة ، بل كثيراً ما تأتى على عكس ما دُبر وقُدر ؛ وأوضح ما يكون ذلك فى ميادين القتال حيث يقع من الحادثات ما ليس له صلة قط بما أحكم من خطة قبل .

وكم شاهد تولستوى فيما شهد من حروب قواداً يحسبون أنهم مسيطرون على اتجاه الحوادث إذ هم فى الواقع يجرفهم التيار ، وكثيراً ما يرجعون نتيجة ما ، إلى كيت وكيت من الأسباب ، إذ مردها فى الواقع إلى مصادفات لم تكن فى الحسبان أو إلى الإهمال أو الخطأ أو النقص فى تنفيذ ما أمروا من أمر ، بحيث لو نفذ كما شاءوا

لجاءت النتيجة على غير ما يحبون ...

ويأتى تولستوى بأمثلة لهـذا من أوسترلتز فيعرض طائفة من المصادفات أتت بعضها فى إثر بعض فجعلت أحد الضباط يؤمن بأنه « مثل الحصان ربط إلى عربة ثقيلة وهو يجرى فى منحدر ، فليس يدرى أهو يجرها أم أنها هى التى تدفعه ، ولـكنه يجرى قدماً فى سرعة وليس لديه وقت لينظر إلى أية غاية تمضى به حركته »

من هذا القانون « قانون ما ليس منه بد » أو قانون الضرورة كما يصح أن يسمي ، يستخرج تولستوى طائفة من الآراء ؛ فعنده أن فى التاريخ كثيراً من الأباطيل وهى مع ذلك تسمى علماً ؛ وفى زعمه أن ما يذكره المؤرخون من أسباب للحروب بوجه عام إن هو إلا وهم من الوهم ، إذ لا يمكن وفق ذلك القانون أن تعين أسباباً بذاتها تجزم أنها هى لا غيرها التى أحدثت ما حدث لأن هذه الأسباب المزعومة إن هى فى ذاتها إلا وليـدة حوادث ماضية مشتبكة متداخلة لولاها ما كان لها مغزى .

ويستخرج تولستوى كذلك أنه ما من شخصية كبيرة من شخصيات التاريخ تمثـل إرادتها الإرادات الفردية لآحاد الشعب الذى ترى فى قمته تلك الشخصية ، وما يتحرك التاريخ ويتشكل إلا بتحرك هذه المشيئات الفردية التى يتألف منها التيار العام .

وإذا كان الأمر كذلك ، مضافاً إليه ما تفرضه طبيعة الأشياء فى بعض المواقف وما يقضي به منطق الحوادث فى بعض ، مثل إحراق موسكو المبنية من الخشب وقد هجرها أهلها ، ومثل تراجع نابليون ذلك التراجع الذى لم يكن منه بد ، فمن الباطل أن نجعل الأحداث الـكبرى من عمل فرد أياً كانت قدرة هـذا الفرد ، وبناء على هذا فمـا أسخف ما يسميه المؤرخون « العظمة الشخصية » فما هذه إلا ضرب كذلك من الوهم ...

وما تـكون أسماء هؤلاء « العظماء » مقرونة بالحوادث الـكبرى التى يتخيلون ويتخيل معهم المؤرخون أنها من صنعهم إلا كالطابع أو « الماركة »

التى تـكتب على السلعة ، وليس لهذه الأسماء العظيمة من أثر فى خلق الحوادث إلا بقـدر ما يكون لتلك « الماركات » التجارية من أثر فى خلق البضاعة ...

ونحن إذا نظرنا فى الحوادث التاريخية التى يعزوها القائلون بالعظمة الشخصية إلى العبقرية وحسن الحظ ، فإنا نجد أنفسنا من هذه الحوادث تلقاء أحد احتمالين : فإما أنها حوادث مفهومة الغرض والمغزى ، وفى هذه الحالة يمكن ردها إلى قانون الضرورة أعنى أن جملة حوادث مشتبكة أفضت إليها ، وعدة أشخاص وظروف عملوا فيها ، ولا فضل هنا لفرد واحد ؛ وإما أنها حوادث غير مفهومة الغرض والمغزى وفى هذه الحال لا يمكن ردها لا إلى عبقرية ولا إلى حظ حسن ...

وليس ينـكر تولستوى المواهب والقوى الذاتية وإنما ينـكر أنها هى التى تخلق الحوادث وتشـكلها وتسوقها فى مجراها ، وما هذا الذى نسميه عظيما إلا رجل هيأه القدر على هذه الصورة دون إرادة له ليقترن اسمه بالحوادث ، وما يكون تأثيره فيها إلا جزءاً من كثير من المؤثرات وإنما يعزى إليه كل شيء ... وكذلك كان نابليون ...

ولقد أدى الإيمان بالعظمة الفردية إلى خطأ بل إثم يقترفه المؤرخون وهو عدم اكتراثهم للقيم الخلقية والأدبية ، فما يعزى إلى العظيم من عمل فهو فوق الخطأ والصواب ، ولو جاء على نقيض ما تسلم به الإنسانية من أصول العدالة والحق ، فغزو نابليون أوروبا وروسيا مع ما صحبه من جرائم يوصف بأنه عمل رجل فذ من ذوي العظمة والمجد ، ويؤخذ على أنه مظهر من مظاهر العبقرية ...

ولا يقل خطأ المؤرخين فى تصور أثر السلطة أو القوة في خلق الحوادث ، عن خطأهم فى تصور أثر « العظمة الفردية » ، فهم يزعمون أن السلطة هى إرادة الأفراد مجتمعة قد نقلت إما بالموافقة المعلنة أو بالقبول الضمنى إلى يد فرد أو أفراد ارتضتهم الأمة لحـكمها ، وهؤلاء الأفراد بما لهم من قوة الأمر يوجهون الحوادث بأوامرهم فيخلقون التاريخ ...

ويرى تولستوى أنه ما من حادثة تاريخية إلا وقد نجمت من حادثة أو جملة حوادث قبلها وهى فى ذاتها حلقة تصل ما بعدها ؛ وإذا كان نابليون قد أصدر

أمره بغزو روسيا ، فهذا ما أفضت إليه جملة اعتبارات من قبل ، وليس معنى أنه أمر بهذا ، أن الغزو كان نتيجة لهذا الأمر وحده ، فما فعل نابليون أكثر من أنه دفع إلى الحركة جملة أوامر سارت بعضها تحت بعض حسب درجات القواد والضباط الذين يصدر كل منهم أوامره من أجل غرض محدود ، وعلى قدر ما يتم من تنفيذ هذه الأوامر المشتبكة يكون مصير الغزو من النجاح أو الفشل

ولابد من جملة شروط وظروف تجعل تنفيذ أى أمر من الأمور ممكناً ... وما يأمر آمر إلا وهو يعتقد أن أمره سوف ينفذ حسب صدوره ، ولكن غالباً ما يأتى الحال بخلاف ذلك ؛ إذ أنه لكى يضمن آمر تنفيذ أمره يجب أن يعلم سلفاً أن من الممكن تنفيذه ، وهذا العلم المطلوب فى الأكثر غير مستطاع ... ذلك أنه بجانب الأمر الذى ينفذ حسب الخطة المقررة أوامر أخرى تنفذ تنفيذاً ناقصاً أولا تنفذ ألبتة ؛ وإن الأمر الذي لا يساير ما فرضه منطق الحوادث وما حتمه من اتجاه لا يرجى له تنفيذ ، وما ينفذ فى الأكثر من الأوامر إلا تلك التى تطابق ما عساه كان يحدث حتى ولو لم تصدر ...

وعلى هذا الأساس كانت جيوش نابليون ظافرة طالما أدت جملة حوادث مشتبكة متداخلة إلى ظفرها ، فلما تغير وضع تلك الحوادث وتغيرت وجهتها ، صار موقف نابليون من مجراها موقف من يطلب إلى موج البحر أن يرتد ، وظلت أوامره تترى ولكن فى غير جدوى .

ويجهل المؤرخون جهلا شديد حين يعزون الحوادث إلى إرادة الشخصيات التاريخية كما تبدو فى أوامرهم ، إذ الواقع أن هؤلاء وأوامرهم إنما يخضعون للحوادث .

وخلاصة ما يذهب إليه تولستوى ومرده إلى قانون الضرورة ، هو أن حركات الأمم لا تسببها القوة ولا النشاط العقلى ولا اجتماعهما كما يظن المؤرخون ، وإنما يسببها نشاط الأمة كلها مجتمعها فى صورة يكون فيها أولئك الذين يتصلون بالحوادث بأكبر قسط صلة مباشرة أقل الناس فى الواقع نصيباً من تحمل المسؤلية أو أبعدهم عن إسنادها إليهم ...

وماذا يسبب اجتماع هذا النشاط ؟ ذلك ما لا نستطيع أن نعرفه ؛ ومن هنا لا نستطيع أن نعرف أسباب الحروب ولا الثورات ، ومهما فكرنا فلن نستطيع أن نذهب إلى أبعد من قولنا إن ذلك الاجتماع إذا حدث فهو ضرورة أو هو أمر لم يكن منه بد ، وعلى ذلك فهو قانون .

وما كانت قصته التاريخية الكبرى إلا معرضاً لهذا الرأى ، فليس فيها كما أسلفنا من بطل قط إلا الشعب الروسى مجتمعاً فى نضاله ليتخلص من الغزاة .

ويرى تولستوى أن تكون وظيفة التاريخ النظر في الحوادث على أساس قانون الضرورة وإلا كان عمل المؤرخين مجرد البحث عن مبررات لما يحدث ، فيثنى على فلان وهو فى الواقع لا يستحق ثناء ، ويعاب على فلان وهو برىء من العيب .

وبقدرما يكون نقص الإنسان فى الثقافة والمعرفة بوجه عام ، يكون اعتقاده بحريته فى العمل أعنى الاختيار ، فإذا اتسع أفقه وعمقت نظرته واستطاع أن ينظر في نفسه وفى الحوادث استطاع أن يرى ما فيها من الضرورة ، وهنا تتناقص عقيدته فى الاختيار ، وكلما ازداد معرفة بالبواعث والظروف ازداد نبذاً للاختيار وإقبالا على التسليم بالضرورة ...

ولن يكون التاريخ علماً إلا إذا درست الحوادث على أساس ذلك القانون الذى يرد إليه تولستوى كل فلسفته التاريخية ، فاننا بذلك نستطيع أن نصور أحكامنا على الحوادث عن بينة بقدر ما يتسع له علمنا بما أحاط بها ، وفى هذه الحال لا يكون عمل التاريخ البحث عن أسباب الحوادث وإنما يكون عمله استخراج القوانين على أساس علمى والتكهن بما يحدث على أساس قياسى ، إذ أن مرد الحوادث جميعاً إلى ما ليس منه بد ، إلى ذلك القانون الذى لا نعرف كيف يحدث.



تلك هى خلاصة فلسفة تولستوى التاريخية عرضناها فى إيجاز كما عرضنا من قبل ما جاء فى قصته من نظراته فى الحياة والغرض منها ، وشتان بين هذه المعانى المجردة نعرضها على هذه الصورة ، وبينها في القصة حيث يعرض عليك تولستوى

بأستاذيته وعبقريته الحياة نفسها فتستخرج منها هذه المعانى وكثيراً غيرها ، وكأنك تعيش تلك الحقبة مع أهلها تحس إحساسهم وتفكر تفكيرهم ، فهذا الكاتب العظيم لا يقول لك باللفظ وحده ما يريد أن يقوله عن الحياة ، وإنما عماده الفن فهو يوحى إليك ويبهرك ويحبب إليك عمله ويملأك إيماناً ، وقد يسحرك عن نفسك فتسلم معه بما لا تعتقد ، ولا يسعك في كل حالة إلا أن تقول لنفسك : ما أصدق هذا ، إن هو إلا حياة كما تكون الحياة ..

أما عن قوام فنه فسوف نعقد فصلا خاصاً نبين فيه خصائص هذا الفن ومبلغ ما توافى له فيه من الابتداع والروعة..

وإن المرء ليشعر بالسرور والأسف معاً إذ يفرغ من قراءة هذا الكتاب العظيم الضخم ؛ أما سروره فلما تركه من عظيم الأثر فى نفسه ، وأما أسفه فعلى مفارقته تلك المشاهد التى استمتع بهما زمناً طويلا وأولئك الأشخاص الذين أحبهم وعرفهم ولمس دخائل نفوسهم وأحس إحساسهم ، وكم يشعر المرء بالرغبة فى الرجوع إلى قراءته مرة ومرة ، والعودة إلى تلك الصالونات الحافلة بالحياة والبهجة والزينة ، والناس من كل نمط ، وإلى ميادين القتال فى أوسترلتز وفريدلند وبورودينو ، وما تزخر به من مشاهد وحركة ؛ وإلى قلوب أولئك الأشخاص من رجال ونساء ، وإلى أطواء نفوسهم وما يعتلج فيها من عواطف وانفعالات .

* * *

بقى أن نشير إلى قيمة هذا العمل الفنى الفذ . . وما اكتسب الكتاب من منزلة بين آثار القلم عامة . والرأى الشائع بين نقدة الأدب ، أن هذه القصة تمثل أسمى ما وصل إليه الفن القصصي فى روسيا فى القرن التاسع عشر . عصر نبوغ هذا الفن ، وهى إحدى آيات هذا الفن فى العالم كله ، وآية تولستوى الكبرى وإن كان بعض النقدة يفضل عليها قصته « أنا كارينينا » ؛ ويكاد يتفق النقدة على أنها أعظم قصة أخرجها القرن التاسع عشر ، وذهب جولزوورذى إلى أنها أعظم قصة ظهرت فى أدب الدنيا قاطبة ..

والحق أنها كأثر من آثار تولستوى قد اشتملت على أكثر مميزاته ، ففيها تجارب شبابه ، وفيها مظاهر وجدانه وسمو عاطفته وحدة ذكائه ونفاذ بصيرته ، ويقظة حواسه ، ودقة خياله ، واستقلال رأيه ، وشاعرية روحه ، وحرارة قلبه ؛ وفيها خبرته بحياة الجندية وصدق علمه بالحياة المدنية فى صالونات الأرستوقراط وأكواخ الفلاحين ، وفيها ما ذاقه من اللهو والعبث أيام عرامته ، وفيها عواطفه رباً لأسرته ، وفيها أثر تأملاته ودراسته ؛ وفي الجملة تجد فيها شخصيته بما تحتويه تلك الشخصية العجيبة من تقلب وتناقض .

وهى كعمل فنى فى ذاته ، فضلا عما فيها من مقومات الفن وأصوله ، فيها صورة كاملة للحياة الإنسانية ، وفيها صورة كاملة لروسيا فى ذلك العهد ، وفيها فلسفة الموت والحياة والسعادة والشقاء ، والحب والأمل ، وفيها خصائص شعب ومشاعره وروحه العامة ، وكل أولئك ومضات ذهن عبقرى وصنعة فنان موهوب ، ولم يجرها تولستوى على غرار القصص بقصرها على حادث رئيسى واحد وإنما بناها كما تبنى الملاحم فهى إلياذته أو إلياذة الشعب الروسي فى جهاده ؛ قال يشير إلى ذلك «أبطال؟ إن هذا لأكذوبة ، وإنه لاختراع ... ليس فى قصتى إلا ناس فحسب ... ناس لا شيء أكثر من ذلك » ... وقد برع تولستوى فى تصوير مشاعر هؤلاء الناس فيما أجراه من أحاديثهم ، العلية منهم والعامة ...

ولما نشرت هذه القصة لم تلق أول الأمر ما لقيته بعد ذلك من إجماع على امتداحها ، بل لقد هاجمتها بعض الصحف هجوما شديداً ، ولم يدافع عنها فى تحمس إلا ستراخوف أحد كبار النقاد ، ولقد عقد لدراستها جملة فصول ..

وتلقى فت من ترجنيف كتاباً أرسله من باريس يقول فيه « إن القصة كلها متكلفة وأن قسمها الثانى ضعيف » وكتب بعد ذلك بسنة يقول « إنها قصة رديئة » .

أما دستويفسكى فقد أرسل إلى صديق له يقول « قرأت نقداً لقصة الحرب والسلام ، وكم ذا أحب أن أقرأها كلها ؛ لقد قرأت نصفها فقط ، لا بد أنها شيء

معجب ولو أن مما يؤسف له أنه ليس فيها قدر كاف من التفصيلات السيكلوجية ، ومع هذا فإنه بسبب ما فيها من التفصيلات كم يقع المرء فيها على ما هو جيد » .

وغير ترجنيف رأيه فى نفس السنة فكتب إلي فت يقول « لقد فرغت لساعتى من قراءة المجلد الرابع من القصة .. إن فيها أشياء لا تطاق ، وفيها أشياء هائلة ؛ وقد بلغت تلك الأشياء الهائلة فيها من الروعة بحيث لم يسبق أن كتب أي كاتب عندنا خيراً منها ، وأشك فى أنه قد كُتب نظير لها » .

وامتدح فلوبير القصة بعد ظهورها بعشر سنوات بقوله « هى قصة فى ثلاثة مجلدات بقلم ليوتولستوى الذي أعده أعظم كاتب فى عصرنا . . إنها من الطراز الأول . . أى أستاذ هذا وأى فنان وأى تحليل سيكولوجي ! ؛ إن الإنسان يرى فيها الطبيعة ويرى الإنسانية ؛ ويخيل إلى أن فيها أحياناً أشياء تشبه شكسبير ؛ لقد كنت أصيح صيحات الإعجاب أثناء قراءتها ، وإنها لقصة طويلة .. أجل .. أجل إنها جميلة .. جد جميلة » .

ورد ترجنيف عليه بقوله « إنك لا تستطيع أن تتصور مبلغ ما بعثه من سرور فى نفسي ثناؤك على قصة تولستوى وإن رأيك هذا يقوى رأيى فيه . حقاً إنه رجل جد عظيم » .

وبينما كان يقرأ تشيكوف القصة بعد نشرها بأكثر من عشرين سنة كتب إلى أحد أصدقائه يقول « إني أسهر كل ليلة فى قراءة قصة الحرب والسلام وفى نفسي شعور صادق هو شعور المعجب من جانب رجل لم يقرأها من قبل .. إنها جيدة إلى درجة تدعو إلى الدهشة » .

وأخذ الناس يعرفون قيمة القصة ويقدرونها حق قدرها كلما مرت الأيام حتى غدت فى دنيا القصص كصاحبها بين الأدباء قمة من القمم ، فما يذكر فن القصة إلا ذكرت « الحرب والسلام » على أنها ركن من أركانه .

بعد الحرب والسلام

أنهك الجد المتصل فى ست سنوات بدن تولستوى القوى فبدا عليه السقم كما لحق بذهنه الكلال ، فكان لابد له أن يستجم ؛ ولكنه أقبل على الرغم من ذلك يقرأ الفلسفة ويستغرق في ذلك استغراقاً عجيباً فقرأ كانت وشوبنهور خاصة وأعجب بهما إعجاباً شديداً . . ولقد كان تحمسه لشوبنهور عظيما ، كتب إلى فت فى الثالث من أغسطس سنة ١٨٦٩ يقول « حقاً إنه مامن تلميذ فى منهجه تعلم بقدر ما تعلمت أو كشف بقدر ما كشفت فى هذا الصيف ؛ لست أدرى ما إذا كنت أغير رأيي فى المستقبل ، ولكنى الآن أعتقد أن شوبنهور أعظم عبقرى بين الناس ... لقد أخذت أترجمه ، ألا تعمل معي فى هذا العمل فننشره سوياً ؟ . لست أستطيع أن أتصور بعد قراءته كيف يبقى اسمه مجهولا ... إنى أفسر ذلك بما اعتاد أن يكرره من قول ، وذلك أنه قلما يوجد فى الدنيا غير الحمقى » .

وأخذ تولستوى يتعلم الإغريقية ، واشتد إعجابه بهومر وهيرودوت وزينوفون وتقدم فى هذا المضمار تقدماً عجيباً فى بضعة أشهر ، حتى إنه ليجادل أحد أساتذة الإغريقية فى موسكو ويراجعه فى ترجمة بعض الفقرات ...

وقرأ كذلك بعض الروايات المسرحية لشكسبير وجيته وموليير ، وكان يجد فى هذه القراءة بعض الهدوء لنفسه من عناء الفلسفة ومن عناء تأملاته ...

ولكن الكتابة كانت عنده العمل الجدى الذى يصغر حياله كل عمل غيره وعلى الرغم من قراءته ، ونشاطه سنة ١٨٧٠ في الإشراف على أعمال ضيعته ، كان لا يفتأ يشكو الخمول والكسل فى تلك السنة ، وطالما فكر فيما عساه أن يصلح موضوعاً لقصة كبيرة أخرى ؛ قالت زوجته « كان يعتقد في بعض الأحيان أن الوحى عاد إليه فيطيب نفساً بذلك ؛ وكان يخيل إليه أحياناً أنه سوف يفقد

عقله ، ولقد اشتد به الخوف من الجنون حتى إنى لأمتلىء رعباً كلما اتجه حديثه إلى ذلك »

* * *

كان تأمل تولستوى فى بعض المسائل الفلسفية يلقى على نفسه كثيراً من الهموم ، وكان أكثر ماحبب إليه شوبنهور تشاؤمه ؛ وطالما أسلمه تأمله إلى حالات كان يخشى فيها على نفسه وعقله ؛ والحق أن هذا التأمل كان يكرب نفسه فى أوقات كثيرة طيلة تلك السنوات الست التى كتب فيها قصته الكبرى ...

وعاودته هذه الهموم بعد فراغه من قصته ، ولم تغن عنه قراءته المسرحيات ولا تعلمه الإغريقية ؛ وساءت صحته وصار لابد له من من الراحة ؛ وأشارت عليه زوجته أن يسافر إلى سمارا ليعالج مرضه بالكوميس كما فعل قبل زواجه ...

ورحل تولستوى إلى سمارا فى صيف سنة ١٨٧١ وقد ركب القطار على رغمه لأنه كان يكره كل المظاهر الحديثة وينكر أنها من المدنية ، ثم ركب قارباً بخارياً فى نهر الفلجا حتى وصل إلى الجهة التى زارها سنة ١٨٦٢ ؛ وركب تولستوى فى الدرجة الثالثة في القطار وكثيراً ما كان يختار هذه الدرجة إذا اضطر إلى ركوب القطر ، لأنه بات يكره الترف ، وأخذت تسيطر عليه نزعة الاتصال بالفلاحين والفقراء والتدسس إلى عواطفهم وأفكارهم ليرى مبعث إيمانهم وتدينهم ؛ ولقد تحدث إلى الكثيرين منهم فى رحلته هذه واتخذ له منهم أصدقاء ... وفى سمارا أقام تولستوى فى خيمة مع صهره ستيفن بيرز وخادمه إيفان ، وكانت تتألف الخيمة من أربعة أقسام : أولها للنوم ، وثانيها للجلوس والكتابة ، ثم ثالثها وقد جعل مخزناً للمتاع ، ورابعها وبه الحمام وما يلحق به ...

وكان يعرف تولستوى بعض رجال القبائل هناك منذ رحلته السالفة ؛ كما كان يعرف اللغة التترية منذ درسها فى الجامعة ، وسرعان ما تمكنت الألفة بينه وبينهم كما تمكنت من قبل ، وكان يعيش فى إقليمهم كأنه أحدهم ، يلبس ملابسهم ، ويأكل طعامهم وقوامه لحم الضأن كل يوم ، ويزور شيوخ القبائل

فى خيامهم حيث كانوا يعيشون عيشة بدوية ؛ يجلسون على البسط التى صنعوها بأيديهم ويأكلون الضأن بأصابعهم في صحاف من الخشب ، وكان تولستوى يعيش فى خيمته ورفيقه وخادمه مثل هذه المعيشة ، ويجد فى ذلك بهجة لروحه

وكتب إلى زوجته ، يصف لها معيشته ، ويسألها عن ابنته التى ولدت له أول هذه السنة والتى سماها مارى ويذكر لها من حياة قبائل الباشكير التى يعيش بينها ما تعجب منه وتكاد تعده ضرباً من الخيال ...

وكان إذا زار تولستوى أحد شيوخ تلك القبائل أسرع كما هو العرف فذبح له كبشاً سميناً ، وقام على خدمته بنفسه ، ثم قدم له الكوميس ، ولا يستطيع الضيف أن ينصرف بغير أكل وإلا كان هذا إساءة منه لمضيفه ...

وزار تولستوى كثيراً من الجهات المجاورة ، ووقف على كثير من طباع الناس وأحوال معيشتهم وعاداتهم ولهوهم وأغانيهم ، وكل ما يعنيه أن يعرفه من حياتهم

ووقف تولستوى على العقيدة المسيحية كما يدركها سكان تلك الجهات ، واستمع إلى مناقشاتهم بعضهم بعضاً ، وفكر فيما بينها من فرق و بين ما تدين به الكنيسة الروسية الإغريقية ؛ ثم إنه أصغى فى سرور إلى بعض أصدقائه من المسلمين واستفهمهم كثيراً عن أصول دينهم حتى إنه رغب فى قراءة القرآن ، ولما عاد إلى قريته أرسل فى طلب ترجمة فرنسية له وقرأها فى إمعان وتدبر ...

و بلغ به حبه هذه الحياة الفطرية الساذجة أنه اشترى ضيعة هناك كي يأتى وأسرته فيقيموا زمناً فى تلك الجهات كلما أحبوا ذلك ...

وعاد تولستوى من رحلته وقد لبث شهرين فى تلك السهول الفسيحة يشرب الكوميس ولكن زوجته لا تحس أثراً للكوميس فإنها وإن كانت لا ترى السقم فى بدنه ، تعتقد أن المرض لا يزال كامناً فيه ، قالت « إنى لا أستطيع أن أرى المرض ولكنى أحسه فيما أراقبه من سأمه من الحياة ومن كل ما يحيط به ، ذلك السأم الذى بدأ يظهر عليه منذ الشتاء الماضى . . يخيل لى أن ظلمة مرت من بيننا ففصلتنا أحدنا عن الآخر وفى ذلك الشتاء حين كنا مريضين ، أحسست

أن شيئاً طرأ على حياتنا ، لقد فقدت إيمانى الشديد بالحياة والسعادة .. إن ليو لم يعد ذلك الذى عهدته من قبـل . . إنه يقول إنها الشيخوخة ، وأنا أقول إنه المرض ، ولـكن هذا الشيء كيفما كان أمره قد وقع بيننا »

وهكذا لا تفتأ زوجته تظن الظنون وتسـلم نفسها إلى هواجسها ، ولعلها لم تـكن مخطئة هذه المرة ، فقد كان مما يفـكر فيه زوجها يومذاك كما جاء بعد سنين فى مذكراته أنه فشـل فى زواجه وأنه يعيش وحده إذا ذكـر حياته العقلية والروحية .

* * *

عاد تولستوى من سمارا فاتجه ذهنه فى سبتمبر سنه ١٨٧١ إلى عمل ما كان يتوقع منه بعد قصته الـكبرى ، وذلك العمل هو وضع كتاب لمطالعة الأطفال جعل عنوانه الحروف الثلاثة الأولى من الأبجدية ، وكان عجباً أن يتجه مؤلف « الحرب والسلام » هذا الاتجاه ، وهو الذى بات جمهور الأدباء والنقاد والقراء يرتقبون حتى يجيئهم بآية أخرى ، والذى قال عنه ترجنيف قبل ذلك بنحو شهرين فى كتاب إلى فت يسأله فيـه عن صحته « إنه الأمل الوحيد الذي بتنا نرجوه لأدبنا اليتيم ، وإنه لا ينبغى أن يزول من فوق الأرض قبل أوانه كما ذهب أسلافه الثلاثة ، بوشكين وليرمنتوف وجوجول »

لم يشغل بال المؤلف العظيم شيء يتصل بأدب قومه اليتيم ، وإنما شغل باله كيف يطالع أبناء الفلاحين مطالعة أولية توحى إليهم أذواقهم وتنشىء عواطفهم وتصقل أذهانهم وتوجه بيانهم ..

لهذا شمر تولستوى وأقبل على عمله فى حماسة عجيبة ، وقد نشر من كتابه قبل الفراغ منه قصتين تناقلتهما المجلات ، وذلك حين ألح أصحابها عليه بطلب شيء ينشرونه وقد علموا أنه يعد ذلك الـكتاب ؛ أما القصتان فهما « سجين فى القوقاز » و « الله يرى ولـكنه يمهل » ؛ ولقد بلغ من إعجاب تولستوى بكتابه أنه قال فيما كتبه عن الفن فيما بعد « إنه خير ما كتب جميعاً »



الـكونتس تولستوى فى سنوات زواجها الأولى

كان يتألف هذا الكتاب من قصص بناها على مشاهد حياته ، ومن قصص استمدها من منابع هندية وعربية ، ومن خرافات إيسوب ؛ وراعى فى كتابتها ما يريد للأطفال وفق آرائه فى التربية ومذهبه فى الفن

وأضاف إلى هذا الكتاب قسطاً فى تعليم الحساب والعلوم الطبيعية والفلك كما يرى أن يكون . . كتب حين فرغ من كتابه إلى بعض أصدقائه فكان مما قاله « من الصعب أن أفصح لك عما أردته بهذا الكتاب ، وما موضعه من نفسي . . إن ما يدور حول هذا الكتاب الأوّلى من أحلامى هو أن يكون وحده الكتاب الذى ينشأ عليه جيلان من أطفال روسيا ، وأن هؤلاء يستخرجون منه ما يستقر فى نفوسهم من شعر ، وأن أموت أنا كاتبه مغتبطاً بذلك » .

وأعاد تولستوى مدرسته فى أوائل سنة ١٨٧٢ ليرى كيف يقرأ كتابه ، وكان يعينه ومن معه من المعلمين فى تعليم أبناء الفلاحين الهجاء زوجته وابنه سيرجى وكان في نحو الثامنة من عمره .. وكان عدد هؤلاء الأبناء خمسة وثلاثين . ولم تقعد زوجته عن معونته إلا حين اضطرها الوضع إلى القعود فقد ولدت له فى مايو من هذه السنة ولداً سماه بيتر .

* * *

وذهب تولستوى فى صيف هذه السنة إلى سمارا ، واستصحب من رجاله من عهد إليهم القيام على بناء بيت له هناك ، والنظر فى إعداد الأرض للحرث والزرع . . ولكن طبع كتابه ، وقد عهد به إلى أحد أصدقائه فى بطرسبرج ، كان يقلق باله وهو فى سمارا فعجل بالعودة إلى قريته ..

ولما عاد وجد نفسه تلقاء حادث جديد زاده مقتاً للسلطة وطغيانها فى روسيا ؛ وذلك أن ثوراً من ثيرانه قتل أحد فلاحيه ؛ وكان حاكم تلك الجهة متغطرساً يمثل طغيان أمثاله من رجال الحكومة ؛ فعد تولستوى مسؤولا لأنه صاحب الثور وجعل مرد تبعته إلى « سوء قيامه على شؤون قطعانه » ؛ واضطره أن يقدم عهداً

مكتوباً ألا يبرح يا سنايا حتى يبلغ التحقيق نهايته ...

وبلغ الحنق بتولستوي كل مبلغ ، وإنه ليعلم عن ذلك الحاكم أنه ألقى ذات مرة بأحد الفلاحين فى السجن سنة ونصف سنة لمجرد الظن أنه سرق بقرة حتى ظهرت براءته ... كتب إلى ابنة عمه يقول « إننى الآن فى الأسر إذ لا أستطيع أن أبرح بيتى وذلك بأمر من صعلوك حدث هنا يسمونه خطأ قاضي تحقيق .. وعما قريب سوف أدعى للدفاع عن نفسى فى المحكمة ... وإذا لم أمت كمداً في السجن حيث أحسب أنهم سوف يلقوننى ، فإنى قد جمعت عزمى علي أن أعيش فى إنجلترة إلى الأبد ، أو على الأقل حتى يأتى الوقت الذى تحترم فيه هنا حرية الإنسان وكرامته ».

واستمر التحقيق نحو شهر ، وعدل عن اتهام تولستوى إلى اتهام المنوط بشؤون الضيعة من رجاله ، وقد كتبت عدة صحف منددة بما فعل الحاكم ، واستطاع تولستوى بعد انقضاء هذا الشهر أن يسافر إلى موسكو وكان ذلك فى سبتمبر ؛ ثم عُدل أمام تنديد الصحف عن الاتهام والتحقيق جميعاً ...

* * *

وفى شهر نوفمبر تم طبع كتابه أى بعد أربعة عشر شهراً من بدء كتابته ، وشغل تولستوى عن غضبه ، رده فى الصحف على ما وجه من نقد إلى ذلك الكتاب ، الذى ظل نحو ثلاث سنوات موضع اهتمامه منذ فكر فيه وأخذ فى جمع مادته ...

ودعا تولستوى نحو اثنى عشر معلماً من القرى المجاورة فأقاموا ضيوفاً عنده نحو أسبوع ، ظل يشرح لهم فيه غرضه من هذا الكتاب وكيف يمكن الإفادة منه .

وجعل تولستوى يتعقب الصحف فيرى ما تكتب عن كتابه ، وكان لا يدع صحيفة إلا رد عليها وأبان لها مبلغ ما فى نقدها من تجن أو صواب .

وكان قد توقع تولستوى عدم ذيوع كتابه أول الأمر ؛ وقد صح ما توقع فلم يشتر منه عقب صدوره إلا عدد لا يتفق وما علق عليه من رجاء ؛ على أنه ذاع

بعد ذلك وصار يعد خير كتاب لتعليم الأطفال فى روسيا .

وانتقدت الصحف آراء تولستوى في التعليم ؛ ولم يتهاون فى الرد عليها جميعاً رد المؤمن بفكرته ، المتحمس لمـا يرجو من صالح عام ؛ وقد أذاعت هذه الحملة الصحفية آراءه في التربية ، وبخاصة بعد ما ذهب له من صيت وما توطد من مكانة بقصة « الحرب والسلام » .

* * *

ما الحيـاة ؟ وما الغرض منها وما نهايتها ! ما الموت ؟ وماذا بعـد الموت ؟ أما لهذه الألغاز من حل ؟ أما من سبيل للفكر فى هذه الظلمة الغاشية ؟ أما من هاد ؟

ذلك ما عاد يكرب رجل الفن بعد أن نفض يديه من كتابه الذى وضعه لمطالعة الأطفال ؛ ما ذا أفاد من شـو بنهور ؟ لا شيء إلا الإمعان فى الشك والاستغراق فى التشاؤم ! وماذ أفاد مما قرأ جميعاً ؟ لا شيء ... ألا شد ما تتعذب نفسه وما أكثر ما يتمنى الموت على شدة تعلقه قبل هذا العذاب بالحياة ...

ألا يبلغ النرفانا ؟ أجل ألا يفلت من قيود هذا الوجود ، وتنطلق روحه من إسارها ولقد ذاق ما ذاق من ألم ومن عذاب الحيرة ؟ « إن الدين لشيء عجيب إذ أنه في جملة عصور قد منى الملايين من البشر وأسعدهم بتلك المنى ، ألا وهي بلوغ النرفانا ولـكن كيف يكون الدين منطقياً بهذا العمل ؟ لك وحدك أسمح لنفسي بكتابة مثل هذا » ذلك ما أرسله إلى صديقه فت فى أول سنة ١٨٧٢

لو أوشكت أن تنتابه تلك الأزمة النفسـية التى سوف تأخذه من أقطاره بعد بضع سنين وما يخرجه منها اليـوم إلا حنينه إلي الفن ... إنه يريد أن يكتب قصة أخرى كبيرة مثل قصته « الحرب والسلام » التى تتحدث بها روسيا كلها وأساطين الفن فى أوروبا ...

وماذا يتخذ موضوعاً لقصته الجديدة ؟ ذلك ما يحيره اليوم كما تحير من قبل فى موضوع قصته السالفة

وإنه ليتجه هنا كذلك إلى التاريخ ، ويختار عهد بطرس الأكبر ؛ وإنه

ليدرس ذلك العهد دراسة مفصلة على نحو ما فعل فى القصة السالفة ، فلا يدع صغيرة ولا كبيرة من عادات الناس وملابسهم وميولهم وأفكارهم ، ولا يدع صورة أو وثيقة أو كتاب …

وفى أواخر يناير سنة ١٨٧٣ ينظر فإذا به قد كتب أكثر من عشر افتتاحات لقصته الجديدة ولكنه يعرض عنها جميعاً ، فلم يعجبه منها شيء ، وكان يقول « إن الآلة على أهبه … وإن الموضوع هو الذى يحركها »

ونفر تولستوى من شخصية بطرس ، ومن شخصية منشكوف أحد المقربين إلى القيصر ، بعد أن كان يرى فى منشكوف هذا شخصية روسية قوية نجمت من عنصر الفلاحين وتمثل هذا العنصر خير تمثيل » …

وفي الثامن عشر من شهر مارس فاجأ تولستوى زوجته بقوله « لقد كتبت صفحة ونصف صفحة وأظنه شيئاً جيداً » وتلي عليها فاتحة قصته الجديدة « أنا كارينينا » . . . وهكذا تحركت الآلة ولكن بموضوع ليس من التاريخ . . . وسنأتى بحديث هذا الموضوع على سرده . .

* * *

أخذ تولستوى يكتب قصته ، وكان يومئذ فى الرابعة والأربعين من عمره ، وكان يحيط بزوجته عدد من الأطفال أكبرهم في التاسعة .. ولكنها على الرغم من ذلك ترحب مبتهجة بعودة زوجها إلى الكتابة ليكون لها من جديد فخرمعونته . ولم يكن عمله متصلا فى هذه القصة كما كان فى سالفتها ، فكانت تتخلله فترات انقطاع ، ومن ذلك ما حدث في شهر مايو من هذه السنة إذ ذهب وأسرته جميعاً تقضي نحو ثلاثة أشهر فى سمارا ..

واستعان تولستوى فى سمارا برجل مسلم يدعى محمد شاه ، وصفه بأنه أمين مواظب ، مهذب الطبع ، حريص على كرامته ، يمتلك عدداً من الأفراس وله زوجة نشطة تختبيء خلف ستار إذا دخل بيته ضيوف ؛ واستأجره تولستوى ليقوم على حراثة أرضه ؛ وكان يزوره فى خيمته ، وتوثقت الصداقة بينهما سنوات طويلة …



تولستوى فى الرابعة والأربعين

وكأنما جاء القدر بتولستوى إلى سمارا ليكون فى مجيئه مظهر رحمته بعد أن أخذ الناس بنقمته ؛ فقد حلت بتلك الجهات مجاعة لسوء المحصول ولرداءته عامين متتاليين قبل عامهم هذا ؛ وجاءهم القدر بالرجل الذى تستمع لصوته الملايين إذا هتف يطلب الغوث ..

وهال تولستوى ما رأى ، فالجوع يودى بحياة الكثيرين ، والرجال لايجدون عملا ، والقطعان هزيلة والمرض يستشرى فى القرى ... والناس فى منعزلهم هذا عن دنيا المدنية لا يجدون معيناً لهم فيما حاق بهم من بلاء . .

وأرسل تولستوى صيحته في إحدى صحف موسكو الكبيرة ، وبدأت زوجته قائمة تبرع بمائة روبل قالت إنها المبلغ الأول ؛ واستمان تولستوى ابنة عمه ألكسندرا ، وسرعان ما لبث القيصرة نفسها فتبرعت بمبلغ كبير ، وما هي إلا أيام ثم بلغ المال المتبرع به من الشعب مليوني روبل ، وأغيث الناس وقد كان يتخطفهم الموت ...

وكان تولستوى أثناء المحنة يزور الأسر بنفسه فى القرى المجاورة ويجود بما في يديه من مال وقمح ، الأمر الذى لم ينسه له الناس زمناً طويلا ...

وعاد تولستوى وأسرته إلى ياسنايا فى أواخر أغسطس ليستأنف العمل في قصته ، وهناك فى ياسنايا سمع أن أحد كبار المصورين قد استأجر مكاناً قريباً ليصور منه تولستوى وهو مار به على قدميه أو على ظهر جواده ، ولما علم تولستوى أنه استأجر المكان لهذا الغرض ، وأنه لفرط حيائه وتواضعه لم يستطع أن يطلب إليه الإذن له بتصويره ، دعاه إلى بيته وأكرمه ، ثم إنه سمح له بما طلب على مضض لأنه كان يكره هيئته ولا يحب أن تنشر فى الناس صورته ...

وأصيب تولستوى وزوجته بموت أصغر بنيهم پيتر ؛ وكتب تولستوى إلى فت يصف له مبلغ حزنه وحزن زوجته ، ويقول إنه يحاول أن يتأسي لولا القلب وبخاصة قلب الأم . وكان هذا أول ما ابتلي به من نقص فى الأنفس منذ زواجه

وشغَل تولستوى عن قصته فى سنة ١٨٧٤ عودته إلى التعليم وشؤونه ،

فقد اهتم تلك السنة بالدفاع عن آرائه في التربية ، وبدأ ذلك بمحاضرة ألقاها فى إحدى الجمعيات وإن لم يك يحب التحدث فى المجتمعات العامة ورد عليه فى الصحف بعض النقدة وعقب على كلامهم ؛ ثم كتب مقالا طويلا فى إحدى المجلات الكبرى عنوانه « حول تعليم الشعب » ، وأثار مقاله عاصفة من التأييد والمعارضة ...

وأراد أن ينشىء في ياسنايا مدرسة أعلي مستوى من مدرسته ليدرس فيها الشبان من القرى المجاورة ما يلزم لهم من علم دون أن يضطروا إلى الانقطاع عن أعمالهم ... وتحمس لفكرته هذه أحد أصدقائه في مجلس المقاطعة ، وكان يشير تولستوى إلى هذه المدرسة بقوله « جامعة منتعلى الخشب » وذلك لأن الفلاحين كانوا ينتعلون في الجملة نعالا خشبية ، ومناه صاحبه بمبلغ متوفر لدى المجلس سوف يعمل على أن يرصده للتعليم ، وعمل تولستوى حتى اختير عضواً فى ذلك المجلس ، وعضواً فى لجنة التعليم ، ولكن كم ساءه ونفره من هذه المجالس جميعاً أن رأى الأعضاء يتبرعون بذلك المبلغ المرموق مساهمة من المجالس فيما يجمع من الشعب لإقامة تمثال لكاترين الثانية !

وكانت تتململ زوجته من اهتمامه بمدرسته و « قومه » لأن ذلك يشغله عنها وعن كتابة القصص ، ذلك العمل الذى تراه موهبته الحقيقية والتى تحب أن تشارك فيه ، لأن من دواعى فخرها أن تكون زوجة مؤلف عظيم ، وأن يكون لها ضلع فى إنجاز عمله ...

ولكن زوجها لا يعبأ بما تقول ، ولا يبرح يزور المدارس فى القرى المجاورة ليرى مبلغ تطبيقها آراءه ومبلغ إفادتها من كتابه ، كتب إلى ابنة عمه يقول « لقد بدأت أحب آلاف الأطفال الذين أعنى نفسي بهم كما فعلت منذ أربع عشرة سنة ؛ وكلما دخلت مدرسة ورأيت جماعة من التلاميذ فى قذارتهم ونحافتهم وتهدمهم ، ونظرت إلى أعينهم الصافية وإلى مايبدو أحياناً من سمات ملائكية في معارف وجوههم ، أخذنى الاضطراب والرعب كما لو كنت أطلع على قوم يغرقون»

على أنه لم ينصرف كل الانصراف عن قصته ، فقد كان يكتب صفحات منها بين الحين والحين ، وقد انشغلت عنه زوجته فى تلك السنة إذ وضعت فى أبريل غلاماً سماه أبوه نيقولا ...

وماتت العمة تاتيانا فى يونيو سنة ١٨٧٤ ؛ وحزن تولستوى على فقدها حزناً شديداً ، فقد كان ينزلها من نفسه منزلة عظيمة منذ صغره ؛ ولقد ظلت تحبه حباً شديداً طول حياتها ، وكانت فى سكرة الموت لا تتذكر إلا اسمه فتختلج به شفتاها ويضيء وجهها ...

ومات فى فبراير سنة ١٨٧٥ طفله الصغير نيقولا ؛ وكأنما تتوالى فجائع الموت حين كان يطيل التأمل في الحياة والموت لتزيده حيرة وخوفاً .

وأراد أن يبتعد عن ياسنايا فرحل وأسرته إلى سمارا فى صيف تلك السنة ؛ وهناك أقبل على حرث أرضه وزرعها ، وعاد يعمل بنفسه مع الزراع كأنه أحدهم وبجانبه محمد شاه الذى وكل إليه تولستوى أمر ضياعه ...

ومما ارتاحت له نفسه ما كان يلمسه من التسامح والمودة بين الأورثوذكس من الفلاحين وجيرانهم من المسلمين ؛ ومثله لن يسهو عن هذه المظاهر ، كذلك كان يرى أن من يعيشون هناك من فلاحى الروس يشعرون بقسط كبير من العزة والكرامة ؛ فهل كان مرد ذلك إلى بعدهم عن الرق وعن السلطات وما بثه ذلك فى حياتهم من حرية ؟

وظل أهل سمارا يذكرون ما كان من غوثه لهم أيام محنتهم ، ولقد عظمت منذ ذلك الحين مكانته فى نفوسهم ؛ وإنهم ليذكرونه بشيء آخر فى عامهم هذا ؛ وذلك أنه بمعونة صاحبه محمد شاه قد أعد حلبة للسبق أجرى فيها عدداً من أحسن الجياد ، وازدحم الناس بدعوة منه ليشهدوها ، ومُنح الفائزون الجوائز من ماله ، وكان هذا يوم سرور عظيم لسكان تلك الجهة .

وأراد أن يتفرغ لقصته في سنة ١٨٧٦ ، ولكن مرض أبنائه ومرض زوجته عقب عودتهم من القوقاز كان يكرب نفسه ويزعج خاطره ؛ وليت الأمر

اقتصر على ذلك ، فإنه ليستغرق فى تأمله و إن التبرم بالحياة والتشاؤم من كل شىء ليلح عليه ويحيط به من جميع أقطاره ، وإنه ليبيت فى كثير من الأحيان على حافة الجنون ؛ و إن كتبه إلى صديقه فت لتفيض بما كان يلقاه من عذاب روحى شديد ...

على أنه يسمع عن إقبال الناس على قراءة ماينشر من قصته تباعاً في إحدى المجلات التى اختارها لها ، فيحفزه ذلك إلى الكتابة ؛ ولقد بلغ من إقبال الناس علي قصته أن كثيراً من السيدات من أكبر الأسر فى موسكو كن يرسلن خدمهن إلى مقر الصحيفة ولم يستطعن الصبر حتى يصدر العدد ليسألوا ماذا يكون من أمر كيت وكيت من الأشخاص والحوادث .

ويقبل على قصته ، وتغتبط زوجته بما ترى من حماسته وانشراح صدره ، وتغالب المرض والضعف لتعينه ، ولكنها تنظر فإذا به ينصرف عنها أياماً كانت تراه فيها مكتئب النفس ، فى وجهه ما يشبه اليأس ، وإنه ليطيل الإطراق أحيانا ويتجهم ويقلب كفيه حتى ما تجرؤ أن تسأله ما به ؟

لماذا أعيش ؟ ، وما الغرض من حياتى ؟ وإلى أين أذهب ؟ لا تزال هذه الأسئلة تلح عليه ، ومايزيده تأمله إلا حيرة ولا يأسه إلا إغراء بالعودة إلى التأمل .

وما باله يحن إلى الموسيقى فى هذه السنة ويقبل عليها كما كان يفعل فى صدر شبابه ؟ ما بالها عادت تؤثر فى نفسه وحسه كما كانت تفعل وهو غلام ؟ أهو يلوذ بها من همه ، أم أنه يئس من العقل فهو يريد أن يركن إلى وجدانه وقلبه ؟

ها هوذا يتعرف فى آخر السنة إلى شايكوفسكى أحد مشاهير الموسيقى ؛ ويفتخر الموسيقي بمعرفته تولستوى وهو من أشد المعجبين بقصصه ، وها هوذا شايكوفسكى يسمعه لحناً فينظر فإذا به تدمع عيناه !

وإنه ليذرف الدمع فى موطن آخر ، وذلك على أثر كتاب جاءه من صديقه الشاعر فت ، وفيه يذكر الشاعر أنه وقع على حجر وضع على قبر فى أحد المدافن فقرأ على أحد جانبيه « دفن هنا جسد القروية الفتاة مارى » ، وقرأ على الجانب

الآخر « هذه يا حبيبتى آخر حلية أستطيع أن أقدمها إليك » .

ويرد تولستوى على صاحبه فيقول « هذه ياحبيبتى آخر حلية أستطيع أن أقدمها إليك ... ما أبدع هذا ! لقد جهرت بالعبارة مرتين وكان البكاء يقطع صوتى كل مرة » .

أهدًى يلتمس فى الشعر والموسيقى ؟ أذلك إشراق روحى يغمر نفسه ؟ ولكنه لا يلبث أن يدع الموسيقى والشعر إلى عالم من أشهر علماء الكيمياء فى موسكو ، لعله يجد عنده من العلم ما يهديه ؛ ويرتد تولستوى عنه ساخراً منه فقد وجده يشتغل بما يعده من الخرافة إذ أنه يستحضر الأرواح ويحاول أن يحرك المناضد وما إلى ذلك مما يحتقره المفكر الحائر ...

ويتحدث إلى غير هذا ممن يؤمنون بأن داروين جاء من العلم بما يحل لغز الحياة والموت ، ولكنه ينصرف كذلك عنهم ، وفى نفسه السخط عليهم والاستهزاء بهم ...

ويعود إلى قصته فلا بد له من إكمالها حتى يتفرغ لهذا الذى يشغل باله والذى يكاد يذهب بعقله ؛ ويجدّ فى الكتابة منذ أوائل سنة ١٨٧٧ فلا يأتى أبريل إلا وقد نفض يديه من هذه القصة وهو يومئذ فى التاسعة والأربعين من عمره .

* * *

وشتان بينه اليوم وبينه فى صدر شبابه ؛ وشتان بين ما تنطوى عليه نفسه اليوم وبين ما كان يهجس فى نفسه أمس من أحلام الشباب وأوهامه ..

لم يبق شيء من لاعب الميسر الذى يتلف ماله ولا من الماجن المتأنق الذى كان لا يحفل شيئاً ولا يأبه لشيء ؛ وحل محل هذين رجل إن تكن الارستوقراطية من طبعه ، إلا أنه يعيش عيشة فلاح روسي فى ملبسه وأسلوب حياته ، وعيشة فيلسوف فى تأمله وفى عنايته بالقيم الأخلاقية فيما يكتب ، وعيشة شاعر فى عزوفه عن المدينة وركونه إلى القرية ، وعيشة تقى صالح فى بحثه عن الله وفى حبه لله ....

وأين هذا الكهل الذى تدور بوجهه لحية كثيفة ، والذي يخطر فى ملابسه

القروية الفضفاضة المتواضعة من ذلك الشاب الذى كان حليق الذقن ، أنيق الثوب ، يختار من الألوان أسطعها ومن الحلل أبدعها ؟

ولكن شيئاً من ماضيه لا يزال حياً فيه ؛ ذلك هو إلحاح جسده عليه ، فما زال بدنه القوي عارم الشهوة على الرغم من أنه اليوم زوج كهل ، ورب أسرة كبيرة العدد ، وعلى الرغم من بذله طاقة عظيمة فى العمل العقلى المرهق .. على أنه اليوم يكبح جماح شهوته . فإذا بعد عن بيته وألحت عليه الرغبة دعا إليه من رجاله من يطلب إليه ألا يفارقه حتى يدافع نزوته و يقهر رغبته ...

ولقد ظلت لبدنه حيويته وقوته ، تلك الحيوية التى كانت من أبرز خصائصه ، والتى سوف تظل متوثبة فيه على الرغم مما كان ينتابه أحياناً من المرض ، حتى جاوز الثمانين فلم يطفىء جذوتها إلا الموت ؛ و إلى هذه الحيوية القادرة ترد مثابرته نحو ستين عاماً على الدرس والتفكير والكتابة ؛ لم تقعده الشيخوخة أو تلحق بذهنه الكلال ، وحسبك أنه بدأ يكتب قصته العظيمة « البعث » وهى ثالثة قصصه الكبيرة وهو في السابعة والستين ، وهى التى قال عنها النقدة أنها وحدها إذا نسبت إلى كاتب عد بها من أفذاذ هذا الفن .

و إن من يراه اليوم فى قريته ، ولم يكن يعرف أنه هو ، لم يدر بخلده إلا أنه تلقاء فلاح عادى من الفلاحين ، فما كان فى هيئته شىء ينم عن عبقرية ، أوحتى عن ارتفاع عن مستوى من حوله من الناس ...

كانت ملامح وجهه ملامح روسية بكل ما فى تلك الملامح من خصائص ، فهو بين الزراع واحد منهم ، وهو فى صفوف الجيش ، لولا شارته ، كأحد الجند فى هيئته وسحنته ؛ وليس فى رأسه وهو مثوى عبقرية قادرة خالقة ما يشعر بشىء يستدل به على شخصيته ؛ و إذا كان فى ملامح الرجل وهيئته ما يتصل بسبب أو أكثر من سبب بعقليته كما يزعم الزاعمون ، فما أعظم ما يقوم من دليل فى تولستوى على بطلان ذلك ...

ولقد كان يقول تولستوى كلما جاء ذكر هيئته : « إن وجهى وجه فلاح

عادى » ، وكثيراً ما كانت هيئته فى صغره وفى صدر شبابه أيام التأنق والتظرف مبعث ألم لنفسه وكآبة لوجدانه ...

ولكن السر فى عينيه ، فهاتان العينان اللتان أدهشتا ترجنيف ببريقهما ونظرتهما حين رآه أول مرة هما موضع السحر والرهبة فى شخصيته ؛ فلم يره إنسان قط ونسي نظرته ، أو بالأحرى ومضته . بهذا تحدث كل من رآه وأكثرهم حديثاً عنه فى هذا مكسيم جوركي ؛ هيهات أن ينسى زائره كيف كانت تتشكل عيناه حسبما يكون فى ذهنه ، فتلمعان بما يشبه النار عند الغضب ، وتسخران عند التهكم ، وكأنهما تذوبان إذا تحركت فى قلبه عاطفة ؛ ويكون فيهما مثل صفاء الربيع إذا ارتاح إلى فكرة أو إذا كتب شيئاً أعجبه ، وتضيئان باليقين والثقة إذا نظرتا إلى متحدث تستشفان ميوله وتتعرفان شخصيته ، وكأنهما تخترقان حجب النفس وتقرآن ما يجول فيها ، فما أخطأتا قط فى النفاذ إلى ما تريدان ؛ هذا إلى يقظة فيهما واستيعاب عجيب لكل ما تقعان عليه لا يفوتهما شيء مهما دق أو تشتت أو احتجب ...

هذا هو تولستوى إذ يقرب من الخمسين وإذ يدنو من أزمتـه النفسية الكبرى وإذ يلقى بالفن وراء ظهره بعد أن كتب « أنا كارينينا ... »



أنا كارينينــا

ما كاد ينفض تولستوى يديه من «الحرب والسلام» حتى كان شغله الشاغل البحث عن موضوع جديد ، وذلك على الرغم مما كان يحسه من لغوب ...

واتجه ذهنه كما أسلفنا إلى عهـد بطرس الأكبر ، ولبث نحو عامين يقرأ ويثبت ملاحظاته ، ويستقصي ويتخيل ، وبين يديه أكداس من الأوراق والصور والـكتب .

ولـكنه يحس أن العهد على احتشاده بمـا يطلب الفنان لا يعجبه موضوعاً لما يريد من قصة جديدة ؛ ثم يصعب عليه أن يضحى بما بذل من جهد عنيف فى الإعداد والدراسة فيقنع نفسه بصلاحية عهد بطرس ؛ ويهم بالـكتابة فلا يلبث أن يتبين في قرارة نفسه أنه لا يستشعر تلك النشوة ولا ذلك التحمس اللذين لا بد منهما لمن يريد أن ينهض بعمل عظيم .

ويوقن آخر الأمر بعد أن تم له كل شىء ، وبعد أن بذل ما بذل من جهد أنه لن يحب ذلك الموضوع ، ولذلك فهو لا يستطيع البدء أو فى الواقع لا يحسنه كلما هم بالـكتابة ، أو كلما كتب فاتحة لقصته ...

لم يكن يؤمن تولستوى بعظمة بطرس ، وكان يرىَ أن الباعث على ما نسب إليه من إصلاح لم يكن سوى أطماعه الشخصية ، وهو بمـا أدخل من مظاهر الحضارة الأوروبية في روسيا قد باعد بينها وبين تقاليدها وطباعها الموروثة فـكان عمله طلاء لا خير فيه ؛ هذا إلى أنه كان متغطرساً شديد القسوة ، لم يتورع عن قتل ابنه ، فضلا عن عشرات غيره من الناس ...

وماذا يكتب ، وهو لا يستطيع أن يدع الـكتابة ؟ ذلك ما حيره وسهده ،

ولكن حيرته لم يقدر لها أن تطول ، فقد وثب ذهنه إلى حادث وقع على مقربة من ياسنايا منذ عام أى سنة ١٨٧٢ ، ولم يتجه إليه فى حينه لأنه كان مشغولا بعهد بطرس الأكبر ...

وخلاصة ذلك الحادث أن أحد معارفه الأقربين قد فترت صلته بعشيقته ، والتهبت عشيقته غيرة من توده لمربية أولاده الفرنسية ، ولما أطلعته على غيرتها عنفها ولم يحفل بكاءها ، فانطوت نفسها على أمر ... وغابت عنه ثلاثة أيام لم يعلم فيها أين ذهبت ، ثم كتبت رقعة قالت له فيها « أنت قاتلى ، وإذا كان القتلة على مثالك فهنيئاً لك ... تستطيع أن ترى جثتى إذا شئت فوق قضيب سكة الحديد عند ياسنكى » ، وألقت الفتاة بنفسها تحت عجلات القطار لحطمها تحطيما ، وشهد تولستوى الجثة مشوهة في صورة نكراء عند التحقيق .

وثب ذهنه إلى ذلك الحادث ، وأخذ يفكر فى مدى صلاحيته موضوعاً لقصته ، وكان منذ عامين قد فكر فى قصة يكون موضوعها « امرأة متزوجة فقدت توازنها » ، وضم هذا إلى ذاك ، وارتاحت نفسه إلى قصة لا تكون من التاريخ وإنما تكون من حياة العصر القائم ، تصور حال أسرة وتدور فيها المأساة حول امرأة ...

وأحس بذلك السرور الذى يصحب الراحة من عناء الحيرة ، واتفق أن دخل ذات ليلة إحدى حجرات بيته ، وكان ابنه سيرچى يقرأ كتاباً فيه بعض قصص بوشكين ، فتناوله وفتحه حيثما اتفق فوقع بصره على فاتحة قصة جاءت كما يأتى «أخذ الضيوف يفدون على المنزل الريفى » ، فأعجب بهذه الفاتحة وأشرقت أسارير وجهه ، وهو الذى كان يقول فى صدر شبابه إن فن بوشكين قد أصبح قديماً ليس هذا وقته ، وقال لزوجته « ما أجمل هذا وما أبسطه ! ... هكذا ينبغى أن يكون افتتاح القصة » ... فإن القارىء يجد نفسه تلقاء الحادث مباشرة ، ولقد كان أى كاتب غير بوشكين يبدأ بوصف الضيوف أو الحجرات ، ولكن بوشكين يسير تواً إلى هدفه ... إن بوشكين أبى وهو أستاذي » ..

وأومضت فى ذهنه فى لمحة ، فكرة القصة فى جملتها ، وكتب فافتتحها مبتدأ بقوله « تتشابه الأسر السعيدة فى سعادتها ، وتشقى كل أسرة شقية على صورة تختص بها ؛ لقد قلب كل شيء فى بيت أو بلنسكى رأساً على عقب ... » .

* * *

إذا عدت « الحرب والسلام » إليادة تولستوى . فإن « أنا كارينينا » أوديسته . فقد كتب هذه القصة وقد بلغ غاية نضجه الفكرى ، وذاق من حلو الحياة ومرها ما أمده بكنز من التجارب لاينفد ، وهدأت حماسة شبابه ، وصارت نظرته إلى الأمور نظرة الفيلسوف المتأمل مضافة إلى نظرة الفنان المبتدع ؛ هذا إلى ما استقر فى ذهنه من فلسفة شوبنهور وكانت وغيرهما ، ومن خطرات تأمله هو ، وما كاد يزهق روحه من حيرة ، وما عاد منه يائساً كل مرة من التفكر فى الموت والحياة ...

أما عن فنه فما برحت أصالته هى الغالبة ، وإن كان أثر هوميروس فى بساطته وصدقه غير خاف هنا كما لم يخف في القصة السالفة ، وقد قرأ تولستوى الأغريقية ، وما ذلك الأثر فى الواقع إلا لأن فن هوميروس يتصل بفن تولستوى بأقوى سبب ، فأبرز ما فيهما الصدق والبعد عن الصخب والتكلف ...

* * *

ليست « أنا كارينينا » فى الواقع قصة واحدة وإنما هى ثلاث قصص ، أدخلها تولستوى بعضها في بعض على صورة لا يستطيعها إلا من كان له مثل عبقريته الفنية ، والقصص الثلاث صور ثلاث للزواج مختلفات .

أما الأولى وهى القصة الرئيسية التى تمثل فيها مأساة من أعنف المآسي ، فقصة زوجة تنصرف عن زوجها فتحب شخصاً غيره ، وينتهى الأمر بأن تلقي بنفسها تحت عجلات قطار .

وأما الثانية ففيها الرجل هو الذى ينصرف عن زوجته إلي غيرها من النساء علي الرغم من إخلاص زوجته له ولبيتها ، وقيامها خير قيام على خدمته والعناية

بأبنائهما ... وذلك لأنه يحس أنها فقدت كثيراً من جمالها إذ أكثرت من الأطفال وشغلت بالعناية بهم .

وأما الثالثة ففيها الحب متبادل بين الزوجين ، وقد زادهما ارتباطاً ومحبة ما أنجبا من أبناء ...

وتمضي في قراءة الكتاب فإذا كل قصة تتداخل في أختيها على نحو عجيب حقاً ، فقد أراد تولستوى أن يزيد القصة الأولى وضوحاً ويزيد أثرها فى النفس عمقاً بان يدع القارئ يقارن دون أن يشعر بينها و بين أختيها ؛ بينما لا يفتأ يحس أن القصة الأولى هى وحدها قوام الكتاب لفرط تأثره بها وإعجابه بشخصية أنا واطراد عطفه عليها وتشوقه أبداً لمعرفة ماذا يكون من أمرها ...

تزوجت أنا منذ تسع سنوات أحد كبار الموظفين وهو كهل يسمى أليكسى كارينين عظيم الثراء والنفوذ ، وأنجبت له ولداً سماه سيرجى ، ولم تجد أنا وهى الغادة الساحرة ، فى الزواج أرب مشاعرها من المتعة وحاجة قلبها من الحب ، لأن زوجها كان دائماً فى شغل عنها بأطماع منصبه وما يحيط به من منافسة ودسائس ؛ وطالما أحست الفراغ والرغبة ، وطالما ضاقت بها الدنيا لولا ولدها الذى ترعاه وتتعلق به تعلقاً شديداً .

وأول ما نعلمه فى القصة عن أنا : أنها قادمة إلى موسكو تلبية لدعوة من أخيها ستيفا او بلنسكى لتصلح بينه و بين زوجته دُلى فإن زوجته ثائرة تكاد تموت غيظاً مذعلمت أنه يحب المربية الفرنسية ، وهذا هوموضوع القصة الثانية .

ويشعرنا المؤلف شيئاً فشيئاً بسحر أنا وجمال نفسها ، وروعة شخصيتها ؛ فهو يصفها لنا قادمة فى القطار من بطرسبرج ، حيث يجمعها السفر بسيدة هى أم لضابط شاب يدعى فرونسكي ؛ وتثنى الأم علي ابنها إذ تتحدث عنه ما وسعها الثناء ، وتنصت أنا وقد وقع في نفسها اليتيمة ماسمعت عن ذلك الضابط من ثناء .

ونعلم منصفات أنا حسن أدبها وعذوبة ابتسامتها ، ورقة حاشيتها ، ودماثتها وظرفها ؛ ثم يعجبنا من جمالها عيناها الشهباوان الطويلتا الأهداب ، وشفتاها

الرفافتان كالزهر ؛ وقوامها الرشيق الطويل وبدنها الذى يجمع بين القوة والنعومة وتلك الحياة التى تشيع فى هيكلها كله ، وتلك الحيوية التى تحبسها محتشمة والتى تريد أن تجرف الحواجز ، ثم هذه الموسيقى وهذا الإشراق ، وهذا التفتح ، وهذا التوافق العجيب بين أعضائها ، ثم هذا السحر الذى يتألف من ذلك كله ...

ومضت إلى بيت أخيها ، وقد وقعت عيناها في المحطة على ڤرونسكى فوقع من نفسها موقعاً جميلا ، ورأت منه أريحية كريمة فى حادث أودى بحياة أحد العمال إذ دهمه القطار فقتله .

وأصلحت فى كثير من اللباقة والحذر والكياسة بين أخيها وزوجته على شدة ما كان فى قلب الزوجة من ثورة وحزن ، وهذا الصلح مما يزيد القارئ حباً لأنا وشخصيتها الساحرة اللطيفة .

وبعد أيام نرى أنا فى صالة رقص ، رشيقة يستوقف الألحاظ وجهها الجميل وشعرها الفاحم ، الذى تبدو حلقات صغيرة منه فوق جبينها ومن وراء عنقها ، وكتفاها اللتان تبدوان كأنهما صنعة مثّال ، وذراعاها الرشيقتان البضتان ؛ وهى ترتدى ثوباً من القطيفة السوداء ، ويدور بعنقها عقد من اللؤلؤ الأبيض ، وعلى صدرها باقة صغيرة من الزهر ، وفى شعرها باقة أخرى ...

وترى ڤرونسكي في صالة الرقص ويراها ، وتحس أنه سحرها ويحس أنها سحرته ؛ وكانت قد علمت أن كتى مشغوفة به وهى أخت دلى ، وقد صحبتها إلى المرقص لتعينها ، ولكنها سرعان ما نسيتها وسرعان ما نسيها ڤرونسكى ...

ونظرت كتى « وبدا عليها أنها ترى فى أنا أمارات ذلك الانفعال الشديد الذى عرفت مثله هى نفسها بالتجربة وهو انفعال النجاح ؛ وظهرت أنا كأنما أسكرها هـذا الظفر ؛ وفطنت كتي إلى أي شيء تعزو تلك النظرة الوضيئة المنتشية ، وتلك الابتسامة الهانئة الظافرة ، وتينك الشفتين تفتران نصف افترارهما وتلك الحركات يشيع فيها الانسجام والرشاقة » .

ولما سافرت أنا إلى بطرسبرج كان ڤرونسكى مسافراً معهـا فى نفس

الوقت ، والتقيا فى القطار ، ثم كثر بينهما اللقاء بعد ذلك فى المجتمعات ...

وتفكر أنا فى زوجها فيتمثل لها كل ما تكرهه منه ؛ يتمثل لها برود طبعه ، وكهولته الكابية وخلو قلبه من العاطفة ، بيد أنها لا تنكر أن له ضميراً ، وأن شيئاً من الخير يتصل بنفسه ، ولكنه ليس برجل وجدان فهو يقيس كل شىء بما حفظ وعلم ، ويفكر تفكير الموظف الذى يتمسك بالقواعد ، ويهتم بالشكل دون الجوهر ...

وكان حرياً أن يفطن زوجها إلى ما طرأ عليها من تغير ، ولكنه لم يفطن إلى شىء ، ولم ينتبه منها إلى شىء ؛ ولم يعد عدم انتباهه يؤلمها ، بل إنها اليوم لا تكترث له فان بالها كله إلى ڤرونسكى

ويفطن زوجها إلى اهتمامها بڤرونسكى أكثر من مرة ؛ ويقابلها بالازدراء ، ويزداد بروده ، ولكن هذا البرود لا يؤلمها ؛ ثم يكون بين أنا وڤرونسكي ما يكون بين الزوجة الخائنة وعشيقها ؛ وهى فى حلمها لا تبالى شيئاً ولا تتأثم من شيء ، فإذا ثابت إلى نفسها حيناً بعد حين حاولت أن تخدع نفسها بأنها على صواب . فما كانت معاملة زوجها إياها إلا مفضية إلى هذه الحال ، وهى إنما تنتقم لنفسها الآن وإن لم تبيت هذا الانتقام .

ثم إنها تستنكف أن تعيش وزوجها بعد ذلك تحت سقف واحد ، ولا تطيق أن تأكل من ماله ؛ فتصارحه فى ثورة غضب أنها ليست زوجته بعد اليوم ، وأنها تحب ڤرونسكي وأنها له ، وتعظم حفيظة زوجها أول الأمر ، ويبدو غليظاً فظاً كأنما يشمت من زلتها ويعاقبها بعدم مبالاته . ثم يغلب عليه رثاؤه لحالها فإن له ضميراً كما سبق القول ، ويتفكر في الطلاق ، ولكنه يعود فيخشي الفضيحة ؛ ويطول به التفكير وتتعاقب في ذهنه الاحتمالات والافتراضات ، ثم ينتهى به الحال إلى أن يهجر زوجته ويدعها تلق عشيقها أينما شاءت وكيفما شاءت وكأنه لا يعلم من أمرها شيئاً ...

ويعود إلى بيته مرة فيجد بين يديها طفلا ولدته لڤرونسكي وتبدو كأنما تعالج

سكرات الموت من أثر الحمى فلا يكون منه إلا الرحمة والمغفرة ! ويقف إلى جانب سريرها يسمعها كلمات صفحه وعطفه ، وكأنما ينقلب بما يبدى من نبل شخصا آخر ، ويحظى من رضاء قلبها فى هذه اللحظة بقدر ما يفقد عشيقها .

ويدخل ڤرونسكى ، فيقف إلى جانب كارينين وقد دفن وجهه فى كفيه ، وتصيح به أنا فى صوت تقطعه الحمى : « أكشف عن وجهك وانظر إلى هذا الرجل ... إنه من القديسين ... ثم تكرر قولها فى غضب أكشف عن وجهك ... أكشف عنه ... أليكسي ، أكشف لى عن وجهه فإنى أريد أن أراه » ، ويجذب أليكسى يدى خصمه فيظهر وجهه وقد غير الخجل والألم معارفه . وتصيح أنا بزوجها « أعطه يدك ... أعف عنه » ، ويمد أليكسي يده وإنه ليجهش ولا يملك دمعه . وتقول أنا « أحمد الله ... أحمد الله ... كل شيء على أهبة الآن » ... ثم تنظر إلى ورق الحائط وتقول في هذيان « ما أقبح هاتيك الأزهار . ليس بينها وبين البنفسج أقل شبه ، يا إلهي ، يا إلهى ... متى ينتهى هذا العذاب ؟ إلىّ بالمورفين أيها الطبيب .. أريد المورفين .. رباه .. رباه ! » .

ويخرج ڤرونسكى فيطلق على صدره رصاصة تلقيـه على ظهره ، والدم يتدفق منه . .

ولكن القصة لا تنتهى عند هذا ، فقد شفيت أنا وشفى ڤرونسكي . ثم توهجت جمرات حبهما بعد خمود ، وعادت أنا تنفر من ذلك الذى رأته قديسا وهى على حافة الموت . . وعاد القديس إلى بروده وإلى جموده .

ويسافر العشيقان إلى إيطاليا فيقيمان زمنا ثم يعودان إلى روسيا ، وتنظر أنا فى نفسها وتبدأ فى التأثم ، وتتغشاها الخواطر السود ، وأين هى من السعادة إذ تحيا مثل هذه الحياة ؟ .. كلا ... لقد بذلت نفسها رخيصة ، وإنها لتشمئز من نفسها اليوم . وإنها لمعذبة في نهارها مؤرقة فى ليلها ، وإنها لتأكل الأفيون كى تنام ! ...

وينال ذلك كله من بدنها وأعصابها فتظن بصاحبها الظنون . فقد قضى

منها وطره فيما تعتقد ، وهى الآن بين يديه سلعة رخيصة ؛ وتعذبه بغيرتها واضطرابها و بكائها ؛ و يرتاع ڤرونسكي ؛ ولـكنه يصبر صبراً جميلا ، وما يزداد لها إلا وفاء ومحبة ؛ و إنها لفاتنة برغم ذلك كله ، حلوة تشتهى ؛ و إن لها لمكانتها في نفسه على الرغم مما تظنه بنفسها من ظنون .

و يزداد سأم أنا ، ولا تجد لحياتها طعما ، و يعذبها أشد العذاب ما يقول الناس عنها و بخاصة النسوة من صاحباتها اللائى يتنـكرن لها ؛ وكاد يقتلها شعورها أنها طريدة ، لا يمكن أن يكون مكانها فى المجتمع إلا مكان الساقطات ؛ و يأتى القدر بحادث تافه فإذا فيه نهاية كل شيء ؛ وذلك أن ڤرونسكى قد سافر ذات يوم بعد حوار عنيف بينه و بينها إلى قريته لتزور أمه ؛ وتبرق إليه أنا ليعود إليها من فوره ، ولـكنه يرد عليها بقوله إنه لا يستطيع العودة قبل الساعة العاشرة بالعشى ، فتسافر إليه ، وتسمع من أنبائه فى المحطة وقلبها ممتلىء بالظنون ، ما يوهمها أنه لن يعود إليها أبداً ، و يطالعها ما ينتظرها من شقاء و بؤس ، وتلهب الغيرة قلبها ، و يجن جنونها ، وتنظر فإذا بقطار بضاعة يدخل المحطة فتقفز المسكينة من فوق الطوار ، و يمر من فوقها القطار فإذا هى كومة من اللحم الممزق ، لم يبق منها دون أن يتحطم إلا رأسها الجميل ...

هذه هى الحـكاية ولـكنها ليست القصة ؛ فالقصة أعظم وأروع من أن يحيط بها مثل هذا الإيجاز .



فى هذه القصة كما فى سالفتها عدد كبير من الشخصيات ؛ خلقها ذلك الفنان العبقرى كما فعل فى « الحرب والسلام » علي مثال من عرف من الناس .

ومن أهم تلك الشخصيات من الرجال ستيڤا وهو أول من يظهر فى القصة ، ثم ليڤن وڤرونسكي وأليـكسى كارينين ... ومن النساء دلى وكتى وأنا ...

ويظهر ستيڤا أو البرنس أو بلنسكى فى القصة رجلا ، بادى الوجاهة ، هادىء الطبع ، كيسا ، يجارى الناس ويعمل على كسب الأصدقاء ، ماهرا في اجتذاب

القلوب ، سريعاً إلى معرفة ذوى النفوذ ؛ وهو لا يبخل بمعروفه على النـاس ؛ يحب الاستمتاع بالحياة و يبذل أقصي جهده ليتجنب متاعبها ؛ ثم إنه يحب النساء فلا يكاد يدير ظهره لواحدة قضى منها وطره ، حتى يسعى وراء غيرها ؛ على أنه عطوف برغم ذلك على زوجته ، ولشد ما آلمه وأحزنه حزنها إذ علمت بما كان بينه و بين المربية الفرنسية ... ولـكنه وهو رجل الدنيا لم يعدم الوسيلة لمصالحتها وقد تم له ما أراد على يد أخته أنا ؛ ولم يتب بعد الصلح و إنما ظل يخفى عن زوجته علاقاته بالنساء . وهذا لون من حياة النبلاء والمتنبلين فى موسكو و بطرسبرج فى العصر الذى كتب فيه القصة ...

أما ليفن فهو تولستوى نفسه ، ولعله أقرب من خلق من الشخصيات فى كتبه جميعاً شبهاً به ؛ وفيه حياة تولستوى وحيرته وآلامه منذ بدء يخطب صوفيا بيرز إلى الوقت الذى أتم فيه أنا كارينينا ...

لم يكن ليفن رجل الدنيا ، إنما كان من العلية بمولده ونسبه وماله ؛ كان رجلا مفـكراً ، كثير القراءة ، ذا ضمير مستيقظ ؛ يعيش فى القرية مهتما بالزراعة والتعليم وغيرها من الشؤون المحلية ، وهو يحب الخير للناس ويتمنى أن يراهم يسيرون قدماً نحو الصلاح والنهوض .

وأحب كتى ، ولـكنها كانت تميل إلى فرونسكي ؛ وكان ليفن خجولا شديد الإحساس ، يزعجه أقل شيء يشتم فيه الإهانة لشخصه ، و يحس نفسه غريبا في صالات موسكو وفى ضوضائها ؛ وكان يرى من كتى ما يشبه الإعراض عنه فتراجع كاسف البال محنقاً ...

ويميل فرونسكى إلى أنا ، وتحزن كتى ويخترم الهم جسدها ، وتسافر إلى خارج روسيا فتسترد عافيتها . ثم تتبين أنها تحب ليفن فتجيبه إذ يطلب يدها وتصير له زوجة ...

ولا يفتأ ليفن يعنى نفسه بالتأمل فى الحياة والموت ، حتى يحيط به اليأس من كل مكان ، و يريه موت أخيه أن الحياة عبث وغرور ما دام كل شيء مصيره

إلى القبر ؛ و يقرأ ليفن الـكتب و يدرس العلوم الطبيعية ولايزال فى حيرته و يأسه حتى يتحدث إلى فلاح شيخ من الموقنين على مثال كارتايف في «الحرب والسلام» فإذا بفـكرة تضىء فى ذهنه وذلك أن العقل ليس سبيله إلى ما يطلب و إنما سبيل ذلك القلب ؛ و إذا به يرى للحياة معنى هو أن يعيش المرء من أجل غرض أسمى من مطالب الجسد الفانى ، ألا وهو ما تتطلبه الروح الخالدة ...

وأما ڤرونسكى فهو ضابط شاب من النبلاء تخطى الثلاثين ، جميل الطلعة ، عظيم الثراء ، ذكي ، واسع الاطلاع : أمامه مستقبل نجم ، وهو قوى الإرادة ، لا يعبأ بما يقول الناس عنه ، هادىء الطبع ، ولـكن فيه شيئاً من الـكبرياء ؛ وقد رأينا ما كان من وفائه لعشيقته على الرغم ممـا كانت تعذبه به من غيرتها واضطرابها ، وعلى الرغم من تغيرها تغيراً كان كفيلا بأن يصرفه عنها ... ولقد كان حبه سبباً فى تأخره فى مضمار الرقي فتخطاه غيره ممن هم دونه ، وأظلم أمامه المستقبل المشرق ...

وأما كارينين فيمثل فى القصة الرجل الأنانى الذى لا يعنيه من الحياة إلا منصبه ونفوذه ، والذى يحرص على سمعته ، حتى ليقبل أى شيء في سبيل أن تبقى هذه السمعة بعيدة عما يشوبها ؛ وهو مثال الرجل العملى الذى لا يعرف الخيال ، والذى يجعل مرد كل شيء إلى فـكره ، وليس لعاطفته أى سلطان عليه ... وهو الزوج الفاشل الذى تشغله الدنيا عن بيته وعن زوجته : و إلى طبعه ومسلـكه يرد ما أصابه في شرفه ؛ و إن كان قد راض نفسه مخافة العار على الصبر فلم يفعل ما كان يفعله غيره فى مثل حاله ...

وأما من ذكرنا من شخصيات القصة من النساء ، فـكانت دلى مثال الزوجة العاملة فى بيتها ، القائمة على شؤون أبنائها ؛ ولقد أدى ذلك إلى كبرها قبل الأوان ، و إنهاك بدنها ، مما كان سبباً لانصراف زوجها عنها ؛ و إنها لتضيق أحياناً بحالها حتى لتشك فى الفضيلة وتـكاد ترى الصواب فى مسلك أولئك اللائى يمتعن أنفسهن بطيبات الحياة و يغتنمون زينتها فى صالات الرقص ، لايحملن هما ولايعنين

أنفسهن بالبيت وواجباته ، ولـكنها لا تلبث أن تثوب إلى نفسها فترضي عن استقامتها وشرفها وتروض على الصبر نفسها و إنهـا لصبور عاقلة مخلصة أعظم الإخلاص .

وأما أختها كتي فهى قريبة الشبه بصوفيا بيرز زوجة تولستوى ، ولقـد أبدع تولستوى أيما إبداع فى تصويرها وتصوير ليفن ، فهو إنمـا يصور زوجته ويصور نفسه ؛ وكان من أبرز خصائصه تفطنه إلى نفسه لا يغيب منها عن ذهنه شيء .

وكانت خطبة ليفن لـكتى في القصة هى بعينها خطبة تولستوي لصوفيا ؛ فقد كتب ليفن أول الحروف وقرأت كتي ، وقد تردد ليفن قبل أن يطلب يدها وقد نسي القميص صباح يوم الزفاف كما نسى تولستوى .

على أن أهم نساء القصة هى أنا ، وقد ذكرنا شيئا من صفاتها فى تلخيص القصة ، ونضيف إلى ذلك أنها ذات شخصية عجيبة تحمل القارىء على العطف عليها حتى بعد خطيئتها ، بل لقد تؤدى به إلى احترامها ، فما زال لها حتي آخر حياتها ، ذلك السحر الذى يحببها إلى النفوس ، وما زالت هي أنا على الرغم من كل ما لحقها من شقاء الحياة ، وحسبنا من مواقفها صدقها إذ تطلع زوجها على حبها واستنكافها أن تفعل مافعلت من وراء ظهره ؛ ثم إباؤها أن تأكل من يده بعد علمه ؛ ثم عرفانها الجميل صفحه عنها حين أوشكت ذات مرة على الموت ، وهكذا نجد امرأة زلت ومع ذلك فلها في زلتها من مواقف النبل والسمو ما تظل به قوية على الرغم من ضعفها ، عزيزة على الرغم من ذلها ، وما لا يسعنا معه إلا الرثاء لها والصفح عن زلتها كما صفح زوجها ثم التماس أوجه المعاذير لها ... وهذا هو إعجاز الفن وروعته فى يد تولستوى ، وهذه هى الأستاذية الحق .

* * *

كانت « أنا كارنينا » كأختها « الحرب والسلام » معرضا لصوره كما كانت مجالا لآرائه ، وهى قصة الحياة الاجتماعية في روسيا كما تتبين فيما غرض

من حياة الأسر خاصة وفى حياة المجتمع عامة ؛ وقد صور تولستوى مظاهر هذه الحياة الاجتماعية فى صالونات الأرستوقراط وفي أكواخ الفقراء وعرض ذلك كله على طريقته لا يفوت عينه شيء ولا يعزب عن ذهنه شيء ...

وقد أجرى آراءه على ألسنة أشخاصه من رجال ونساء كما فعل فى « الحرب والسلام » وأوضح ما كان ذلك فيما جرى على لسان ليفن ؛ وصور طباع هؤلاء الأشخاص ومسلكهم فى الحياة وفق ما يعتنقون من مبادىء .

وفي هذه القصة فلسفة تولستوى في النفس البشرية وماتنطوى عليه من خير وشر ؛ وفى الزواج والحياة الزوجية ، وما يفضي إليه الزواج الذى لا تجاوب فيه بين قلبي الزوجين ؛ وفى الأسرة وأسباب سعادتها أو شقائها ، وفى الحياة الحديثة ومبلغ ما فيها من المدنية الحق ؛ وفى معيشة الفقراء فى المدن والقرى ومبلغ ما فى نفوسهم من معان طيبة أو خبيثة ؛ وفى حياة الفلاحين وصلتها بحياة المترفين من السادة ؛ وفي معني الحياة بوجه عام والغاية منها ، وهل تستحق أن يعيشها المرء ؟ إلى غير ذلك من النظرات والآراء .

على أن أبرز ما يبقى فى النفس بعد قراءة القصة هو ما جاء فيها عما آلت إليه حياة أنا ، تلك الزوجة الجميلة المهذبة التى لم تجد فى زوجها ما يرضى قلبها . ثم فزعها من نفسها بعد زلتها وفرارها من المجتمع ، وقد كانت قبل من فضلياته ، ثم نهايتها على تلك الصورة ، مما جعل هذه القصة من أقوى المآسي فيما كتب عن المرأة فى أدب الدنيا كله ، إن لم تكن أقوى مأساة كما يذهب إلي ذلك فريق من أئمة النقد ...

وتشيع فى القصة ، إذا استثنينا حب ليفن وكتى ، نغمات حزينة وجو فيه من الرهبة والخوف أكثر مما فيه من ضوضاء الحياة وبهجتها ، حتى ما كان بين فرونسكى وأنا من لقاءات فهى على الرغم من الحب الشديد لم تخل مما يكون فى اللقاء الآثم من شعور خفى يثقل النفس ، ومما يعقب الكأس الحلوة كل مرة

بعد ذهاب النشوة من مرارة التأثم والرهبة من المصير ؛ وحتى ليفن الذى سعد بحبه قد شقى بتأملاته وحيرته فى الحياة ...

وهذا الجو الذى يشبه الخريف والذى ينذر أبداً بالشتاء فى القصة ، إنما يفسره ما أشرنا إليه مما كان يحيط بتولستوى أثناء كتابتها من متاعب زوجته ، وما كان يزعج خاطره ويكرب نفسه من آلام حيرته ...

* * *

بلغ إقبال الناس على قراءة هذه القصة الطويلة التى تزيد على ثمانمائة صفحة كبيرة ، أثناء نشرها فى إحدى الصحف حداً لم يعرف له مثيل حتى فى سابقتها ؛ ولقد ذكرنا كيف كانت السيدات والأوانس يرسلن خدمهن إلى الصحيفة ليستنبؤا ماذا يكون فى الفصل القادم ، وبخاصة عما كان بين أنا وعشيقها من صلات ...

وتعد « أنا كارينينا » من أروع قصص الحب وأقواها فى عالم القصة كله ؛ ولقد كانت لها خارج روسيا من المكانة والشهرة ما يفوق مكانة « الحرب والسلام » ، وقد ذاعت فى فرنسا وألمانيا وإنجلترة ذيوعاً عظيما ؛ ولا عجب فهى فضلا عن أنها إحدى آيتى تولستوى وإحدى الآيات الفنيه الكبرى في أدب الدنيا ، تمتاز باحتوائها إلى جانب ألوانها وحوادثها المحلية على معان عالمية تجيش بها كل نفس ، ويهتز لها كل قلب ، فى أى بقعة متمدنة من الأرض ، وهذه خاصة من خصائص فن تولستوى ...

والقصة كلها قطعة من الجمال الفنى ، بيد أنها تنطوى على مواقف وصور بلغ فيها المؤلف من الروعة والإعجاز ما يتخاذل دونه أساطين هذا الفن وجبابرته وما تعنو فيه جباههم لهذا العبقرى الجبار .

ذلك أنها فضلا عما أشرنا إليه فيها من فلسفة تحرك النفوس من أعماقها ، تحتوى على مواقف خوالد حيث يسحر القارىء عن نفسه اكتمال الفن فينسي أنه يتلو قصة ، ويشعر أنه فى صميم الحياة ، ومن أمثلة ذلك ثورة دلى وشقاؤها وحزنها

واضطراب بيتها ، ونشوة الحب الأولى بين ڤرونسكى وأنا ثم خلوتهما مرات بعد ذلك واستنفادهما كل ما فى طاقتيهما من قوة وعاطفة ، وارتشافهما الـكأس حتى ثمالتها ، وما كان يعقب ذلك من اشمئزاز ومخاوف ؛ وموقف أنا من زوجها إذ تطلعه على الأمر حيث تبلغ المأساة غايتها ، وخطبة ليڤن لـكتى وما فيها من جمال وهى بعينها خطبة تولستوى لصوفيا كما وصفناها فى موضعها ؛ وهناءة ليڤن بزواجه وحيرته فى تأملاته ويأسه حين مات أخوه ، وكيف مات ذلك الأخ ؛ ثم خاتمة أنا تحت عجلات قطار البضاعة ؛ إلى غيرها من روائع المواقف مما لايستوعبه هذا الحصر ... وفيها إلى جانب ذلك صور رائعة للصالونات الأرستوقراطية فى البيوت وصالات الرقص وحفلات الفروسية للضباط ، ومسارح التمثيل ومكاتب رجال الدولة ؛ وحياة الفلاحين ومشاهد عملهم فى الزراعة ، ومعيشة الأرستوقراط هناك مما يخيل معه للمرء أنه يعيش فى روسيا ؛ وكأنه لدقة الوصف ووضوح الصور يألف تلك الحياة ألفته حياته فى وطنه ...

وخير ما توصف به « أنا كارينينا » فى جملة قول ماتيو أرنولد « إنه ينبغى أن نأخذ (أنا كارينينا) لا على أنها قطعة من الفن ولـكن على أنها قطعة من الحياة » .

ومن عجب الأمور أن فريقاً من كبار الأدباء والنقدة فى روسيا لم يتلقوها أول الأمر بما هى أهل له من حفاوة ، ومن هؤلاء دستويفسكى وترجنيف .

ولا يسع المرء حيال ما ظفرت به القصة من إعجاب القراء ، وما نالته من ثناء على ألسنة هؤلاء النقاد أنفسهم فيما بعد ، إلا أن يرد فتورهم أول الأمر إلى ما كان فى نفوسهم مما يشبه أن يكون حقداً بعثه الخوف من هذا الذى يلقى على أسمائهم الخسوف ...

قال دستويفسكى « لقد وجدت أنا كارينينا قصة كابية . . . وقد زارنى نـكراسوف وقال إن فى قصة ليو تولستوى الأخيرة تـكرار لمـا سبق أن قرأته فى كتبه الأخيرة ، غير أن تلك الـكتب كانت خيراً منها » .

وحدث أن تلى فى جمعية محب الأدب الروسي ، ذلك الفصل الذي جاء فيه سفر أنا بالقطار ، فنهض رئيس الجمعية فى تحمس وقال : « لسنا نريد قصصاً مظلمة كئيبة مهما يكن ما فيها من براعة ، وإنما نريد قصصاً جميلة ممتعة مثل قصص الكونت تولستوى » .

وعلق دستويفسكى على ذلك فى كتاب إلى زوجته بقوله : « لم تذكر كلمة حول قصتى ... ولم يتحدثوا كثيراً عن قصة تولستوى كذلك . بيد أن ما قالوه عنها كان يدل على تحمس مضحك » .

أما ترجنيف فقد قال : « إن لتولستوى مقدرة ملحوظة ولكنه تنكب الطريق السوى في أنا كارينينا » .

هذا ما قابل به دستويفسكى وترجنيف القصة أول الأمر، ولكن دستويفسكي نفسه ذكر عنها بعد زمن غير طويل قوله « هذه القصة لم يسبق لها مثيل ، ولا يقارن بها شيء وأين فى كتابنا من يقارن بتولستوى ؟ وفى أوربا أين ذلك الذى كتب شيئاً يمكن أن يقرب منها ؟ » .

وقال عنها تشيكوف « إن الشيء الوحيد الذى كنت أراه عزاء لنفسي عما لاقيت من محن هو أن أكون صاحب أنا كارينينا » .



تولستوى الفنان

ما كاد يفرغ تولستوي من «أنا كارينينا» حتى انصرف عن الفن انصرافا ظن الناس أنه قطيعة ليس بعدها صلة ، وظل تسع سنوات لا هم له إلا ما كان يشغله عن نفسه قبل من لغز الحياة والموت ، فلندعه الآن فى حيرته ، لننظر فى خصائص فنه فى هـذه المرحلة الأولى من حياته الفنية ، التى تنتهي بقصة « أنا كارينينا » .

ويحب بادىء الرأى أن نشير إلى أن تولستوى فى هذه المرحلة الأولى كان من القائلين بمبدأ الفن فى ذاته أو الفن للفن كما يقولون ؛ فلما عاد ثانية إلى الفن بعد اشتغاله بالدين ، أخذ بالرأى القائل : إن الفن وسيلة إلى غاية نبيلة هي السمو بالحياة على أساس من الفضيلة ...

على أن الرأى الثانى أعنى وظيفة الفن فى السمو بالنفس قد أخذ يظهر بعض الشيء فى « أنا كارينينا » ولذلك عاقب تولستوى أنا بتلك الخاتمة التى انتهت إليها حياتها و إن كانت قد سيقت على رغمها إلى ما استغرقت فيه من ضلالة ، فقد كان ذلك نتيجة لزواجها من شخص ليس بينها و بينه تجاوب ؛ وعاقب ڤرونسكى بما آل إليه مستقبله من ضياع ... ثم إن ذلك المعنى الذى اهتدى إليه ليفن بعد طول حيرته ، والذى ألهمه إياه حديثه مع فلاح مؤمن ، مما يتصل بهذا الغرض الذى يعمل له الفن . فغاية الحياة عند ليفن أن يكون المرء من الأخيار وأن يبتغي وجه الله ، وأن يعمل للروح الخالدة لا للجسد الفانى .

ولما كان فى المرحلة الأولى يأخذ بمبدأ الفن فى ذاته فقد كان أساس فنه الصدق ؛ ولقـد بالغ تولستوى فى الحرص على هذا الصدق الذى يرد إليه كل مميزات فنه ، والذى به أصبح فى أصحاب القصص الواقعى زعيمهم حتى اليوم غير مدافع ...

وكان أول مابهر الناس من تولستوى ولفتهم إلى فنه هو ما أحسوا من صدق الوصف فى كتابه الأول « عهد الشباب » ، ثم إنهم رأوا ذلك منـــه ثانية فيما كتبه عن سباستبول ، وفطنوا إلى أنهم تلقاء كاتب من طراز جديد لـكتابته وقع جميل فى نفوسهم ليس مرده إلى جمال وصفه فحسب ، ولـكن إلى دقة هذا الوصف أو على الأصح إلى صدقه ، فما هو إلا الحياة بجميع ما فيها …

والواقع أنه ما من عمل فنى يبلغ غايته من الروعة إلا إذا كان من ينظر فيه ينسي أنه حيال متخيل يتخيل ، ويحس أنه يرى الحياة ماثلة أمامه ؛ ولقد أوفي تولستوى من ذلك علي الغاية ، وما بلغ أحد مبلغه فى هذا المضمار أو قرب منه . فإنك لا تـكاد تقرأ بضعة أسطر له حتى تشعر أنك تطل على الحياة من نافذة ، ولا تلبث أن تألف شخصياته فتنسى أنهم شخصيات قصة ، ويبقى من أثرهم فى نفسك وحسك ما يبقي ممن عرفت فى الحياة من أشخاص ، وتظل تذكرهم زمناً وكأنك تنظر إليهم فى خيالك ، وتسمع إلي أحاديثهم .

وليس ذلك بالعمل الهـين ؛ بل إنه لأعسر وأدق ما يستشرف له الفن ، فالفنان المتخيل حر يجيئك بما يخلق حسبما أراد ، ولـكن الفنان الذى يلتزم الصدق مقيد بما التزم ، فمايملك أن يتصرف في صورته بالنقص أوالزيادة أو بالتهويل والمبالغة ، لأن غايته أن يصور الحياة كما هى ، وما فنه فى الواقع إلا مرآة تنعكس فيها الصور ، و بقدر ما يكون من وضوح الصور المنعكسة تـكون قيمة مرآته أو على الأصح قيمة فنه …

ويرينا وعورة هـذا المطلب ما كان يعانيه تولستوى فى كتابته من رهق شديد ، فلـكم ترك من لحمه قطعة فى المحبرة على حد قوله ، ولـكم تفـكر وتدبر ؛ ولـكم قضى الساعات الطويلة يقرأ ويستخرج دقيق التفاصيل ليبنى منها صورة لحفلة أو لجانب من معركة ؛ ولـكم غير وبدل فيما كتب حتى لقد كان يرسل البرقية أحياناً تلو البرقية إلى الناشر ليحذف كيت أو يضيف كيت قبل أن يطبع .

وكان أبرز ما تجلى صـدق تولستوى فى آيتيه « الحرب والسلام »

و « أنا كارينينا » ، فإنك لتلمس هذا الصدق فيما جل أو هان من الصور والوقائع؛ بل لقد يدهشك هذا الصدق، و يروعك هذا الفن الذى ينسيك أنه فن ، فى الصورة الصغيرة ، أكثر مما يدهشك و يروعك فى الكبيرة ، فتعجب لهذا الذي لا يفوته شيء ، والذى يعمل فى يقظة عجيبة وتدبير محكم على أن يريك الحياة ، وتحسب ذلك جاء عفو الخاطر ، لأنك لا ترى فى الصورة شيئاً من مبالغة أو تحمس أو خيال يذكرك بالكاتب ، و إنما تراها أمامك كما تكون فى الحياة ، إذ هى فى الواقع صنعة فنان أخفى نفسه وراء فنه ، أو فى الحق أخفي فنه كله لأنه جاءك بما لا يذكرك إلا بالحياة ...

و إنك لتفتح أية صفحة من قصصه فما يروعك أول ما يروعك منه إلا هذا الصدق . خذ مثالا لذلك من « أنا كارينينا » وصف ڤرونسكى فى المحطة ينتظر القطار المقل لأمه « واستطاع أن يسمع صفارة رفيعة ، ونظر فإذا بالقطار أقبل يزفر و يدفع أمامه البخار الذى كثفه الهواء البارد ، وشال الذراع وحط فى حركة بطيئة رتيبة حين كانت تدنو القاطرة من الطوار ، ومرت أول ما مر عربة البضاعة ، وكان ينبعث منها نباح كلب أمكن سماعه ، ثم تتابعت عربات المسافرين ، ثم رجف القطار رجفة كبيرة وقف بعدها لا حراك به » .

ثم انظر إليه كيف قابل أنا وهى تنزل من القطار وقد حدثتها أمه عنه ، « وكان بسبيل أن يدخل الممر حين كانت إحدى السيدات خارجة فأفسح لها كى تمر ، وكانت لمحة واحدة منه كافية لأن يرى وهو أحد الخبيرين بالدنيا أن هذه السيدة تنتمى إلى أحسن المجتمعات ؛ وقد سألها المعذرة حين تنحى ليفسح لها ، ولما هم بالدخول ألحت عليه رغبة لا تقهر أن ينظر إليها ثانية ، ولم يكن مرد ذلك إلى ما رأى من جمالها ورشاقتها وخفة حركتها ، ولكن لما طالعه فى وجهها الحلو مما ينطق بالرقة والرفق ولطف الشمائل ...

وأدارت رأسها هى أيضاً فأثبت فى وجهها نظرته ، ومنحته بعينيها البراقتين الشهباوين اللتين بدتا سوداوين تحت أهدابهما الطويلة الكثيفة نظرة ود باحثة

كما لو كانت تعرفه . ثم التفتت تبحث عن شخص فى الزحام ، وراع ڤرونسكى فى هذه اللمحة القصيرة هذا الذى تفصح عنه ملامحها من حيوية تحبسها ؛ ثم عيناها اللامعتان ، وهذه الابتسامة التى ما كادت تري حين اختلجت بها شفتاها الورديتان ؛ وتبدت له وضيئة تشع وضاءتها على رغمها فى نظرتها وفى ابتسامتها ، والتمع ما أرادت أن تخفيه من ضوء عينيها فى تلك الابتسامة الرائعة على ثغرها » .

وها هى ذي أنا تدخل على دُلى زوجة أخيها « وحين دخلت أنا كانت دُلى جالسة فى الثوى الصغير تصغى إلى صبى بض جميل هو صورة مصغرة من أبيه ، وكان يحفظ درساً من كتاب فرنسى للمطالعة ؛ وكان يجهر الصبى بقراءته ويعبث بأحد أصابعه بزرٍ فى معطفه لم يعد يمسكه إلا خيط واحد وقد نهته أمه عن ذلك مرات ولكن يده البضة الصغيرة كانت لا تلبث كل مرة أن تتخذ سبيلها إلى الزر حتى قطعته أمه ووضعته فى جيبها » .

ولو مضينا نسرد الأمثلة من أى كتاب له لأتينا به كله ، وما اخترنا هذا الذي سقناه منها لخاصة بعينها فيه ، وإنما جئنا به حيثما اتفق ، إذ لا فرق فيما يحرص عليه من صدق بين صورة وصورة مهما عظمت الصور أو هانت …

ومرد مقدرته فى هذا الصدق إلى ما وهب من يقظة الحواس ، وما رزق منذ حداثته من دقة الملاحظة وقوتها والغوص إلى أعماق الأشياء جميعاً من إنسان وحيوان ونبات وجماد ، واستيعاب كل شيء فى غير عسر ، وتفتح نفسه لذلك كله تفتحاً عجيباً ، فهو إذ يصور لك شيئاً ما في فصل معين من فصول السنة يضع لك فى صورته ما يكون من غيم أو نور أو نقاء أو غبار ، وما ينفح به النسيم من رائحة ذكية أو كريهة ، وماينجلى للأعين من مشاهد قريبة أو بعيدة ، وبهذه اللمسات الخفيفة تكمل الصورة أو تتمثل الحياة …

وكأنه لشدة تيقظه ودقة إحساسه يرى بعينيه ما لا يراه غيره ؛ ولقد أسلفنا كيف صاح به ترجنيف ذات مرة متعجباً « لا بد أنك ياليو نيقولا ڤتش كنت حصاناً ذات يوم » .

وإن له لذهناً عجيباً يستحضر كل شيء مما رأى أو سمع كأنه لا يزال ينظر إليه أو يستمع له ؛ وقد رأينا كيف كان يرحب بكل ما عسى أن يكون فيه مما يختزنه مادة لفنه من الأشياء والناس ...

وهو فى ملاحظة الأشياء والناس لا يتأثر بما للشيء أو الشخص فى ذاته من خطر أو عظمة ، فيجعل همه لما يبهر أو يقع فى النفس موقعاً مثيراً ؛ وإنما ينظر إلى الجبل الأشم نظرته إلى الحجر ؛ وإلى النهر الدافق نظرته إلى الجدول ، وإلى نابليون نظرته إلى الجندى الذى لا يعرفه أحد . لا يهمه إلا الصدق أدق وأعمق ما يكون الصدق ...

ولقد يقول قائل : وأين الفن فيما يصنع؟ فما هو إلا ناقل كما تنقل آلة التصوير مثلا . والجواب على ذلك أن الفن أروع الفن فى أن هذا الذى يجيئك به إنما جاءك به من خياله ، ولكنه ألبسه لباس الحقيقة ؛ أو هو رسم الصورة وبعث فيها الحياة وهنا موضع القدرة ؛ وإن الذى يرسم بألوانه وأقلامه ما يكون فى كماله وظلاله مطابقاً لما عسى أن تلتقطه آلة التصوير من الطبيعة ، لهو الفنان ؛ أما الذى يجيئك بصورة فيها براعة تلوينه وتظليله ، ولكن فيها ما لا يمكن أن يكون مثله فى الطبيعة ، فليس هو من الفن فى كثير ولا قليل ، إلا أن يكون الفن أن يلجأ الفنان إلى الرمز للتعبير عما لا يفهمه سواه ، أو ما لا يفهمه حتى هو نفسه ، أو إلى الاستغراق فى الخيال ليدعك تأخذ من معانيه ما تريد أو لا تأخذ شيئاً فترد ذلك خطأ إلى سمو فنه عن مستوى الناس ؛ وهذا ما لم يلتفت إليه تولستوى لأنه فى رأيه تلفيق هو عمل العاجزين ، وما كان إلا الصدق مقياساً عنده للقدرة .

لم يفعل تولستوى فعل الموسيقى أو الشاعر الذى يستمد مادة فنه من اللاشىء وإنما فعل فعل المثّال ، بين يديك وأمام ناظريك تمثاله من حجر ، لا يقع فى حسك منه إلا ما أراد ؛ لذلك خلا فن تولستوى من الصور الغامضة ومن الشخصيات الخيالية التى تتمثلها الأذهان كل ذهن حسبما يتصور . فمثل هاتيك الصور والشخصيات تستساغ في الشعر ولكن يمجها الذوق فى القصة ، وإنك

لتقرأ له الوصف أو تنظر فى الشخصية فلا تجد فيها إلا ما يجد غيرك كما تنظران إليها فى الحياة …

ولقد تقرأ لغيره فتعجبك منه حماسة الوصف وروعة التهويل ، وتروقك براعة خياله وازدحام صورته ، أو تعقد جوانب شخصيته ، ولـكنك حين تذكر أن مثل هذا لايكون إلا فى الخيال ، لا تلبث أن تزور عن الصورة وعن الشخصية ، وتحس أن شيئاً ينقصها فإذا هى تافهة ؛ وتقرأ لتولستوى فلا يثيرك تحمس ولا يروعك تهويل ولا يتبهرك ألوان ولا يغرك تعقيد ، ولـكنك على الرغم من ذلك تألف الصورة وتأنس إلى الشخصية ، فإذا بحثت عن سر ذلك لا تلبث أن تجد السر فى أنها هكذا تـكون في الحياة ، وإذا هى غالية محببة إلى نفسك أو بعبارة أخرى إذا هى قطعة من الفن .

ولتولستوى فى فنه خاصة أخرى مردها كذلك إلى الصدق أو هي نوع آخر من الصدق وذلك ما يلتزمه من هدوء فى عرضه الحوادث والأشخاص ، فهو لا يجعل الضجيج والصخب والتحمس والانفعال من وسائله فى التعبير ، وإنما هو يسوق ذلك كله كما يحدث فى الطبيعة ، فلا حدة ولا عنف ولا مبالغة إلا حيث تقتضى ذلك طبيعة الموقف ، وفيما عدا هذا فـكل شيء يجرى على سننه طبيعياً هادئاً ؛ ولذلك قلما ذكرت المؤلف ، وهنا كذلك موضع من مواضع الفن ، لأنك إذ تنسى المؤلف تنسي أنها قصة وتشعر أنها حياة ؛ وبين تولستوى وهوميروس كبير شبه فى هذه الطريقة الذى يسوق بها قصصه ، ويجريها كما تجرى الحياة

وبرع تولستوى فى الحوار وتوجيهه براعة هى كذلك إحدى خصائص فنه ، فلن تستغرب كلاما قط على لسان أية شخصية من شخصياته بل تجد هذا الـكلام مطابقاً فى معناه ومرماه لما تعرف عن هذه الشخصية ؛ وهو إنما يعتمد فى رسم شخصياته إلى مدى عظيم على الحوار ولا يقتصر على الوصف

ويتفطن لا إلى معنى الـكلام وحده ولـكن إلى طريقة الأداء ، وإلى ما يكون لشخصياته من لازمات فى النطق أو الإشارة ، أو ما يكون لبعضها من

تمتمة أو فأفأة أو لثغة أو طريقة خاصة في الضحك أو الابتسام أو فى تحريك الشفتين أو العينين أو فى إخراج الحروف غليظة أو رقيقة ، لا يسهو عن ذلك قط ، وإن ترك الشخصية وعاد إليها بعد زمن طويل …

وينتبه فى الحوار إلى شيء قلما انتبه إليه غيره مثل انتباهه ، وذلك أنه يشعرك أبداً بالحياة وينسيك أنك فى قصة ، فإذا بدأ الحوار لا يلبث حتى يوجه ذهنك في لباقة إلى ما يحيط بالمتحاورين حيث يجلسون أو حيث يمشون ، فهذا يتم كلامه ثم يقلب بصره مثلا فى الستر الحريرية أو في الآنية الخزفية الماثلة أمامه ، وذاك يخرج ساعته الذهبية أو يعبث بعصاه أو يلقى نظرة على الحقول.أو فى السماء المشرقة أو الغائمة ، أو غير ذلك مما يجعله بطانة للحوار يخيل به إلى القارىء أنه يطلع على جانب من الحياة …

أما فى خلق الشخصيات فقد بلغ تولستوى مبلغاً لم يتح مثله إلا للقلة من الأفذاذ وهو في هذا المجال إمام من أعظم الأئمة ، وقل من كانت له مثل مكانته .

كان الصدق كذلك رائده وعماده فى خلق شخصياته ، ولقد خلق معظم هذه الشخصيات على مثال من عرف فى الحياة من الناس ؛ وإن له لخبرة عجيبة بالنفس البشرية وما يجيش فيها من شتى الانفعالات والأحاسيس ؛ وإنه لذو بصيرة نافذة حين يرد ما يرى من الأعمال والميول إلى ما يعرف من الأصول ، أو حين يريد أن يتبين تلك الأصول فيما تقع عليه عيناه ؛ ولقد رأى المئات من الشخصيات فى حياته واختزنتها ذاكرته العجيبة ، ولقد رأينا كيف كان من تانيا يبرز موقف المثال من مثاله الذى أجلسه أمامه ليبنى على غراره تمثاله … وإن النساء ليعجبن إذ يطالعن قصصه كيف أحاط هذه الإحاطة بنفسية المرأة ، وكيف تعمق فهمها هذا التعمق ، وبخاصة فى مواقف وشؤون هى من صميم حياتها …

وإنه ليسلك فى خلق شخصياته مسلكا يجعلك تلقاها كما لو كنت تلقى الأحياء ، فأنت لا تعرف الشخص جملة ، وإنما تعرفه شيئاً فشيئاً ، تعرفه من صورته العامة ، ثم تتكشف لك نفسه في حديثه وفى سلوكه ، ولا تزال تزداد

معرفة به كلما طالعك فى القصة حتى تألفه وتألف حديثه وتكاد تعرف بعد ذلك ما عسي أن يقول وما عسي أن يصنع قياساً علي ما بلوت من أمره …

ولقد ذكرنا أنه لم يعمد قط إلى الخيال الجامح فى تصوير شخصياته ، وأنه التزم الصدق فجاءت شخصياته شخصيات أرضية من عالم الحقيقة ومما أُلف من الإنس لا شخصيات سماوية من عالم الغيب نصفها إنسي ونصفها لا نعرف إلى أى جنس ينتمى .

وإنه ليفطن إلى خصائص كل شخصية مما يخلق ، فلا ينساها حتى آخر عهدنا بها ؛ وإنه ليبرز الخصائص البدنية ، ثم يأتى بالخصائص الفكرية أو الروحية علي أساسها ، فتتضح الصورة كل الوضوح مهما يكن من تعدد جوانب بعض الشخصيات ؛ أما العواطف الثائرة والأعصاب المتوترة والنفوس المضطربة التى لا تستطيع أن ترد اضطرابها إلى سبب ، والتى تفطن إليها ولكنك لا تتمثلها أشخاصاً تدب على الأرض ، فليست من فنه ؛ فهى نظريات فى تحليل النفس وأصول علمية ولكنها ليست خلائق تحيا ؛ وهى إن دلت على معرفة واسعة بأصول علم النفس لا تدل على شيء من الفن ؛ وإنك لتستطيع أن تحفظ من أصول هذا العلم جميع ما كتبه الكاتبون ولكن ذلك وحده لا يجعلك تخلق نتاشا أو كتى أو ليفن أو أنا أو البرنس أندرو أو ڤرونسكي .

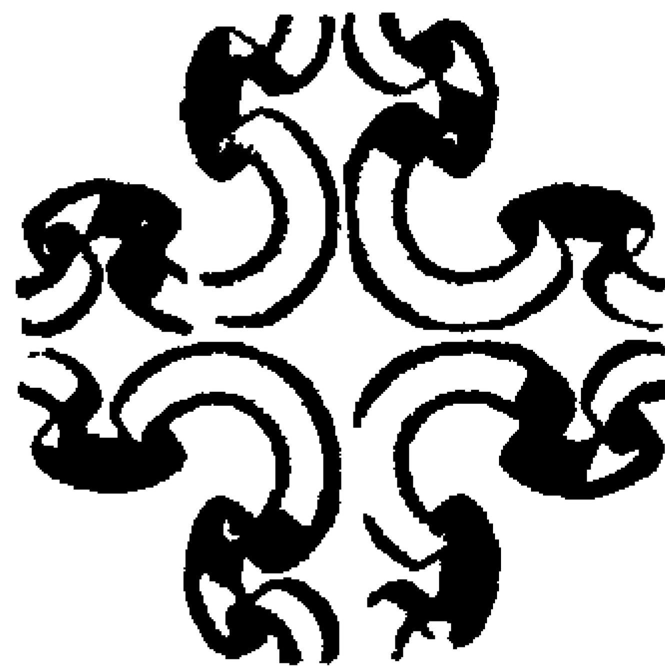
ليس فى شخصياته شيء من الرمزية ، وليست هى محلية بحتة ، ولذلك فليست تؤخذ على أنها تجسيد لمعان مجردة ، ولا على أنها نماذج لأنماط معينة ؛ وإنما تؤخذ على أنها أفراد من أفراد الحياة مما يراهم المرء فى كل وطن .

ولتولستوى براعة في بث آرائه وفلسفته في قصصه هى كذلك من خصائص فنه ، فهو لا يكتفى بأن يجرى آراءه على ألسنة أشخاصه فى حوارهم وتأملهم ، وإنما يبرز تلك الآراء فيما يأتون من أعمال وفيما يسلكون من مسلك وفيما يميلون من ميل ، فيوحى إلى القارىء ما يريد أن يقول دون أن يقول شيئاً ؛ وإنه ليخفى نفسه فلا تحس له قط تلك النغمة التعليمية التى تحسها لبعض القصصيين

حين يلقنون ويشرحون ؛ فتكون منهم حيال وعاظ ، بتدخلهم يفسد الخيال ، وتضيع القصة ... ولا يكاد يحس المرء فى حوار أو جدل أن تولستوى هو الذى يقول ذلك ، ذلك لأنك عرفت شخصياته وفطنت إلى ميولهم ؛ فما يفصح عنه أحدهم من رأى إنما يخيل إليك أنه رأيه ، إذ هو فى الواقع رأى هذا الفنان المستتر ، حتى فى الأشخاص الذين يمثلونه أعنى أولئك الذين صورهم على مثاله فإنك لمعرفتك بحياته وآرائه تفطن إلى أن ما يجرى على ألسنتهم هو كلامه ، ولكن محبتك لهذه الشخصيات وألفتك إياها ، وشدة وضوحها فى نفسك ، ينسيك أنها فى قصة ، وينسيك أنها تمثل تولستوى ...

ومن مميزات فن تولستوى شدة تفطنه إلى نفسه ، والإلمام بما يجول فيها إلماماً لا تشوبه شائبة من ريب ، ثم مقدرته على تصوير ذلك تصويراً تطلع به على خفايا نفسه ، وإنه فى القصة الواحدة ليظهر فى أكثر من شخصية . فهو ليفن فى « أنا كارينينا » مثلا ، ولكن كثيراً منه فى ڤرونسكى وبخاصة أيام عبثه وهو ضابط فى الجيش .

ونستطيع بعد هذا أن نجمل فن تولستوى فى كلمة ؛ وذلك أنه فى كل ما يكتب إنما يعرض عليك الحياة لا زيادة فيها ولا نقص ، وفى هذا الشرط سر فنه .



تولستوى الحائر

أتم تولستوى « أنا كارينينا » وقد أصبح فى روسيا أحد رجالها المعدودين ، وفى أدبائها فارسهم المعلم ، وأصبح فى أوربا أحد القلة الأفذاذ من أساتذة الفن وأعلامه ؛ وإنه لذو ثراء عريض ، وذو بنين ؛ يسكن إلى زوجة اختارها لنفسه عن بينة وحب ؛ وهو إلى ذلك يتمتع بالعافية ، وقد وهبه الله جسما قويا لا تسكن حيويته ولا تفتر قوته ؛ وإن موهبته الفنية لتمد اليوم أقصي مدها ؛ وإن روسيا كلها لتنظر إليه نظرتها إلى أعظم من أنجبت من رجال القلم في تاريخها ، حتى لقد اغتدى اسمه لها مفخرة قومية ، واغتدت به تباهى بأن صار لها فى أدب الدنيا صفحة مرموقة ومقام معلوم .

ولكنه بين عشية وضحاها ينظر فإذا بهذا كله عنده لاشيء ؛ وإذا به يشعر أنه شقي لم يذق مثل شقائه أحد أو يعذب عذابه أحد ، على الرغم مما يحيط به مما يراه الناس من أسباب السعادة والنعيم ...

إنه ليتقلب على فراشه إذا جنه الليل مسهد الجفنين ، ولقد يئن أنين المحموم بل لقد يجهش فى الظلام كما يجهش الصبى ؛ وإنه ليثب من فراشه فيذرع الحجرة حتى يتنفس الصبح ... وإنه ليجلس إلى مكتبه مطرقاً أو محدقاً فى الفضاء ، لا يفتح كتاباً ولا يرفع قلماً ؛ وإنه ليعتزل زوجته ، ويتكره لأبنائه أو يشيح بوجهه عنهم ؛ وإنه ليدفن وجهه ساعات بين كفيه ؛ وإنه ليسرع ذات مرة إلى بندقية صيده فيبعدها ويغلق من دونها باباً مخافة أن يقتل بها نفسه ؛ وإنه ليترك ما يأتيه من رسائل في غُلُفها ، ولا يحب أن يلقى أحداً من صحابته ؛ وإن زوجته لتمتلىء فرقاً وحزناً حتي لتكاد تذهب نفسها عليه حسرات ؛ وإن أولاده ليعجبون ولكنهم واجمون . .

ماذا دهاه ؟ إن حاله هذه حال من تلقى ضربة فى الظلام تركته يترنح من الألم ، وكلما أوشك أن يفيق أخذه دوار فتركه يتخبط و يهذى ، لا يدرى متى يعود إليه صوابه ...

ولـكن تولستوى لم يتلق الضربة علي حين غفلة ، فإنه منذ صدر شبابه تهجس فى نفسه أسئلة عن الحياة ومعناها ، والغرض منها ؛ ولقـد رأينا كيف ألحت عليه هذه الأسئلة وهو فى القوقاز .

وشغلته آماله وأحلامه بالصيت والأسرة السعيدة ؛ كما شغله عمله على تحقيق هذه الآمال ، وعمله فى التعليم والمجلة والزراعة ؛ ولـكن تلك الأسئلة كانت تعاوده بين حين وحين ، وهي في كل مرة أشد إلحاحاً عليه منها فيما سلف ...

وعظم إلحاحها عليه بعد زواجه فقد كان له قبل الزواج بعض ما كان يزيح عن نفسه هواجسها من أمل حلو . فلما بات الأمل حقيقة ماثلة ، التفتت نفسه إلى ما كان يكربها ...

وظهر أثر تلك المخاوف قوياً أثناء كتابته قصتيه الـكبيرتين فيما أجراه على ألسنة پيير والبرنس أندرو وليڤن ؛ ولقد خاف ليڤن أن يقتل نفسه من اليأس لأنه لا يرى فى الحياة إلا العذاب ثم الموت ...

وكان يصل به الحال أحياناً أثناء كتابته « أنا كارينينا » إلى ما يخيفه و يخيف زوجته كما أسلفنا ، حتىلم يعد أكثر من مرة بينه و بين الجنون إلا خطوة وما زاده التأمل إلا حيرة ولا دراسته الفلسفة إلا تشاؤما وضيقاً ...

وواجهته تلك الأسئلة بعد « أنا كارينينا » مواجهة مخيفة وعاد فى إلحاح وفى ضيق يقول لنفسه : لماذا ؟ ما وجودى وما الغرض منه ؟ ما هذا الذى يسمى حياة ؟ ولم كانت الحياة ؟ . قال في كتابه « اعتراف » يصف هذه الحال « لقد أخذتنى الحيرة حتى لا أدرى فيم أفـكر ؛ فإذا نظرت مثلا فيما عسى أن أعلمه أولادى قلت لنفسي . وفيم هذا ؟ أو إذا فـكرت فيما عساه أن ينهض بالفلاحين سألت نفسي : وماذا يعنينى من هذا ؟ أو إذا ذكرت ما عسي أن أكسبه من

صيت بما كتبت قلت : سوف تغدو أبعد صيتاً من جوجول أو بوشكين أو شكسبير أو موليير أو من كتاب الدنيا جميعاً ، فما جدوى ذلك ؟ ولم أحر جواباً قط ، وتلح الأسئلة على حتى ما تقبل ريثاً ؛ فيجب أن تلقى جواباً على الفور ؛ فإن لم أجب عليها صار مستحيلا على أن أعيش ... ولكننى لم أجد ما أجيب به ... وأحسست أن ما كنت أضع عليه قدمى قد ذهب هباء ، فليس ثمة ما أقف عليه ؛ وما عشت زماناً عليه قد ولى ، ولم يبق لى شيء ... و بلغ بى الحال أن أصبحت أنا الرجل القوى الثرى لا أطيق أن أعيش ؛ وصارت تدفعنى قوة لا تقاوم لأضع لحياتى حداً على صورة ما ؛ ولست أستطيع القول : إنى رغبت أن أقتل نفسى ، فإن القوة التى كانت تنتزعني من الحياة كانت أقوى وأشمل وأوسع مدي من أن تكون مجرد رغبة ؛ لقد كانت قوة شبيهة بتلك التى كانت من قبل تر بطنى بالحياة ولكن فى اتجاه عكسى » .

ويصور لنا حاله بإحدى الخرافات قال : « هناك خرافة شرقية قديمة عن سائح أقبل نحوه وحش هائج فى أحد السهول ؛ فلجأ هذا السائح هر باً من الوحش إلى جب ناضب ، ولكنه وجد فى قاع الجب غولا قد فغر فاه ليلتقمه ، ولما رأى السائح التعس أنه لا يستطيع أن يصعد من الجب مخافة أن يلتهمه الوحش الثائر وأنه كذلك لا يستطيع النزول إلي قاعه مخافة أن يلتهمه الغول ، فقد أمسك بفرع من النبات انبثق من صدع فى الحائط ، وتعلق به ؛ وأحس بالتعب يدب فى يديه شيئاً فشيئاً ، وشعر أنه سوف يسلم نفسه عما قليل لا محالة إلى الهلاك الذى يتربص به من فوقه ومن أسفل منه ، ولكنه لن يزال متعلقا بالغصن ؛ ثم إنه ما لبث أن رأى فأرين أحدهما أبيض والآخر أسود ، وقد دارا حول ذلك الغصن ، وأخذا يقرضانه ؛ وأيقن السائح أن الغصن لن يلبث حتى يقطع فيسقط هو فى فم الغول ؛ و بينما يرى ذلك ، و يعلم أنه هالك لا محالة ، إذ يبصر بقطرات من الشهد على بعض أوراق الغصن فيصل إليها بلسانه ويلعقها ... وهكذا أتعلق أنا بغصن الحياة ، و إنى لأوقن أن غول الموت يتربص بى وأنه سوف يمزقنى

كل ممزق ؛ ولست أستطيع أن أدرك لماذا وقعت فى مثل هذا العذاب ؛ ولقد حاولت أن ألعق الشهد الذى كانت لى فيه سلوة من قبل ، ولكننى لم أعد أجد فى الشهد ما يلذنى ؛ وما برح الفأران الأسود والأبيض . وهما الليل والنهار يقرضان الغصن الذى تعلقت به ، ورأيت الغول فى وضوح ، ولم يعد للشهد طعمه الحلو ؛ وليس أمام ناظرى إلا الغول الذى لا مهرب منه والفأران ، ولن أستطيع أن أدير عينى عن ذلك ؛ وليس هذا حديث خرافة و إنما هو الحق الدى لا ينكر والذى يفطن إليه كل إنسان »

لم يجد تولستوى معنى للحياة ، فما هي إلا عبث ، بل إنها واللاشيء سواء ؛ ذلك ما رجع به من طول تأمله ومن طول قراءته شوبنهور وكانت وغيرهما ، وَذلك ما أجاب به على تلك الأسئلة التى ظلت سنين تلح عليه وتعذب نفسه

وهذا اللاشيء هو ما أفزعه ، ثم إن انتهاءه إليه بعد طول التفكر هو الضربة التى تلقاها فى الظلام والتى تركته يترنح ويصرخ من أعماق نفسه الحائرة: ما هذا ؟ أين أنا ؟ ولم جئت هنا ؟ و إلى أين مصيرى ؟

لقد اهتدى البرنس أندرو إلى الحب كما اهتدى پيير ، واهتدى ليڤن إلى السمو بالروح الخالدة والعزوف عن مطالب الجسد الفانى ، ولكن تولستوى خالقهم لم يهتد إلى شيء ، وظل حاله كما كان حال ليڤن قبل هداه حين وصفه بقوله « عند ذلك تبين فى جلاء أن كل حى وأنه هو نفسه ليس أمامه ما يتطلع إليه إلا الألم ثم الموت ، ثم الفناء الأبدى ؛ ولذلك استقر رأيه على أنه لن يستطيع بعد أن يعيش على هذه الحال فإما أن يجد تفسيرا للحياة أو فليقتل نفسه »

ما الحياة إلا وهم ؛ وما سعينا فيها إلا عبث ؛ وما أنفسنا وأولادنا إلا طعام للدود ؛ وما مسراتنا وملاهينا إلا كأصوات الخائفين من الأطفال فى ظلام الغابة اللفاء يدرأون بها عن أنفسهم الخوف ؛ وما ذلك الذي نسميه فى الحياة جمالا إلا غرور ، إن كل ذلك إلا باطل ؛ و إن هو إلا اللاشيء ؛ ذلك ما أفضي به إليه تأمله ، وذلك ما يعذبه و يفزعه و يحيطه باليأس من جميع أقطاره ...

وليته ينسى ؛ ولكن أنى له النسيان ، وهذه الحياة نفسها تذكره أبداً بفزعه الأكبر منها ؛ وهو ما فكر فيها لمجرد الفكر فى ذاته ، ولكن شيئاً مبهما خفياً ظل يوجه نفسه هذه الوجهة منذ حداثته ، لا ينقطع عنه إلا ليعود إليه أقوى مما كان ، وما زال حتى وقف به على حافة الهاوية ...

وما قصر أو تهاون فى درس أو قعد عن استقصاء قال «ولكنى ربما كنت قد سهوت عن شيء أو أخطأت فهم شيء ؛ ذلك ما تحدثت به إلىّ نفسى مراراً فليس من الممكن أن تكون مثل هذه الحال من اليأس أمراً طبيعياً فى الإنسان؛ ثم بحثت عن تفسير لهذه المسائل فى كل ناحية من نواحى المعرفة بلغها الناس ، وبحثت بحثاً مؤلماً طويلا ، لا لمجرد الفضول والنظر ، وقضيت فى بحثى الشاق زمناً بالنهار وبالليل ، أجدُّ كما يجد من أشرف على الهلاك حين يطلب النجاة ؛ فلم أعد من ذلك بطائل »

لم يدع شيئاً من العلوم النظرية ولا من العلوم التجريبية ، ولكنه لم يجد فى العلم بغيته . فما بلغ العلماء من العلم إلا بعض ما يتصل بأبحاث المختصين والمحترفين ، أما ما له صلة بالمشكلة الأساسية وهى مشكلة الحياة ، فقد أهملوه أوجهلوه ؛ يقول عن العلماء « إنهم هكذا يجيبونك : أما عن سؤالك : ماذا أنت ولم تعيش ؟ فليس لدينا جواب ، وليس هذا مما نشغل أنفسنا به . أما إذا أردت أن تعلم قوانين الضوء أو قانون الاتحاد الكيمائى أو غيرها فلدينا أجوبة واضحة محددة عن ذلك ، لا تقبل الجدل » .

ولم يدع شيئاً مما له فى الفلسفة صلة بمسائل الحياة ، فقرأ سقراط وبوذا وسليمان الحكيم وشوبنهاور واضرابهم ، ولكنه لم يرجع من فلسفتهم إلا « بأن كل شيء فى الحياة عبث وأن السعيد هو ذلك الذى لم يولد » .

ماذا يقول سقراط ؟ أليس هو القائل : « إننا نقرب من الحقيقة كلما أخذنا فى الابتعاد عن الحياة وأن حياة الجسد شر وباطل وعلى ذلك فالقضاء على حياة الجسد من النعيم ، وينبغى علينا أن نطلبه ؟ » وماذا يقول بوذا ؟ أليس هو القائل :

« إن من المستحيل أن نعيش وفى نفوسنا أن الألم أمر لا بد منه وأننا سوف يلحقنا الضعف و يصيبنا الكبر و يدركنا الموت .. ألا إنه يجب علينا أن نتخلص من هذه الحياة ؟ » .

وماذا يقول سليمان ؟ أليس هو القائل « عبث فى عبث وباطل فى باطل ، وماذا يجنى الإنسان من عمله تحت الشمس ؟ يمضى جيل و يأتى جيل غيره والأرض هى الأرض قائمة أبداً ؛ وكل ما كان هو ما سوف يكون وما عمل هو ما سوف يعمل ولا جديد تحت الشمس ؛ ولن يُذكر ما مضى من الأشياء ، وكذلك ما هو آت فسوف لا يذكره من يأتى بعده ؟ » .

وماذا قال شوبنهور ؟ أليس هو القائل « الحياة هى ذلك الذى كان يجب ألا يكون ... هي الشر ؛ و إن انتهاءنا إلى اللاشيء هو الخير الوحيد فيها ؟ » .

وهذه الحكمة الهندية القديمة كيف تصور الحياة ؟ « كان سكيامونى أميراً شاباً يعيش عيشة سعيدة حُجب عنه العلم بالمرض والكهولة والموت ، وخرج الأمير ذات يوم للنزهة فبصر بشيخ فقد أسنانه ، يتعثر فى مشيته ، و يبعث منظره الرعب فى النفس ، فسأل ذلك الأمير الذى لم يكن له علم بالشيخوخة حتى ذلك اليوم ،سائق عربته ، وقد أخذه العجب : ماذا يكون ذلك ؟ وكيف وصل الرجل إلى هذه الحال التعسة الكريهة ؟ ولما علم الأمير أن ذلك حظ الناس جميعاً ، وأنه سوف يصيبه لا محالة يوماً ما ؛ لم يستطع أن يستمر فى نزهته ، وأمر سائقه فعاد به إلى القصر ليتفكر في هذه الحقيقة ؛ ثم أغلق من دونه الأبواب وجعل يتفكر ، و يرجح أنه وجد عزاء لنفسه . فقد خرج ثانية للتنزه مبتهجاً سعيداً ، ولكنه أبصر هذه المرة مريضاً متهدماً أعشي العينين مرتعش البدن ، ولما لم يكن للأمير علم بالمرض فقد وقف وسأل عن ذلك ، ولما علم أنه المرض ، وأن كل إنسان عرضة له ، وأنه هو نفسه ، وهو الأمير القوى السعيد ، قد يمرض فى غده ، لم يطق متابعة سيره وعاد ثانية إلى قصره ليتدبر و يبحث عن عزاء ، و يرجح كذلك أنه أصاب عزاء فقد خرج يتنزه للمرة الثالثة ، ولكنه فى هذه المرة وقع

على منظر جديد فقد أبصر رجالا يحملون شيئاً ما ، فسأل ماذا يكون ، ولما أخبر أنه رجل ميت قال متعجباً : ميت ؟ وما الميت ؟ وأخبر أن الإنسان إذا أصبح مثل ذلك الرجل صار ميتاً ، فدنا الأمير من الجثة وكشف عنها غطاءها ونظر فيها وسأل ماذا يحدث بعد ذلك فأخبر أنها سوف تدفن فى الأرض، واستفهم عن سبب ذلك فأجيب لأن الميت سوف لا يعود إلى الحياة ، وسوف يتعفن و ينتج الدود ، وسأل الأمير أذلك حظ الناس جميعاً ؟ وهل يحدث لى مثل هذا ؟ وهل أدفن وأتعفن وأنتج الدود ؟ أتقول نعم ؟ إذاً فإلى القصر ، ولن أخرج بعد ذلك أبداً طلبا للمتعة .

ثم إن سكياموني فقد كل عزاء ، وأيقن أن الحياة أعظم شر ، وجعل همه كله أن يتخلص منها و يخلص غيره » .

هكذا تصور الحكمة الهندية الحياة ، وهكذا يراها تولستوى ؛ ولقد فكر كثيراً فى أن يتخلص منها ...

ولكنه يرى كثيراً غيره من الناس يعيشون لا تزعجهم الحياة ولا يكربهم التفكر فيها ، فإذا كان لم يجد في العلم هداه ولا فى الفلسفة . أفلا ينظر فى حياة الناس ليرى كيف يرضون ولا يشقون مثل شقائه ؟

وعرف من الناس فى الحياة أربعة أنماط : ففريق هم الجهلاء الذين لا يدرون أن الحياة عبث وسخف ، وليس له فى هؤلاء فائدة لأنه لا يستطيع أن يعود جاهلا ؛ وفريق يعلمون سخفها ، ولكنهم مع علمهم يوطنون أنفسهم على تحملها ، وهو لا يقدر أن يجاريهم فهو متبرم ساخط ؛ وفريق هم الجادون العاملون الذين يتخلصون من الحياة على أية صورة ، وهو لا يستطيع أن يفعل فعلهم لأن شيئا خفيا يمنعه من ذلك كلما أغراه اليأس ؛ وفريق يرون الحياة زوراً وعبثا وأن لا خير في مستقبل ولا رجاء ومع ذلك فهم يتعلقون بها و إن تعذبوا وهو من هذا الفريق .

على أن هناك فريقا خامسا لا يدخل في هذه الأنماط الأربعة ، هم أولئك الذين لا يكترث لهم أحد ، و ينظر إليهم السادة نظرتهم إلى الدواب ، وهؤلاء قد وجدوا لهم في الحياة معنى يعيشون عليه ، معنى لا يتصل بالمعقول ولا بالفلسفة ، وذلك هو الإيمان .

ولـكن إيمان هؤلاء يقوم على أساس من الأورثوذكسية عقيدة الـكنيسة الروسية الإغريقية ، وهى ما لا يستطيع أن يحمل عقله على قبوله ...

يا للحيرة ! إن العقل يفضي به إلى إنكار الحياة نفسها ، و إن الإيمان يقتضي أن يعطّل العقل ... أى بلاء هذا ، وأى ليل معتم !

ولـكنه علم فيما علم قول المؤمنين إنه لا بد من إعداد النفس للايمان حتى تؤمن ؛ و إذاً فليدع العقل جانبا وليناقش رجال الدين ، ولينظر فى كلامهم لعله يصل إلى قلبه ، وليقرأ ما كتبه آباء الـكنيسة ، وليطالع سير القديسين وليتعبد فيقيم الشعائر جميعا ، وليزر الأديرة ، وليذهب إلى الأب الصالح أمبرور ، ذلك الذى كان يستعينه جوجول والذى استعانه دستويفسكي وسولوفييف ؛ وفعل ذلك جميعا ولـكن الشك لا زال يأخذ بخناقه و يكاد يزهق روحه ...

و يقرأ العقيدة الأرثوذكسية ، وكلما أمعن فيها سخر منها و بعد عن التصديق بها . فما هذا التثليث وما هذا التحول إلى دم المسيح ولحمه ، وما تلك المعجزات التى تنسب إلى القديسين ، وما تلك الأدعية والصلوات والطقوس ؟ أذلك مما يقبله العقل ؟ كلا ثم كلا ...

ثم يحاول أن يطرد الجحود من نفسه ، فربما كان الجحود هو ما يحول بينه و بين الإيمان ، و يقول لنفسه دائمـا إنه مستعد لأن يؤمن . قال فى كتابه « اعتراف » يصف ذلك : « لقد اتجهت صوب الإيمان لأنى لم أجد شيئا خارجه إلا الخراب ، وعلى ذلك فطالما كنت لا أستطيع أن أطرح عقيدتي جانبا فقد صدقت وخشعت ، وقد أحسست في قلبي من القنوت والخشوع ما جعلنى أفعل ذلك ، ثم إنى عدت فتخشعت وازدردت الدم واللحم من غير سخرية فى نفسى رغبة منى فى أن أصدق ، ولـكنى أذكر ما مر بى من صدمة وأرى ما ينتظرنى فيما هو قادم ، فلا أملك أن أظل مصدقا » .

و إذ يرى نفسه فى بحر لجى من الحيرة ، يسأل نفسه : ماذا يريد أن يعرف على التحديد ليلتمس السبيل إلى معرفته فيكتب على رقعة : « لمـاذا أنا حى ؟

ماسبب حياتى وحياة غيرى من الناس ؟ وماهدف حياتى وحياة غيرى ؟ ماذاتعنى ثنائية الخير والشر التي أحسها فى نفسي ولماذا هى قائمة فيها ؟ وعلى أى وجه ينبغى أن أحيا ؟ وما الموت ؟ وأهم من ذلك كله وأكثره تعقيداً كيف أنجى نفسى ؟ ذلك أنى أحس أنى هالك ، فإنى أعيش ثم أموت ، وإني أحب الحياة وأخاف من الموت ، فكيف أنجي نفسي ؟ » .

وإذا لم يبق له إلا الدين والإيمان ، فأى إيمان ؟ إنه إذا قارن في نفسه بين تلك الأوقات التى آمن فيها بالله وبين تلك التى أنكر فيها الله ، وجد الأولى نيرة فيها شفاء للنفس ووجد الثانية مظلمة فيها العناء ، ولكن الإيمان بالله شيء ، والإيمان بما تقول الكنيسة الأورثوذكسية شيء آخر ...

ولن يزال يطيل القراءة فى العقيدة الأورثوذكسية ، ولن يزال يقرأ الأديان جميعا فى كتبها ، ولن يزال يزور الأماكن المقدسة علها توحى إلى نفسه الإيمان ، ومن ذلك مدينة كييف وما تزدحم به من كنائس وأديرة قديمة ، ولن يزال يستفهم القسيسين والطيبين من الطاعنين في السن من الناس ، ولن يزال يقيم الشعائر ويعظمها . ثم لا يعود من ذلك جميعا بشيء إلا الجحود بما تقول الكنيسة .

ذلك حال تولستوى وما صنع في تلك السنوات التى أعقبت زواجه حتى أتم كتابه « أنا كارينينا » ثم تلقى الضربة التي جعلته يتخبط فى الظلام ، والتى جعلته يلقى بعيداً بحبل كان في متناوله مخافة أن يشنق نفسه ، ويجعل دون بندقيته قفلا غليظا كيلا يصوبها إلى قلبه ، وما تلك الضربة إلا أنه بعد طول عنائه يرى الحياة لا شيء ، ولكم يزعجه هذا اللاشيء ويوبق روحه ، ويزعزع فؤاده ...

ولكن إذا كان لا يحب أن يقتل نفسه فما معنى أن يستسلم لليأس ؟ وكيف يحيا إذاً ويطيق حياته إذا كان لا يرضى للموت ولا يرضي الحياة ؟

إذاً فليجاهد على وعورة الطريق وبعد الشقة وظلمة المفازة ، ليجد معنى للحياة ترتاح له نفسه ، ويسعد به البشر ، ولئن وقف به ما سلف من جهاده وقفة

التائه الذى يخيفه الفضاء والظلام . فلخير له أن يمضي لعله يجد بعد الضلال هدى و بعد العذاب راحة ؛ ولأن يتحمل وعثاء السفر مهما عظمت أهون عليه من هذه الوقفة التى تكاد تلقيه فى قرار سحيق ...

لقد قضي من عمره قرابة ثلاثين عاماً يعمل للفن ، فليقض ما بقي من عمره عاملا على تقرير معنى الحياة ، وليس ما يمنع أن يكون الفن أداته فيما هو قادم إذا لزم الحال ...

وسوف يعمل تولستوى دائباً ناصباً ، حتى ليعد جهاده فى سبيل غايته من أروع فصول الكفاح فى خطى البشرية ، فليس أبلغ فى معانى البطولة من تحمل مثل ما سوف يلقاه من عذاب ، ولامن الصبر على مثل ما سوف يعترض له من صعاب ؛ ولسوف يغدو تولستوي فى تاريخ الفكر الحديث ، والأدب الحديث ، والفن الحديث، بجهاده الهائل معدوم القرين فى إخلاصه وحميته وثباته .. أجل ... وسوف يرتفع إلى منزلة وسطاً بين الأنبياء والناس .



روسيا ترد إلى الغسق

لم يلبث عهد الإسكندر الثانى أن برز فيه من الثورة عليه ما كان مرده كما أسلفنا إلى التحمس له ؛ فمن أحرق جوفه الظمأ لن تطفىء غلته رشفة ، ومن ارتشف على غلة ثم حيل بينه و بين الماء فاليأس كل اليأس فى هذا الذى يعلل به من رجاء ، ولا بد عندئذ من وثبة فإما حياة بعد و إما فناء ...

والفرق عظيم بين ما لاح من بشائر الفلق فيأوله ، و بين ما ردت إليه روسيا من غسق يشبه ليل نيقولا فى آخره ، بين ما استُهل به من مظاهر الحرية و بين ما اختتم به من نكسة أفضت إلى الرجعية ...

لم يرض المثقفون أو ما يسمون المستنيرين لأنهم لم يروا إصلاحات الإسكندر إلا مواد مسطورة على ورق ؛ نصيبها من التنفيذ لا يكاد يذكر ؛ ولم يرض الفلاحون لأنهم لم يحسوا للتحرير أثراً فى حياتهم المادية ، وظلت أعباء التعويض تغل نفوسهم ، و إن قيل لهم إنهم أحرار ...

وجاء ما استولى على النفوس من يأس مكافئاً لما استبشرت به من رجاء ، ورأى الناس الإسكندر يغلب عليه الحذر ؛ و يستمع إلى بطانة حوله ممن أشربت قلوبهم سياسة نيقولا ؛ ورأوا حماسته للاصلاح تفتر يوماً بعد يوم ، بسبب ثورة البولنديين من ناحية ، ولخوفه من تناقص سلطته شيئاً فشيئاً من الناحية الأخرى .

وزاد تردد الإسكندر الناس يقيناً أن أكبر العيب وضع مقاليد الأمور كلها فى يد رجل واحد ، فالإمبراطورية أعظم من أن يهيمن عليها رجل ولو كان من ذوى العبقرية ، فكيف وهذا المتربع على عرشها ليس له من مؤهلات الحاكم العظيم شىء ؟ والإصلاح الحق لا بد أن تنهض به حكومة مسؤولة تؤيد إن أحسنت وتحاسب إن قصرت ...

وطالب بهذا حتى النبلاء ، وإن جاء طلبهم لأنهم أرادوا لأنفسهم السلطة أو أرادوا التحرر من سلطة القيصر كما تحرر الفلاحون من سلطانهم ؛ ولقد تقدموا إلى القيصر بملتمس سنة ١٨٦٥ ليقيم نظاماً تمثيلياً « حتى يصل الحق عرشك دون عائق » ؛ ولـكن القيصر وضع إصبعيه في أذنيه .

وهكذا نجد طبقات المجتمع الروسى جميعاً وإن اختلفت البواعث ، تطلب تغيير الحال تغييراً يحقق ما انبعث فى النفوس أول عهد الإسكندر من آمال ... ولا سبيل إلى ذلك إلا أن يأتى الإصلاح كاملا من الأعماق ، لا منحة متكافئة من أرستوقراطى يحرص على سلطانه ...

وكانت تسيطر على المستنيرين من رجال الأدب والصحافة والفلسفة ، والمثقفين بوجه عام نزعة محاكاة أوروبا فى كل شيء ؛ وعندهم أن علة العلل التمسك بالتقاليد العتيقة ، ولا يرجى من خير لروسيا إلا إذا أخذت بما أخذت به أوروبا ؛ وباتت أفـكار الغرب وحضارة الغرب قبلتهم وأمل نفوسهم ، وبلغت حماستهم في هذا مبلغ الحماسة الدينية ، فما يطيقون جدلا أو يقبلون هوادة ؛ فنظرية داروين مثلا عندهم دين جديد ، وما بلغه العلم من قوانين يقع فى نفوسهم أحسن وقع ؛ وما أنتجه الغرب من مظاهر التقدم المادى موضع إعجابهم ومتجه آمالهم ؛ ولئن أخذت روسيا بهذا فقد أفاقت من سباتها الطويل وصارت دولة حديثة

ونجم فى البلاد من صفوف هؤلاء المستنيرين المعجبين بأوروبا حزب ثائر ناقم على كل شيء ، ما لبث أن عرف باسم « النهلست » ؛ فقد أطلق ترجنيف هذا الإسم على من خلقه فى قصته « آباء وأبناء » ليمثل أفراد هذا الحزب ، وهو بزاروف ، ثم ذاعت الـكلمة فى روسيا وصارت علما على هذا الحزب .

صـــور ترجنيف بزاروف شابا « لا يحنى رأسه قط لسلطان ما ، ولا يأخذ مبدأ ما مأخذ العقيدة مهما كان ما أحيط به من احترام ... ولا يسيغ أن يلوك العبارات الجوفاء حول الفن والنظام النيابى ونظام المحلفين وما إليها ، بينما المسألة هى كيف تحصل البلاد على الخبز لتأكل .. وعنده أنه ما من نظام قائم فى

حياة روسيا ومذاك في الأسرة أو في الحياة الاجتماعية إلا ويستدعى أن يقضي عليه قضاء تاماً فى غير تحفظ ... ويلتزم بزاروف موقفاً سلبياً مطلقاً وينتقد انتقاداً سطحياً ؛ وإذا قيل له إنه من الضرورى أن نبنى كما نهدم أجاب : إن ذلك ليس شأننا الآن ... فإنه يجب أن تمهد الأرض أولا وتنظف »

ولقد كان بزاروف يمثل فى الواقع كل نهلست ؛ وكان ما يذيعه هؤلاء ويتمسكون به التحرر من الماضى ، والتخلص من كل عاطفة ومن كل عرف لأن ذلك هو ما يعوق خطى التقدم وما يستعبد العقول البشرية

ويسخر النهلست ممن يتقيدون في آرائهم بآراء من سلف ، ولا تقف سخريتهم عند حد ، حتى المقدس من العقائد والشعائر أو الذى قارب مرتبة التقديس من آراء السلف وتقاليدهم ، فما هذه جميعاً إلا أشياء لا يرجي من خير إلا أن يقضى عليها القضاء التام أول الأمر ...

بهذا كان الهدم قاعدة هذا الحزب الذى لا يطيق صبراً ولا يقبل هوادة ، وكان العنف تبعاً لذلك وسيلته الوحيدة إلى ما يريد ... ولكن الحزب لا يزال بعد سنة ١٨٦٠ فى مرحلته الأولى ، مرحلة الفلسفة

وثمة حزب آخر نجم من صفوف السلافيين أو أنصار المدرسة الشرقية ، وهؤلاء فى الواقع مظهر جديد لهذه المدرسة ، فهم لا يذهبون مذهب الآخرين فى مغالاتهم في النظر إلى السلاف وعدهم المثل الأعلى للجنس البشرى ؛ وإنما يؤمنون بالفلاح الروسي وما يرجى على يديه من خير إذا رفع مستواه وهم يتفقون مع أنصار السلاف فى أن المجتمع الجديد يجب أن يقوم على أساس زراعى قوامه وحدات قروية لا على أساس صناعى قوامه العلم الحديث .. ومبادىء هذا الحزب يكتنفها الغموض ، وكان مؤسسه هو هيرزن ، وقد اتبعه عدد كبير من المتعلمين ومن الطلاب الجامعيين ، وكان يسوء هؤلاء ما يعلمون من حال الفلاحين ؛ وكانوا يرون البدء بتعليم هؤلاء ، والذهاب إليهم فى القرى والعيش بينهم زمناً كلما سنحت فرصة ؛ ولم يفهم هؤلاء الفلاحون فى أكثر الأحوال ماذا يريد

هؤلاء الذين جعلوا من أنفسهم مرشدين لهم ، وكثيراً ما كانوا يسلمونهم إلى المتجسسين من أعوان القيصر ؛ ولما حل بهم نكال الحكومة وجدوا أنفسهم مسوقين إلى العنف كالنهلست ، ومن ثم تألفت لجنة من بينهم عرفت بلجنة « الأرض والحرية » وأخذت هذه الشعبة الثائرة تدبر وسائل الانتقام من أعوان القيصر ... وسرعان ما اندمج هؤلاء في النهلست وصاروا فريقاً منهم ، وإن احتفظوا باسم جماعتهم

ظل نشاط النهلست حتى سنة ١٨٧٠ قاصراً على نشر الدعوة يمنون أعوانهم بعهد جديد ، ويعدونهم بمستقبل عظيم لروسيا ، ويلقون فى روع الشباب ألا سبيل إلى النجاح إلا حرية الفرد أو تخلصه من الأوهام ومن كل ما يفرضه المجتمع أو الأسرة أو الدين ... والانطلاق من ذلك الاستبداد الأدبي الذى يهيمن على عقل الفرد ووجدانه وشخصيته ، ونبذ كل مالا فائدة منه فى زعمهم من الفن والأدب وتراث الماضى جميعاً ، واعتناق مايقتنع العقل بفائدته فحسب ، فالإسكاف مثلا خير عندهم من رفائيل لأن الإسكاف يفيد بعمله المجتمع أما عمل رفائيل فلا معنى له ...

وقد عظم نشاط النهلست منذ سنة ١٨٦٦ ، وكان ذلك نتيجة لعنف الحكومة عليهم واضطهادهم عقب محاولة لاغتيال القيصر ، وقد زادت سياسة الحكومة حيالهم شعلتهم اشتعالا ، ووجدوا فيها مثلا من الجور يضربونه للناس ، ويفهمونهم بذلك فى يسر أن الخلاص في مقابلة العنف بالعنف والبغى بالبغي ، وبخاصة حين رأوا القيصر يقترب من الرجعيين بعد حادث الاعتداء عليه وينظر إلى الإصلاح كأنه مفض إلى الفوضى ...

وراح هؤلاء النهلست يندون بالطاغين وينذرونهم عذاب يوم قريب ؛ ولا يفتأون يذكرون ما يحل بالفلاحين من ظلم ؛ أولئك المساكين الذين أنقضت الضرائب والتعويضات ظهورهم ، وهدهم الجوع ، وكدهم العمل المتصل ؛ وهم يعيشون عبيداً للمترفين من السادة والكبراء ، يعملون ولا عائدة من عملهم عليهم ولا أمل يبسم لهم فى ظلمات العيش ...

وكان يطمح هؤلاء إلى نوع من الانقلاب يمكن لهم في البلاد فيؤلفون هيئة على شاكلة كومون باريس إبان الثورة الفرنسية الكبرى ، تنتهى إلى حكم ديموقراطى اشتراكي ...

ولم تخل البلاد من دعوة اشتراكية ، غايتها بث المبادىء الاشتراكية فى النفوس بالسلم والحكمة وبخاصة بين الفلاحين ، حتى يأتى اليوم الذى يتمسكون فيه بهذه المبادىء وقوامها التحرر الاقتصادى والاجتماعى ...

ونشطت الحكومة من جانبها فى محاربة هؤلاء وهؤلاء وبخاصة دعاة الفوضى من النهلست ، وقد بثت عيونها فى كل مكان ، وكان سلاحها غير السجن والقتل فى بعض الحالات ، النفى إلى سيبريا ، وقد أرسلت إلى تلك الأصقاع فى عشر سنوات حتى سنة ١٨٧٤ قرابة مائة وخمسين ألفاً ، لم يأتوا عملا إلا نشر الدعوة سراً.

***

ظنت الحكومة أنها بهذا النفى وبهذا التنكيل قد قضت على خصومها قضاء لا قيام لهم بعده ، ولم تفطن الحكومة ، وقلما فطن الطغاة ، إلى أن البطش إذا نجح فإنما نجاحه إلى حين ؛ ولو فطن كل فرح بجبروته ، مطمئن إليه ، أنه بهذا الجبروت يمضى إلى الهاوية ، لخفض من غلوائه ، ولتهيأت نفسه لتدرك أن إرضاء النفوس هو وحده الذى يقتلع منها السخيمة وينفى عنها الثورة ؛ وإذا احتدم صراع بين القوة المادية وقوة الروح فإنما تستند القوة المادية إلى الباطل ، وتقوم القوة الروحية على الحق ، ولن يهزم الباطل الحق أبداً ، وإن خيل له أنه الغالب ؛ وما كان قيامه على البطش إلا الدليل أوضح الدليل على ضعفه والسبيل أقصر السبيل إلى انهياره ..

غضب النهلست وغضب كل حزب ينزع منزعهم وإن لم يكن منهم ، ورأوا أن وقت العمل قد حان ، وصارت كلمتهم التى يتهامسون بها أو يجهرون « إلى العمل » بعد أن كانوا يقولون « إلى صفوف الناس » .

وأخذت الفتن والقلاقل فى شوارع موسكو وبطرسبرج تتكرر على نحو

ما حدث إبان الثورات فى العواصم الأوروبية فى هذا القرن ؛ ولكن خضوع الجيش للقيصر مكن الحكومة من القضاء على كل فتنة في غير كبير مشقة حتي تبين للثوار بعد سنوات ثلاث عبث هذه الوسيلة ...

وأمعنت الحكومة فى عنفها ففتحت محاكم خاصة للقضايا السياسية ، وأنزل القضاة أشد العقاب بكل من ثبت عليه أى ذنب مهما كان صغيراً ؛ وصار يبعد الطلبة عن الجامعات بغير حساب ؛ وضيقت الرقابة على الصحف والمطبوعات ، حتى لقد حرمت دراسة النظريات السياسية أو قراءتها ؛ ومنعت كتب ستيوارت مل وهربرت سبنسر ولكي من دخول روسيا ؛ ونظرت قضايا الصحف والكتب من غير محلفين ، وعاد الاختلاس والفساد والرشوة ، حتى أحس الناس أنهم فى عهد نيقولا ؛ وباتت ظلمات الغسق بعضها فوق بعض ...

وعطف عنف الحكومة وإسرافها فى البطش القلوب جميعاً على النهلست ومن أخذ إخذهم ، على الرغم من كراهة المعتدلين من الناس لأساليبهم وتطرف آرائهم ، حتى باتت الحكومة فى جانب والشعب فى جانب ، الثائرون منه ومن التزم الحيدة من قبل ...

وأفضى جبروت الحكومة إلى ما لم يكن منه بد . فعمد النهلست إلى قتل خصومهم غيلة ، وتألفت لذلك جماعات سرية همها أن تغتال أعوان الحكومة ، وبرر النهلست خطتهم هذه بقولهم « إن كل وسيلة جائزة فى وجه نظام حكومى يقوم على الظلم المنظم ، توطد خلف غابة من الحراب » .

وصار النهلست يقتلون كل من تصل إليه أيديهم من عيون الحكومة وأرصادها ، وباتت الحكومة تخشى جانب هذه الجماعات السرية ، وتحسب لخطرها ألف حساب ...

وحدث أن أطلقت امرأة تدعى ڤيرا الرصاص على ضابط لأنه أهان بالضرب سجيناً سياسياً ، وأخلى المحلفون سبيلها . فلما أراد الشرطة أن يعتقلوها ، أعانها الناس على الهرب إلى خارج البلاد ، وقد اوحى هذا الفعل إلى تلك الجماعات الثائرة تعلقهم بما يتبعون من إرهاب ...

وأخذ القيصر يخشى العاقبة ، فأراد من بعد أن يحتكم إلى الرأى العام ، ولكن الذين استبشروا به فى أول عهده ورجوا على يديه الخير لا يرون فيه اليوم إلا طاغية كأسلافه من الطغاة ؛ ويوقنون أن كل شيء يرد إلى استبداده بالأمر دون شعبه ؛ وردت أكثر مجالس المقاطعات على الحكومة تقترح العلاج الذى لا علاج غيره ، وهو أن يعطى الشعب حرية الرأى والفكر . فإن محاربة الآراء الهدامة غير مستطاع إلا بوسيلة واحدة هى إزالة ما يشكو منه الناس ، ولن تعرف شكواهم إلا أن تتاح لهم حرية الكلام ... ولكن هذا آخر ما كان يسمح به الإسكندر ، وهل تنازل قبله عن سلطانه طاغية باختياره ؟

وبرزت فى الميدان جماعة « الأرض والحرية » ، وبخاصة شعبة نبتت منها هى المسماة « مشيئة الشعب » ؛ واغتالت هذه الجماعة رئيس الشرطة السرية والشمس فى الضحى ، وذلك فى أحد شوارع بطرسبرج ...

وحاولت الجماعة اغتيال القيصر نفسه ، وكانت هذه ثانى محاولة للثائرين ، إذ كانت أول مرة سنة ١٨٦٦ ؛ وبعد هذه المحاولة قسمت روسيا أربعة مناطق عسكرية ، وجعل على كل منطقة حاكم عسكرى له حق الحكم بالقتل ...

ولكن ذلك لم يزد الناس إلا نفوراً ، والثائرين إلا شططاً وفجوراً ؛ فإن الإصلاح فى نظر الناس يغنى عن ذلك كله ؛ وإذا كان الإصلاح هو وحده السبيل فإن رفض الأخذ به معناه التمسك بالسلطة ؛ والتمسك بالسلطة ولو هلكت البلاد أسوأ وأقبح صور الاستبداد ، وأدعاها إلى ازدياد الغضب وإيمان الناس بالحرية التى هى وحدها الخلاص من هذا البلاء ..

لهذا عاد الناس يعطفون على النهلست ، وتخلى عدد كبير من التجار والصناع من رجال الطبقة الوسطى ممن كانوا لا يزالون على شيء من الولاء للقيصر ، عن ولائهم له ، وصار يجمع المال سراً للنهلست على اختلاف جماعاتهم ؛ الأمر الذى زادهم قوة فوق قوة ...

وأراد الإسكندر الثانى ، وقد وقعت محاولات ثلاث أخرى لاغتياله أن

يتزحزح قليلا فوافق على تأليف مجلس عام يرسل إليه مندوبون يختارهم مجالس المقاطعات والمدن الكبيرة لمشاورته فى الأمور ...

ولكن الناس سخروا من تمسكه بسلطانه إلى هذا الحد ، فكل ما وقع من الأحداث لم ينتج إلا هذا المجلس الهزيل ؛ وبقيت سلطة الطاغية الفرد هى هى وأنوف الناس راغمة ، ومشيئتهم هباء ...

وفى يوم كئيب الضحى من أيام مارس سنة ١٨٨١ ألقيت فى أحد شوارع بطرسبرج قنبلة على القيصر فلم يصب بسوء وإن تعطلت عربته ، واعتقل الجانى وأحاط الحرس بقيصرهم يلحون عليه فى فرق وعجلة أن يركب عربة أخرى ، ولكنه أصر على أن يرى الجانى بنفسه ، ولم يكد يخطو حتى عاجله شريك لذلك الجانى بقنبلة أخرى فخر على الأرض لا ينطق ، وحمل إلى قصره حيث قضى نحبه .

وأعلن الثوار فى ورقة أذاعوها أنهم يكفون عن العنف إذا أجيبوا إلى مطلبين : دعوة مجلس أهلي يختار أعضاؤه بالاقتراع العام ، وإطلاق حرية الصحافة وحرية الخطابة ، وحرية الاجتماعات العامة « فهذه وحدها الوسيلة التى تمضي بها روسيا قدماً فى سلام وسكينة صوب التقدم المنشود ... » .

* * *

وخلفه الإسكندر الثالث ، وكانت فاتحة عهده تنفيذ حكم الموت على أعين الناس فى امرأة لأول مرة منذ نصف قرن وكانت بين المتآمرين على قتل أبيه !

ولم يتردد الإسكندر الثالث بين الإصلاح والمحافظة ، وإنما أعلن سياسته صريحة لا خفاء فيها ؛ فهو لن يتزحزح قيد شعرة ، ولن يتهاون طرفة عين فى أخذ الثائرين بنكاله حتى يخضعوا لسيفه الذى لا حق إلا هو ولا نجاة للدولة إلا فيه ..

قال الإسكندر فيما أذاعه غداة تربعه على العرش : « إن صوت الله يهيب بنا أن نقف ثابتين فى قمة الحكومة مؤمنين بقوة السلطة الأوتوقراطية وعدالتها ، تلك السلطة التى انتدبنا لنزيدها قوة ونحفظها لخير الناس وصالحهم من كل عدوان » .

وشدت الحكومة الوثاق على رجال القلم والفكر قاطبة ؛ فهم فى زعمها

مصدر كل داء وأصل كل بلاء ؛ واستعان القيصر برجال الـكنيسة فراحوا يذيعون فى الناس قواعد الولاء والطاعة ، ويرمون كل ذى رأى حر بالمروق ويحذرون الناس منه ، ويبالغون فى تصوير ما سوف يلقاه من سوء المصير … وتناولت الحـكومة الجامعات بالرقابة الدقيقة ؛ فلا يقبل طالب إلا بعد الوثوق من هدوئه وبعده عن الأفـكار الثائرة ، ولن يسمح للطلاب باجتماعات إلا وقت الدرس ، ولا يباح للأساتذة أن يقولوا كل شيء وبخاصة فى الفلسفة والتاريخ .

وامتدت الرقابة إلي المدارس الثانوية ، وإلى مناهج التعليم فى المدارس الابتدائية حتى لا يستقر فى نفوس الجيـــل الناشيء إلا معانى الطاعة والولاء للقيصر وحكومته …

وكانت تصادر الصحف فى الشوارع أو يمنع إصدارها بأمر إدارى لسبب أولغير سبب حتى حار رجال الصحافة السياسية والأدبية ماذا يكتبون وماذا يدعون .

ولم يكف الإسكندر الثالث هذا الذي يفعل بالبلاد ، فأراد أن يقضي على ما تم من إصلاح فى أول عهد سالفه ، وكأنما استكثر على أولئك الفلاحين الذين لا يزالون رقيقاً فى صلتهم الاقتصادية بسادتهم ؛ أن يكونوا من حيث القانون أحراراً ، فجعل لمالـكى الأرض سلطة الحـكم بين من يعملون فى أملاكهم من الفلاحين ، وهذا هو الاستعباد بعينه ؛ أو هذه هى المظاهر الإقطاعية التى قضي عليها التحرير تعود ثانية للسادة ، ولـكنها اليوم على حـد تعبير بعض الروس « تعود إليهم سفاحا » .

وأبلغ من ذلك فى معنى الرجعية والعودة إلى ليـل نيقولا أن امتدت يد الحـكومة إلى القضاء ، فقـد حل محل القضاة الذين كانت تختارهم مجالس المقاطعات موظفون لهم سلطة القضاء والإدارة جميعاً حتى ليـكونوا خصوماً للناس وقضاة في وقت واحد ؛ وكان يسمي الواحد منهم « كابتن الأرض » ، وكان يختار هؤلاء حكام المقاطعات ممن يثقون فيهم من الأعيان ؛ وكانوا في الأكثر جهلة متغطرسين لا يدرون شيئاً عن إجراءات التحقيق الأولي فضلا عن القضاء والحـكم ؛

على أن أسوأ عيوب هؤلاء هو جمعهم بين القضاء والتنفيذ وليس لأكثرهم نصفة القاضي ولا حنكة الحاكم ؛ ولقد كان فصل الحكم عن القضاء مما ارتاح له الناس من إصلاحات الإسكندر الثانى كما سلف القول ، ولشد ما بلغ استياء الناس من هؤلاء المتسلطين المتجبرين الذين امتد نفوذهم إلى كل جانب من حياة الفلاحين ، والذين كان لهم أن يلقوا بالناس في السجن من غير محاكمة ، والذين لم يدعوا صورة من صور الإهانة دون أن يلحقوها بالفلاحين ؛ ولقد شقي بهم الفلاح الروسي حتى جهل الشقاء ، وذل حتى نسي المذلة ، ولقد طالما تألم حتى أشفق الألم ، وصبر حتى جزع الصبر !.. وحسبك أن بعض هؤلاء الحاكمين فى إحدى سنوات المجاعة في عهد نيقولا الثانى كانوا يمنعون العون ليظل الفلاحون قانعين بالقليل !

وتمادت الحكومة فى التمكين للأوتوقراطية فلم يسلم من تدخلها حتى مجالس المقاطعات ، وكانت هذه المجالس أول تدريب للشعب على أن يقوم على تدبير شؤونه بنفسه ، وإليها يرجع الفضل فى إنشاء المدارس الابتدائية في القرى وفتح المكتبات العامة والمستشفيات ، وإنشاء كثير من الطرق والعمل على تجنب أسباب المجاعات .

وقد عملت الحكومة علي أن تحول بين المتحمسين للاصلاح و بين الدخول فى تلك المجالس ، كما أنها كانت تعرقل أعمالها ، ثم أنقصت ما يسمح لها بجمعه من المال .

بهذا الذى ذكرنا ردت روسيا إلى الغسق ، فلندعها تتلمس سبيلها إلى مطلع الفلق ، لنعود إلى كاتبها الأكبر فنرى كيف كان فى تلك الأثناء يتلمس هو كذلك مطلع النور فيما أحاط به من ظلمة ...

عشر سنوات . . . !

فرغ تولستوي من « أنا كارينينا » وفى نفسه ما فيها مما بينا من الألم ، ثم كانت صدمة اليأس التى أذهلته والتى تركته فى ظلمات بعضها فوق بعض ، ووجد الفلاة حوله موحشة ، والمفازة عن جانبيه وعرة ، والطريق أمامه لا يدرى أقاصدة هى أم غير قاصدة ؛ وقد اعتزم المسير برغم ذلك لأنه أهون من الوقوف على حافة الهاوية . .

ولكنه يدير وجهه عن الطريق قبل أن يخطو خطوة ؛ فهل كان ذلك فعل الخائف ، أم فعل الحائر الذى لا يدرى فى حيرته ما يأخذ مما يدع ؟

إنه يريد أن يكتب قصة ! فهل عاد يلوذ بالفن كما فعل إذ كتب قصتيه الكبيرتين ؟ هل آثر تلك الراحة على مخاوف المفازة ؟

وقد عاد تولستوى إلى موضوع الديسمبريين ، وظل يقرأ ويبحث ويزور الأماكن التى تعنيه كما كان يفعل قبيل « الحرب والسلام » ، وبلغ من ذلك مبلغاً كبيراً لا يشك معه المرء أنه جعل للفن كل همه ، وكان يريد أن يشرح فى قصته هذه قوة امتداد روسيا أى هجرة الفلاحين باختيارهم من روسيا والقوقاز إلى جنوبي سيبريا والتركستان ووسط آسيا ، وذلك بأن يصور أحد المتآمرين المنفيين زعيما « لهذا الفتح القائم لا على الحرب والدماء ، ولكن على ما وهب الفلاح الروسي من مقدرة زراعية » .

وظل تولستوى حتى نوفمبر سنة ١٨٧٨ ، وهمه كله إلى هذه القصة ، وقد كتب لها افتتاحات أكثر من عشر مرات ولكن لم يعجبه شىء .

على أنه ما لبث أن فطن إلى أنه يخادع نفسه ، وأن ركونه إلى هذه الراحة لن ينسيه عذابه ووحشة روحه ، فإلى المفازة وإن اشتدت المخاوف واستبهم الطريق .

ولسوف يكدح كدحاً متصلا عنيفاً حتى سنة ١٨٨٦؟ ، وقد جعل دبر أذنيه تلك « الأكذوبة الجميلة » كما عاد يسمى الفن ، وكانت هذه السنوات العشر الخالية من الفن سنوات نشاطه الفكرى .

* * *

أصدر تولستوى فى مدى خمس سنوات تنتهى فى سنة ١٨٨١ ، أربعة كتب ، أولها « اعتراف » وقد أتمه سنة ١٨٧٩ ولكنه لم يُتداول مخطوطاً إلا سنة ١٨٨٢ ، وثانيها « نقد للدين القائم على النصوص » ، ولم ينشر هذا إلا بعد زمن ليس بالقصير ، وثالثها « دراسة وموازنة بين الأناجيل الأربعة » وقد كتبه سنة ١٨٨٠ ولم ينشر كذلك إلا فيما بعد ، ولكن مختصراً منه تحت عنوان «الإنجيل فىغير إسهاب» قد تداولته الأيدي مخطوطاً ، ورابعها «ماأعتقد» وقد كتبه سنة ١٨٨٠وصار تداوله كذلك مخطوطاً سنة ١٨٨٤ ...

أكب تولستوى على هذا العمل الشاق فى تحمس وإخلاص كشأنه في كل ما يتناوله من عمل ، حتى بين في وضوح ماذا يفهم من العقيدة المسيحية غير مقيد برأى من الآراء ، وقال عن هذا العمل الذى عده أعظم مجهود فى حياته ، وأكثر ما عمل سروراً لنفسه ، إنه كان نقطة التحول فى هذه الحياة ، ثم كان فضلا عن ذلك أساس كل شيء كتبه فيما بعد ...

أما عن أول هذه الكتب الأربعة فان كتابه « اعتراف » يعد أجمل ما كتب فى غير الفن ، وقد بين فيه فى صورة رائعة بليغة مراحل اعتقاده وماعاناه من الشك مرات ، وما أنس إليه من اليقين مرات ، حتى تبين له ما فى العقيدة المسيحية من صدق وحق أدت إلى غموضهما النصوص الجامدة والشروح الفاسدة ، وعليه استجلاؤهما لنفسه ثم بيانهما للناس .

وإن المرء ليقع فى هذا الكتاب على صفحات رائعة ، يظل لها فى النفس ما تتركه كل عبقرية من أثر ، ومن أمثلة ذلك ما كتبه عن اعتناق بعض الناس الدين شكلا فحسب ، وسلوكهم فيالحياة مسلكايبعد عمايقضى به الدين كل البعد.

وما أعلنه من شك فيما يسمى الثقافة الحديثة بكل جوانبها ؛ ثم ما انتهى إليه من أن الحياة إذا خلت من شيء تتعلق به النفس فقدت كل معنى ؛ ولا بد للمرء أن يتعلق بقوة خفية مجهولة أسمى منه كى يكون لوجوده معنى مفهوم ! وما ذكره عن العقيدة المسيحية كما تصورها الكنيسة الأورثوذكسية ، ومبلغ ما فيها من قصور عن مطالب العقل والقلب ؛ وهو كما ترى بحث ممتع جرىء يزيده قيمة صدوره عن مثل هذا الذهن العبقرى ، وانبعاثه من أعماق نفس مخلصة كل الإخلاص فى كل ما تحس أو تقول . ولا بد لمن يريد أن يعرف تولستوى حق المعرفة أن يقرأ كتابه هذا قراءة تدبر و إمعان ...

وحمل تولستوى على عقيدة الكنيسة فى كتابه الثانى حملة لا ينهض لها إلا من كان له مثل شجاعته وحماسته فى إحقاق الحق ، وطرق في جرأة وفى غير اكتراث لشيء باباً طالما تهيبه الكثيرون ، وهو ما يريد الهدم فى ذاته ، وما كان إلا الحق ما أراد ، وفى سبيل الحق يركب كل مركب صعب و يسلك كل سبيل وعر ...

هاجم تولستوى عقيدة التثليث ؛ وأنكر ما جاء عن الجنة و إخراج آدم منها ، وما جاء عن الملائكة والشياطين ، وما ذكر عن خلق الدنيا فى ستة أيام ، وعن مولد المسيح من عذراء ، وعن الصلب والبعث والتكفير عن الخطيئة الأولى ، وعن تعميد الأطفال ؛ وغير ذلك مما لا يستطيع أن يحمل على قبوله عقله ولا على الإيمان به قلبه ، و بخاصة قسمة الناس إلى أشقياء وسعداء حسبما يعتقدون ، وهو لايعد ذلك كله باطلا ونفاقاً فحسب ؛ بل فسوقاً وكفراً « بالروح المقدس » لايغتفر فى هذه الحياة ولا فى الآخرة ...

ولقد كره إليه الكنيسة فضلا عن هذه المعتقدات ما رآه فى بعض رجالها من التمسك بخرافات هي من صميم الوثنية ، وما يسيطر على القساوسة جميعاً كبارهم وصغارهم من ميل إلى الاستبداد ، ورغبة فى التمكين للحكم الأوتوقراطي في أسرة رومانوف . فما من موقف من مواقف الاضطهاد والعنت إلا كان لهم فيه نصيب ،

كي يمكنوا لسلطانهم أيضاً ، وقد أخذت تهزه الروح الجديدة ...

وكان كتابه الثالث : خلاصة دراسته المريرة الشاقة للأناجيل الأربعة ، والمقابلة بينها ؛ ولقد اتكأ تولستوى على نفسه وتعلم العبرية ، وما زال حتى تفطن إلى دقيق معانيها ، وبذلك قرأ الكتاب المقدس فى لغته ؛ وحاول أن يفهم كل عبارة كما ينطق به مدلولها غير متأثر بمعني سالف ، وأعانه ذهنه الجبار وصبره العجيب على الغوص إلى أعماق المعانى ؛ ثم قابل بين ما فهم هو وبين ما فهم كاتبوا الأناجيل ، ووقف على أسباب الغموض فيما أحس فيه الغموض ؛ ووصل من ذلك إلى ما تاقت نفسه إليه زمناً طويلا ألا وهو استجلاء العقيدة المسيحية فى بساطتها والنفاذ إلى جوهرها غير مشوب بما ألقاه عليه الجهل والغرض وسوء التخريج من إبهام واضطراب ...

وقد خرج من هذه الدراسة العسيرة التي حملته رهقاً شديداً برأى استيقنه عقله وارتاحت إليه نفسه ، وذلك أن المسيحية على عكس ما جاءت به الكنيسة من اضطراب وتناقض ، تفسير عميق بيِّن للحياة يوافق أسمي ما تصبوا إليه النفس البشرية من مطالب ...

رأى تولستوى أن المسيحية ليست كما صورتها الكنيسة مجرد تعاليم سماوية كشفتها السماء للأرض ، ولكنها دين عملى يمكن تحقيقه فى كل زمان وفى كل مكان ، وأنه يحقق لمن يتبعه الخلاص والسعادة لا فى حياة أخرى ولكن فى هذه الحياة فوق الأرض ...

وتقوم فكرة تولستوى علي أن الإنسان إنما جاء من مصدر أزلى لا نهائى وهو ابن لهذا المصدر لا بجسده ، ولكن بتلك الاستعدادات الروحية المغروسة فيه ؛ وأن حياته الصحيحة هى أن يخدم ذلك المصدر اللانهائي للحياة فى مظهره كما يتجلى فى الإنسانية ؛ والحياة الحق هى الحياة المستقلة عن الزمن ، ذلك الذى يصرفنا فيه تفكرنا فى الماضي والمستقبل عن الحاضر الذى هو وحده الشيء الحقيقي ، وواجب الإنسان أن يقضى فى نفسه علي خدعة الزمن ، وأن يتحد بحياة

منبع الحياة ، وذلك يكون بالحب ، وهو المظهر الذى لا شك فيه لذلك المنبع

ويوجب تولستوى أن يرد كل شيء في فهم المسيحية إلى العقل ، ولذلك فهو لا يفسر ما جاء في الإنجيل من أنباء تفسيراً يخرج عن نطاق المعقولات فإن ذلك مدعاة لعدم التصديق ، وإنما يفسره كما يتمشى مع العقل فالمراد بأن يبصر الأعمى مثلا أن يرى الجاحد الذى عميت بصيرته الحق فيؤمن به ويهتدى وليس المراد عمى البصر ، وقس على ذلك غيره مما تأخذ الكنيسة بحرفيته فتخرج به عما يعقل .

وخلاصة ما يفهم تولستوى من المسيحية أن « مملكة السماء » ليست مكاناً أعد للمؤمنين الذين نجاهم إيمانهم ؛ ولكنها حال يمكن أن يحققها على هذه الأرض من يعيش وفق ما جاء به المسيح ؛ وإن المسيحية ترشده إلى هذا الكمال إرشاداً عملياً مرده إلى المعقول لا إلى الخيال والوهم ...

وفى كتابه الرابع « ما أعتقد » لخص تولستوى غاية المسيحية تلخيصاً مستمداً مما فهمه من تعاليم المسيح فى خمسة إذا عمل بها المرء حقق بها مملكة السماء على الأرض وهى : ألا يغضب الإنسان ؛ وأن يعاشر الناس جميعاً بالحسنى ؛ وألا يقرب الزنا ؛ وألا يقسم قط ، ومعني ذلك ألا يؤدى يميناً بإطاعة أية حكومة وأن يحافظ على حرية عقله وضميره ؛ وألا يقاوم الشر بالعنف ؛ وألا يلجأ إلى الخصومة والتقاضى ويطلب سلطة القانون ، ويجعل فرقاً بين الناس بسبب قوميتهم لأن عليه أن يحب الأجانب كما يحب بنى قومه ...

ويرى تولستوى أن الكنيسة بعيدة كل البعد عن روح المسيحية : وذلك أنها تلقى فى روع الناس أن خلاصهم فى أن يكونوا مسيحيين وفق تعاليمها فحسب ، وإن لم يفعلوا شيئاً يسير بهم صوب الكمال الذى تنشده تعاليم المسيح والتى تؤدى إليه ، وحتى وإن لم يحبوا الله فالكنيسة هى التى تتولى عنهم خلاصهم ، وأدهى من ذلك أنها تنكر أن يعتمد الناس على عقولهم فى تفهم دينهم ؛ مع أن الاعتماد على العقل هو ما تدعو إليه المسيحية كما يتبين من طبيعتها ...

هذه الـكتب الأربعة هي فلسفة تولستوي الدينية ، وهي فيما أنتجه العقل البشري في مجال الفـكر بعض كنوزه الغالية ، ولقد استغرقت كتابتها كما ذكرنا خمس سنوات ؛ وليس بعجيب أن يرى عمله فيها أعظم مجهود بذله فى حياته ، وأن يستعذب هذا المجهود على ما كان يجد فيه من مشقة وعناء ...

و إن الإنسان ليتملـكه العجب من هذا الدأب سنوات خمس على دراسة كهذه تتطلب من الجلد والقوة وعظيم الهمة ما ينوء به أولو العزم من الرجال ، ولـكن ذلك بعض ما يمتاز به العباقرة عن بقية الناس .

ولقد كان تولستوى يستحب هذا الدأب المضني لأنه كأصحاب الرسالات الـكبرى يؤدى به رسالته ، وها هو ذا الآن يستروح نسيما منعشاً ولو قليلا بعد سيره الطويل ، و يركن إلى قبس أخرجه بعض الشيء من حيرته ؛ فللحياة معنى به تستحق أن نعيشها : هو ذلك الذى يتجلى فى رسالة المسيحية كما فهمها ؛ وما عليه الآن إلا أن يبشر بهذه الرسالة التى جلاها ليـكون للناس فيها الهدى ، فما تستريح نفسه الراحة كلها إلا إذا أضاء هذا القبس فى ظلمات النفوس ، و إلا فما جدوى عنائه وطول بلائه ؟ والحق لقد كان تولستوى أشد حرصاً على أن يقف الناس على آرائه فى الدين والحياة ، منه على أن يعنوا بآثاره الفنية . قال بعد ذلك بأربعة عشر عاماً : « إذا قدر يوماً أن يشغل الناس أنفسهم بكتاباتى ؛ فدعهم يركنون إلى تلك الفصول التى أعرف أنى كنت فيها لسان (القوة المقدسة) ، ودعهم يفيدون منها فى حياتهم ؛ لقد مرت بى أوقات كنت أشعر فيها أنى أداة لتلك (القوة المقدسة) ، ولقد طالما كنت غير طاهر تملأنى رغباتى الشخصية ، وعلى ذلك فإن ظلمة نفسي كانت تطفىء ذلك النور ؛ ولـكنى فى بعض الأوقات كنت أحس أن الحق يمر من خلالى وكانت تلك الأوقات أسعد سويعات حياتى » .

ولا يسع الإنسان بعد ما عرفه من سابق عذابه وحيرته وظلمة نفسه إلا أن يرد هذه السويعات السعيدة إلى تلك السنوات الخمس التى كتب فيها كتبه الأربعة الخوالد .

ولـكن هل أجاب فى كتبه عن كل ما كان يلح عليه من أسئلة ؟ هل استراحت نفسه كل الراحة ؟ كلا .. فما عرف تولستوى من أين أتي ولا إلى أين يذهب ؛ ما عرف من أمر الحياة ولا من أمر الموت ما أراد أن يعرف ، وهل عرف ذلك أحد قبله ؟ حسبه اليوم أنه وجد للعيش معنى ، وهو أنه بات يحس أنه يخدم الله بعمله على أن يكون الناس فى الأرض جميعاً إخوة متحابين فى حب الله ، و إنه ليمتلىء نشوة وغبطة إذ يشعر اليوم أنه أخ لـكل إنسان ، وأنه يريد أن يبصر الهدى كل إنسان ...

أما الحياة فستظل سراً ، وسيظل مجاهداً طوال السنوات الثلاثين الباقية من عمره فى سبيل معرفة هذا السر ؛ ولـكن تلك السنوات سوف تنطوى وذلك السر باق على غموضه وسيغمض تولستوي عينيه غمضتهما الأخيرة ولم يدر عن هذا السر الذى حيره وأضناه شيئاً ولو ضئيلا .

* * *

صرفنا حديث كتبه فى هذه السنوات الخمس عما كان يحيط به من شؤون الحياة فى تلك الحقبة ، فلنعد إلى حديث حياته فيها وفيما أعقبها من سنين حتى عودته إلى الفن ...

وليس من جديد عن أسرته إلا أنه ولد له غلامان : أندرو فى سنة ١٨٧٧ ، وميكائيل فى سنة ١٨٧٩ .

وكثر فى قصره المعلمون والمربيات ، فـكان يعلم أكبر أبنائه ست لغات ؛ منها الإنجليزية والفرنسية والألمانيه ، وكان يعيش أبناؤه و بناته عيشة الترف على الرغم من عزوفه هو عن ذلك ؛ فـكانوا يظهرون أبداً فى مظهر فخم يحيط بهم الخدم أينما ذهبوا ، ويتعهدهم المعلمون والمربيات بكل ما يرقي عقولهم ويهذب أذواقهم ، وكان يحول أبوهم على تواضعه وخشوعه بينهم و بين مخالطة أبناء الفلاحين إلا بقدر تحت رقابة المربيات ؛ وكان ينفق تولستوى على تربيتهم عن سعة ؛ فله من المال اليوم أكثر مما كان له بالأمس ، وذلك لما درته عليه كتبه منه ،

وبما درته ضياعه الجديدة فى سمارا ؛ وإن كان انصرافه عن شؤون ضياعه يخيف زوجته لأن عاقبة ذلك فى نظرها تناقص ثروته .

* * *

أحس تولستوى فى ربيع سنة ١٨٧٨ رغبة فى نفسه ليصلح بينه وبين ترچنيف فكتب إليه يقول :

« إيڤان سيرچوڤتش . بعد أن نظرت ملياً فيما أشعر به نحوك أرانى واثقاً من أنى لست أحمل لك ضغناًما ، وأرجو من الله أن يكون ذلك هو شعورك نحوى ، مد إلى يدك ودعنا ننسي الماضى ، وإنى لأعلم حق العلم أنك أريتنى مودتك ذات مرة ، ثم إنى أشكرك على ما كسبت من صيت فى دنيا الأدب ، وأرجو أنك فى أعماق قلبك لا زلت تحمل لى ولو قليلا من الحب ؛ وإنى إذ أقدم لك اليوم أخلص مودتى ليسعدنى أن يزول ما دب بيننا من سوء التفاهم » .

ورد عليه ترچنيف بقوله :

« شد ما سرنى كتابك وشد ما أثر فى نفسي ، وإن سعادتى باستئنافنا مودتنا أكبر من أن توصف ؛ وإنى لأهز في حرارة اليد التى تبسطها إلى ، وإنك علي حق إذ تظن أنه ليس فى قلبى موجدة عليك ، وإذا كنت أحسست شيئاً من ذلك فقد ذهب من زمن بعيد ، ولست أذكر إلا الرجل الذى اشتد تعلقى به ، والذى استطعت أن أصفق لخطواته الأولى قبل غيرى ، والذى يبعث فى نفسى كل كتاب جديد له أعظم المتعة ، وإنه ليبهجنى أن ما كان بيننا من سوء الفهم قد زال ؛ أرجو أن أذهب إلى إقليم أوريل هذا الصيف ، وهناك نستطيع أن نتزاور بلا ريب ، وإلى أن أراك أتمنى لك كل خير ، وأصافح يدك فى إخلاص » .

وتجددت الصلة بينهما وتزاورا ، ولقيت الكونتس من مودة ترچنيف ومن ثنائه عليها ما حببه إلى نفسها ؛ ولكن الود بينهما لم يبلغ ما بلغه في كتابيهما ؛ وقد وجدا أن صلتهما لا تزال تقف عند حد لا يمكن أن تجوزه ؛ وتبين ذلك

فيما راح ينتقد به ترجنيف فى المجتمعات الأدبية نظرة تولستوى إلى الحياة ، وفيما قاله تولستوى لصديقه فت عن ترجنيف من أنه لا يزال كما هو شخصاً لا يؤلف ولا يساغ ...

وأما دستويفسكى فلم تتم بينه و بين تولستوى صلة شخصية ؛ بل لم يلتقيا قط ، وكان يستطيع أن يرى كلاهما الآخر فى احتفال أدبى عظيم أقيم بموسكو في مايو سنة ١٨٨٠ لإزاحة الستار عن تمثال شاعر روسيا الأكبر بوشكين ، وقد احتشد رجال الفكر والقلم فى هذا الاحتفال الفذ ، وتوقعوا أن يروا تولستوى وقد أوفدوا إليه ترجنيف يدعوه ، ولكنه كان فى شغل عن الدنيا كلها بما كان يكتب من آرائه التى احتوتها كتبه الأربعة ، فاعتذر ولم يذهب .

وكان دستويفسكي يومئذ فى ذروة مجده الأدبى ؛ ذهب له من الصيت فى روسيا وفى أوروبا ما لم يفقه إلا صيت تولستوى وحده ، وظهرت مكانته فى الناس ذات ليلة إذ كان يلقى محاضرة فى جمعية محبي الأدب الروسي فى أسبوع بوشكين ، فإنه ما كاد يتم كلمته حتى وثب الناس مصفقين له هاتفين باسمه ، واحتشدوا حوله وقد تقدم ترجنيف فعانقه والدموع فى عينيه ، و بلغ من تحمس الشباب له أن ارتمى أحدهم على قدميه ، بينما راح عدد منهم يتزاحمون ليصافحوه فوق المنصة ، و إن كثيرين منهم ومن الرجال لتدمع مآقيهم من فرط تأثرهم .

ولم يعش دستويفسكى طويلا بعد ذلك فمات فى نفس السنة دون أن يرى تولستوى ، وكان يرغب في زيارته قبيل أسبوع بوشكين ، ولكنه علم من أنبائه علي لسان جريجوروفتش أنه فقد عقله ، وأنه يعيش فى ياسنايا عيشة المخبول كما يؤكد ترجنيف !

ولقد كان تولستوى يقدر فن دستويفسكى حق قدره ؛ كتب فى صيف سنة ١٨٨٠ إلي صديق له يقول : « لقد مسنى وعكة منذ قليل فقضيت هذا الفراغ الحتمى قضاء ممتعاً وذلك بقراءة « بيت الموتى » ، ومع أنى قرأتها من قبل فقد كنت نسيت كثيراً منها ، ولست أعرف فى الأدب الحديث أجمل منها

لا أستثنى بوشكين نفسه ، وليس أسلوبها ما راعنى ، ولكن تلك النزعة العجيبة فى صدقها وفى طبيعتها ومسيحيتها . إنه كتاب يسمو بالنفس حقاً ؛ ولقد أتاحت لى قراءته من المتعة ما لم أحظ بمثله منذ وقت طويل ؛ إذا لقيت دستويفسكى فبلغه محبتى » .

ولما مات دستويفسكى قال تولستوى : « مع أنى لم أر دستويفسكى قط ، ولم تكن بينى و بينه أية صلة ، فإنى أشعر وقد طواه الموت أنه كان أقرب إلى وأعز عندى وأعظم شأناً من أى رجل سواه ؛ ولم تحدثنى نفسي قط بمنافسته ، ولقط بلغ كل ما كتبه من الجودة والإخلاص حداً جعله مبعث سرور لى أبداً ، ولو أنى خليق بأن أنفس على رجل ماعقله ومقدرته ، إلا أن ما ينبعث من القلب لا يترك فى نفسي إلا الغبطة ؛ ولقد كنت أذكر دستويفسكى أبداً كما أذكر صديقاً ، وأملت أن أراه يوماً ما ، ولكن ذلك لم يكن » ...

***

اطمأن تولستوى إلى دينه الجديد ، وهو المسيحية كما يفهمها ، ووثق من أن « مملكة السماء » تتحقق على الأرض باتباع هذا الدين ، وإن نفسه لا تفتأ تحدثه اليوم أن غايته في هذه الحياة أن يبشر بهذا الدين ، وألا يقر له قرار حتى يضيء قبسه فى ظلام النفوس . فإذا العالم غير العالم والناس غير الناس ...

إن قوام مسيحيته الجديدة ألا يدفع الشر بالشر ، فالعفو خير وأبقى ، و به وحده تستل السخائم من الصدور ، ولو دفع كل إنسان السيئة بالتى هى أحسن لما كان للشر من قرار ...

فليجاهد تولستوي فى سبيل دينه . ذلك ما جمع عليه عزمه ، ولسوف يمضى فى سبيله مهما صادفه من عنت حتى يظهر الله دينه فيموت وقد ترك للانسانية الرباط الذي يؤلف بين الناس فى الشرق والغرب ...

وها هو ذا القيصر الشاب الإسكندر الثالث بسبيل أن ينفذ حكم القتل فى خمسة بينهم امرأة ، هم الذين تآمروا حتى قتلوا أباه ، فهل يقف تولستوى مكتوف

اليدين ، معقول اللسان ؟ و إذاً فأين إخلاصه لدينه ، و إيمانه به ؟ أيتهيب مقام القيصر ؟ كلا ... فما هو بهياب وهو من إذا امتلأت نفسه بشيء لن يثنيه عنه خوف ولو كان الموت ...

أنكر تولستوي الجريمة ، ولكنه يكره العقاب ، ويطلب العفو ، ويطمع أن يصدر العفو من القيصر عن جريمة مثل هذه ؛ فيكون لفعله من عظيم الأثر فى روسيا كلها ما لا يكون لآلاف الأفعال غيره ؛ وتسلطت عليه هذه الفكرة ، فتناول قلمه وكتب للقيصر كتاباً طويلا صريحاً « من رجل لرجل » على حد قوله يسأله فيه أن يعفو عن قتلة أبيه ، ويقول له إنه لا شدة الأوتوقراطية ، ولا مسايرة الآراء الحرة بعض الشيء ، قد أفلحا فى وقف الحركة الثورية ، وإن مما يؤدى إلى ارتباك النهلست العفو عن هؤلاء القتلة ، وأن أباه لم يقتله أعداء لشخصه ، وإنما قتله أعداء للنظام القائم ، وما قتلوه إلا لأنهم ظنوا أنهم يؤدون صنيعاً للجنس البشرى . وأرسل الكتاب إلى بوبيد نستسوف رئيس المجمع المقدس ليحمله إلي القيصر ؛ وكان هذا الرجل من أسناد الأوتوقراطية وممن عملوا فى مهارة وكثير من المكر على مقاومة الآراء الجديدة من وراء عرش القيصر السالف ، ولكنه كان يتظاهر بالعطف على الأدباء ليأمنوا مكره ...

وكان مما قاله تولستوى فى كتابه ، بعد أن نصح للقيصر ألا يصغى إلى لغو حاشيته ، وألا يجاريهم فيما تنزع إليه نفوسهم من حب الانتقام « أكتب أنا ، العاجز ، العديم القدر ، المجهول المقام لأنصح لإمبراطور روسيا ماذا يصنع .. وإنى لأشعر بما فى عملى هذا من غرابة ومن بعد عن اللياقة ومن جرأة ، ولكنى مع ذلك أكتب ... وأنا أكتب من منعزل فى القرية ، وسوف لا تجد فى كتابى تلك النغمة المعتادة فى الكتب التى ترفع إلى إمبراطور ، ولا ذلك الزخرف ، ولا تلك البلاغة الباطلة التى تبهم الشعور والفكر ، ولكنى أكتب إليك كما يكتب رجل لرجل فإن احترامى الصادق إياك رجلا وقيصراً إنما يكون أكثر وضوحاً بغير هذا البهرج ...

أعفُ عنهم ، وقابل الشر بالخير تجد قلوب الملايين وقد امتلأت فرحاً بهذا المثل الطيب يتنزل عليهم من عرش فى ساعة تحيط الرهبة فيها بابن لأب قتيل ...

أيها الملك .. إنك إن فعلت هذا ، أجل ، إنك إن جئت بأولئك وأعطيتهم المال وأرسلتهم إلى بعض جهات أمريكا ، وأذعت بياناً تبدأه بهذه الكلمات ، و إنى أقول لكم أحبوا أعداءكم ... عندئذ لست أدرى ما عسي أن يكون شعور الآخرين ، ولكنى أنا الضئيل العاجز سوف أغدو كلبك وعبدك ... كلة عفو واحدة مصحوبة بالحب المسيحى ينبعث من أعلي العرش ، ثم طريق الحكم على أساس المسيحية الصحيحة وهومنبسط أمامك لتخطو فيه ... ذلك وحده ما يقضي على ما تتعذب به روسيا اليوم من شرور ؛ ولسوف تذوب الثورات كما يذوب الشمع فى النار ، أمام القيصر وأمام الرجل الذى يقضى بقانون المسيح » .

وعلق رئيس المجمع الكتاب عنده حتى نفذ القتل في الجانين ؛ ثم رده إلى تولستوى راجياً منه ألا يعزو عمله إلى غلظة أو إلي عدم اكتراث له ، وإنما مرده إلى ما أحاط به فى تلك الظروف مما حير عقله وأذهله عن كثير من الشؤون ، و إلى « أن عقيدة تولستوى شيء ، وعقيدته هو وعقيدة الكنيسة شيء آخر » ...

و يقال إن الكتاب بلغ القيصر من طريق آخر ، وأنه أرسل إلى تولستوى من يقول له : إنه كان يعفو عن الجناة لو أنهم أرادوه هو بجرمهم ، أما وقد قتلوا أباه فهو لا يملك أن يعفو عنهم ...

* * *

لن يدع تولستوى الكفاح حتى يعلم الناس دينه ، وسبيله أن يدعو إليه الناس بالحكمة ، وكانت كتبه وسائل دعوته هذه ، وقد فرغ من كتابتها حتى سنة ١٨٨٤ كما أسلفنا ، وأودع فيها آراءه ، وهى خلاصة دراسة مضنيه عنيفة ؛ وما خط فيها سطراً أو عبارة لم يؤمن بها أو يفهمها حق الفهم ليبينها للناس ؛ حتى لقد صار لهذه الكتب فى الآثار الفكرية مقام قصصه فى الآثار الفنية ؛

فهي ومضات ذهن عبقري متوقد ، ونبضات قلب مخلص ممتلىء بالإيمان ...

ولكن الرقيب يمنع كتبه من النشر ، فإذا تداولها الناس مخطوطة ، وعنوا أنفسهم بنسخها ، صودرت أينما وجدت ، وحوصرت كما يحاصر الوباء ، وتعقب الشرطة أصحابها بالتجسس ، وألحوا عليهم بالتخويف والإنذار ، الأمر الذى يضيق به صدر تولستوى ضيقاً شديداً ، والذى يكره إليه روسيا والحياة فيها ؛ ولكنه يعود فيصبر ؛ بل إنه ليطيب نفساً بما يسمع من إقبال الناس على تداول كتبه سراً ، و إمعانهم فى ذلك كلما أمعن الشرطة فى تعقبهم و إعناتهم ...

ولولا أن كانت له تلك المكانة الأدبية التي لم ينل مثلها أحد قبله فى قومه ، ولولا شجاعته واعتزازه بهذا المقام العظيم ، واستنكافه أن يخفض جناحه أو يغض من صوته ، لناله من أذى الحكومة ما كان ينال غيره من النفى أو السجن أو غيرهما من صور العذاب .

ولقد كانت روسيا يومئذ تعانى من تعسف الحكومة ما لم تشهد مثله إلا فى عهد نيقولا ، فالشرطة يروعون البيوت الآمنة ، و يتعقبون كل من تحدثهم أنفسهم بأنه من الثائرين ؛ حتى الفتيات والنساء فلم يسلمن من التجسس الشديد ؛ ومما يدعو إلى الضحك أن الشرطة قد اعتقلوا ذات مرة إحدى السيدات إذ وجدوها تضع منظاراً على أنفها ، فهذا المنظار عندهم علامة على جمعية سرية هى من أفرادها !

وكان بو بيد نستسوف رئيس المجمع المقدس ورجاله يعينون الحكومة ما وسعهم العون ؛ وكان هذا الرجل على جانب كبير من الدهاء ، وكان همه أن يبيد الجماعات الثائرة ، وأن يقضى على كل نزعة متطرفة بكل مايسعه من الوسائل القهرية والسلمية ، و إنه لواثق من بلوغ غايتـه وهي أن يمكن ثانية فى روسيا للحكومة الأوتوقراطية والكنيسة الأورثوذكسية ...

***

ماذا يصنع المصلح الدينى المتحمس لدينـه ، فى وضع كهذا وليس يملك

إلا لسانه وقلمه ؟ لقد بث فى كتبه الأربعة كل ما أراد أن يقول ، ولقد جاءت تلك الكتب وفيها من تولستوى خصائصه مؤلفاً فى أكمل مظاهرها وأروعها ، وفى مقدمتها عمق نظرته وشمولها ، ومقدرته الفائقة على تبيين ما يريد تبيينه حتى ليقوم منه في ذهن القارىء مايقوم فى ذهنه هولا تعلق به أية شائبة من غموض، على الرغم من دقة ما يعرض ، ومن صعوبة ما يطلب . فليدع كتبه تحدث أثرها في الناس مع الزمن وليرتقب ما يكون من أمر هذا الدين الجديد ...

ولكن ماذا يعمل وقد هجر الفن ، وكتب ما كتب فى الدين ؟ أيعود إلى أعمال الزراعة فيربى الخيل والأبقار والخنازير ويبنى خلايا النحل ؟ ذلك مالايلتفت إليه اليوم على الرغم من ثورة زوجته لما ترى من إهمال فى ضياعه ينذر بنقص كبير فيما تأتى به من مال ، ولقد أخذت تحس هذا النقص فعلا ، وهل يعنى تولستوي اليوم شىء من هذا ؟ إنه بسبيل أمر جديد بات يشغل باله وهو في طبيعته يحمل من يُعنى به على النفور من الثراء والترف بل والعمل على نفض اليدين منه ! إنه بات يفكر في حال الفقراء ، وقد رأى من ذلك ماهاله وهز قلبه هزاً شديداً ، وكأنه لم يعلمه من قبل ...

والحق إن انصراف تولستوى إلى الفن ، وإلى الفن فى ذاته فى القسم الأول من حياته حتى قارب الخمسين قد شغله عن التفلسف والبحث ، فما كان يعنيه إلا أن يصف ما يرى ليتخذ منه مادة لقصصه ؛ أما استقصاء العلل والنظر فيما يجب عمله فما كان من فنه فى شىء ...

رحل تولستوى وأسرته جميعاً إلى موسكو فى شتاء سنة ١٨٨١ ليلتحق سيرجى بالجامعة ، ولتتاح لتانيا البيئة التى تكمل فيها تربيتها ...

وفى موسكو كان يقع تولستوى من صور البؤس والشقاء على كثير مما بات يزعجه ويؤلمه ، وقد تغيرت نظرته إلى الأشياء والناس ، فلم تعد كما كانت قبل أموراً طبيعية يتخذها مادة لفنه ، وإنما صارت بواعث على التفكر فيما عسي أن يصنع للقضاء على الشر ، وتمهيد السبيل لما يبشر به من خير ...

تغيرت نظرة تولستوى فـكأنما يرى مظاهر البؤس الإنسانى لأول مرة ، وتغير أسلوب تعبيره ، فهو لا يصور لنا اليوم فى قصة يتخيلها أشخاصاً بائسين كما كان عسياً أن يفعل بالأمس و إنما يأتى لنا بمعنى من المعاني الفـكرية ، فيتحدث عن الحـكومة والناس مثلا بقوله : « مجرمون تحالفوا فيما بينهم ، وسرقوا الناس ، وجمعوا الجند والقضاة ليحموا انتهابهم وعربدتهم ، ومايملك الناس إلا أن ينتهزوا سُـكر هؤلاء ليستعيدوا منهم ما سرقوه ».

و إنه ليعنى نفسه من أجل الناس ، و يبلغ فى ذلك مبلغاً تصفه زوجته فى قولها « لم يكن ليو حزيناً فحسب ، ولـكنه زلزل زلزالا تاماً ؛ و إنه لا ينام ولا يأكل ، و إنه ليذرف الدمع أحياناً » ...

ونحس كذلك عناءه في قوله : « عند ما تقع عيناي على مظاهر الجوع والبرد ، وانحطاط الآلاف من البشر فى موسكو ، أحس لا بقلبي ولا بعقلى ، بل بكياني كله ، أن وجود هؤلاء الآلاف فى موسكو بينما أجدنى وآلافاً غيرى نأكل ما لذ وطاب ، ونتخذ ما شئنا من الأثاث والرياش ، إنمـا هو جريمة لا ترتـكب مرة واحدة فحسب ، ولـكنها مستمرة » ...

و يمضى تولستوى سنة ١٨٨٢ فى الطرقات ، إلى أطراف المدينة مع القائمين يومئذ بالتعداد ؛ فإن له فى ذلك فرصة ؛ وقد تطوع فى هذا العمل ، وجاس خلال الأزقة ، يرى بعينيه ويحس بقلبه ، ليكتب كتاباً جديداً ، لا هو بقصة ولا هو ببحث دينى ، و إنمـا هو كتاب فى أمور اجتماعية جعل عنوانه « ماذا يجب إذاً أن نصنع ؟ » .

و يكتب تولستوى هذا الـكتاب القيم المتين فإذا به كـكتبه الدينية ، وضوحاً وشمولا وعمق فـكرة ونفاذاً إلى عقل القارىء وقلبه ؛ و إذا المصلح الدينى يخلع مسوح الراهب ، ويلبس عباءة المحامى فيدافع عن الذين ظلموا من رجال المجتمع ونسائه وأطفاله ، دفاعاً ليس مرده إلى العاطفة ، بحيث يحرك القلب ساعة ثم يطويه النسيان ، و إنما مرده قبل ذلك إلى العقل والواقع المحسوس بحيث يدعك

تفكر طويلا ، ثم إذا بك تعنى نفسك بما عنى به نفسه الكاتب العظيم ..

ولئن كانت كتبه الدينية الأربعة مقدمة لكفاح طويل فى سبيل الحقيقة سوف يجعل تولستوى أقوى من خوف الكنيسة ، وزعزع بنيانها في روسيا حتى ليصبح مقامه فى هذا مقام لوثروكلفن فى أوربا ، فإن كتابه « ماذا يجب إذاً أن نصنع » كان فاتحة صراع عنيف فى سبيل العدالة الاجتماعية سوف يغدو به تولستوى أقوى خصم للدولة ، وللوضع الاجتماعى القائم ؛ ولسوف يكون للناس عجباً أن تجئ هذه الخصومة العنيفة ، وهذا اللدد المصمم من رجل عرفوه أول ما عرفوه فناناً ؛ والحق أنه ما من رجل فى روسيا بلغت آراؤه الاجتماعية من الهدم ما بلغته آراء ذلك الذى يعد أعظم بناء فى فن قومه ؛ وإنه بهذا ليشبه ڤولتير وإن لم يصطنع أسلوبه الساخر ؛ وحسبه من الهدم قوته فى إبراز المعايب ومقدرته التي لا تبارى فى الإقناع ؛ ثم شجاعته ودأبه وصبره وطاقته علي حمل العبء ، وعزمه المصمم الذى لا يعرف التخاذل ، وما ذهب له من صيت جعل اسمه فى روسيا علي كل لسان ...

لا يسأل اليوم تولستوى نفسه ما معنى حياتى وما الغرض منها ، وإنما يسأل نفسه ما خطأى فى حياتى وما خطأ الناس ؟ وإلى أى مدى تقرب حياتى وحياة الناس أو تبعد من المسيحية فى جوهرها أى فى صورتها كما أتصورها ؟ وذلك أن تولستوى يجعل اليوم كل إصلاح على أساس من مسيحيته الجديدة ؛ حتى الفن فلسوف يصطبغ بهذه الصبغة متى عاد إليه ، ولسوف يجعله وسيلة إلى السمو بالنفس لتبلغ ذلك الكمال الذى يتصور أن المسيحية تدعو إليه ...

ويكثر تولستوى اليوم من الاتصال بالفقراء ، وقد أخفى شخصيته كيلا يعرفه أحد ، ويظل ينتقل من مكان إلى مكان يتحدث إلى هذا أو يستوقف ذاك ، أو يجلس معهم على مقربة من مصانعهم حيث يأكلون طعامهم ، وفى مقاهيهم المتواضعة ، يرى ماذا يشربون ، وكيف يتحدثون ! إنه يريد أن يعرف كيف

يعيشون وما مبلغ رضائهم عن حياتهم ، وذلك ليفهم المسألة حق الفهم فما يجب أن يكتب شيئاً إلا إذا كان صورة واضحة للواقع ...

وكانت صور البؤس فى موسكو مخيفة تملأ جنانه رعباً ، وكيف يطيق أن يرى الأطفال ينبشون القمامة كما تفعل الكلاب والقطط ، أو يقعون على مزجر من الموائد ليرمى إليهم الطاعمون بشيء كما ترمي العظام للكلاب ؟ وكيف يطيق أن يراهم نائمين فى الطرقات أو فى زوايا المبانى ، وكيف يصبر إذ يرى السائلين والسائلات يمدون أيديهم الهزيلة وأيديهن للمارة فى ضراعة ومسكنة ؟ وأفظع من هذا تلك البيوت التى تعرض فيها لحوم البشر رخيصة لكل من أراد أن يقضى وطره ؟ أف لها ! إنما هنا البؤس أقبح البؤس وأعظمه ... وهو لا يرى مثل هذا جميعاً فى القرية ، فلئن وجدت هناك الفاقة فمعها العمل والحياء ، حيث يعرف الناس بعضهم بعضا ... ثم إن البؤس فى المدينة كما تحدثه نفسه وليد هذه للدنية الحديثة ، وليد الحضارة المادية ...

بدأ تولستوى كتابه سنة ١٨٨٢ ، ولم يتمه إلا سنة ١٨٨٦ ؛ ولكن ما ذكره فيه من آراء كان قائماً فى رأسه منذ أخذ يكتبه .

تفكر تولستوى أول الأمر في الصدقة ومساعدة الفقراء كما تقضى المسيحية ولكنه ما لبث أن رأى أن الصدقة ليست فى أن تعطى الفقير قروشاً ثم تدعه فى فقره ، إنما الصدقة الحق أن تنشئ للقادرين عملا ، وأن تعينهم حتى يغنيهم عن السؤال عملهم ...

وعند تولستوى أن من هم في حاجة إلى المعونة هم الذين حطهم الدهر فاستنكفوا أن يعملوا ، والنساء اللائى أكرهن على البغاء ليعشن ، وغلمان الشارع وبناته ممن لا عائل لهم ولا لهن ...

ومرد شقاء هؤلاء جميعاً إلى خطأ استولى على مشاعر الناس هو كراهة العمل الذى فيه سرورهم ورزقهم ؛ فليس فى الناس إلا من يحب البطالة ، ومن يؤثرها على العمل ، وما يعمل الناس إلا مضطرين ، وما ضمن إنسان رزقه وعمل أبداً ،

لأن المستقر فى وهم الناس أن العمل ضعة ومذلة ، وبخاصة الأعمال البدنية ...

وطالما تتمتع طائفة من المجتمع بالثروة وخيرات الحياة ، ثم تقضى الوقت فى لعب ولهو ، وذلك بأن تشقى طائفة أخرى وتكدح ، فلا أمل فى أن يحترم الناس العمل ، أو ينظروا إليه إلا على أنه وسيلة المحتاجين . .

وما أصل الداء ؟ أجل ... ما سبب هذا الشر ؟ ذلك ما يسأل عنه تولستوي نفسه ملياً ؛ أما الجواب فهو ذلك الرأى الخطير الذى تعلق به بعد طول النظر ، فما غير امتلاك المال كان أصلا للبلاء ومنبعاً للشر جميعاً !

« إنى أجلس على ظهر رجل فأقطع أنفاسه ، وأكرهه على أن يحملنى ، ومع ذلك فإنى أؤكد لنفسى وللناس أنى أشفق عليه وأنى آسف له جد الأسف ، وأنى أود أن أخفف عنه وعن طائفته بكل وسيلة إلا أن أنزل عن ظهره » .

وهل تعوز تولستوى بلاغة التعبير إذ اهتم بإبراز معنى من المعاني ؟ إقرأ له كذلك قوله : « ما الملكية إلا استلاب فريق من الناس جهود فريق آخر ، وعلى ذلك فهى أصل الشر جميعاً » . ثم اقرأ له قوله : « لكيلا أخلق الآلام لغيرى أو أسبب الرذيله ، يجب على أن أستهلك أقل ما يمكننى مما عمل الناس ، وأن أعمل بنفسي أكثر ما فى وسعى أن أعمل » .

وهو لا يفتأ يبدى ويعيد ليزيد هذا المعنى بياناً . فهو يقول : « إن الملكية اليوم هى أصل الشر كله ؛ فإنها هى التى تسبب الآلام لمن يمتلكون ومن لا يمتلكون ، ولا يمكن أن يُتلافى التصادم بين من يعيشون فى سعة ومن يعيشون فى فاقة » .

ويقول فى نفس المعني : « يقوم أبداً بيننا نحن الأغنياء وبين الفقراء جدار من التعليم الباطل ، ولن نستطيع أن نعين الفقراء حتى نهدم هذا الجدار ؛ لقد ساقنى التفكير إلى نتيجة هي أن ثراءنا هو السبب الحقيق لشقاء عامة الناس » .

وقال فى معرض آخر : « إن الدول والحكومات تلجأ إلى الدسائس والحرب من أجل الامتلاك ... وإن رجال المصارف ، والتجار ، والصناع ،

وصاحبو الأرض الزراعية ، يدأبون على تعذيب أنفسهم وتعذيب غيرهم فى سبيل الامتلاك فحسب ، و يتحارب أصحاب الوظائف ، و يدلسون و يتعذبون من أجل الامتلاك وحده ؛ وتحمى محاكمنا وشرطتنا الملكية ؛ وتقوم مستعمراتنا المخصصة للنفى ، وسجوننا ، وتلك الفظائع التى يسمونها القضاء على الجرائم ، من أجل شيء واحد ، هو حماية الملكية » .

وأوقع فى النفس من ذلك قوله « طالما يقوم فى مجتمع ما إجبار رجل رجلا غيره على العمل له ، فإن معنى المال على أنه وسيلة للتبادل ينتهى ، ويحل محله معناه على أنه أصلح وسيلة لاستلاب جهود الغير ؛ وأى اسم غير العبودية يمكن أن نطلقه على هذا الاستلاب ؟ إن استعباد أى رجل إنما يقوم على أن غيره يستطيع أن يخضعه لمشيئته ... فإذا أعطى رجل ثمرة جهده لغيره ، وليس يملك إلا قليلا مما يمسك به صلبه ، ودفع أولاده ليعملوا بأيديهم عملا شاقاً ، وترك الأرض ليقضي حياته فى عمل بغيض لا يريد أن يؤديه ، كما يحدث تحت أعيننا فى عالمنا هذا الذي نسميه مثقفاً لأننا نعيش فيه فحسب ، فإننا نقول في يسر إن ذلك الرجل يفعل ذلك لا لشيء إلا لأن الموت يتهدده إن لم يفعل » .

و إذ يقرر تولستوى هذا الرأى و يقلبه على وجوهه ، يتهيأ ليقذف به فى وجه الدولة ، كما قذف بآرائه الدينية فى وجه الكنيسة ...

يرى تولستوى أن للاستعباد وسائل ثلاث : أولها التخويف والإخضاع بالقوة ، وثانيها الإرغام على شكل غير مباشر ، وذلك بحرمان الجماهير من الأرض ومن الملك ؛ وثالثها أخذ المال من الناس فى صورة ضرائب لا بد أن يكدحوا كدحا هو الرق كى يدفعوها و يسددوا حاجات معيشتهم فى وقت واحد ...

وتجعل الدولة هذا الاستعباد مشروعاً ، ولكن ما يبدو من مشروعيته ، لا يلبث أساسه أن ينهار إذا ذكرنا أنه قام على فكرة هي من الخرافة لا من المعقول ، وذلك أن واجب الفرد نحو الدولة أهم من واجبه نحو أقرانه من الناس ، وأنه لذلك يجب أن يخدم الدولة ، فإن لم يفعل حمل على ذلك بالقوة . ومعنى هذا

أن قلة تتحكم فى الناس وتجبرهم على أن يفعلوا ما يوقنون أنه شر ؛ ولا ترضى هذه القلة أن تسمى عملها هذا استعباداً لأنها زعمت له أساساً من الواجب ؛ بل تراه خدمة تؤدى للمجتمع لا يمكن بدونها أن تقوم له قائمة ...

وعند تولستوي بناء على ذلك أنه ليس من « سارق » إلا الدولة ، وليس إلا هذا « الجرم » وحده يحمى كل ما فى المجتمع الحديث من ظلم ؛ وفي رأيه أن الدولة ما قامت إلا لحماية هذا الظلم ؛ وما قضاؤها ، وشرطتها ، وجيشها ، وسجونها إلا وسائل لهذه الحماية ... وطالما تتمسك الدولة بالملكية مبدأً فهى فى رأيه غير مسيحية وغير اجتماعية ...

وماذا يجب إذاً أن نصنع ؟ هذا ما جعله عنوان كتابه ، لأن ما يجب فى رأيه أن يُصنع هو هدف الكتاب ، وهو ما جعل له مكانته وخطره .

يرى تولستوى أن يقتنع المرء أولا بأن الحالة الراهنة مضادة لما غرس فى قلب الإنسان من قوانين طبيعية ؛ ثم إن عليه بعد ذلك ألا يأخذ منها إلا بأقل ما يمكنه وذلك بألا يستلب عمل الآخرين أو يمتلك أرضاً أو يخدم الحكومة أو يستعمل المال . فإن هذه وسائل الاسترقاق ...

ويستطيع المرء أن يفعل ذلك إذا نزل بمطالبه الشخصية إلى أقل مستوى ممكن ، وإذا أدى من العمل بنفسه ما كان يعمله له غيره من قبل أو فى عبارته هو « إن أمام ذلك الذى يتألم فى إخلاص لمرأى آلام غيره وسيلة جد واضحة وجد يسيرة ، وهى وحدها الوسيلة المستطاعة لمعالجة مايحيط بنا من مساوئ واستشعار أننا نعيش على صواب ، وذلك ألا نملك أكثر من رداء وألا نملك المال ، أعنى ألا ننتفع بعمل الآخرين ؛ وعلى ذلك فعلينا أن نعمل كل ما نستطيع عمله بأيدينا ؛ وأى وسيلة غير هذه تغير ذلك الوضع الذى نرى فيه الأغنياء فى أكثر الأيام حاجة إلى العمل يذهبون إلى ضياعهم ليعيشوا عيشة الترف والكسل ، فى حين يعمل الفلاحون الذين يعيشون على خبز الشعير والبصل ثمانى عشرة ساعة فى اليوم ، ولا يجدون حاجتهم من الكساء ، ولا يأخذون قسطهم الحق من النوم ؟ » .

وليس يريد تولستوى تحريم المال إذا كان وسيلة للتبادل ، ولـكنه يحرم المال الذى هو فى الواقع حق الغير لأنه جمع من كدهم فهو استلاب لعملهم أو فى الحقيقة لمالهم ...

ولما كان يطالب تولستوى كل امرئ أن يؤدى نصيباً من العمل بيديه فيما يلزم لمعيشته ، فهو لهذا ينكر على رجال العلم والفن دعواهم أنهم بعملهم وفنهم يؤدون عملا ضرورياً للمجتمع يقتضى إعفاءهم من العمل اليدوى ؛ إلا إذا انتفع أولئك الذين يعملون بأيديهم انتفاعاً عملياً فى معاشهم بما يصنع هؤلاء من علم وفن ...

يوجب تولستوى علي المرء أن ينظر فى نفسه ليرى أنه كالآلة ، لا تعمل إلا إذا أكلت ، وأن ما تأكله إنما يوجده عملها ، وعلي هذا فإنها إذا أكلت ولم تعمل كان ذلك فيها ضرباً من المرض ...

أجل يجب على الانسان أن يقتنع بألا حقوق ولا امتيازات يجوز له أن ينظر إليها ، وإنما هو مكلف بواجب قبل كل شيء ؛ ومتى اقتنع المرء بذلك رأى لزاماً عليه أن يأخذ بقسط في الـكفاح البدنى الضرورى له ولغيره ...

ويلوذ تولستوى بالندم والتوبة ، ويراهما لازمين لـكل امرئ كي يغير ما بنفسه ، فلا بد من هذا التغيير لتحقيق ما يدعو إليه . قال : « لقد قطعنا شوطا طويلا فى طريق باطلة ، نحن الذين لا نعد أغنياء فحسب بل قوماً فى موضع ممتاز كذلك ، قوماً ندعى متعلمين ، ولقد مضينا في هذه الطريق ، بحيث لا بد لنا من عزيمة قوية ، أو من ألم هائل يعتورنا في طريقنا الباطلة كي يمكننا أن نثوب إلى أنفسنا ، وأن نسلم بكذب عيشنا .. ماذا أصنع ؟ ليس غير التوبة بكل ما تتسع له هذه الـكلمة من معنى ، وذلك بأن أغير نظرتى إلى مكانتى ونشاطى ؛ فبدل أن نعد مكانتنا نافعة وذات خطر ، يجب علينا أن نسلم بضررها وتفاهتها ، وبدل أن نفخر بتعليمنا يجب علينا أن نقر بجهلنا ، وبدل أن نباهي برفق قلوبنا يجب أن نعترف بسوء خلقنا وقسوتنا ، وبدل أن نتأبه ونستعلى يجب أن نعلن ضآلتنا » .

و ينذر تولستوي كما يبشر ؛ فإذا لم يغير الأغنياء ما بأنفسهم فليس إلا الدماء والثورة ، وله فى ذلك نبوءة ما أعجبها إذا ذكر المرء ما حدث بعد كتابته إياها بأكثر من ثلاثين سنة . قال « إن ثورة العمال وما يصحبها من فظائع وتخريب لا تنذرنا فحسب ، ولكننا نعيش وهي تجرى من تحتنا مخبوءة منذ ثلاثين سنة ، وما فعلنا أكثر من أن أخرنا انفجارها بوسيلة أو غيرها . هذه حال أوروبا ، وهذه حالنا ، وحالنا أسوأ من حال غيرنا ، لأنه ليس لدينا صمامات للأمان ؛ إن الطبقات التى ترهق الجماهير ليس لعملها من مبرر فى نظر تلك الجماهير ، وهى إنما ترهقهم بالقوة والمكر السيء واغتنام الفرص ؛ ولكن شعور المقت نحونا فى قلوب أولئك الذين يمثلون تلك الجماهير أسوأ تمثيل ، وشعور الاحتقار فى نفوس الذين يمثلونها أحسن تمثيل ، إنما يزدادان ساعة عن ساعة » .

و بعد أن حمل تولستوى حملة شديدة على المال كما حمل على الملك يختتم كتابه بدعوة يوجهها إلى الأمهات كي يغرسن هذه المبادىء فى نفوس أبنائهن و بناتهن ؛ فهن اللائى بذلك يخلقن الجيل الجديد ...

* * *

كتب تولستوى كتبه الدينية ، وكتب كتابه هذا و إنه ليعلم أنه لن يسمح بنشرها ، و إنه ليعلم كذلك أن كثيرين ممن يؤمنون بالمذهب المادى و بالثقافة الحديثة سوف يسخرون مما يقول ، و بخاصة أصحاب العلم الحديث والاقتصاد الحديث ...

ولكن إخلاصه لآرائه كان منبعثاً من أعماق نفسه ؛ وكان يؤمن أنه سوف يأتى اليوم الذى تشعر فيه روسيا ويشعر معها العالم أنه أدى إلى أبناء المسيحية جميعاً أكبر صنيع بأن أراهم المسيحية كما أرادها المسيح لا كما زيفتها الكنيسة ، فبين لهم طريق الكمال أو أراهم كيف يقيمون « مملكة السماء » على هذه الأرض وأدى إلي الإنسانية أجل خدمة بأن بين للناس أصل الشر ، وأظهرهم على ما فى المجتمع الحديث من رذائل ومفاسد هي مبعث الفتن والثورات ، وأرشدهم إلى طريق الخلاص من هذا كله ...

ولقد حاربت الكنيسة كتبه بكل ما فى وسعها ؛ فمنعت نشرها بالضرورة وأخذت بالعقاب الصارم كل من يتناولها مخطوطة ، وصادرت كل مخطوط منها وتشاور رئيس المجمع المقدس والحكومة فى أخذ تولستوى نفسه بعقاب شديد ، ولكنهم ترددوا ، ثم أجفلوا من هذا الفعل ، وتركوا بغير عقاب ذلك الرجل الذى يرمى الكنيسة فى عصر كهذا العصر بأنها باطل ، وأنها قوة فى أيدى فئة ضئيلة من الناس لا وزن لهم ولا عمل يتصل بالمسيحية بأى سبب ، والذى يصف الدولة فى صورتها الراهنة بأنها حين تزعم أنها تقوم لخير الناس وأمنهم هى المعتدية التى تحمى آثامها بما لديها من قوة ! وأى هدم أقوى من هذا الهدم ؟ .

وسخر المؤمنون بأصحاب العلم وأصحاب الاقتصاد من كلام تولستوى ، وأيقنوا أن صاحب « الحرب والسلام » و « أنا كارينينا » قد ودع الى الأبد عقله ؛ وعجبوا كيف تسيغ عقولهم أن تقرأ هذيانه هذا كما يزعمون إلى جانب ما جاء به دارون ، وما كشفه العلماء ، وما أتى به أساطين الاقتصاد ؟ واستخفوا بما يعنى به نفسه من بحث فى معنى الحياة وغايتها ، وقالوا كيف يكون عاقلا من يجحد بالحضارة الحديثة ومن يقول إن العلم الصحيح هو ما يعنى بصلاح الناس جميعاً وحسن نهايتهم ، وأنه وحده الجدير بأعظم قدر من الإجلال ؛ وأن مثل هذا العلم هو ما جاء به كونفوشيوس وبوذا وموسى وسقراط ومحمد ؟

ولكن تولستوى ككل صاحب رسالة يتعزى بأنه أرضى نفسه بقوله ما يعتقد ، صريحاً بينا لا التواء فيه ولا غموض ...

ولقد حيرت مسألة الحياة والموت الفلاسفة من قبله وشغلت عقولهم ، ولا تزال تحير العقول حتى يومنا هذا ، وما ندرى ماذا يكون من أمرها غداً ؛ وليس التفكر فيها مما يعاب . بل إن الغفلة عنها هى العيب . يقول برنارد شو « ليست هناك علامة أقوى دلالة على حقارة عقل من العقول وغبائه غباء أصلياً ، من احتقاره الميتافيزيقا ، مهما كان من قوة هذا العقل فى ميادين النشاط العملى ؛ ولقد يكون شخص ما قادراً أعظم القدرة في الرياضة أو فى الهندسة أو فى الأساليب البرلمانية

أو فى السبق فى إخراج الكتب ، ولكن هذا الشخص إذا تفكر فى هذا السكون مدى حياته دون أن يسأل نفسه : ماذا يعنى ذلك كله ، فإنه (أو إنها) أحد أولئك الذين وضعهم كلفن حين قسم الناس ، فى فصيلة من كتب عليهم الشقاء الأزلى » .

***

بين تولستوى ضلال الكنيسة ، وأظهرها غير ذات عمل إلا ما تشيع فى الناس من هذا الضلال ، و بين للناس ما تقوم عليه الدولة من ظلم تسعى أن تجعله مشروعاً ، وأرشد الناس إلى سبيل الخلاص ؛ ولكنه يحس أن لا بد من كتاب يبسط فيه ماذا يجب أن تكون الحياة ، وهو إذا هم بأمر يتصل برسالته لا يقعد حتى يتمه ، ومن ثم كتب كتاباً جعل عنوانه « فى الحياة » ، وقد فرغ منه سنة ١٨٨٧ .

وهذا الكتاب من أهم آثاره الفلسفية وأجلها ، و به تختتم تلك السنوات التى قاربت العشر من حياته والتى جعلها لغير الفن من نشاطه ؛ وهو كآثاره السالفة معرض لآراء يلدها عقل موهوب ، برع أيما براعة فى الجدل و إقامة الحجة ، والإحاطة بكل ما هو بسبب من موضوعه ، يواتيه بيان مشرق فى سياق رائع ينفذ إلى القلوب .

يذكر تولستوى فى كتابه هذا أن أمام الإنسان فى حياته طريقين : أولهما طريق البدن ومطالبه ، وثانيهما طريق الروح وما تنزع إليه ...

وما للانسان فى حياته إلا دافع واحد هو ما يحلم به من سعادة ؛ ولا يلبث الإنسان إذا نظر نظرة خالية من الهوى أن يرى أن من الخداع الذى يضل الناس أن يظن المرء أن سعادته تتحقق ببلوغه ما يطلب لنفسه من مطالب شخصية ؛ وذلك أنه مهما بلغ من نجاح الفرد فى تحقيق رغائبه فلن يحول ذلك بينه و بين ما يفضى به إلى الغاية المحتومة من قوانين الوجود . فلابد أن يذبل كل شىء فيه حتى يذهب به الموت .

ومتى اقتنع الإنسان بهذا أحس إحساساً شديداً لايدافع ، بأن عليه أن يبحث عن السعادة الحقيقية فى اتجاه آخر ...

ولن يلبث الآن فى بحثه أن يرى مبلغ ما في العلم الحديث من إخفاق ، ذلك أنه بدل أن يشتغل بما يُرى الانسان صلاحه وسبيله إلى ذلك الصلاح ، نراه يشتغل بقوانين تتصل بحياته المادية لحفظ النوع وتنازع البقاء ، وما إليها ...

ولن يوجه العلم وجهته الصحيحة إلا فهم الحياة فهماً صحيحاً ، وما العلم فى حالته الراهنة إلا ذلك الذى يعلن أنه يلم بكل شيء عن البيضة فى حين أنه يظل جاهلا بسر تلك الحقيقة : ألا وهى أنه من هذه البيضة يخرج مخلوق حى ...

وإن اتجاه العلم اتجاهه الخاطئ ، يجعل ما وهب الإنسان من حكمة هى أجل مواهبه ، تبدو بادئ الرأى كما لو كانت شيئاً ابتلى به ،وذلكلأنها تؤدى به إذا تفكر، إلى إنكار الحياة ، ما دام أنه لا يستطيع أن يتبين فى أى اتجاه يبحث عن الحياة الحكيمة ؛ ولكن تفكره هذا فى الواقع بدء تيقظ شعوره ؛ وإذا ما تيقظ هذا الشعور فطن إلى أن ما كان يظن قبل من بواعث سعادته لا يعد شيئاً ما لم يُره كيف تكون الحياة الصحيحة وكيف يعيش وفق قوانينها ...

وإذا فالشعور الحكيم هو الذى يوجه الإنسان نحو الحياة الصحيحة ، لأن ذلك سوف ينأي به عنالمستوى الحيوانى الشخصي للشعور ، ويجعله بدل أن يعمل لنفسه فحسب ، يضحى بهذه النفس إذا اقتضي الحال من أجل غرض أسمى .

وهذا الشعور الحكيم وحده هو الذى يقنعالإنسان بأن هناك حياة غير حياته المادية الحيوانية وأنها ممكنة ؛ وتلك الحياة الجديدة مستقلة عن قوانين المكان والزمان ؛ ولكى يبلغها الإنسان بعد أن لحت له عن طريق ذلك الشعور ، ينبغى أن يرفع نفسه بجهاده هذه النفس جهاداً قويا متصلا ، وذلك لأن تلك الحياة الحكيمة التى تقوم علىالخير تتعارض مع مطالب بدنه وشهوات نفسه ، فلا بد ثمة من صراع أو كما تقول الأناجيل « لا بد أن يولد الإنسان مولدا جديداً » .

والشخص الذى يسيطر عليه الشعور الحكيم يوقن أن الحياة القائمة على

مطالب البدن وشهوات النفس مفضية حتما إلى الأفول والفناء ، ولذلك فهي غرور في أعقابه الحسرة ؛ بينما الحياة الطليقة من الزمن لا يخشي معها أفول ولا خوف ؛ وعلى هذا فتعلق الإنسان بالحياة المادية الوضيعة يتعارض مع صلاحه واطمئنان نفسه ، فلا بد له من الانطلاق منها والاندماج في الكون كله واستشعار اللذة والسعادة الصحيحة فى العمل لخير الناس .

وما العمل لخير الناس إلا مظهر الحب نحوهم ؛ و إن الذى ذاق عاطفة الحب ليدرك أنها وحدها القادرة على أن تتخطى كل عقبة ، وعلى أن تحل ما يبدو فى الحياة من متناقضات ، وعلى أن تهيء للانسان السعادة الصحيحة فيعمل عليها دائبا.

وليس يقصد تولستوى بهذا الحب ، انجذاب فرد إلى فرد ، و إنما يريد به أن يفعل الإنسان الخير للناس جميعا وللانسانية فى حاضرها ومستقبلها ... وما ذلك الحب الفردى فى أكثر حالاته إلا مظهر من مظاهر الأنانية ، وقلما كان سبيلا إلى الحب الشامل الذى يستغرق الكون كله ..

و إذا انطلق الإنسان من حياته الشخصية واندمج فى الإنسانية ، لم يعد حبه حباً فرديا تتجلى فيه طبيعته الحيوانية ، و إنما أصبح حبا شاملا لا يزال يتسع حتى يسع الكون كله ؛ وهذا هو الخلود ! أجل ، هذه هى الحياة التى لا تتقيد بالزمن وعلى ذلك فلن يضع الموت لها حدا ؛ فهى باقية و إن فنى الجسد أو ذلك الطين الذى هو مظهر الجانب الحيوانى فى المرء ..

عندئذ يفطن المرء إلى أن حياته ليست موجة ، و إنما هى حركة لا تقف ؛ وما يجعلها كالموجة التى تضيع إلا تصورها فى ذلك المظهر الحيوانى المقيد بالزمان والمكان ...

بهذا الأمل الحلو ، أو بهذه الصوفية الحالمة يختتم تولستوى نشاطه فى ميدان الفكر ، وهى خاتمة جميلة لمن يحن إلى الفن ؛ ثم إنها بدء جميل للفن فى وضعه الجديد ألا وهو أن يكون وسيلة إلى غاية ...



يا لها من سنوات عشر فى حياة هذا الرجل الفذ و ياله من مجهود ذلك الذى

بذله فيها ، فهو فى الحق مجهود فذ ؛ ثم يا لها من كتب تلك التى كتبها فى تلك السنوات ، فهى فى ذاتها عمل فذ . .

ولكن هل استراح تولستوى إلي حياته واطمأنت نفسه إلى العيش ؟ كلا فما يزال بينه و بين الراحة وهدوء البال أمد بعيد !

كتبت إليه زوجته من موسكو سنة ١٨٨١ وقد فر إلى القرية تقول « لقد بدأت تتألم منذ زمن بعيد ، وقد اعتدت أن تقول : إنى أريد أن أشنق نفسى لأنى لا أستطيع أن أومن؛ واليوم ماذا يشقيك وقد اهتديت إلى الإيمان ؟ ألم تكن تعرف من قبل أن فى هذه الدنيا آلافا من المرضى والتعساء؟ كان الله فى عونك ؛ ولكن ماذا أستطيع أنا أن أصنع ؟ »

ورد عليها زوجها بقوله « لا تُحزنى نفسك من أجلى ، وفوق كل شيء لا تتهمى نفسك » ...

وحق للكونتس أن تحزن وأن تظن بعقله الظنون ... وأى شيء أدعى إلى الحزن من أن ترى زوجها يهمل شؤون ضياعه إهمالا شديداً حتى كأنها ليست له فإذا ذهب إلى سمارا فى صيف سنة ١٨٨١ طلبا للمجلاج لا يعنيه هناك إلا النظر فى حال الفقراء والاستماع إلى آرائهم و بخاصة فى الدين ؟ وأى شيء أدعى إلى الألم من أن يهجر زوجته مرات فيبتعد عن موسكو هربا من حياة المدينة كما يعلن ، فإذا جاء إلى المدينة أكب على كتبه ونسى كل شيء غيرها ؟ وأى شيء أدعي إلى الشك فى عقله من رؤيته وسط الفقراء من أهل المدينة أو أهل القرية يحدثهم ويستمع إليهم ، ويدعوهم إلى داره ؟ وماهذا الذى يقرأ ؟ ما جدوى هذه العبرية ؟ ولم يتكلم زوجها هكذا طويلا عن المسيحية وعن الله ولم يجادل أصدقاءه جميعاً جدالا عنيفا ويضيق بهم كل مرة ويعزو إنكارهم آراءه إلى الجهل ؟ إنه مريض لا شك و إن مرضه فى عقله وحواسه ؛ هذا ما تحدث به زوجته نفسها.؛ وإنه ليلمس ضيقها مما يقول أو يفعل ، فيكتب إليها ذات مرة « لا تغضبى كما أراك أحيانا ، إذا ذكرت الله ، فإنه أساس أفكارى جميعا » .

ولما علمت بكتابه إلى القيصر وما دار حوله من سخرية خصومه ، ثم لما ترامى إليها ما يقول الناس فى موسكو عن زوجها أخذتها غاشية من الحزن .

وليت أمره وقف عند هذا ، فقد كان يزداد غرابة يوماً عن يوم ؛ فهو فى ياسنايا يعمل مع الفلاحين يداً بيد ، وإنه ليتطوع بقطع الأخشاب من الغابة لمن هم فى حاجة إليها ، وإنه ليزرع لمن لا عائل لهن من الأرامل ، وإنه لينفض التراب عن حجراته بنفسه وينظف حذاءه بيديه ، وإنه ليلبس ملابس الفلاحين فيبدو كأنه واحد منهم ، وهو فى موسكو يحمل الماء من البئر ويخصف نعله بيده أو يصنع نعلين كاملتين ، وينظف حجراته وملابسه ! ...

وإنه رغبة منه فى أن يستغنى عن المال ما أمكنه ، يمشي علي قدميه أحياناً إذا أراد الانتقال من موسكو إلى ياسنايا وهى مسافه تقرب من مائة وثلاثين ميلا ؛ وليس معه إلا طعامه ودفتره وقلمه ، ولقد يمشي وحده أو يختلط ببعض الفقراء في الطريق ، وإنه لينام حيثما اتفق فى أى مأوى يدله عليه الناس .

وذهب ذات مرة إلى دير أو بتينا بولين ماشياً ، واستصحب أحد أصدقائه وهو رئيس إحدى المدارس ، وتابعاً له ، وكان يلبس ملابس الفلاحين ، وينتعل مثل نعالهم من غير جورب ، ولكنه أحس ألماً فى قدمه فاشترى جورباً في الطريق كما اشترى حزاماً لوقاية جسمه ؛ وكان تابعه يحمل ملابس نظيفة فى شنطة ؛ وبعد أيام بلغوا الدير ، وأنزلهم رجاله مع الفقراء من السائلين ؛ وقد سر تولستوى بذلك سروراً عظيما ؛ ونام تولستوى فكان على مقربة منه إسكاف شديد الشخير فأيقظه ؛ وأشار تولستوى إلى تابعه فنبه الرجل فصاح مغضباً : أتمنعنى من النوم من أجل صاحبك هذا ؟

وتسرب نبأ وجود تولستوى بالدير إلى الرهبان فما لبثوا أن عرفوه ، واستقبله رئيس الدير الأب أمبروز ، وهو يعرفه من قبل ، وأكرم مثواه ؛ واضطر تولستوى أن يلبس ما كان معه من ملابس نظيفة ، ثم قاده الرهبان عند النوم إلى غرفة كبار الضيوف ؛ وعاد فى اليوم التالى ومن معه بالقطار ...

وكان بيته فى موسكو ، حيث كانت تعيش زوجته وأبناؤه عيشة أرستوقراطية ، مقصد المئات من محبيه والمعجبين به ؛ وكان يعجب زائروه إذ يرونه في إحدى حجرتين صغيرتين خصصتا له فى هذا البيت الكبير ، وهو فى زى الفلاحين يبدو غريباً كأنه لم يكن رب هذا البيت ..

وكان يحج إليه فى ياسنايا أنماط من الناس ما بين أمراء وفلاحين وأجانب من دول كثيرة ؛ وكلهم ممن أعجبوا بمبادئه ، وقد جاءوا كى يروه وكي يعلنوا إليه ولاءهم ؛ ومنهم من يخبره بتنازله عن ثروته وإقباله على العمل بنفسه ، ومنهم من يستوضحه بعض آرائه ؛ ومنهم من يسأله كيف يتوب وكيف يحيا الحياة التى يدعو إليها ؛ وما منهم إلا مصدق به مبتهج برؤيته ...

وكثيراً ما وجده زائروه يعمل بمنجله فى الحقل وحوله عدد من أتباعه وتلاميذه يعملون معه ، وفيهم الأمير والكونت والمعلم والفلاح ، وهو فى مظهره بينهم لا يفترق عن أى فلاح ممن يرون فى القرية .

ويبدو تولستوى لزائريه راضياً عن حياته ؛ إذ هو فى الواقع يحس في أعماق نفسه عذاباً شديداً ، فماذا يعذبه اليوم وقد اهتدى إلي الحياة الصحيحة ؟

كان مرد شقائه إلى ثلاثة أسباب : أولها أنه مهما خالط الفقراء والفلاحين لا يحس إحساساً كاملا أنه واحد منهم ؛ وثانيها أنه وهو الذى يرى الملك أصل الشر لايزال من كبار المالكين ؛ وثالثها موقف الحكومة والكنيسة من كتبه وآرائه

والحق أن تولستوى كان لا يفتأ يذكر مهما اقترب من عامة الناس ومهما خالطهم أنه لا يزال فيه الكثير من تلك الحياة التى أراد أن ينطلق منها ؛ قال دستويفسكى مرة عن ليفن « إن رجالا على شاكلة ليفن قد يعيشون مع عامة الناس أطول ما يريدون ، ولكنهم لن يستطيعوا أن يكونوا منهم ، فليست هناك قوة من التصميم أو الإرادة أو الخيال تمكن رجلا ما أن ينفذ غرضه كما يشاء وهو أن يكون واحداً من العامة »

وكان دستويفسكي على حق فيما ذكر ، وما يقال عن ليفن يقال عن

تولستوى ، ولعله أراد تولستوى بهذه العبارة ليبين أن ما ينزع إليه فى شخص ليقن شىء لا يمكن تحقيقه .

وكيف يحل شخص جديد مكان شخص والنفس هى النفس ؟ ليلبس تولستوى ملابس الفلاحين ما شاء وليسلك مسلكهم ما شاء ، ولكنه لن يملك أن تكون له عقلية الفلاح وروح الفلاح وإيمان الفلاح لأنه لا يستطيع أن يتخلص من تجاربه وعلمه وفلسفته ...

ذلك ما كان يكرب نفسه ويعذبه ، فلقد فطن بعقله بعد طول النظر ولكنه لم يؤمن إيمان العامة ، ذلك الإيمان الذى يعيشون عليه من غير نظر أو تفلسف ؛ وهو يتوق اليوم إلى هذا الإيمان ولن يهنأ له عيش إلا إذا استشعرته نفسه واطمأن إليه قلبه ، فما هو بعابث كما كان يفعل بالأمس فى صدر شبابه حين كان يعتزم الكمال ثم لا يلبث أن يعود إلى مجونه ؛ إن له اليوم رسالة من أجلها يعيش ، لقد صور له فكره ووجدانه اليوم كيف تكون الحياة وإنه يريد أن يعلم الناس ويهديهم ، فكيف يفعل ذلك ونفسه غير مطمئنة ؟

إن إحاطته بآراء الفلاسفة وإن ذكاءه وإن تجاربه ، كل أولئك يفسد عليه تخشعه وقنوته ، ويحول بين روحه وبين الاطمئنان ؛ وما يملك مهما بلغ من قوة الإرادة أن يخضع هذه الروح ؛ فالروح متصلة بالماضي كما تتصل بالحاضر ولا يمكن أن تحبس أو تقيد ؛ « إن محاولتك احتجاز الروح هى كمحاولتك أن تمسك شعاعا من أشعة الشمس ، فاحبسه ما شئت وأحكم حبسه ، فإنه يجد أبداً طريقه إلى الخارج » هذا ما قاله بعد سنوات وهو يصور لنا عناءه الروحى خير تصوير ...

ولقد كان الفلاحون أنفسهم ينظرون إليه فى ريبة ؛ وكان أصدقاؤه وزوجته وأبناؤه فى حيرة من أمره لا يصدقون أو لا يتخيلون كيف يغدو كما يريد أحد العامة ، بعقله وثقافته وفلسفته ؟ وأما أهل عصره من الكتاب والأدباء فقد تناقلوا كما أسلفنا فى أسبوع بوشكين أنباء خبله ؛ ولقد أحزن ترجنيف هذا الذي يسمعه

عن تولستوى وظل يمنى نفسه بعودته إلى الفن منذ انقطع عنه فى سنة ١٨٧٨ ؛ فلما أحس أنه يدنو من الموت ، وكان يعانى آلام مرضه الأخير فى يوليو سنة ١٨٨٣ تحامل على نفسه وتناول رقعة وقلماً وكتب إلى تولستوى كلمة يقول إنها رجاء منبعث من قلب رجل يموت وناداه « يا شاعرنا العظيم ، يا لسان هذه الأرض ، أرضنا الروسية ؛ عد إلى الأدب فهو موهبتك الحقيقية ، اسمع توسل رجل يموت»

ولكنه لا يعود إلى الأدب فقلبه غير مطمئن بالإيمان ، وهو لا يزال يجاهد كى يؤمن وكى يطمئن قلبه ، ولن يقل عذابه اليوم عن عذابه حين كان يسأل نفسه : ما غاية هذه الحياة ...

وهيهات أن ينتزع المرء نفسه من ماضيه انتزاعاً تاماً ، ومايملك المرء إلا أن يغير بعض عاداته ، ويصلح بعض جوانب سلوكه . أما أن يصبح على نقيض ما خلق ومابثته الحياة فى نفسه ، فذلك ضرب من المستحيل ، وفى هذه الاستحالة عذاب تولستوى ...

وكان بعض خصومه حتى آخر أيامه يرمونه بالنفاق ، ولكنه كان لا يحفل اتهامهم رد على أحد سائليه ذات يوم بقوله « يقول لى الناس : إذا كنت ترى إن ليس ثمة من حياة حكيمة ما لم تنفذ تعاليم المسيح ، و إذا كنت تحب هذه الحياة الحكيمة ، فلماذا لا تنفذ ما تؤمن به ؟ و إنى أجيب على ذلك بأنى مخلوق وضيع أستحق ما يوجه إلى من لوم واحتقار لعدم تنفيذي تلك التعاليم. ولكنى ، تفسيراً لتناقضى ، لا تبريراً له ، أقول : تدبر فى حياتى قبل اليوم وفى حياتى الآن : فستجد أنى أحاول الأخذ بما أمرت به . أما أنى لم أنفذ جزءا من عشرة آلاف جزء فهذا حق ، ومن أجل ذلك أستحق اللوم ، ولكن تقصيرى لا يرد إلى أنى لا أرغب في تنفيذ ما أمرت به ، ولكن إلى عدم معرفتى كيف أفعل ذلك ، علمني كيف أخلص نفسي من تلك الشباك التى أحاطت بى ، شباك الغواية ؛ أعنى على أمرى تجدنى نفذت ؛ على أننى من غير عون أرغب وآمل أن أفعل ؛ ألا فلتلمنى فإنى ألوم نفسى ؛ ولكن وجه اللوم إلى شخصى لا إلى الطريق التى

أسلك ؛ ثم بين الطريق لمن يسألون أين الطريق المؤدية . إنى أحاول بكل ما فىّ من قوة أن أضع ذلك موضع العمل ، وكلما فشلت مرة لست أندم فحسب ، بل إني لأصلى طلباً للعون حتى أستطيع أن أفعل ما أريد ؛ وإنى لألقي بكل غبطة أى شخص يبحث كما أبحث عن الطريق وأستمع إليه » .

هذا ما كان من أمر تولستوى فى جهاده نفسه ، وما أورثه إياه هذا الجهاد المرير من ضنى ومن عذاب سوف يصاحبه حتى يغمض الموت عينيه ..

أما ما كان من أمر ملكه وثرائه ، فإن تولستوى حينما فاتح زوجته برغبته فى أن يتنازل عما يملك ، وأن يعيش وأسرته عيشة متواضعة تتفق وما يعتقد ، لم تأخذ كلامه أول الأمر إلا على أنه ضرب من خبله لا يلبث أن يزول ؛ ولكنها لما رأته يعود إلي ذلك أكثر من مرة ، ولما أيقنت أنه جاد ، لم تملك دمعها . ثم إنها أخذت تعنف عليه ، وقد أخذتها الحيرة من أمره ، وأحست الحزن فى أعماق قلبها ؛ وصارت لا تستطيع أن تصغي إليه كلما أشار إلى ذلك الأمر ، فإذا أصر على الكلام صرخت مهتاجة ، وولت عنه مدبرة .

وكان هو من جانبه يضيق بها وبمن لا يفهمه من أصدقائه وأبنائه . قال : « إنى لأعجب مراراً لم قدر على أن أرى غباءهم واضحاً هذا الوضوح كله ؛ بينما هم غير قادرين علي أن يدركوا مبلغ خطأهم وغباءهم ؛ ولذلك يظل التصادم بيننا ، ونلوم بعضنا بعضاً بغير فهم ؛ وليس يغيظنى إلا أنهم كثيرون وأنا واحد بينهم » .

وكانت تعلن إليه زوجته أنها لا تبخل بصدقة مهما عظمت علي الفقراء والمساكين ، ولكنها لا تتصور كيف تتنازل الأسرة عن أملاكها ، وتعيش عيشة هؤلاء الفقراء بعد أن ألفت حياتها فى وضعها الراهن ؛ وهو عما تقول معرض فالملك أصل الشر ، وهو بشير للناس بدين جديد فكيف يمتلك الضياع العامرات ويدعو الناس فى الوقت نفسه إلى دينه ؟

ألفت الكونتس حال زوجها ، وباتت مصدقة بإخلاصه وجده فيما يقول

أو يعمل ، بعد أن كانت ترد ذلك إلى مرض أو خبل . ولئن كان يحزنها تغيره هذا أشد الحزن فما لها حيلة فيه ؛ حتى الصبر فإنها كثيراً ما تطلبه فلا تجده ؛ وكيف تصبر مثلا على رؤية زوجها فى ملابسه القروية الخشنه ، وخلفه كلبه يشخص إلى حفلات الرقص فيقف هنيهة ثم ينصرف ! وماعسى أن يقول الناس؟ ولكن الناس قد فرغوا من عجبهم منه ، وذهبوا مذاهبهم فى تأويل ما يرون من حاله ...

ويحزن نفسها منه غير هذا انصرافه عنها وعن أطفاله ؛ وتعود إليها وساوسها القديمة فترى أنه لا يحبها ؛ ويضيق ذرعاً بها فيعلن ذات مرة أن أعظم ما تتوق نفسه إليه أن يهجر بيته وأهله . ويشتد غمها وتعود إلى مثل ما سلف من حالاتها من البكاء واليأس والرثاء لنفسها والغيرة حتى لتقول : « إنى أسأل الله أن يميته فإنى لا أطيق العيش بغير حبه ؛ إنى لا زلت على ما منحته من حب فى هذه السنوات العشرين ، وإذا لم يعد فسوف أعلم أنه يحب امرأة أخرى » .

وتقدم ذات مرة على الانتحار فتمشي فى الغابة إلى أحد أحواض الاستحمام وتنزل فى ماء قرب من التجمد ، فيه قطع الثلج ، بغية أن تأخذها رعشة عنيفة تميتها ؛ ولكنها تبقى فيه زمناً طويلا دون أن يصيبها شيء ؛ فتعود إلى بيتها مثقلة النفس ... وبعد يوم واحد تثبت فى مذكراتها قولها ، وقد تم بينهما الصلح : « لقد بكينا معاً ، ورأيت فى فرح أن الحب القديم ، ذلك الذى حزنت على فقده فى تلك الليلة المخيفة ، لا يزال حياً فيه » .

وتحس الكونتس أنه لم يعد بينها وبين زوجها من خلاف إلا فى نظرتيهما إلى الحياة ، وتعبر عن هذا الخلاف أحسن تعبير بقولها فى مذكراتها : « لا يسع ليو إلا أن يكتب ويتكلم منددًا بحياة المدينة وبحياة الطبقة العليا بوجه عام ، فإنه رجل يسبق عصره ، وهو يشير إلى الطريق التى يجب أن يسلكها الناس ؛ ولكنى واحدة ممن فى زحمة الناس ؛ إنى أعيش معه وأرى الضوء الذى يحمله كل رجل مثله يسبق جيله ، وإنى أقر أنه الضوء ، ولكنى لا أستطيع أن أماشيه

فإن لى من زحمة الناس ومن عاداتى ومن بيتى ما يعوق خطواتى » ...

وظلت الـكونتس تروض نفسها على الصبر تارة وتغضب تارة ، حتى كانت سنة ١٨٨٤ فوقع بينهما خلاف أفضي إلى أزمة شديدة . أما هو فـكان يشكو من أن أهله لا يكترثون له ولا يأبهون به . قال « إن حياتى مؤلمة فى بيتى ؛ ولقد بلغ من تألمى أنى لست أستطيع أن أعطف عليهم ؛ إن في أفراحهم ولعبهم وامتحاناتهم ونجاحهم فى المجتمع وموسيقاهم وفرشهم ومايشترون ، شر لهم ؛ ولست أستطيع أن أفهمهم ذلك ؛ وإني أدعوهم ، ولـكن كلامي لا يصل إلى أحد ؛ كيف لا يرون أنى لم أستشعر لنفسي حياة فى هذه السنوات الثلاث إلا العذاب ؛ إنهم يجعلون لى بينهم موضع شيخ هزيل ، ويظنون أنى لا أملك لذلك دفعاً »

وأما زوجته فما فتئت تشكو وتبكى ، وتعلن إلى من فى الدار أن الـكونت قد اعتزم هجرانها ، وأنه لايحبها ؛ وكانت يومئذ ذات حمل ، فأرادت أن تجهض جنينها ، وقد زادها ذلك هياجاً وضعفاً لأنها لم تفلح فيما صنعت لإجهاضه .

وكان الـكونت يأوى إلى حجرة مكتبه فيغلق بابها دونه هرباً من شكايتها وبكائها ، وأثبت في مذكراته يومئذ قوله « إن كل ما أفعله خطأ وإنى لأتعذب عذاباً مخيفاً بهذه الأخطاء ... إنى لا أجد وسيلة لمعاملة زوجي معاملة لا تؤذى شعورها ، دون أن أنزل على رأيها ».

وفى السابع عشر من يونيو عنف بينهما الـكلام فصاح تولستوى محنقاً إنه لم يعد يطيق صبراً ، وأنه مهاجر من فوره إلى أمريكا . ثم إنه وضع بعض متاعه فى شنطة صغيرة ، ومشى يقصـد تولا . فلما كان فى منتصف الطريق إلى هذه المدينة كبر في نفسه أن يترك زوجته فى سرير الوضع ؛ فعاد إلى بيته وبلغه فى الساعة الخامسة من الصباح ؛ ولما دخل الدار نزلت إليه زوجته لتوها وقالت له « ليو ... إنى أشعر أن المرض يشتد على وعما قليل سألد ، ماذا يغضبك ؟ أعف عني إن كنت ملومة في شيء ، واصبر فإني أعلم مما يحيط بى أنى لن أعيش بقية

اليوم » ؛ ولم يرد زوجها ، ومشى حتى كان قبالتها فنظر فى وجهها نظرة طويلة وهو صامت ثم انصرف ، و بعد ساعة ولدت له بنتهما ألكسندرا ...

وكتب بعد ذلك يقول « لقد كانت عودتى خطأ ؛ وأظن أن فرارى واقع لا محالة عاجلا أو آجلا » .

و بعد شهر أثبت قوله « لقد دخلت على حجرة مكتبى ، و بدأت منظراً هستيرياً انتهى بأن أعلنت أنه ما من شيء في حالها يمكن أن يتغير ، وأنها شقية ، وأنها تريد أن تفر إلى أى جهة ما ؛ ولقد أسفت لها ، ولكنى لم أملك أن أصنع شيئاً ؛ ولسوف تبقى إلى آخر يوم من حياتى حجر طاحون حول عنقى وحول أعناق أطفالى ؛ ويجب أن أتعلم كيف أتجنب الغرق وحول عنقي هذا الحجر » .

وحل الصفاء فى أغسطس بينهما محل الجفاء ، وكأنما أرادا أن يخرجا مما كانا فيه من غم لا يطيقانه فلاذا بالصلح ؛ ولما انتهى الصيف رحلت الكونتس وأولادها و بناتها إلى موسكو ، و بقى الكونت فى ياسنايا .

وكتب إليها فى الريف مغتنما هذا الصلح عسي أن تقتنع برأيه ، وذكر لها أنه لايستطيع ألبتة أن يعيش عيشة هى على نقيض مايعتنق من عقيدة ؛ واقترح أن يأتى تخلصه مما يملك شيئا فشيئا ، ورجا منها أن تفكر فى الأمر قبل أن ترد فلا تكتب ردها ساعة فراغها من قراءة كتابه ...

وجاءه ردها فإذا هى ترفض أن تصغى إلى شيء مما يقول ، و إذا بها على الرغم من عبارات ودية فى كتابها تسخر منه متمثلة بالمثل القائل : « دع الطفل يلعب بأى لعبة يشاء طالما أنه لا يصرخ » .

ويئس من إقناعها فكانت هذه آخر محاولة له ؛ ولذلك ترك لها الثراء ليحيا هو حياة الفقراء ، فجعل لها الولاية على ما يمتلك جميعاً وفى طبع ما صدر من كتبه حتى سنة ١٨٨١ .

هذا ما كان من أمر شقائه بما يمتلك وما كان من مسلك زوجته حياله ؛ ولقد قنع على زغمه بهذا الحل وإن كان لا يراه حلا ...

أما ما كان من شقائه بسبب موقف السلطات منه ؛ فإن من أعاجيب القدر أن يقذف تولستوى بآرائه فى الدين والاجتماع فى وجهى الكنيسة والدولة ، فى وقت كانت الدولة فيه ، وكان پوبندو نستسوف رئيس المجمع المقدس ومن حوله رجال الدين ، يحصون على الناس خطواتهم ، ويكادون يملكون عليهم أنفاسهم . كان هم الحكومة كما أسلفنا خنق كل فكرة قبل أن تنمو ، وكان الناس فى نظرها فريقين ؛ الخاضعين للنظام القائم ، وهؤلاء لا خوف منهم . والناقمين عليه وهؤلاء هم الأشرار ؛ وكان يكفى أن يتهم المرء بأنه ناقم ، حتى ولو لم يبد منه شيء من قول أو عمل ليذوق النكال ...

لذلك كان من أعاجيب القدر كما قلنا أن تأتى آراء تولستوى فى ذلك العهد ، وليس معنى ذلك أنه لم يكن وقتها ، بل معناه أنه كان أصلح وقت لها ؛ وليس فى الأمر غرابة ؛ فما تفتقد الأفئدة والأبصار النور إلا إذا اشتدت الظلمة ، وما تهفو الأنفس إلى النسيم إلا إذا ضاقت بما يخنقها ؛ وما يدرك الناس معنى الأمن إلا إذا أحاط بهم الخوف ؛ وما يقدر الناس الحرية حق قدرها وتزداد محبتهم لها إلا إذا اشتد بهم الظلم . فكأنما جاءت آراء تولستوى يومئذ على قدر ؛ فقد جاءت وفيما يفعل خصومه البرهان على أن فيها خلاص الإنسانية كما أراد بها صاحبها ... وما كان لرسالات الرسل جلالها وروعتها ومعنى هداها إلا لأنها تشرق في ظلمات الزمن ؛ وكذلك مع الفوارق شأن المصلحين فى كل عصر ...

هذا ما كان يتعزى به تولستوى ، وإن كان أحياناً ليضيق بالعصر ومن فيه إلا من اتبعه ، وهم قليلون يومئذ ، وما كانت قلتهم فى رأيه إلا لأنه لا يستطيع أن ينشر كتبه .

ولقد بلغ من محاربة الحكومة إياه أنها منعت ظهوره فى مجتمع عام سنة ١٨٨٣ فقد دعته جمعية محبي الأدب الروسي ليقول كلمة في ترجنيف عقب موته ؛ وقبل تولستوى من أجل ترجنيف ؛ وإن كان لا يحب الاجتماعات ، وأقبل علي إعداد

كلمته فى حماسة ، وتهيأ الناس فى موسكو ليشهدوا الاحتفال ، وليروا كاتب روسيا الأكبر ، ولكن الحكومة لم تسمح له بالكلام أو شهود الاجتماع ؛ بل لقد منعت الاحتفال نفسه ...

ولسوف تستمر المعركة بينه و بين السلطات حتى موته ، ولولا ما توافى له من مكانة فى قومه لم يبلغها أحد قبله ، حتى لقد كان يصغى إلى صوته كل رجل فى روسيا ، وفى مقدمتهم القيصر نفسه ، لألقي به في السجن أكثر من مرة كما قلنا أو نفى من الأرض ؛ ولكن ذلك ما عجز عنه الظلم فى عنفوانه ، وكفي بذلك شهيداً على مجده إن كان يعد فى حاجة إلى شهادة أو إلى تمجيد ...

* * *

عاش تولستوى عيشة الزاهد بعد أن ترك لزوجته ثروته ؛ فحرم أكل اللحم على نفسه لما يتضمن أكله من قسوة القتل والذبح ولما ينم عنه من نهم ؛ وحرم على نفسه الصيد وشرب الخمر والطباق . فليس له اليوم من رياضة إلا المشى أو مايعمل من عمل بيديه فى الحقول والغابات أو فى صنع الأحذية ، أو فى خصف ما تمزق منها ...

ولم يعد له مما يدرأ به السأم عن نفسه إلا اللعب مع أطفاله ومسابقتهم فى العدو وقص القصص عليهم ، أو الاستماع إلى بعض الألحان ، أو لعب بعضها على البيان ؛ ثم يعود إلى أحذيته القديم منها والجديد إن كان في موسكو أو إلى منجله أو فأسه إن كان فى ياسنايا...

و إن نفسه لتستريح إلى المسكنة ، و إلى مخالطة المساكين والحدب عليهم ، ودعوتهم إلى داره ومؤاكلتهم ، ومصاحبتهم حيث يجلسون فى الطرقات وحيث يعملون إن كان لهم عمل ...

ولم يعدم تولستوى من أسرته من يعطف عليه ويؤمن بما جاء به ، ألا وهما بنتاه ماری وتانيا ؛ وكانت مارى سنة ١٨٨٥ فى الخامسة عشرة من عمرها وكانت فتاة رقيقة الإحساس جميلة الصوت ذات حسن ورشاقة ، وقد عز عليها أن

يترك أبوها هكذا وحده ، وأحست ذلك من أعماق نفسها ؛ فآثرت جانبه ، وتركت أصدقاءها وصديقاتها ، وأدارت ظهرها للهو الحياة ومفاتن المدنية ، وهى بعد فى أول الشباب ؛ وانطلقت إلى أبيها في عزم مصمم ، وراحت تكتب له ما يريد وتخف إلى ندائه ، وتسعي إليه أينما وجد . ثم أخذت تعمل بتعاليمه ؛ فكانت تخدم فقراء القرية ما وسعتها الخدمة ، وصارت تعمل فى وهج الشمس مع القرويات ، وتنظف حجرتها وتهيء طعامها بنفسها ؛ وأحبها جميع من فى القرية وبخاصة النساء ، وكن يفضين إليها برغائبهن ويظهرنها على كل ما فى نفوسهن .

وكانت تانيا فى الحادية والعشرين ، جميلة المحيا ، نشطة ، ذات ذكاء وعقل ، وكانت شديدة المحبة لأبويها كليهما كما كانت تحظي بحبهما ، وكانت تعين أمها في أمور البيت فى همة ونشاط ثم تنطلق إلى أبيها تنظر ماذا يريد ، وتجيبه إلى مايطلب ، وتبقى بين يديه تكتب مايملى عليها أو تستقبل زائريه وتحسن ضيافتهم.

وكان يغشي الجانب الذى يقيم فيه الكونت من البيت أنماط من الناس ، من فقرائهم وأغنيائهم ، وكانت الكونتس لا تعبأ كثيراً بهذا الجانب ؛ أما جانب إقامتها هى وأبنائها وبناتها فكانت تحرص على مظهر أرستوقراطيته وعظمته ، تقيم فيه الحفلات والولائم ، وتستقبل العلية من الضيوف نساء ورجالا يأتون في المراكب الفخمة وفى مظاهر الأبهة والنعمة . .

وكان إذا غشى زوجها حجرة من الحجرات الأرستوقراطية عقب عمل ، وانبعثت منه رائحة السماد والعرق أسرعت فأحرقت أقراصاً ذات دخان طيب الرائحة ، فيضحك الكونت قائلا إنها بهذا البخور تحرق الأرواح القذرة .

* * *

وغضن وجهه العمل المتصل والجهد العقلي ومتاعب زوجته حتى ليحسب أنه قارب السبعين وهو لا يزال دون الستين ؛ وأخذ الشيب يشيع فى فوديه ولحيته ؛ ولكن لا يزال لبدنه حيويته وقوته ، ولعينيه بريقهما ويقظتهما ، ولن يخمد هذه الحيوية أو يطفىء ذلك البريق إلا الموت ...

ويبدو فى وجه الـكونت ما يبدو فى وجوه القديسين من الهدوء والسكينة ، والاحتشام ، كما يبدو ذلك فى هيكله كله ، ومرده إلى ما كان يملأ رأسه أبداً من التفـكر فى رسالته ...

على أنه يتخفف أحياناً من همه فيضحك مع الضاحكين ويتندر ؛ وتعود إليه عذوبة روحه ونشوة نفســه حتى لـكأنه ألقى عن كاهله عشرين سنة ؛ ولـكنه يحتفظ بوقاره وشخصيته ، وما زاره أحد فى جده أو مرحه إلا وجد نفسه مأخوذاً بقوة هذه الشخصية ؛ وما استطاع أحد قط سخر منه ولم يره أن يسخر منه وهو بين يديه مهما لبس من ثياب أو عمل من عمل ...

وكانت تصدر منه أحياناً كلمات يعجب لها سامعوه ، ويحارون فى تفسيرها كما نحار لأنها لا تشاكل حياته الجديدة ؛ ومن ذلك قوله لقوم يجادلونه فى الذهاب إلى حيث يشهدون ساره برنار وكانت يومئذ فى موسكو : « إنى شديد الأسف لأنى لا أستطيع أن أذهب كذلك » ؛ ولقد كان ينكر عليهم ذهابهم ، وراح ينقم على الأغنياء ترفهم القائم على جهود الفقراء ؛ ومن ذلك أيضاً قوله وقد رأي فارسين على جواديهما « ما أجمل وأبهج أن يكون المرء وجيهاً ، ما أجمل ذلك » !

وكان يؤلمه أشـد الألم ما يعلم من خطأ الناس فيما يتصل بسلوكه وآرائه ، أو تعمدهم إظهاره فى صورة باطلة ، تشعر بادعائه أو نفاقه أو طلبه الشهرة ؛ ولـكنه كان يتأسى بمن خلوا من قبله فما سلم مصلح قط من سخرية الناس ولا من أذاهم .

رأى صورة رسمه فيها أحد المصورين عارى القدمين فقال « لقد خلع نعلى ، وإنى لأشكره أن أبقى لى سروالى . إنها حقاً غير طبيعية وفيها كثير من الادعاء ، ألا يعلم أنى لست أمشى حافياً ؟ إنى لم أخلع نعلى على أعين الناس إلا مرة واحدة ، ولقد كان هنالك لسوء حظى ورأى ذلك منى » .

وأدى تغيره هذا التغير وشدة تمسكه بآرائه وإيمانه بصلاحيتها ، وعنفه فى مجادلة من ينكر ذلك أو يتشكك فيه ، إلى مجافاته كثيراً من أصدقائه ومجافاتهم إياه ، ومن هؤلاء صديقه الحميم الشاعر فت فقد راح تولستوى يقول عنه :



تولستوی قرب الستین

« إنه لا يطلب من الحياة إلا سريراً ناعماً ، ولحماً جيد الطهى ، وزجاجة من خمر طيبة ، وزوجا من الجياد الكريمة » ...

ولكن آراءه من ناحية أخرى قد جذبت إليه من المريدين والمعجبين ممن سرهم أعظم السرور أن يكونوا له تلاميذ وأتباعاً ، أضعاف ما فقد من الأصدقاء ، ومن هؤلاء من سوف يكون لهم شأن خطير فيما بقى من حياته ...

ونذكر من أتباعه وتلاميذه فلاديمير شرتكوف وهو ضابط شاب فى الثلاثين عظيم الوجاهة ، من الأرستوقراط ، كان والده قائداً فى حاشية القيصر ، وكانت أمه من أعرق الأسرات ؛ وكان الناس يتنبأون له بمستقبل عظيم ؛ ولكنه آثر اعتزال الجيش ليتفرغ للخدمة الاجتماعية . فقد آمن بعد اتصاله بتولستوى سنة ١٨٨٣ أن الجندية لا تتفق وحقيقة المسيحية ، وتحمس لأستاذه وصار من أكبر العاملين على إذاعة مبادئه ، وسوف يظل من أقرب أصدقائه إليه ، ومن أكبر المخلصين له المعجبين بما جاء به ، وكثيراً ما كانت تصل مناصرته تولستوى حد التعصب له .

وقد قدم إليه شرتكوف بعد عام من معرفته صديقاً له يدعى بيروكوف ، وكان كذلك ضابطاً بحرياً ، وسرعان ما انجذب إلى تولستوى وقد أحب حديثه ثم اعتنق مبادئه ، وصار من أقوى العاملين عليها ...

وتحمس لتولستوى من رجال الثقافة الروسيين وغير الروسيين : سولوفيوف الفيلسوف ، وكان من نابهي العصر وأعلامه فى الفلسفة ، وجاى الرسام النابه ؛ و بولانجير المهندس ؛ وچارنفيلد الكاتب الفنلندى الذى ترجم كتب تولستوى وعاش وفق مبادئه ، ورسانوف الناقد الأدبى الذى أعلن قرب وفاته أنه كان جاحداً فآمن بالله على يدى « أعظم الرجال شأناً ليوتولستوى » ، وجولد نوايزر رجل الموسيقى الموهوب لويز المر مود الإنجليزي ، الذى أعجب به و بمبادئه ، والذى ظل صديقاً له وكتب ترجمة حياته وترجم كتبه إلى الإنجليزية .

وممن نفذوا مبادىء تولستوى عملا ، أمير شاب لم يره قط يدعى خلكوف وقد أعطى أكثر أرضه للفلاحين ؛ وأخذ يعمل بنفسه بغير أجر حتى مرن على العمل ، ثم صار يقبل أن يُستأجر ؛ ولقد أعلن جحوده بالكنيسة الأورثوذكسية ولما رأت فيه الحكومة مثالا خطراً فقد نفته إلى القوقاز . ثم نقلته إلى ولايات البلطيق فتحمل آلام النفى راضياً صابراً فى سبيل عقيدته ؛ وفي سنة ١٨٩٨ سمحت له الحكومة بمغادرة روسيا فذهب إلى إنجلترة حيث عاش بين نفر من أتباع تولستوى وتلاميذه . .

ومنهم فنرمان ، وهو شاب يهودى فى التاسعة عشرة ؛ جاء إلى ياسنايا يطلب العمل . ثم اعتنق الأورثوذكسية وفق تعاليم تولستوى ؛ وعمل فى إحدى المدارس زمناً حتى جُند ؛ وقد ظل معجباً بتولستوى طول حياته وكتب ترجمة له ...

ومنهم مارى ألكسندرا شمدت ، وكانت رئيسة مدرسة من أحدث مدارس البنات الأرستوقراطية فى روسيا ؛ ولما قرأت كتب تولستوى اعتزمت أن تغير حياتها ؛ ولقد عظم إخلاصها له وإقبالها على مبادئه ، ولقد رفعت من بيتها صور القديسين ووضعت محلها صور تولستوى ، وتحملت شقاء العيش والفاقة فى سبيله ؛ وكانت تكتب كتبه المحظورة بيدها وتبيعها لتأكل ، ولتذيع فى نفس الوقت مبادئه ؛ ثم انضمت إلي الجماعات التى تألفت فى روسيا لنشر تعاليم تولستوى ، وظلت بقية حياتها تعيش عاملة بيديها مؤمنة متحمسة لمبادىء الفيلسوف الكبير .

ومنهم ناظر مدرسة يدعى أورلوف ، عاش عيشة الزهد والتقشف الشديد ؛ ليعين تسعة من الفقراء ، وكان رضى النفس أبداً مطمئناً على ما به من خصاصة وما يعانى من مرض .

ومنهم فيدوروف ؛ وهو أمين مكتبة فى أحد المتاحف ؛ وكان تولستوي يسميه القديس . فقد عاش فى كوخ ليستطيع أن يمد بمعونته الفقراء ...

ومنهم سوتايف الفلاح ؛ وقد كان يعيش وأسرته وفق تعاليم المسيح كما صورها تولستوى ، لا يمتلك شيئاً ولا يمتلكون ، وإنما يتعاونون فى عملهم

ليأكلوا ، وليتصدقوا بما بقى لديهم ؛ ولقد عوقب هذا الرجل بالسجن لأنه رفض الخدمة العسكرية وأنكرها لأنها شر يجب القضاء عليه ...

* * *

كان تولستوى يشع الإيمان على من حوله . فإذا جلس الناس بين يديه وأنصتوا له أحسوا أنهم تلقاء رجل ليس له فى الناس من مشبه ، فيقع كلامه فى نفوسهم وكأنه يتنزل من أفق أعظم من أن يكون أفق مصلح فحسب ؛ وسرعان ما تألفت في روسيا وفى خارج روسيا جماعات لنشر مبادئه . فكان منها عدد فى هولندة وفى إنجلترة وفي وسط أوروبا وفى أمريكا ...

وعمل تولستوي بمعونة شرتكوف وبير وكوف وغيرهما ، على إصدار قصص شعبية صغيرة ضئيلة الثمن ، عرفت باسم « الوساطة » ، والقصد منها بث آرائه الجديدة مغلقة فى هذه القصص ، وقد كتب تولستوى بعضها ، وهى التى جمعت فيما بعد فى كتاب عنوانه « ثلاث وعشرون قصة » ، واختار أصحابه بعضها من الآداب الأخري وترجموها إلى الروسية .

وأسست جماعات من أتباعه فى روسيا وفى خارجها ماعرف باسم «المستعمرات التولستوية » حيث أرادت كل جماعة أن تعيش وفق ما يدعو إليه ، ولكن هذه المستعمرات لم يقدر لها البقاء طويلا ، ولقد كان تولستوى نفسه غير راض عنها لأنه كان يراها مظهراً من مظاهر الاهتمام بالشكل دون الجوهر ، مما يؤدى إلى الفشل عند أول صعوبة تعترضه ؛ والجوهر عنده أن يصلح الناس نفوسهم قبل كل شيء وذلك بفهم المسيحية على حقيقتها ، فإنهم إن فعلوا ذلك عرفوا كيف يسلكون فى الحياة المسلك الذي يشاكلها وذلك أينما كانوا ، وبدون هذا الفهم لا يستطيعون شيئاً ..

وكثيراً ما نادى تولستوى بأنه ليس هناك مايسمى مبادئ تولستوى أو تعاليمه فليس إلا المسيحية الصحيحة ، وإذا تفطنت النفوس إليها وعاشت على مقتضاها وجدت بذلك أنها تحيا الحياة الصحيحة ...

ومما قاله تولستوى فى هذا «سوف أموت وسوف يقول القائلون إن تولستوى علم الناس أن يحرثوا وأن يحصدوا وأن يصنعوا الأحذية ؛ بينما ينسون أهم شىء دأبت على قوله مدى حياتى ؛ ذلك الشيء الوحيد الذى به صدقت ، والذى أراه فوق ما عداه » .

وقال بعد ذلك بسنوات « ينبغي ألا يبحث الإنسان عن صور جديدة للحياة لأن الإنسان إذا فعل ذلك انصرف همه إلى ترتيب حياته فى شكلها الخارجى . . ليعمل كل امرئ عمله على ألا يتعارض تعارضاً شديداً مع ما يعتقد ، وليعمل على أن يتحسن فى الوضع الذى هو فيه فعندئذ يقع عفواً على الطريقة التى تصلح له ؛ ويجب إهمال المظهر الخارجى للحياة ما أمكن ... لا تعن نفسك به ؛ أد عملك فحسب » .

وفى سنة ١٨٩٩ كتب فى مذكراته عن لقائه دوشان أحد أتباعه فى المجر « تحدثت مع دوشان وحيث أنه جعل نفسه ممثلي في المجر ، فقد سألنى نصحى فيما عسى أن يسلك ؛ ولقد اغتنمت هذه الفرصة لأوضح الأمر لى وله ؛ وقلت إن من أكبر الخطأ أن يتكلم عن مبادىء تولستوى وأن يأتى ليطلب نصيحتى ... ليس هناك ما يسمي طوائف تولستوى ولا مبادىء تولستوى ... ليس هناك إلا تعاليم واحدة هى الحق ؛ ذلك الحق الأبدى الشامل الذى توضحه لى ولغيرى من الناس الكتب المقدسة ... فإذا فهم المرء هذه التعليمات فانه يتصل اتصالا خالصاً بالله ، ولا يشعر بعد ذلك بحاجته إلى أن يسأل أحداً ما » .

وبعد فهذا تولستوى فى تلك السنوات العشر ؛ ونعود فنقول يالها من سنوات وياله من رجل ؛ ذلك الذى حاول أن ينزل إلى مستوى العامة من الناس ؛ فارتفع درجات عن مستوي من في عصره جميعاً من الناس !

عودته إلى الفن !

أشفق محبو الفن في روسيا من ذلك التغير الذى طرأ على حياة تولستوى ؛ إذ كانوا يرونه مفخرة بلادهم ؛ فبه صارت لهم فى أدب الدنيا صفحة فذة ، وازداد إشفاقهم بعد موت دستويفسكى الذى ذهب له من الصيت في أوروبا أكثر مما ذهب له منه فى روسيا ؛ وكان أشد الناس إشفاقاً ترجنيف ذلك الذى كان يعد تولستوى الرجاء الوحيد لأدب قومه اليتيم ، والذى قال عنه : « إنى أرى فيه فناناً لست أستحق أن أنحنى لأحل له رباط حذائه » .

ولقد تناول ترجنيف قلمه بيده المرتعشة ، والموت منه قريب ، وكتب إليه سنة ١٨٨٣ كما أسلفنا يرجو منه أن يعود إلى الأدب ، ومات ترجنيف قبل أن يصله رد تولستوى ؛ وظل تولستوى يصنع النعال ويخصفها ، ويدع خيطه وإبره ليتناول منجله أو فأسه ...

على أنه كتب في سنة ١٨٨٥ تلك القصص الثلاث والعشرين ؛ فكانت مقدمة لعودته إلى الفن ؛ وهى قصص جليلة القدر قالت عنها كارمن سلفا ملكة رومانيا حين قرأتها « أحدثت هذه القصص التي كتبها هذا الرجل العظيم وهذا الفنان العظيم من الأثر فى نفسي مايفوق ما أحدثته كتبه جميعاً ؛ وإنى أراها أحسن قصص كتبت قط ... إن الفن فى نسقه الأعلى شاخص فيها ؛ وفيها الحق الأبدى ولذلك فهى كدانتى وشكسبير والإنجيل سوف يكتب لها الخلود ، ولو كانت هى وحدها ما كتب تولستوى لاستحق بها أن يعد من أكبر كتاب الدنيا ، ولم تخالجه قط فكرة وضيعة أثناء كتابته إياها بل كان صديقاً للانسانية المتألمة وكان مسيحياً صحيحاً » .

وفى سنة ١٨٨٦ عاد تولستوى إلى الفن بنشر قصته « موت إيفان إليتش »

التى كتبها في تلك السنة ؛ واستبشر الناس فى روسيا وفى أوروبا بهذه العودة التى طال بهم ترقبها ... ولم يعد يصدق أهل أوروبا أنه طلق الفن طلاقا أبدياً ليكسب قوت يومه فلاحاً كما ذاع بينهم منذ انقطاعه عنه ...

عاد تولستوى إلى الفن ليجعله وسيلة لإذاعة آرائه بعد أن رأى من تعسف الرقابة ما رأى ؛ ولن يكون الفن منذ اليوم غاية فى ذاته وإنما سوف يكون أداة يسخرها لخدمة الناس ...

وأعقب تولستوي قصته الجديدة بمأساة تمثيلية عن حياة الفلاحين سماها : « قوةالظلام » وقد منع تمثيلها فى روسيا ومثلت في باريس لأول مرة سنة ١٨٨٨ ثم كتب « سوناتة كروتزر » و « الشيطان » سنة ١٨٨٩ ، ولم تكن هذه قصصاً طويلة ، فلم تزد الأولى عن سبعين صفحة ، وبلغت الثانية نيفاً ومائة ، وكانت الثالثة قرابة ستين . أما المسرحية فهى فى حيز المألوف من المسرحيات .

* * *

عاد تولستوى إلى الفن ، ولكن مايحيط به فى بيته اليوم غير ما كان يحيط به وهو يكتب « الحرب والسلام » و « أنا كارينينا » ؛ فليس له مثل ما سلف من معونة زوجته ولا من ابتهاج روحها بفنه ، وليس يسكن إليها اليوم لتخفف عبء الحياة عنه ؛ فهى نفسها العبء الذى ينقض ظهره .

كانت تضيق الكونتس بمن يغشى بيت زوجها من الناس ، وكانت تسميهم « المظلمين » ، وكلما أقبل منهم فريق اشمأزت نفسها وعجبت ساخرة أن يكون أمثال هؤلاء جلساء رجل من العباقرة ، وكثيراً ما قالت إنها لم تقع قط بينهم على عاقل واحد .

وكانت تعنى بكلامها هذا الفقراء والمجهولين . فقد كان يزور تولستوى كثيرون من النابهين فى مختلف فروع المعرفة لا من روسيا وحدها ، ولكن من جهات الدنيا جميعاً ...

واشتدت كراهية الكونتس لصديقه شرتكوف ؛ إذ كانت ترى من

زوجها ميلا شديداً إلى الأخذ بنصحه ، وفى هذا ما يتهدد سلطانها عليه ؛ ولقد كتب شرتكوف ذات مرة إلى تولستوى ، ولم يكن يعلم أن لامرأته الحق أن تقرأ ما يرد إليه من رسائل ؛ فعبر له عن أسفه لما ينجم بينه و بين امرأته من متاعب أحياناً ، وكان قد شهد منظراً بينه و بينها آلمه ؛ وعظمت ثورة الكونتس إذ قرأت هذه الرسالة ، وراحت ترمى شرتكوف أنه يمشي بينها و بين زوجها بالوقيعة قائلة فى سخرية مريرة « وأظن أن ذلك منه هو المسيحية ! » .

وكانت تغار الكونتس من بنتها إذ ترى إقبال أبيهن عليهما وازوراره عنها . فقد كانتا تكتبان لأبيهما مذكراته وتنقلان ما يكتب من فن . قالت الكونتس « لقد كان يبهجنى في الأيام الماضية أن أنقل ما يكتب ؛ و إنه اليوم يدفع ذلك دائماً إلى بنتيه ، و يحرص على إخفائه عنى . إنه يثير ثائرتى بعمله هكذا فى إحكام على إبعادى عن حياته الشخصية ، وهـذا جد مؤلم ؛ إن هذا الجفاء يدفعنى أحياناً إلى أعماق اليأس حتى لأشعر بالرغبة فى أن أقتل نفسي أو أن أهرب أو أن أحب شخصاً آخر ؛ أو أن أفعل أى شيء أتخلص به من رجل أعتقد على الرغم من كل شيء أنى أحببته طول حياتى لسبب لا أعرفه ؛ مع أنى أرى الآن فى وضوح أنى قد جعلت منه معبودى ، دون أن أتبين أنه ليس فيه من شيء إلا عرامة شهوته » .

وكانت تعمد الكونتس إلى ما يضايقه ، ومن ذلك أنها راحت تقول عنه إن مبعث أعماله جميعاً الغرور والأنانية ، ثم أخذت تنقل مذكراته قائلة « إنه أخذ يتململ من نقلى مذكراته فانه يحب أن يمزقها كى يظهر أمام أطفاله وأمام الناس فى ثوب القديسين فحسب ... إن غروره لعظيم » ؛ ومن ذلك أيضاً أنها قدمت إلى المحكمة من غير مشاورته قوماً من الفقراء أخذوا خشباً من غابات الكونت لأنه لم يكن يمنع أحداً من ذلك ، ولشد ما تألم حين علم بذلك ، قالت زوجته « لقد أشرف على اليأس إذ علم أنهم سجنوا ؛ فلم يستطع أن ينام بالليل

وكان يقفز من سريره ، ويذرع الثوي وهو يشهق طلباً للهواء ، ولا ريب أنه أنحي باللائمة على » ...

ثم تستشعر الندم فتكتب « لماذا يعاقب الناس باسمى في حين لا أضمر الشر لأحد ؟ لقد بكيت النهار كله وعاودنى مرض حلقي ؛ ولقد اشتد أسفي على نفسى ... لقد تفكرت جادة فى أن أودع كل من حولى ؛ ثم أتمدد على أحد قضبان سكة الحديد » .

ويبلغ النزاع بينهما أشد حالاته فى سنة ١٨٩١ ؛ حين يعلن إليها الكونت أنه لا يطيق أن يأخذ مالا ثمناً لمؤلفاته ، وأنه يريد أن يتنازل عن حق طبعها ؛ ويكون بينهما من الجدل والعناد والعنف مثل ما كان منه غداة فاتحها برغبته فى التنازل عن ملكه أو أشد من ذلك ؛ ويضطر هنا كذلك أن يسلك سبيلا وسطا فيكتفى بالتنازل عن حقه فيما صدر من المؤلفات منذ سنة ١٨٨١ ، ويزمع أن يعلن ذلك فى الصحف . فيبيح لكل امرئ ترجمتها وطبعها فى روسيا أو فى خارج روسيا .

ولا ترضي زوجته بهذا فتتحداه ذات يوم قائلة : إنها سوف تكتب على تلك الكتب أنه وإن تنازل صاحبها عن حق طبعها إلا أنه لا يليق بأحد أن ينتفع بما هو فى الواقع حق أولاده ؛ ويقابل ذلك منها بشيء من الفتور . ثم يقول إنها إن كانت تحبه حقاً فمن واجبها أن تؤيده فى هذا التنازل ، وينطلق معرضاً عنها فيبلغ فتوره من نفسها أكثر مما يبلغ قلقها بسبب ما تتعرض له ثروتهما من نقص ... « وبعد الغذاء قلت له إنى آسف لما فهت به من كلام لم يرضه ، وسوف لا أكتب شيئاً على تلك الكتب لأنى أكره أن أسبب له ألماً ، ثم بكيت وبكي » .

ولكن الأمر لم يقف عند هذا ، فقد حدث بينهما بعد ذلك بأيام ، وقد عاد إلى الكلام فى هذا الموضوع ، ما وصفته الكونتس فى قولها « لقد قلت له إنه ذو طمع وذو غرور ؛ وقال لى إنى أجرى أبداً وراء المال وأنه لم ير امرأة فى

مثل جشعي وغبائي ، وقلت إنه عمل على إذلالي طول حياتي لأنه لم يعرف قبل كيف تكون معاملة المرأة المهذبة ، وقال إنما أفسد الأطفال بالمال الذي أستحوذ عليه . ثم صاح بي أخيراً : دعيني وحدي ! فتركته وانصرفت » .

وتعتزم الكونتس للمرة الثانية أن تنتحر ؛ فتكتب في مذكراتها أن النزاع المتصل بينها و بين زوجها قد أنهك بدنها . ثم تمضي إلى حيث تريد أن تقتل نفسها ، ولكن تصادف أن قابلت أحد ذوي قرباها فعادت معه إلى البيت . ثم جاء الكونت فترفق بها وقبلها ؛ فطلبت إليه أن يعلن ما اعتزم إعلانه من تنازل وألا يذكر هذا الأمر أمامها بعد ذلك ؛ ولكنه لن يفعل ذلك إلا إذا كانت تفهم أنه مما يجب عمله ؛ وهي لا تريد أن تكذب فما تفهم ذلك أبداً ...

وكتبت في اليوم التالي « هذا جرح لن يلتئم أبداً ؛ لقد ذهبت مرتين لأطلب إليه أن يذيع تنازله عن حقه في طبع كتبه الأخيرة ؛ ليطلع الناس ما شاء على ما بينه و بين أسرته من خلاف ، فليس ذلك بضائري فإن ما أناله من مال ببيع كتبه إنما أنفقه على عياله » .

وعادت لهجتها إلى العنف فكتبت بعد ذلك « إن السبب الذي لا سبب غيره في ذلك كله إنما هو غروره ، إنما هو ظمأه المتصل إلى الصيت ، ورغبته في أن يتحدث كل إنسان عنه » .

ولقد ظلت كتبه بعد ذلك مصدر شقاء عظيم له ؛ فقد عادت الكونتس بعد سنوات تحاول الانتحار ذات يوم عقب خلاف شديد بينها و بينه ، فجرت إلى حيث ألقت بنفسها في الثلج صائحة : ليأخذوني إلى مقر الشرطة أو إلى مستشفى المجانين ؛ وجرى زوجها وليس عليه إلا نصف ملابسه فأدركها وعاد بها إلى داره .

وأرادت الكونتس في سنة ١٨٩١ أن تقسم ثروة زوجها بينها و بين أولادها وكان تولستوي يدير لهم ظهره كلما فاتحوه في ذلك لأنه كان لا يزال يأمل أن يتنازلوا عن هذه الثروة للفلاحين ، ولقد سأله أكبر أبنائه حين تخرج في الجامعة ماذا يتخذ لنفسه من عمل ، فقال له اذهب فكن تابعاً لأحد الفلاحين ...

وألحوا في التقسيم فتركهم يفعلون ما يشاءون ؛ وقسمت الكونتس الثروة بين أبنائها و بناتها بعد خلاف شديد شجر بينهم ؛ ورفضت مارى كما رفضت تانيا أن تأخذا نصيبيهما ، وسر أبوهما بقدر ما غضبت أمهما ، ولكن مارى حين تزوجت بعد ذلك بثمان سنوات شاباً أرستوقراطياً لا يمتلك إلا قليلا من المال عادت فاستولت على نصيبها ، وقد كانت أمها تحتفظ لها به .

***

كانت قصته « موت إيفان إليتش » من أحسن قصصه القصيرة ، وهي العرض الفني لمعانى كتابه « فى الحياة » فما لم يقم فى النفس ذلك الشعور الحكيم لم يكن للحياة معنى ...

كان إيفان إليتش قاضياً من مثقفى العصر لم يفهم من الحياة إلا ما يتطلبه الشعور الحيوانى ، وما زال في لهوه حتى أصابه المرض ، ثم رأى نفسه يذوى شيئاً فشيئاً حتى دنا من الموت ، و إذ ذاك أحس بفراغ حياته من المعنى ، ثم مات ، ولم يترك بعده أثراً فى قلب أى إنسان .

وتبلغ هذه القصة مبلغاً عظيما من الروعة إذ يصور تولستوى الحياة الحيوانية لإيفان و إذ يصور ما يحيط به من حسرة عند موته ، وهو فى ذلك كله يتناول مسائل طالما تفكر فيها بعقله قبل أن يعرضها هذا العرض الفني الجميل .

***

أما « سوناتة كروتزر » فهي و إن تكن أخف وزناً من سالفتها من حيث الفن ، إلا أنها أعظم خطراً من حيث صلتها بحياته ، ومن حيث أهمية موضوعها ، ثم لما أثارته من ضجة هائلة حين تناقلتها الألسن وقد منع نشرها ، وما صحب هذا المنع من صخب وتنديد ...

« سوناتة كروتزر » هي قصة الزوجة الخائنة ؛ أوحاها إليه بادىء الرأى ، ما قام في رأسه من معنى مؤداه أن الزواج يعوق المرء عن أن يبلغ أسمى ما يستطيع من الكمال .

ثم إن رجلا صادفه في القطار ذات يوم فراح يقص عليه فى حزن عميق ما عانى من خيانة زوجته ، ووعى تولستوى ما قاله الرجل وتحرك له قلبه ؛ وحدث بعد ذلك أن زاره فى ياسنايا أحد نابهى الممثلين وهو بلجاكوف ، وألقى أمامه بعض الفصول القوية المقتبسة من دستويفسكى ، فأحب تولستوى أن يؤلف شيئاً قوياً يُقتبس منه ، فلم يجد خيراً من الموضوع الذى فى رأسه ، والذى حركت به قلبه شكوى ذلك المسافر . ثم إن أحد أبنائه عزف مع معلمه « سوناتة كروتزر » لبتهوفن فاتخذ اسمها تولستوى اسماً لقصته ، وجعل العاشق فيها من أصحاب الموسيقى ...

ترينا القصة تاجراً ميسوراً يعيش فى رغد مع زوجته الجميلة ؛ وقد قدم هذا التاجر ذات يوم إلى زوجته شاباً من أحب أصدقائه إليه مولعاً بالموسيقي ؛ فصار هذا الشاب يغشي بيت صاحبه ، وكانت زوجة صاحبه مولعة كذلك بالموسيقى ، ولم يكن يشك التاجر قط فى أمانة صديقه ولا في أمانة زوجته ...

ثم أخذت الغيرة تدب فى قلب التاجر ، وأرته الغيرة أشياء لم يكن يفطن إليها من قبل ؛ وما زال حتى باغت زوجته وعشيقها ، فقتل الزوجة الخائنة وأفلت منه الصديق الخائن ...

وقد وضع تولستوى في رأس قصته هاتين العبارتين الإنجيليتين اللتين نعربهما فيما يلى « ولكنى أقول لكم إن كل رجل ينظر إلى امرأة نظرة الشهوة فقد ارتكب جريمة الزنا بها فى قلبه » ... « ويقول له الحواريون إذا كان هكذا شأن الرجل مع زوجته* فليس من الرأى أن يتزوج الإنسان ؛ ولكنه يجيبهم بقوله : لايمكن أن يتلقي جميع الناس هذا القول ، ولكن من ألقى إليهم وحدهم » .

كان فى هذه القصة جانب من تولستوى نفسه ، ولكن ليس معنى ذلك أنها تطابق ما كان بين تولستوى و بين زوجته في حياتهما الزوجية ، فقد عاش مع

---

* إنجيل متى الإصحاح التاسع عشر : الآية العاشرة ؛ وكان سؤال الحواريين فى صدد الطلاق ومتى يجوز .

وجته حتى كتابتها ما يزيد على ربع قرن ، عيشة مهما تخللها من متاعب فلا يمكن أن يتطرق إليها ريبة ...

ونقصد بأن القصة تنطوي على جانب من حياة تولستوى ، أن كثيراً مما جاء فيها كان نتيجة لتجربته فى الحياة كرأيه مثلا فى عقبي الانغماس فى الشهوة زمناً طويلا ، وكرأيه فى أن الحياة الزوجية يفسدها كما يفسد السم البدن ما يكون فيها من علاقات وثيقة مردها إلى الرغبة الجسمية ، وأن الخضوع إلى هذه الرغبة مفض إلى الكارثة ...

بين تولستوى فى « موت إيڤان إليتش » كيف يؤدى خلو الحياة من الشعور الحكيم إلى خلوها من كل معنى وانتهائها إلى الحسرة ، وبين فى هذه القصة كيف تؤدي العلاقة الجنسية إلى تسمم الحياة وهلاكها ، وهو فى ذلك يتخذ من الفن أداته فى إحساس فنى لا يفتر شأن كل فنان عظيم ، وشأنه هو فى كل ما تناول من عمل قوامه الفن ...

وصور تولستوى فى القصة كيف يؤدى التبطل والنهم فى الأكل والشرب ، والفراغ والشباب ، واللهو ، وغشيان المسارح وصالات الرقص وقراءة قصص الحب الخليعة ، إلى تسعر الشهوة فى البدن ، وكيف يؤدي إلى ذلك مسلك الأوانس فى تبرجهن وزينتهن حين يبرزن ليتصيدن الأزواج فى الحفلات ؛ ومسلك المتزوجات حين يردن أن يظهرن فى أحسن حالاتهن من الفتنة والإغراء فيعملن وإن لم يشعرن مثل عمل البغايا فى إبداء سحرهن وزينتهن ...

لذلك لم يجد پوزدنيشيف ملاذاً له من إفراطه فى إطفاء شهوته إلا الزواج ؛ ولكنه لا يصيب فى الزواج ما كان يتوق اليه من راحة ؛ ذلك لأنه فى الزواج يقضى وطره أنى شاء فهو لا يخاف شيئاً مما كان يخاف منه وهو أعزب من وساوس المرض ، ومن مجازفات اللقاء ، وينتهى به الأمر إلى أن يباشر زوجته طلباً للمباشرة فى ذاتها لا كما تقضي به قوانين الطبيعة ؛ وبذلك تصبح الزوجة أو يصبح الزوج أداة للعملية الحيوانية فحسب . ثم يفضي الأمر إلى ذلك الزهد أو ذلك

السأم الذى ينشأ عن الامتلاء والإسراف ، وتفسد الحياة الزوجية بهذا السأم ، وتدب الشكوك والوساوس وتسود الدنيا ...

ولقد أراد تولستوى بهذه القصة أن يصل إلى بيان ما تقضى به الفضيلة فى أمر العلاقة الجنسية ؛ لأن قيام هـذه العلاقة على أساس من الفضيلة من أهم ما تـكمل به النفس ...

ويعلل ما قوبلت به القصة من صخب بما حمل فيها تولستوى على الزواج ؛ إذ أن المرء يخرج منها بأن صراعه بين حيوانيته و بين طهره وسموه الروحى ظل قائماً فى نفسه بعد أن تزوج ؛ هذا إلى ما ألمح إليه من أن الزواج مما يعوق المرء عن أن يبلغ أسمى ما يتوق اليه من كمال فى كل نواحى الحياة .

قوبلت القصة بصخب من كل جانب ، فالذين يؤمنون بالحيـاة الحديثة وبحرية الحب وسموه ، يكرهون من تولستوى تصويره العلاقة الجنسية صورة حيوانية ليس الحب إلا طلاء يخفيها ... ورجال الـكنيسة يسخطون عليه فى دروس وعظية أقاموها لهذا الغرض فى كثير من الـكنائس ، لأنه يصور الزواج صورة غير مايصفون من عفة وطهر وارتباط مقدس ؛ ولقد أعلن كبير منهم ذات يوم على الملأ فى كنيسته أن تولستوى خطير على المجتمع ، وأنه يجب وضع حد له .

وسعى رجال الدين سعيهم حتى منع الرقيب طبعها ، وذلك على الرغم من أن القيصر قد أعجب بها . فإنهم ما زالوا يدسون دسائسهم حتى أغضبوا القيصر بأن أطلعوه على يد پوبند نستسوف على أقصوصة كتبها تولستوى ، تدور حول معايب حكم نيقولا ، وتم لهم ما أرادوا ولـكن بعد أن ذاعت منها نسخ مخطوطة فى بطرسبرج وموسكو ، وكان يجتمع الناس فى البيوت لقراءتها جهراً .

أما عن أثر هذه القصة فى نفوس قارئيها في روسيا وفى خارج روسيا فمنهم من ذهب إلى أنها تؤدى إلى عكس ما أراده تولستوى منها ، ومنهم من ذهب إلى نقيض هذا الرأى قائلين إنها تركت أثراً طيباً جداً فى نفوسهم ...

ومـا لا ريب فيه أن تناول هذا الموضوع يمثل ما تناوله به تولستوي من

صراحة كفيل بأن يثير غير قليل من الإشفاق والقلق ، وبخاصة من جانب المتزمتين من الآباء والأمهات ، ولقد وافق تولستوي نفسه على إبعاد الفتيان والفتيات أثناء تلاوتها جهراً فى بيته ...

وتنطوى نظرة تولستوى إلى الزواج على كثير من الغرابة ، ولقد عزاها من يجهلون حياته إلى ما عسى أن يكون قد أصابه من قصور جنسى من جراء إسرافه فى الشهوة ؛ وظنوا الظنون بعلاقته بزوجته ؛ ولكنه ظل حتى الثمانين يحس الرغبة فى بدنه ، كما أنه حين كتب القصة لم يكن بينه و بين زوجته أية ريبة كما ذكرنا .

هل كان مرد نظرته هذه إلى ما عانى من متاعب على يدي زوجته ، فنفس عن نفسه بما ذكر عن الزواج ، وقد غفل ضميره ؟ ذلك ما يدعونا إلى الأخذ به قوله ولما يمض على كتابتها إلا زمن قصير « لا بد أن فى قصتى شيئاً غير حميد ، إنى لأحس تلقاءها كثيراً من السأم كما أسأم مما يذكرنى بها . لقد كانت هناك أشياء كريهة فيما دفعنى من دوافع لكتابتها ... وسوف أحاول أن أتجنب ذلك في المستقبل » .

ولكنه فى سنة ١٨٩١ يثبت عن الزواج قوله « إن أهم أسباب عدم السعادة في الزواج يرد إلى أن الشباب يخاطون بما يلقى فى نفوسهم عن الزواج أنه شيء يجلب السعادة ... ولكن بَعُد ما بين الزواج والسعادة فهو شقاء أبداً ؛ هو ثمن الاستجابة للرغبة الجنسية ، و إنا لنقاسي فيه بقدر ماوعدنا به أنفسنا من وعود » .

وقال فى سنواته الأخيرة لمكسيم جوركي « سوف أقول الحق فى النساء عند ما أضع إحدى رجلى فى القبر ... عندئذ أصرح به ثم أثب فأدخل تابوتي وأجذب غطاءه فوقى قائلا : الآن فلتفعلن ما تردن » .

ولقد علق جوركي على ذلك بقوله « إنه ينظر إلى المرأة نظرة عداوة لاهوادة فيها ، ويحب أن يعاقبها إلا أن تكون كتى أو نتاشا رستوف ، مخلوقاً غير ضيق؛ إنها عداوة الزوج الذى لم ينجح فى الوصول إلى ما كان يطمح فيه من نعيم ، أو هى عداوة الروح « لدوافع اللحم التى تفضى إلى الانحطاط » .

ولقد ساء وقع القصة فى نفس زوجته ، وعجبت ماذا عسي أن يقول الناس ؟ ثم أثارت القصة من حنقها عليه ومن بكائها وصخبها وشكايتها ما ترك فى أذنيه وفى نفسه من الضجيج ما لا يقل عما أحدثه ما سمع من صخب خارج داره . كتبت امرأته فى مذكراتها في ديسمبر سنة ١٨٩٠ « إنى لأمتلىء الآن رعباً من الحمل ؛ لأن كل إنسان سوف يعلم هذه اللعنة ويردد ضاحكا ما ذاع حديثاً فى موسكو من قولهم : هـذه هي المثال الحى لسوناتة كروتزر » ، وكتبت فى فبراير سنة ١٨٩١ « لست أدرى لماذا ربطوا بين هـذه القصة وبين حياتنا الزوجية ، وكيف فعلوا ذلك ؟ ومع ذلك فمن الثابت أن الناس جميعاً ابتداء من القيصر إلى دياكوف صديق ليو وإلى أخيه ، قد أحسوا الرثاء لحالى ؛ ولماذا آخذ برأى الناس ، وقد أحسست في قلبي أن القصة موجهة إلى ؛ لقد جرحتنى وأهانتنى فى نظر الدنيا كلها ، وقضت على ما كان باقياً بيننا من الحب ؛ وكان ذلك منه على الرغم من أنني طول حياتى زوجة له لم آت خطأ قط » .

وأخذت تعنف على زوجها ، وترميه بالنفاق كما رمته من قبل ؛ وتقول لو علمه الناس على حقيقته لما رأوا فيه شيئاً يستحق به ما ينسبونه إليه . ثم تدبرت فى الأمر ، ورأت أن خير وسيلة تخرجها من وضعها أن تسعى إلى القيصر فتتوسل إليه أن يأمر بنشر القصة ؛ فإن الناس إذا علموا ذلك لم يصدقوا أنها المقصودة بما كتب زوجها ...

وأرسلت كتاباً إلى القصر الإمبراطورى تلتمس مقابلة القيصر « لأشرح ما عسى أن يؤدى من الظروف إلى عودة زوجى إلى سالف عمله الأدبى ؛ ولأبين أن ما عزى إليه فى نشاطه الحالى إنما بنى على الافتراء حتى لينذر بالقضاء على نشاط هذا الكاتب الروسى وعلى روحه ، ذلك الذى لا تحمد صحته اليوم ، ولكنه على الرغم من ذلك قادر على العمل لمجد بلاده » .

وأذن لها القيصر ، فلما مثلت بين يديه لقيها بكثير من العطف ، وقالت فيما ذكرت عن زوجها إنه يميل الى العودة الى كتاباته الأدبية ، وأن قصة طويلة

مثل قصته « الحرب والسلام » قد تبلورت في ذهنه ، وأنه لا يعوزه إلا شيء من الاعتبار الرسمي يشد أزره و يفتح للعمل نفسه .

وسر القيصر إذ سمع بميل تولستوى للعودة إلي الأدب ، وقال « أى نبأ هذا النبأ السار ! إنه كاتب عجيب ... عجيب » .

وقال القيصر عن « سوناتة كروتزر » إنهـا كتبت فى صورة يعتقد أن الـكونتس تولستوى نفسها لا تسمح معها حتى لأولادها أن يقرأوها ...

ورغب القيصر في إظهار عطفه على الـكونتس ، وعلى زوجها كاتب روسيا الأكبر ، فقال إنه يوافق على أن تطبع القصة فى المجلد الذى تشمل مؤلفاته كي لا يشتريها إلا القليلون ، فيضيق مجال قراءتها ...

وسألها القيصر أسئلة عن أسرتها ، ثم أبدى أسفه لاعتزال تولستوى الـكنيسة ولـكنه أظهر لها العطف حين اشتكت من موقف رجال الـكنيسة من زوجها وما نقلوا عنه إلى السلطات من أنباء غير صحيحة ...

و بعد أن سألها القيصر عما إذا كان يستطيع زوجها أن يدخل شيئاً من التغيير على « سوناتة كروتزر » ، وعلم أن ذلك غير ممكن ، قال إنه سوف ينظر بنفسه فيما يكتب تولستوى فى المستقبل ليرى هل تنشر أو لا تنشر إذا أرسلتها الـكونتس إليه ...

وطلب اليها القيصر وهو يمـد يده اليها مصافحاً أن تنتظر حتى يرسل إلى القيصرة لتلقاها ...

وعدت الـكونتس هذا نجاحاً شخصياً عظيما ، وعزته إلى تأثير شخصيتها ، وصارت تنقل إلى زائريها وزائراتها ما علمته من ثناء القيصر عليها بعد خروجها من عنده ، وتعجبه من أنها لا تزال فتية وجيهة « وهذا يرضيني كأنثي ، وأحس أنه كما لو كان أخذاً بالثأر لنفسي بعد ذلك الذى عاملني به زوجى ؛ فإنه لم يقف دون أن يرفع من شأني فى المجتمع فحسب ، بل لقد عمل جهده دائماً على الحط من قدرى » ...

أما زوجها فلم يرض عما فعلت ، وظل يقول دائماً : إنها مقابلة لم يكن لها من داع قط …

هـذا ما أحدثته القصة على صغرها من أثر ؛ قال عنها تشيكوف « لست أريد أن أقول إنها عمل عظيم من أعمال العبقرية كتب له الخلود ، فما كنت بالذى يقضى فى مثل هذا الأمر ؛ ولكنها في رأيي قل أن يوجد لها نظير فى خطرها من حيث ما فيها من قوة التصوير ، وجمال التعبير ، بين ما يكتب الآن هنا أو فى الخارج ؛ وإنا بصرف النظر عما فيها من قيمة فنية تحمل على الإعجاب العظيم فى أكثر من موضع ، لنثنى علي القصة فى ذاتها لأنها تثير الذهن إثارة شديدة كي يتفكر ، فلا يسع المرء أثناء قراءتها إلا أن يصيح قائلا : هذا حق أو هذا سخيف » .

وكل ما أخذه عليها تشيكوف ما ظهر فيها من جهل تولستوى بما يتصل بالطب و بعض الأمراض ؛ فإنه على حد قوله كما يتبين من قصته ، لم يعن بقراءة كتاب أو كتابين للمختصين فى هذا الموضوع « ولكن ذلك العيب لا يلبث أن يطير أمام ما فى القصة من خصائص كما يتطاير الريش فى مهب الريح » .

***

أما قصته « الشيطان » فلم تنشر إلا بعد وفاته ، وذلك لأنه خشي أن يؤدى نشرها إلى شقاق جديد بينه و بين زوجته ؛ وكفاه مايذوقه كل حين من غضبها .

وهي كسابقتها تنطوى على كثير من ماضيه ؛ وتدور كذلك حول الشهوة البدنية العارمة ، وهى فى واقع الأمر قصته مع أكسنيا إلى مدى عظيم … ثم ما كان يغالبه من شهوة أثارتها فى بدنه دومنا إحـدى الخادمات فى ياسنايا سنة ١٨٨٠ أثناء أزمته الدينية .

وموضع المأساة فيها أن بطلها أرتنيف ، لا يستطيع بعـد زواجه أن يفصم ما كان بينه من صلة و بين خليلة فلاحة عرفها وهو أعزب ، و يشعر أرتنيف من أعماق قلبه أن تلك الفلاحة زوجة له فى الواقع وهو زوج لهـا ، ولا يقوم هذا

الشعور فى نفسه إلا بعد أن يتزوج زوجة شرعية ، وهنا تبدأ المأساة ...

وقد عبر تولستوى فى هذه القصة ببراعته الفنية ، عما فهمه من تعاليم المسيح الصحيحة عن الزواج والطلاق ؛ وفى رأيه أن الزواج يتم فعلا بين رجل وامرأة تغشاها ؛ ولا يصح أن يفرق بينهما بعد ذلك إلا الموت ؛ فإن تركها لأمر ما فعليه تبعة ما تقع فيه من مهاوى الرذيلة .

* * *

وأما مسرحيته العظيمة « قوة الظلام » فهى مأساة مريعة محزنة جداً شديدة الوقع في النفوس ، تدورحول البؤس والإثم فى بيت فلاح روسي ، كتبها تولستوي وقد أجبر على ملازمة فراشه شهرين سنة ١٨٨٦ ...

وإن ما حازته هذه المسرحية من نجاح هائل أثناء تمثيلها بفرنسا سنة ١٨٨٨ وما ظفرت به من ثناء أقطاب الفن ، ليحمل المرء على العجب من مقدرة هذا الفنان الذى لم يكن قبل من كتاب المسرحيات ؛ على أن مرد أمره إلى العبقرية فلا عجب إذاً ؛ وهل تناول تولستوى شيئاً من الفن أو غير الفن فلم يأت به معجباً فذاً ؟ ذلك أنه يفرغ عليه عبقريته ، وينفخ فيه من روحه ...

أنيسيا امرأة قروية خائنة لزوجها لأنها لا تحبه ؛ وقد دست له السم فى طعامه وتزوجت من عشيقها نكيتا وهو فلاح كان يعمل تابعاً لزوجها ؛ ولزوجها القتيل بنت من امرأة أخرى قبلها ، وقد حملت هذه البنت سفاحاً من نكيتا وولدت غلاماً فقتلته أنيسيا وزوجها ... هذا فى اختصار هو موضوع المسرحية .

وتنتهى المسرحية بخاتمة رائعة أعجب بها النقدة إعجاباً شديداً ؛ فإن نكيتا يستيقظ ضميره ، ويعذبه الندم ، ويعلن على الملأ ما اقترف من الإثم ، ويطلب العقاب لنفسه ، فيدنو منه أبوه ، وهو شيخ تقى يخاف الله ويرجو رحمته أبداً ، فيقول لابنه فى نشوة روحية وقد رأى ندمه « سوف يغفر لك الله يا بنى ، إنك لست تجد رحمة من نفسك على نفسك ، ولكنك سوف تجد رحمة الله ... ! الله ! الله ! إنه هو » !

وقد مثلت القصة فى قصر الإسكندر الثالث ، وأعجب بها القيصر إعجاباً شديداً ، ولكن بو بند نستسوف كتب له يحذره مما عسي أن تثير القصة حول حياة الفلاح الروسي ، وبذلك نجح فى منع نشرها فى روسيا ، وقد ظلت روسيا محرومة منها حتى سنة ١٨٩٥

ولما مثلت فى باريس لقيت نجاحاً عظيما ، وكان من أشد المتحمسين لها إميل زولا ، فأثنى عليها ما وسعه الثناء ، وذاعت المسرحية حتى كانت تمثل فى ثلاثة مسارح فى وقت واحد .

ولم يكن زولا وحده المتحمس لها فقد كتب برنارد شو إلى تولستوى يقول : « لست أذكر شيئاً فى مجال الدراما كله أثر في نفسي أشد مما أثر فيها الجندى الشيخ فى درامتك (قوة الظلام) ، وإن منظر الصعلوكين السكرانين إذ يثنان بشكواهما فوق القش وقد رفع أكبرهما الأصغر فوق جبنه وأنانيته ، ليحتوى من قوة التأثير ما لا يمكن أن يحتويه مجرد منظر رومانتيكى » .

هذا هو تولستوي بعد أن عاد إلى الفن ، وهذا هو فنه فى طابعه الجديد .



روسيا تسير صوب الفلق

اشتدت حلكة الفسق فى عهد الإسكندر الثالث وفى عهد ابنه نيقولا الثاني ، ولكن لكل ليل نهاية ، وما تشتد ظلمة الليل إلا ليدبر ، ولا بد للصبح أن يتنفس ..

بقى الإسكندر الثالث فى عزلة تامة عن رعيته ثلاث عشرة سنة ؛ يحيط به حرسه وجواسيسه ، ويحيط بالناس عيونه من مدنيين ودينيين ، وفى وهمه أن روسيا دانت له ، وما توهم طاعتها إلا لأنه لم يكن يدري من أمرها إلا ما يصف له أعوانه ...

واختتم حكمه بسنتين قل أن شهدت البلاد مثل بأسهما . فقد وقعت مجاعة عظيمة فى مقاطعات كثيرة سنة ١٨٩٢ ، وغشى الناس عذاب شديد من الخوف والجوع والمرض والموت !

وخلفه بعد موته ابنه نيقولا الثانى سنة ١٨٩٤ ، ولا تزال المجاعة فى البلاد ، ولا يزال الناس في غاشية من العذاب ، وأعلن القيصر الجديد كما أعلن أبوه من قبله قوله « إنى سوف أحتفظ بمبادىء الحكم الأوتوقراطى فى ثبات لا يتزعزع كما فعل والدى رحمه الله جاعلا مجهوداتى جميعاً لخير الشعب » .

وكان يسخر نيقولا الثانى من رغبة الراغبين من الأمة في اشتراك البلاد فى التشريع قائلا إن « هذه أحلام فارغة » ، ولكن سخرية القدر كانت أروع من سخريته ، فلسوف يرى بنفسه تحقق هذه الأحلام ، ثم ترجف في عهده الراجفة ، ويدركه الطوفان فيغرقه وأسرته جميعاً ...

لم يجد الإرهاب في مقاومة الأوتوقراطية ، وما لبث الناس أن أدركوا أن فئة قليلة من الثائرين مهما بلغ من تحمسهم و بطولتهم لن يفلحوا في القضاء على

الحكومة الأوتوقراطية و إن قتلوا القيصر الأوتوقراطي؛ لذلك لم ينته عهد الإسكندر الثالث إلا وقد منى النهلست بالفشل ؛ وقد أدرك هؤلاء أخيراً أن مرد فشلهم إلى أنهم قادة لا أتباع لهم ، فالفلاحون وهم سواد الأمة يخضعون للقيصرية خضوعاً متوارثاً مهما اشتدت وطأة الظلم عليهم ؛ والمتعلمون قلة تفرقت أهواءهم ...

ولكن قوة جديدة سوف تفعل ما لم يفعله النهلست ؛ تلك هي الصناعة ، ولسوف يكون بدء حكم نيقولا بدء عهد الانتقال في تاريخ البلاد الاجتماعي ، ومن ثم في تاريخها السياسي ...

أدى استخدام رؤوس الأموال الأجنبية في إنشاء المصانع إلى ظهور تلك الطبقة التي منها نجمت الديموقراطية في أوروبا قبل ذلك بما يزيد على ثلاثة أرباع القرن ، والتي سوف تنجم منها الديموقراطية في روسيا عما قريب ، وتلك هي الطبقة الوسطي ، وما تزعزع الأوتوقراطية في ثورة أو في غير ثورة إلا هذه الطبقة التي تغتني وتتعلم وتطمح أو على الأقل تستنكف أن تستعبد ...

و بينما تطمح هذه الطبقة وتمد بصرها إلى أعلى معتزة بالمال والمكانة ، ناقمة على أولى الجاه الموروث جاههم الذى لا مبرر له ، إذا بها تضطر إلى أن ترد بصرها لتنظر تحتها إلى هؤلاء الذين خرجوا من عزلة الحقول فاجتمعوا آلافا ومئين تحت سقف واحد ، والذين يشكون من قلة الأجور وكثرة العمل ، والذين يتساندون و يتهامسون ، وقد أحسوا ما لهم في الإنتاج من أهمية ، والذين يبدون أولى مسكنة ، ولكن تهامسهم يخيف وتساندهم يشيع من حولهم الرهبة ...

لن يرضى أصحاب المال عن الحكم الأوتوقراطى لأنه يستعبدهم وهم ليسوا بعد بعبيد ، ولن يرضى العامل عن أتوقراطية صاحب المال ، لأنه يستعبده و يرهقه ، وهو و إن لم يدر ما الحرية بعد يكره الإرهاق ، و بذلك يموت الإذعان شيئاً فشيئاً وتنطوى النفوس على التمرد ، و يصبح التغيير أمراً لا بد منه ، لأنه مرحلة من مراحل التطور لن يجدى في صدها طغيان .

وتظهر في روسيا الأحزاب متأثرة بالعوامل الجديدة الاقتصادية ، وهكذا

ظهرت من قبل فى أوروبا ، ويكون ظهورها فى روسيا أشد إنذاراً بالخطر ، لأن روسيا تختصر المراحل . فهى حين نهضت نهضتها الصناعية وظهر لهـا فى المدن عمال ، كانت قد علمت من قبل بالماركسية ...

وها هو ذا حزب رومي ثورى ينشأ فى عهد الأوتوقراطية ، ألا وهو الحزب الاشتراكي الديموقراطى ، الذى ينم مجرد ذكر اسمه عن أنه ينظر إلى الأوتوقراطية نظرته إلى شيء متخلف من الماضى لا يصح أن يبقى ساعة واحدة .

ويرى الحزب أول الأمر أن النظام البرلمانى لا يكفى لإصـلاح الحال على الأساس الاشتراكي المنشود فلا بد من ثورة سياسية تقلب الوضع رأساً على عقب ثم تمهد الأرض للبناء الجديد .

ولـكنهم لا يلبثون حتى يفطنوا أن آراءهم لا يمكن أن تجد دفاعاً حراً وهذه الأوتوقراطية قائمة ، ومهما يبلغ من عيوب الديموقراطية فى وضعها السلطة والقوة فى يد فئة من الطبقة الوسطى من أصحاب المال ، فإنها تعطى الفرد قسطاً من حرية التفـكير وحرية القول يختلف كثرة أو قلة حسب روح الدستور نفسه أولا ، وحسب روح الحـكومة الدستورية بعد ذلك .

لهذا يجد هذا الحزب أن أنصاره فى صفوف العمال ، وأن الخطوة الأولى إلى غايته أن تتسع الصناعة فتضم أكثر ما يمكن ضمه من الأفراد ؛ فلا بد أن ينتزع هؤلاء الأفراد السلطة شيئاً فشيئاً من مسخريهم ، وكلما ساءت حالهم كان تمردهم أشد ، وكان هدفهم آخر الأمر أكثر عنفاً .

لذلك نبذ رجال هذا الحزب الإرهاب والعنف ، وأخذوا ينشرون مبادئهم بين صفوف العمال فى هوادة حتى يحين الوقت الذى يثبون فيه وثبتهم .

ولـكن حدث أن جاء العنف من ناحية أخرى ؛ هى ناحية الطلاب ؛ فقد اشتدت وطأة الرقابة علي الجامعات حتى ضاق الطلبة بها ، وما زادهم ذلك فى الواقع إلا كراهة للاستبداد ، وحباً للحرية ، وباتت الجامعات من أهم مراكز النشاط السياسي ، وإن حرم عليهم ذلك علانية .

وفى الثامن من فبراير سنة ١٨٩٩ حدث تمرد شديد في جامعة بطرسبرج ، كان مرده إلى سبب تافه فى ذاته ، وذلك أن مدير الجامعة كان قد أنذر الطلاب عقاباً شديداً إذا كدروا صفو ذلك اليوم ، وهو يوم الاحتفال بعيد مؤسس الجامعة. فلما كان ذلك اليوم المعلوم تصايحوا بسقوط المدير ، وتركوا الجامعة ، وهم ينشدون أناشيد الحرية ؛ وتصدى لهم الجند فى أحد الميادين فأطلقوا عليهم النار ، وقتل بعضهم ، وجرح عدد كبير منهم ؛ واشتدت ثورة الطلاب بعد ذلك ، وما لبث أن صارت حركة عامة فى جامعات روسيا كلها .

وفى الرابع عشر من فبراير سنة ١٩٠١ قتل أحد الطلاب وزير المعارف لأنه أمر بالقبض على نحو مائتى طالب من جامعة كييف وبطرسبرج ، وجندهم عقاباً لهم على اشتغالهم بالسياسة .

وتقرب العمال إلى الطلبة ؛ حتى لقد كانوا يدعون زعماء الحزب الاشتراكي الديموقراطى إلى معونة « رفقائهم الطلبة المضطهدين » .

أخذ الاشتراكيون الديموقراطيون يتتبعون حركات الطلاب ويتتبعون كل شغب يقع بين العمال وأصحاب المال ليوحوا إلى العمال آراءهم ومؤداها أن لا خلاص لمن يظلمون إلا القضاء على الظالمين ؛ فالحكومة الديموقراطية هي التى تشرع للعمال ما تتحقق به سعادتهم ...

وأخذ رجال الشرطة يتعقبون هذه الحركات ؛ وعملت الحكومة فى أكثر من موطن بنصحهم فأعانت على تأسيس وحدات صناعية بين العمال ، وأمدتها بالمال لتزيد الخلاف بينها وبين أصحاب الأموال ، وبذلك ينصرف العمال عن السياسة ؛ بل لقد كان يعمد الشرطة إلى إثارة الفتنة وتدبير الاعتصاب كى ينشغل العمال بأمورهم ... وكان زعيم هذه السياسة وموحى فكرتها زباتوف رئيس الشرطة السريين ...

ولكن هذه السياسة ما لبث أن انكشف أمرها ، وتبين العمال أن مايقوله

الاشتراكيون الديموقراطيون حق . فلا رجاء لهم إلا فى ظل الديموقراطية ...

* * *

هذه حال روسيا فى عهد نيقولا الثانى ؛ عمال فى المدن يربطون بين السياسة و بين متاعبهم ، وطلاب في الجامعات يمقتون الطغيان وتنطوى نفوسهم على الثورة ، وحزب يرتقب الساعة المرجوة ليطيح بالأوتوقراطية ، وليس اعتماده على الفلاحين كما كان يرجو النهلست أن يعتمدوا عليهم من قبل ، و إنما اعتماده على هذه العناصر الجديدة التى هى بحق عضد الثورة ...

على أنه حدث من جانب الفلاحين سنة ١٩٠٢ فى مقاطعتى خاركوف و بولتافا حادث اهتمت له الحكومة أشد الاهتمام وذلك لمجيئه من جانب هؤلاء الذين كانوا آخر من تخشى الحكومة منهم . فقد اجتمع مئات من الفلاحين فى المقاطعتين ، وذهبوا إلى القائمين على مخازن السادة ومعهم عربات ، وطلبوا إليهم مفاتيح تلك المخازن ، وأخذوها منهم عنوة وملأوا عرباتهم بالحبوب والدقيق ، قائلين إن ذلك حقهم ؛ ولم يأخذوا شيئاً من الماشية إذ لا حق لهم فيها ..

وظلت عوامل السخط تتجمع فى البلاد ؛ فلما كانت الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ ، وتبين للناس عجز الحكومة كما تبين لآبائهم بالأمس عجز نيقولا الأول فى حرب القرم ، واشتد السخط من كل جانب على الأوتوقراطية ، وساد شعور القلق والخوف كما يحدث فى كل حرب فاشلة ، رأى الاشتراكيون الديموقراطيون الفرصة سانحة فألبوا أنصارهم ، و بدأت فى البلاد نذر ثورة عاتية ؛ فقد قتل فى يوليو بليف وزير الداخلية وزعيم الرجعية ؛ ذلك الذى عاقب في السنة السابقة لقتله وحدها نحو خمسة آلاف بالسجن والنفى بغير محاكمة ... ولقد أطلق الروس على العهد الذى أعقب قتله اسم (الربيع) .

وفى نوفمبر سنة ١٩٠٤ اجتمع في بتروجراد مؤتمر قوامه مائة عضو من مجالس المقاطعات ، وأعلن المؤتمر أن البلاد تطلب الحريات العامة على القاعدة الدستورية كما تطلب الإصلاح والعمل المجدى ، ولا بد من دعوة جمعية لوضع دستور تتحقق به هذه الأغراض جميعاً ...

وما كادت تشيع فى البلاد قرارات هذا المؤتمر حتى انبعثت المظاهرات ، وأقيمت الاحتفالات مؤيدة لها فى كل مكان ... فقد كان يعد اجتماع مثل هذا فى روسيا بعد ما ذاقته من صنوف البلاء كأنه معجزة .

وكان قد حل فى وزارة الداخلية بعد بليف الكونت ميرزكى ، وهو سياسي ذو بصيرة وذو قلب رحيم ، وفى عهده اجتمع ذلك المؤتمر ، وأطلق الناس على عهد (الربيع) اسماً آخر هو عهد (الثقة) ؛ فقد تركت الحكومة الناس يجتمعون ويتشاورون فيما تطلبه البلاد ، وكأن بينها وبينهم مودة ؛ وأحس الناس صفاء الربيع وبهجته وما يبعثه فى النفوس من أمل ؛ ولكن ذلك الربيع لم يدم إلا خمسة أسابيع ثم اختتم بالدم يوم (الأحد الدامى) .

على أن هذه الأسابيع الخمسة على قصرها فترة لا تنسي فى تاريخ روسيا ، فقد كانت أهازيج الربيع فيها نشيداً موحداً يهتف به شعب مستيقظ .. ألا وهو نشيد الحرية ...

أما يوم (الأحد الدامي) ، وهو التاسع من يناير سنة ١٩٠٥ ، فهو اليوم الذى أدى فيه الشعب مهر الحرية ، وهو الذى يفصل بين روسيا القديمة وروسيا الحديدة ؛ فلن تخضع روسيا بعده للأوتوقراطية ، ولن تؤمن بوسيلة لخلاصها إلا الثورة .

أضرب العمال في الثالث من فبراير فى مصنع يمتلكه فى بطرسبرج أحد القسيسين هو الأب جابون ، وهذا المصنع هو واحد مما أقيم بوحى زباتوف . أما سبب الإضراب فلأن جابون طرد بعض العمال ولم يقبل فيهم شفاعة زملائهم .

وفى اليوم التالى انضم إلى هؤلاء زملاء لهم في مصانع أخرى ؛ وفى الخامس من يناير شمل الإضراب عمال بطرسبرج جميعاً ، وكان عددهم مائتى ألف أو يزيدون ، ويدلنا ذلك على مبلغ ما كان فى النفوس من ثورة ... ولقد نُسى السبب الأول وراح العمال يطالبون بالعدالة بينهم وبين مستخدميهم .

ورأى جابون أن يصانع الثوار فالأم ، وأوحى إليهم أن يشتكوا إلى

القيصر ... وكتب لهم ملتمساً وقع عليه الآلاف فى تحمس ؛ والواقع أنهم كانوا يعانون أشد البؤس ، حتى لقد كانوا يقولون وهم ينصرفون إلى بيوتهم الحقيرة : هيا بنا إلى مدافننا ...

وظهر بين العمال أفراد من الاشتراكيين الديموقراطيين يعيبون عليهم ضعفهم إذ يتوسلون إلى القيصر ، وينصحون لهم بالثورة المسلحة ؛ ولكن العمال لم يستجيبوا لهم وصمموا على أن يذهبوا فى مظاهرة سلمية .

ولم تتخذ الحكومة ما يدل على عدوان أو مجرد أهبة ؛ وظن العمال أن السلام مصاحب مظاهرتهم فتوجهوا يوم الأحد التاسع من يناير إلى قصر الشتاء الإمبراطورى وهم جموع يذهب فيهم البصر إلى آخر ما يذهب ، ومعهم نساؤهم وأطفالهم ، وأمامهم جابون يحمل صليباً كبيراً وحوله نفر يحملون رايات من رايات الكنيسة ، وكان بعض العمال ينشدون بعض الأناشيد الدينية ...

وبوغت المتظاهرون وسط المدينة ، وكانوا قد تحركوا من ضواحيها ، بالرصاص ينصب عليهم من فرق من الجيش تحت إمرة القائد تريبوف ، وسقط عشرات من القتلى رجالا ونساء وأطفالا ، وجرح مئات ، وتفرق الباقون ؛ وهكذا جرت الدماء فكانت مهر الحرية ؛ وكانت القطيعة بين الشعب والقيصرية

وانكفأ العمال إلى الضواحى ، وقد قر فى نفوسهم الثأر والثورة ؛ وأقاموا المتاريس أياماً ورفعوا الرايات الحمر ليذكروا بها ما جرى من دماء يوم (الأحد الدامى) كما سموا ذلك اليوم ...

أما سخط الناس على القيصر وأعوانه فلن يصفه كلام ؛ فهذا الطاغية الذى هزمت اليابان جنوده لا يفلح إلا فى قتل شعبه وسفك دماء النساء والأطفال ، ولذلك قامت الثورات أياماً فى أكثر الجهات وازداد عدد الضحايا ، كما كثرت الاغتيالات ، وكان من أهمها اغتيال الغراندوق سيرجيوس عم القيصر ...

وأوشكت أن ترجف الراجفة فى أكتوبر سنة ١٩٠٥ ، فهاهم أولاء العمال تستعر الثورة فى نفوسهم ، والطلبة فى جامعاتهم قد انصرفوا عن دروسهم انصرافاً

تاماً . فلا هم لهم إلا الاجتماعات السياسية والخطب والأناشيد ؛ وكانت الجامعات فى ذلك (الربيع) الذى ولي قد استردت من الحكومة استقلالها فلن يقتحمها الشرطة أو الجيش ، ولن تتدخل الوزارة فى شؤونها ؛ وغدت الجامعات بذلك ملتقى العمال والطلبة والناس من كل نمط حتى السيدات ؛ يجتمعون في حرم كل جامعة و يسمعون أناشيد الحرية من جنود الثورة و يتلقون النشرات والكتيبات .

وشهدت روسيا فى هذا الشهر مايدل على إجماع عام بين الطبقات والأحزاب على اختلاف أعمالها وأسمائها ووسائلها ؛ وذلك هو الإضراب الذى بدأ بعمال خط حديدى واحد . ثم ما لبث أن شمل روسيا كلها ...

أضرب فى اليوم العاشر من أكتوبر عمال السكك الحديدية ، وفى الحادى عشر أضربت الصحف . ثم تتابع الإضراب ، فلم يأت السابع عشر حتى أغلقت المصانع والمتاجر والمصارف ودور الحكومة والمحاكم ، وعيادات الأطباء ، ولم يبق فى البلاد كلها أحد يعمل ؛ ولن يرضي الشعب إلا بالحريات العامة ، وبالحكم الدستورى ...

وارتاع القيصر و بطانته وأعوانه لهذا الاجتماع المهيب ، وزلزلت الأوتوقراطية من أساسها ، وأيقن أنصارها أن هذا الشهر هو آخر عهدها بالسلطة ...

وشاور القيصر أعوانه ، فلم يجدوا أمامهم إلا أحد طريقين : فإما إجابة الشعب إلى ما يطلب ، ومعنى ذلك تنازل القيصر عن أوتوقراطيته ، و إما إقامة ديكتاتور من رجال الحرب على رأس الحكومة ليقضى على الثورة .

وما يتنازل قط طاغية عن سلطانه إلا مكرهاً ؛ لذلك مال القيصر إلى الرأى الثانى ، واستدعى إليه عمه الغرندوق نيقولا وكان القائد الحقيق للجيش إلى جانب القيصر الذى هو بحكم منصبه القائد الأعلى ؛ وصارح الغرندوق ابن أخيه بأن معظم الجيش لا يزال فى الشرق ، وأن ما هو موجود منه فى روسيا لا يقوى على صد الثورة عن وجهها ... وقد نقل أحد رجال الدولة عن الغرندوق أنه أخرج مسدسه وقال لأحد رجال البلاط : « أترى هذا المسدس ؟ إنى ذاهب الآن إلى

القيصر فتوسل إليه أن يعلن قبول الدستور ، وإلا فسأقتل نفسي بين يديه »

وأذعن الطاغية على رغمه ، وأعلن فى ذلك اليوم المشهود السابع عشر من أكتوبر سنة ١٩٠٥ قبول الدستور ، والحكم النيابى ؛ وتلفتت روسيا ، وهي لا تكاد تصدق عينيها ، إلى نور الفلق ينهل على الأفق ...

* * *

أهو فجر كاذب ؟ ذلك ما بات به الروس يتساءلون ! فما لبثت البلاد أن سمعت ، وهى فى فرحها الشامل بأنباء عجيبـــة جاءت من الأقاليم عن عصابات إرهابية مسلحة تقتل اليهود طمعاً من القيصرية والعناصر الرجعية فى صرف الثورة عن وجهها الحقيقى ، وذلك بإغراء الناس بالقضاء على اليهود الذين هم في زعمها أصل الشر كله . ثم أخذت تغتال فى هذه العاصفة الهوجاء الطلبة والعمال من العناصر الحرة ، وكانت هذه الفرق الإرهابية تنتمى إلى « جمعية الشعب الروسى » وتسمى « المئات السود » ، وقد كانت هذه الفرق السوداء تعمل بوحي الشرطة وأعينهم ، ومن ورائهم القيصر وحكومته ؛ ولقد قتل هؤلاء « المئات السود » أكثر من أربعة آلاف ، وآذوا أكثر من ستة آلاف فى كثير من المدن ، وذلك فى مدى أسبوعين ...

ومن جهة أخرى ، أدى شعور الثائرين من العمال بخطرهم ، ومكانتهم ، واعتزازهم بما ظهر من قوتهم فى ثورة اكتوبر إلى طموحهم صوب السلطة دون غيرهم من الأحزاب ، وبخاصة دون الاشتراكيين الديموقراطيين الذين كانوا من جانبهم يزعمون أنهم أجدر وأحق بالسلطة ...

وتألف « سوفيت » أو مجلس برياسة تروتسكى قوامه مندوبون عن العمال فى مصانع بطرسبرج ، وغايته توجيه الثورة بحيث تقتصر ثمارها عليهم وحدهم ، وأدى ذلك إلى نفور رجال الطبقة الوسطى عامة والاشتراكيين الديموقراطيين خاصة ؛ وهكذا بات أنصار الثورة بعضهم لبعض عدواً ، ولم يدر ذلك « السوفيت » ولا رئيسه تروتسكي أنهم بما فعلوا إنما سعوا إلى هلاكهم . فإن الأوتوقراطية هى وحدها الرابحة من هذا الخلاف ...

ولم يكد يمضى شهران حتى ظهرت بوادر الرجعية من جديد ، وتراءت على الأفق كدرة الغسق ...

ففي نوفمبر دبر « السوفيت » إضراباً عاماً سببه الظاهرى مطالب خاصة بالعمال ، ومع أنهم أفلحوا فى إضرابهم فى أوساط العمال ، وأخافوا الحكومة ، ومع أن العناصر الحرة بوجه عام لم يجاهروهم بالعدوان رضاء عنهم لإرهابهم الحكومة ، إلا أن العناصر الرجعية قد تبينت أنها اليوم ليست تلقاء حركة شعبية عامة وإنما تلقاء طبقة واحدة ...

وبدأت حرب الطبقات شيئاً فشيئاً ؛ وكانت كلما ازدادت قوى جانب الرجعية أو قوى أملها فى القضاء على الثورة ... فلما دعا «السوفيت» إلى إضراب عام ثالث فى ديسمبر يكون مقدمة لثورة مسلحة للقضاء على العهد القديم كله ، ورددوا دعوتهم إلى الجمهورية والاشتراكية ، لم تجبهم الطبقة الوسطى . فإنها وإن كانت تكره الأوتوقراطية ، إلا أنها كانت لا تذهب مذهب هؤلاء ؛ وتخلى عنهم عدد ليس بالقليل من العمال أنفسهم .

وأدى نشاط العمال وشطط « السوفيت » على هذه الصورة إلى فقدان الجيش عطفه على الثورة الشعبية شيئاً فشيئاً ؛ ولذلك لبي حين دعى للقضاء على هذا الإضراب الذى لم ينجح فى أن يكون عاماً ؛ فقد اقتصر على موسكو حيث سيطر « السوفيت » أياماً ؛ ولما سقطت المدينة بعد حوادث دامية عنيفة فى يد الحكومة بمعونة الجيش والفرق الإرهابية السوداء فى اليوم العشرين من ديسمبر ، تلقى القيصر رؤساء « المئات السود » فى قصره رسمياً ..

وأرسل الجند إلى كل جهة ثار فيها العمال أو الفلاحون فبطشوا بهم وقتلوا عدداً كبيراً . ولما اجتمع « الدوما » وهو البرلمان الجديد فى مايو سنة ١٩٠٦ ، دهشت الحكومة أن رأت الاشتراكيين الديموقراطيين ينالون عدداً كبيراً من المقاعد لم يظفر بمثله أى حزب بينما حصل مالكوا الأرض على عدد قليل جداً ، وراح الاشتراكيون يطلبون توزيع الثروة توزيعاً عادلا ، وذلك بانتزاعها من

كبار المالكين وكانت الحكومة أثناء الانتخابات مطمئنة إلى محافظة الفلاحين وإلى ولائهم الموروث للقيصريه . فلما رأت من الاشتراكيين ما رأت ، أرادت أن تحل الدوما من أول اجتماع ، ولكنها آثرت أن تتريث حتى لا يكون عملها باعثاً على ثورة عامة من جديد ؛ و بعد اثنين وسبعين يوماً ، حلت الحكومة الدوما على يد ستوليبين رئيس الحكومة الجديد ، فلم يتحرك أحد ...

و بدأ على يد ستوليبين عهد أسود فظيع من الإرهاب لم تشهد البلاد قط مثل حلكته بل لم تشهد الدنيا نظيراً له ، قتل فيه الآلاف بلا حساب ، وامتلأت السجون بالآلاف ، وأرسل إلى المنفى مئات الآلاف ، وظل هذا الليل القاتم قائماً حتى مصرع ستوليبين إذ رمي برصاصة سنة ١٩١١ فى أحد المسارح بكييف فبدأ يتنفس الصبح من جديد ...



جهاد جديد !

اشتدت بالناس المجاعة ، وقد فرغ تولستوى مما أثاره تقسيم ثروته من نزاع بينه و بين زوجته فشمر للغوث ؛ وانطلق إلى موطن من مواطن المحنة ، ومعه ابنته مارى ...

ورأى تولستوى الفلاحين لا يجدون قوتاً إلا قليلا من الخبز الأسود ، ولاوقودا إلا سقوف عششهم و بيوتهم ؛ والموت يتخطفهم إذ يسقطون من الجوع.

ولحقت بهما تانيا ؛ ثم شمرت الأسرة كلها ؛ فأنشأ سيرجى ومعه أخوه إليا مطاعم فى مقاطعة تولا ؛ وترك ليو دروسه في جامعة موسكو ، وذهب يعمل في سمارا ...

وأقام تولستوى وابنته مارى فى مقاطعة دانكوفسكى عند صديقه رايفسكى الذى أعانه بكل ما في وسعه . أما الكونتس فقد شق عليها فراقهم جميعاً ، وما لبثت أن أخذت بقسط من العمل ؛ فأذاعت فى الصحف نداء تطلب فيه إغاثة الناس وسرعان ما لبى المحسنون فاجتمع لديها مبلغ كبير أنفق فى مواطن الجوع .

وكان تولستوى يقضي نهاره بين الناس ، ومن حوله الكوليرا والجدرى والتيفوس والإنفلونزا والهزال ، لا يخاف ولا يكل ، وكان فى الليل يكتب المقالات للصحف يستحث القادرين على الجود والعمل ، و يندد بالأغنياء الذين يعلمون ما حل بالناس ثم لا يتقدمون للنجدة ؛ ولقد كان أثر مقالاته فى روسيا عظيما ، يتناقلها الناس فيقرأونها فى رهبة واحترام أوشك أن يكون خشوعاً ، واشتدت حملة تولستوى على الأغنياء الذين لا يقبضون أيديهم فحسب ، بل يبيعون حبوبهم ودقيقهم بثمن غال منتهزين هذه المجاعة ..

وكتب تشيكوف ، وكان يومئذ يسعف المرضي فى ناحية نوفجورود

« تولستوى ! آه ، تولستوى ! إنه فى هذه الأيام ليس رجلا فحسب ؛ بل هو فوق أن يكون رجلا ، إنه چوپتر » .

وكان ينام تولستوى فى حجرة صغيرة ليس بها إلا سرير من حديد ، فلا بسط ولا ستائر ولا مقاعد ، وإنه ليثب من سريره كل يوم إلى العمل ينشيء المطاعم ، ويسعف المرضي ...

ومات صديقه رايفسكى بالحي ؛ ورقدت ابنتـه مارى ؛ ولـكنه دائب لا ينكص ، وإن بلغ به الجهد مبلغاً عظيما ، وقد أنشأ ستة وأربعين ومائتى مطعم للـكبار ، وأربعة وعشرين ومائة للأطفال ، كان ينفق عليها مما يصله من المتبرعين من روسيا ومن إنجلترة ومن الولايات المتحدة ، وقد كان لصوته دوى كبير فى هاتين الدولتين ...

وكان يتألم تولستوى كلـما رأى أن ما يبذله من جهد على كثرته لا يخفف إلا قليلا من هول المجاعة . فلا يزال الآلاف فى عششهم لا يستطيعون الخروج لحاجتهم إلى الملابس ، ولا يزال التيفوس والـكوليرا والجوع تفتك بالناس ؛ والدواب ، وبخاصة الخيل فـكانت تموت فى مرابطها جوعاً ...

وأشد ما كان يؤلمه ويملأه حنقاً وحزناً ما يرى من إهمال الحـكومة ؛ تلك التى أنـكرت أول الأمر أن فى البلاد مجاعة ؛ حتى كتب تولستوى ما كتب ؛ وما يرى من نفاق الأغنياء ، وموت ضمائرهم وقلوبهم ....

وفوق ذلك لقد كان يكره هذا العمل الذى يعمل وإن شمر له سنتين كاملتين تعرض فيهما للهلاك ولـكيد أعدائه ؛ ذلك أنه كان لا يراه العلاج الصحيح . فإمداد الفلاحين بالطعام اليوم لا يدفع عنهم الجوع فيما هو قادم من أيامهم ، وفى هذا ما يؤيد سابق رأيه فى الصدقة وثابت مبدأه في الملك ، وهو أنه أصل الشر جميعاً ، ومنه هذا الجوع الذى يرى . كتب ذات مرة فيما كتب : « ليس مما يشا كل رأيي أن أطعم هؤلاء الذين يطعموننى ، ولـكنى استدرجت إلى هـــذا العمل وأجد نفسي أوزع ما يقيء الأغنياء ! وإنى لأحس ما فى ذلك من مهانة ،

ولـكنى لا أستطيع أن أنأى عنه بجانبي » .

ولعله سمع ما كان يتهمه به الأغنياء فقد كتب إلى زوجته ذات مرة يقول : « لا تظني أنى أفعل ذلك كى يتحدث الناس عنه ؛ إنى مافعلته إلا لأنى لم أستطع أن أذوق السلام » .

وكان أعداؤه يكيدون له ؛ فقد كتب مقالة لإحدى المجلات ، ولـكن الرقيب لم يأذن بنشرها ، وكان مع تولستوى صديقه مستر دللن مراسل صحيفة « ديلى تلجراف » ؛ فاستأذنه فى ترجمة المقالة ، ثم أرسلها إلى صحيفته فذاعت فى إنجلترة وفى الولايات المتحدة ؛ وترجمتها مشوهة عن عمد صحيفة روسية هى صحيفة « الجازيت » فى موسكو ، وكانت لساناً من ألسنة بوبيدونستسوف ، وأضافت عليها ما يشعر أن تولستوى يريد أن يوقد نار الثورة بين الفلاحين .

وثارت ثائرة الحـكومة ، وراح خصومه يتهمونه بأنه داعية خطير من دعاة الثورة ، وأنه لا وطنية له بل إنه لعدو وطنه ، وأنه غير مسيحى ... وكتبت إليه زوجته ما علمت من أختها تانيا عن أثر مقالتـه ، وكيف أخذ مجلس الدولة يفـكر فى حبسه ، وكيف كان وقعها في نفس القيصر فقد قال : « إن تولستوى أسلمنى إلى أعدائى ، ولقد تلقيت زوجته ، الأمر الذى لم أعمله لغيره » ، وعبرت له زوجته عن مخاوفها ثم قالت « أين ماتدعو إليه من حب ومن عدم مقاومة الشر ؟ وليس لك من حق أن تسبب دمارى ودمار أولادى » .

وزعمت زوجته للسلطات أن المقالة مزورة ، ولـكنهم لن يصدقوا ذلك إلا إذا كتبه تولستوى نفسه ؛ وقال تولستوى إنه لا يكتب إلا ما يعتقد وما لا يسر الأغنياء ، وأنه فعل ذلك اثنتى عشرة سنة سجالا . على أن زوجته حصلت منه علي شهادة بأن ما نشرته « الجازيت » لا يطابق أصل المقالة ؛ وأضافت من عندها أن زوجها لم يرسل شيئاً إلى صحيفة إنجليزية ، وغضب مستر دللن من ذلك ، وأشفق على سمعته ، فطلب إلى تولستوى أن يعلن أنه أذن له بالمقالة : فأعلن تولستوى ذلك فى غير تردد .

وانضم دللن إلى خصومه ، برغم ذلك ، وراح يتهمه بالجبن قائلا إنه يستتر خلف ثياب زوجته !

وليس هذا كل ما لقي تولستوى من عنت خصومه وسوء مكرهم ؛ فقد راح بوبيدونستسوف يرفع التقارير إلى القيصر طالباً اعتقاله ، وكان لهذا تأثير قوى على الإسكندر لأنه فضلا عن تحمسه للأوتوقراطية كان مربيه ؛ وطلب مثل هذا الطلب وزير الداخلية ؛ وراح القسيسون فى الكنائس يتهمونه فى دينه ويحذرون الناس من هذا الجاحد الذى يخدع الفلاحين بما يقدم لهم من خبز ودقيق وقماش ! وأعلن كبير القسيسين في خاركوف لعنة الله والكنيسة عليه ، ودعا الله أن يقضى القيصر على شره قبل أن يستشرى ...

واستأذنت ابنة عمه ألكسندرا على القيصر ودافعت عنه ، ولم تذكر اسمه مجرداً بين يديه بل وصفته بقولها عبقرى روسيا الأكبر ؛ وأصغى إليها القيصر ثم قال إنه « لا يميل إلى أن يجعل منه شهيدا فيكسب بذلك استنكار العالم المتمدن كله » ؛ وكان حقاً على القيصر أن يحجم هكذا عن أن يؤذى رجلا تتجه إليه الأفئدة فى العالم جميعاً وقد باتت لروسيا به مكانة عالية فى أدب الدنيا ...

وخرج تولستوى من جهاده فى المجاعة بما زاده يقينا من مبادئه واستمسا كا بها إن كان فى حاجة إلى زيادة ؛ وبما زاده كرها لما فى أسرته من مظاهر الأرستوقراطية ، فقد كتب إلى ابنته تانيا سنة ١٨٩٤ يصف متألماً تأهب زوجته وبعض أبنائه للذهاب إلى إحدى الحفلات

***

لم تشغل ذلك الرجل العجيب أعماله المضنية فى المجاعة ، ولا مقالاته فى الصحف ، عن أن يكتب كتاباً فى آرائه السياسية ، كان يعده متمما لما كتب في الدين وفى الاجتماع ، وقد فرغ من هذا الكتاب في صيف سنة ١٨٩٣ ؛ وجعل عنوانه « مملكة السماء تقوم في أنفسكم » ، ولقد فاقت شهرة هذا الكتاب فى الشرق والغرب جميع ما كتب فى غير الفن .

شرح تولستوى فى كتابه هذا ما ينبغى أن تكون عليه السياسة مستمدة من المسيحية كما فهمها ؛ فقال إن مملكة السماء يمكن أن تتحقق على الأرض ، إذا كان سلوك الناس فى الحياة أو كثرتهم مطابقاً لما يعد مظهراً من مظاهر الشعور الحكيم أو الشعور المسيحى من قوانين خلقية ، مسطورة فى الإنجيل ومنقوشة على كل قلب سليم .

وجماع آرائه ذلك المبدأ الذى سماه « عدم مقاومة الشر بالعنف » ؛ وهو من مبادىء تولستوى التى ذهب لها صيت عظيم فى الشرق والغرب ؛ ولعله كان أعظمها ذيوعا ، ولعله أعظم ما اشتهر به الكاتب العظيم وأقوى ما أثر به فى أذهان المفكرين والقادة وفى مقدمتهم رجل الهند الفذ ، وشهيد الإنسانية العظيم للهاتما غاندى ، حواري تولستوي و إن لم يره ، وتلميذه الروحى ، وخليفته فى أكثر مبادئه

يرى تولستوى أن آلام البشرية جميعاً ، مردها إلى العنف والقوة والشر ، وهى كلها مترادفات ؛ ويري أن تاريخ الإنسانية كله هو تاريخ العنف على هذه الأرض ؛ والخطأ كل الخطأ فى مقابلة العنف بالعنف ، ومرد هذا الخطأ إلي أن الناس يتوهمون أن ما كان نتيجة محتومة لجلة حوادث معينة يمكن علاجه بتلك الحوادث نفسها التى أفضت إلى تلك النتيجة السيئة ... والصواب الذى لا صواب غيره ، هو أن ننظر من فورنا فى الأسباب التى أدت إلى ما حدث ، ونقضى على هذه الأسباب ، فننتزع من الشر دوافعه ؛ أما إذا قاومناه بمثله فإننا نضع شراً تلقاء شر وقد نزيده عنفاً وتجددا ... فضلا عن أننا نقبل الشر ونأتى ما نكره وما نريد أن نتخلص منه .

وينفى ذلك ما أذيع خطأ عن تولستوى من أنه لا يحارب الشر ؛ كلا فهو يحارب به كما نرى وهو يرى ذلك فى مقدمه مبادىء الإنسان ، ولكنه يحارب به على صورة تتلخص فى انتزاع ما يقوم عليه الشر من غل فينطفىء ...

لا تلق الشر بالعنف فيستفحل ؛ بل أقض على أسبابه تنتزع منه غله فيفرغ فيموت ؛ كالكرة من المطاط الممتلئة بالهواء فإنك إن ضربتها توثبت ، ولكنك

إن أفرغتها مما بها لصقت بالأرض ... هذا مجمل رأى تولستوى ..

وعدم مقابلة الشر بالعنف ، فضلا عما فيـه من « امتصاص » قوة ذلك الشر كما عبر تولستوى ، أو انتزاع ما به من غل ، يقرب بنا كذلك من الحب المسيحي المنشود الذى هو قوام « مملـكة السماء »

***

ويريد تولستوى أن يطبق رأيه هذا فيرينا كيف نحارب الشر فى الدول الحديثة ويأتى بآراء تجعله أجرأ من كتب فى روسيا ، بل في أوروبا ، عن الدولة ولقد كانت آراؤه هذه كالديناميت تحت قاعدة البنـاء العتيد إذا انطلق خر البناء من أساسه .

كان لا يعترف تولستوى بالدولة فى وضعها القائم يومذاك ، ويراها شراً فى شر ؛ ولذلك كان من أكبر الهادمين أو كان إمامهم الأكبر ؛ ويرى أنه يجب علي كل ذى شعور مسيحى ألا يطيع الدولة إلى أي عمل غير مسيحى ، وفى مقدمة ذلك الجندية ؛ علي ألا تـكون القوة وسيلته ، بل عدم المقاومة...

ويجب عليه بعد ذلك أن يرفض كل عمل قائم علي استلاب جهود الناس أو مؤد إلى ذلك أو حام له ؛ فلا يقبل أن يكون قاضياً أو موظفاً أو شرطياً ؛ ويجب أن يكون سلوكه إنسانياً لا وطنياً وأن يكون أساس هذا السلوك ما يؤمن أنه الحق ، وفق ما يستشعر من المسيحية الحق ...

وما دامت الدولة أساس الشر جميعاً ، وما دام أنها أبعد ما تـكون عن المسيحية ، وإن تنـكرت فظهرت فى غير حقيقتها ، فيجب على المسيحى الحر ألا يعترف بها ؛ وأن تـكون هذه نظرته إلي الدول جميعاً كفرنسا أو إنجلترة مثلا ، لا إلى روسيا وحدها .

والمسيحى الحر لا يرضى أن ينتفع بشيء من نظم الدولة ؛ فلا يجب أن يثرى فى حمايتها ؛ ولا يجب أن يستعين محاكمها ولا شرطتها ؛ ولا يجب أن يستخدم شيئاً قام على مجهودات الغير ...

ويجب ألا يمتلك شيئاً ، وألا يتداول المال ؛ وعليه أن يعمل ليأ كل فهو إن ترك العمل واستخدم غيره استعبدهم بماله وامتلك أضعاف ما يحتاج إليه ، أما إذا عمل بنفسه هو وأسرته فإنه يمتلك بقدر عمله ويدع لغيره كذلك أن يمتلك فلا يستعبد …

ويرى تولستوى أن عدوان الأفراد ، وما قد يأتونه من إثم أو باطل ، إنما نتخذه مثالا لما يجب ألا يكون ؛ وبذلك نستطيع أن نندد به ، وندعو الناس إلي اجتنابه ؛ أما الدولة فضررها أعظم فهى كما بين في أ كثر من موضع عدوان في ذاتها ، لأن وجودها فى ذاته سبب ما يعانى الناس من عذاب ما دامت تقوم لتحمى استعباد فريق من الناس فريقاً غيرهم ؛ ولذلك فهي إثم وباطل دائمان ، ولكنهما يتخذان مظهر الفضيلة بادعائهما النظام والأمن والعدالة والإصلاح ؛ وعلى ذلك فلا يجد فيها المرء ما لم ير الحقيقة ما يجده فى عدوان الأفراد من أمثلة يجب اجتنابها ، وإنما يجد فيها أمثلة لما يجب أن يكون وهنا الضرر الخفى ، ضرر اللص أو الفاسق الذى يلبس مسوح الرهبان .

ويعود تولستوى فى هذا الكتاب فيحمل على العلم الحديث وعلى الكنيسة ؛ أما العلم فلأنه يجحد بتعاليم المسيح ، وأما الكنيسة فلأنها تسيء تصويرها ...

ولكن تولستوى على شدة ما فى آرائه من هدم هو أقوى مظاهر الثورة ، يحرم الثورة وسيلة للقضاء على الدولة لأن الثورة عنف وشر : وإنما وسيلته المقاومة السلبية أى « امتصاص » ذلك الشر وتفريغه فتصبح الدولة وليس لها وجود بصورتها الحالية ، إذ لم تعد تقوم علي شيء ؛ وهذه المقاومة السلبية هي عدم الاعتراف بالدولة واجتنابها اجتناباً تاماً .

والمسيحى الحر فى رأى تولستوى لايطيع أحدا إلا الله فلا يقسم يمين الولاء للقيصر ولا للدولة لأنه لا يحق له أن يعيش إلا فى منأى عن ذلك النظام الآثم .

وينبغي ألا يضع نفسه فى موضع من يعمل بقوة خارجية كالتدمير والضرب والقتل مثلا ؛ فإن وضعه الصحيح أن تنطوى نفسه على إنكار الدولة وإن

ضرب هو أو قتل ؛ فإذا فصل الأفراد ذلك أو كثرتهم ، أصبحت الدولة وليس لها وجود ...

ويبين تولستوي الفرق بينه وبين الثوار فى قوله « إننا نخطىء إذا جملنا بيننا وبين الأحزاب الثورية مواضع نلتقى فيها ؛ إنهم يصيحون بقولهم لا دولة ، لاملكية ، لا ظلم ، إلى غير ذلك ، ونصيح مثل صياحهم ؛ ومع هذا فالفرق عظيم بيننا وبينهم ؛ فعند المسيحى لا وجود للدولة ، وهؤلاء يريدون أن يهدموها ؛ وعند المسيحى لا وجود للملكية وهؤلاء يريدون أن يقضوا عليها ؛ والناس جميعاً عند المسيحى سواء ، وهؤلاء يريدون أن يقضوا على عدم المساواة : ذلك أن الثوار يجاهدون الحكومة من خارج أنفسهم ؛ والمسيحية لا تجاهد أبداً ؛ إنها تحطم قواعد الدولة من داخل النفس » .

وعند تولستوى أنه لو رضيت الآلاف المتزايدة التى تأبى الخضوع ، أن ترسل إلى سيبريا أو إلى السجن أو أن تجلد ، لكان عملها السلبى على هذه الصورة من البطولة ، أجدى مما يفعل الثائرون ؛ فإن الثورة المنبعثة من داخل النفس والتى تجعل سلاحها عدم المقاومة أبعد أثراً من الوثبات العنيفة ومن الجمعيات السرية ؛ ولكي يغير نظام الدنيا ينبغى أن يغير الناس مابأنفسهم ؛ فلابد من ضمير هادىء لا يتزعزع وإن حمل البدن ألوان العذاب ؛ لا بد من ثورة النفوس لا ثورة الأيدى ...

وحين يصف تولستوى ما يحل محل « ذلك الجرم » ، كما يسمى الدولة ، يبدو مغرقاً فى الخيال وتبدو آراؤه سديمية إلى حد بعيد ؛ فهو يدعو إلى أن يقوم الإخاء والحب والإيمان بين الناس مقام الأنظمة والقوانين والسلطة ؛ ولا بد أن يتنازل أصحاب الثراء عن ثرائهم ، فلايأخذون من الدنيا إلاما يحتاجون إليه على أن يكون ذلك ثمرة عملهم بأيديهم ؛ ولا بد أن يتنازل من أفسدتهم الثقافة الحديثة عن آرائهم كى يصلحوا للوضع الجديد ؛ ولا بد أن يجعل أصحاب الفن فنونهم يسيرة حتى تصبح فى متناول العامة ... فإذا قلت الفوارق بين الطبقات أمكن

أن تصل إلى الوضع الذى يسوى بينها فيه بساطة المطالب أو تساويها وعلى ذلك فلا محل للحقد والبغض ، ولا داعي لسلطة أو قوة ترغم أحداً ، لأنه سوف لا يوجد من يُرغم ...

ولقد كان تولستوى عظيم الإيمان بمبادئه هذه ، فهى أعظم من أن تكون فكرا يملأ رأسه ؛ لأنها ضياء يشيع فى نفسه وينير له الدنيا ؛ هى إيمان مثل إيمان الأنبياء يملك قياده فلا يخطر قط على باله إلا أنه الحق ؛ ولذلك كم كان ألمه عظيما أن لم يستطع أن يحمل أسرته تعيش وفق هذه المبادىء ؛ هذه هى المأساة الحق فى حياته وإليها ترد كل أسباب شقائه ...

ومهما يكن من غموض آرائه فيما يقترح لتنفيذ مبادئه ، ومهما يكن من رأى بعض الناس في استحالة هذا التنفيذ ، فما لا ريب فيه أنها أحدثت من الأثر فى الفكر الحديث ، فى الشرق والغرب ، ما يجعلها من تلك الآراء التى يسميها المؤرخون صانعة جيل أو باعثة عصر ...

وليس من الإسراف القول إن آراءه قد أحدثت من الأثر فى نفوس أهل عصره ، ما لم تحدث أعظم منه آراء ماركس أو نيتشه أو داروين أو فرويد كل فى محيطه ؛ أما فى روسيا ، فليس من كتابها ولا من مفكريها جميعاً من مهد السبيل للينين وتروتسكى كما مهدها تولستوى ، عدو الثورات ، ومبدع مبدأ عدم المقاومة ، وإن بدا فى قولنا هذا ما قد يعد تناقضاً ...

وليس فى الأمر تناقض ما ، فهذا الرجل أول من تحدى القيصرية فى عنفوان قوتها ؛ وهذا الرجل أول من تحدى الكنيسة فى أوج سلطتها ؛ وهذا الرجل أول من زعزع الملكية فى وقت كان لا يطمع فيه غيره إلا فى شيء من الإصلاح ؛ وهذا الرجل أول من بث الشجاعة في قلوب الناس ، في وقت كان المس فيه مما تخشى عواقبه ؛ ولئن كان جان جاك روسو أبا الثورة الفرنسية فإن ليو تولتسوي أب الثورة الروسية العالمية ...

ولم تنطفىء شعلته بعد موته ، فهذا غاندى الشهيد كما أسلفنا ، وإن لم يكن مسيحياً ، قد أخذ سياسته فى كفاحه عن تولستوى ؛ وما كان أسلوبه فى عدم المقاومة ، وما بثه فى نفوس أتباعه من موقف سلبى فى وجه السلطة ، وما كان عزوفه عن الترف ، وما كان اعتزاله الصناعة الحديثة ، وأخذه بمبدأ العمل فى البيت ، وما كان استغناؤه أو استقلاله السياسى ، بإقلاله من مطالب الحياة ... ما كان ذلك جميعاً إلا مستمداً من أستاذه المسيحى ...

« لا تقاوم الشر بالعنف » ؛ فى هذه العبارة فلسفة تولستوى الأخلاقية ، وبها قذف على المدنية الحديثة ، والدولة الحديثة ، فزعزع أساسهما .

ومايستنكر العنف مستنكر من كتاب اليوم ، ومايندد مندد بالحرب وسفك الدماء ، وما يسخط ساخط على العدوان والاغتصاب ، وما يغضب ذو ضمير حى من عنت المتسلطين من الحكام ومن طغيان الطاغين ، وما يتألم متألم من ظلم اجتماعى إلا وفى نفوس هؤلاء جميعا صدى ماصاح به تولستوى فملأ سمع العصر...

ولكن الإنسان على الرغم من ذلك كله هو الإنسان ، ولو أخذ الناس بتعاليم المصلحين ، فضلا عن رسالات المرسلين ، لما انبعثت فى الأرض تلك الشرور ، وآخرها تلك الحرب الهائلة ، التى قوبل فيها العنف بالعنف ، فى صورة يفزع منها ، وكان لروسيا موطن تولستوى فيها دورخطير .. ولكن خطأ الإنسانية على كل حال لا يقدح فى مبادىء رسلها وهداتها .



غاندی خلیفة تولستوی فی مبادئه

آلام جديدة وكتب جديدة !

فى الثالث والعشرين من فبراير سنة ١٨٩٥ ، رزىء تولستوى وزوجته بموت ابنهما إيفان ، وكان فى السابعة من عمره ؛ وقد عظم حزن الأبوين على هذا الغلام ؛ كتبت الكونتس صباح اليوم التالى « مات ابنى العزيز فى الساعة الحادية عشرة ليلة الأمس ؛ رباه ! إنى أعوذ بك إذ أفكر أنى لا زلت حية حتى الآن » ؛ ولقد ذرف أبوه الدمع ، وصار يقلب كفيه جزعا ، فلكم كان ينظر نظرة الرجاء إلى هذا الغلام ، قائلا إنه هو الذى سوف يحمل رسالته من بعده إذا عاش ... كتب بعد موته بثلاثة أيام « لقد دفنا فانشكا ... يا للرزء ... لا ، إنه امتحان روحي » .

وصار تولستوي يفكر فى الموت أياماً بعد فقد ابنه ، حتى لقد كتب وصية وأثبتها فى مذكراته كما لو كان موقنا من دنو أجله ...

ولقد كان يؤلمه ما يرى من جزع زوجته وألمها ، ولولا أنه كان يخشى إذ هو غادر روسيا ألا يسمح له بالعودة إليها لا ستصحبها إلى رحلة في أوروبا لعلها تنسي ...

وأثبت فى مذكراته قوله « لقد قابلت أحد القسيسين الأذكياء فأخبرها بحق مبين : ذلك أن الأمهات اللائى يثكلن أطفالا يتجهن إلى الله أول الأمر ، ولكنهن بعد ذلك تشغلهن شواغل الدنيا ، وعندئذ يبتعدن عنه ؛ وإنه ليحذرها من ذلك ؛ ولكن يخيل إلى أن ذلك لن يحدث لها »

ولقد صدق كلام القسيس ؛ فما لبثت الكونتس أن التمست العزاء لقلبها فى مصاحبة موسيقى شاب يدعى تانييف ؛ وما لبث مؤلف « سوناتة كروتزر » أن رأى قصته تكاد تمثل فى داره !

أحست الـكونتس ميلا نحو هذا الشاب ، وكانت تصغى إليه ، وتقبل عليه ثم سألته ذات ليلة عقب إحدى الحفلات فى موسكو أن يصحبها ماشياً حتى منزلها وكان على مسافة ساعة أودون ذلك قليلا ؛ ثم زارته بعد ذلك في حجراته حيث كان يقيم ؛ وصار بعد ذلك يختلف كثيراً إلى دارها ؛ وكانت تخرج الـكونتس صحبته للرياضة وقد أزينت وانتقت ملابسها ...

وتهامس الناس ؛ وتهامست مارى وتانيا ، حتى الصغار فإنهم لم يحبوا أن يروا تانييف هذا فى مكان أبيهم فهو لا يكاد يفارق أمهم ...

وظل تولستوي ساكتاً زمناً طويلا وإن كان ليعلم هذه الصلة علماً وثيقاً ؛ وإن كان لشديد الغيرة عظيم الحنق على زوجته ...

أما هي فلم تعد تحفل غضبه وإن تظاهرت بالرثاء له ؛ كتبت إلى إحدى صديقاتها سنة ١٨٩٦ تقول « كلما فكرت فى حنق زوجى وغيرته العمياء ، أحسست بشيء كثير من الغضاضة والخجل ، ورغبت في وضع حد لهذا كله فللموت أهون من اتهاماته المسيئة إلى ، أنا التى حرصت طول حياتى أشدالحرص على ما توجبه اللياقة حتى لا يجد زوجى ولا أطفالي فى سلوكي ما أخجل منه »

وظل تانييف يزور الأسرة وهو لايدرى شيئاً عما يحدثه مجيئه بين الـكونت وزوجته ؛ والـكونت لايفعل شيئاً وإن غضب ، حتى كان ذات يوم سنة ١٨٩٧ يتحدث إلى زوجته فأخبرته أن تانييف قادم ليقيم عندهما أياما ؛ فصاح بها قائلا إنه سوف يغادر الدار إن وطئتها قدما تانييف ؛ ثم إنه بارح الدار إلى أخيه سيرجى ليقيم عنده وهو يقسم أنه لن يعود ...

وكانت زوجته تؤكد أن صلتها بتانييف صلة أفلاطونية ؛ ولا تعبأ بما يقول الناس ولا بغضب زوجها .

وعاد تولستوى إلى بيته بعد بضعة أيام ، وكأنما كانت الـكونتس تثأر لنفسها من زوجها لما كان من إعراضه عنها ؛ كتبت تقول بعد أن ذكرت ما تحس من إشفاق على زوجها لاعتلال صحته وتزايد نحافته ، وغيرته « ولست

أدرى ما إذا كان ذلك خطأى ؛ حينما اتصلت أسباب المودة بينى و بين تانييف شعرت أن من الخير أن يكون لى صديق كهذا فى كبرى ، فهو رجل مهذب رحيم موهوب » .

وكتبت تصف حال زوجها عقب مجيء تانييف « كان مما يخيف رؤية ما فى وجه ليو نيقولا ڤتش من غيرة مريرة حين علم بوصول تانييف » .

ولما رحل تانييف كتبت تقول « إن ليو نيقولا ڤتش سعيد اليوم هادىء البال ... إن السبب الذى يدعونى من أجله ليو نقولا ڤتش إلى قطع صلتى بتانييف هو تألمه ؛ ولكن مما يؤلمنى كذلك أن أفقد صداقته ؛ وليس فى هذه الصداقة إثم قط ؛ و إنى لأشعر بكثير من الفرح كلما ذكرت شعورى البرىء نحو ذلك الرجل ؛ حتى إننى لا أستطيع أن أقطع ما بينى و بينه فأبعده عن حياتى » .

وتمادت الكونتس فى غيها ، فكتبت بعد شهر تدعو تانييف لزيارتها ، وكأنها لا تطيق بعده عنها ، أو كأنها تشعر اللذة فى إيلام زوجها وانتصارها عليه ، وما كانت فى الواقع لتفعل ذلك ، لو كان زوجها سيد بيته ، ولو لم يكن يقيم فى هذا البيت كما لو كان ضيفاً على الأسرة .

ولم تخبر زوجها بفعلها مخافة أن تؤلمه وتسيء إلى صحته كما زعمت « ألا يعجب تانييف إذا علم ؟ ولكنى لا أملك ألا أستشعر عظيم السرور كلما ذكرت تلك الموسيقى الحلوة ، ثم ذلك الحديث البهيج مع شخص مثله مرح ذى وجاهة »

ولما سمع زوجها نبأ هذه الزيارة الثانية ، صاح متعجباً ، « إنى لم أعلم بشيء من هذا » ؛ وأخذ أطفالها ينقلون إليها مايقول الناس عن صلتها بتانييف ؛ وأعلن الكبار منهم سخطهم واستنكارهم ، ولكنها لم تحفل شيئاً من ذلك ، وكتبت تقول « إنى لأفتخر أن يقرن الناس بينى و بين ذلك الرجل العجيب الموهوب المهذب ذى القلب الرحيم ؛ إن لى ضميراً صافياً ؛ و إنى لبريئة براءة الطفل الوليد فى بدنى وفى روحى ، حتى فى عقلى ، أمام الله وأمام زوجى وأمام أطفالى »

ثم قالت بعد ذلك وقد ازداد سخط أبنائها واحتجاجهم « إنهم جميعاً يعتقدون أنى أسيرة حب ! ألا ما أقبحهم وما يظنون . إنى اليوم أكبر سناً من أن أفعل ذلك ، وليس مما يشاكل سنى تلك الكلمات ولا هذه الأفكار » .

واعتزم تولستوى أن يهجر البيت ثانية ، وترك كتابين لزوجته ؛ ذكر فى أحدهما السبب الحقيقى ، وكتب الآخر لتطلع عليه الناس إذا شاءت حتى لا تلوك سيرتها الألسن ... على أن الكتابين لم يقعا فى يدها إلا بعد موته ...

وذلك أنه على الرغم من تصميمه لم يستطع أن يقدم على هذا العمل ، وقد تفكر طويلا في عواقبه ، وما عسى أن يتحدث عنه الناس فى روسيا وفى غير روسيا ، وأذعن آخر الأمر للبقاء مكرهاً ، وإن كان ليعتزل أسرته ، ويكب على كتبه وأوراقه ، وكان يومئذ يكتب فى الفن ماهو ؟ ولعله كان يلوذ بالكتابة لينسي متاعبه وآلامه ...

وظلت زوجته تشكو وتسخط ؛ فتارة منه ومن إعراضه عنها ، وتارة من بنتيها ومن أبنائها الصغار منهم والكبار ، وتارة من نفسها ، لا تهدأ ولا تستقر على حال .

أما تولستوى فكان يكربه فوق متاعب امرأته ، تفكره في شيخوخته ، لا خوفاً من الموت وإن كان شديد التعلق بالحياة ، ولكن خشية ألا يتسع ما بقى من عمره لما يريد أن يكتب مما يجول فى خاطره من معان فى الفن وفى غير الفن ، وكان كذلك يؤلمه ما يحس من وحشة وقد مات بعض أصدقائه ونفى البعض ، وتزوجت ابنته مارى ، وخطبت تانيا ، وعما قريب تذهب إلى زوجها .

***

كان هذا حال تولستوي والقرن التاسع عشر يقرب من نهايته ، وهو يطل على السبعين من عمره ؛ ولكن آلامه هذه لم تلوه عما هو من رسالته بسبيل ؛ أو تصرفه عن الكتابة ؛ فكل شيء يهون عند ذوى الرسالات وأصحاب الفن إلا رسالاتهم وفنونهم بالضرورة لأنها وحياتهم شيء واحد ...



تولستوی قرب السبعين

كتب تولستوى ما بين سنة ١٧٩٥ ، وسنة ١٨٩٩ كتابا طويلا فى الفن ما هو وما غايته ، وقصة هى ثالثة قصصه الطويلة ، وإن كانت لا تزيد حجماً عن نصف « أنا كارينينا » وتلك هى قصته « البعث » . ثم كتب قصتين أخريين هما « السيد والتابع » و « الأب سرجيوس » ولم تنشر الثانية إلا بعد موته ؛ يضاف إلى هـذه مقالات كثيرة فى أمور شتى ؛ كمقدمة لقصص موباسان ، وبعض آرائه فى الدين ، والوطنية والسلام ، وكيف يقرأ الإنجيل ، وغيرها من الدراسات القصيرة ...

ونحب قبل أن نتكلم عن الكتابين أن نعرض ما كان منه حيال السلطات بسبب عدوانها على بعض أصحابه وتلاميذه وفى مقدمتهم شيرتكوف ، واضطهادها بعض الفرق الدينية لمخالفتها الكنيسة الأورثوذكسية ...

نشطت الحكومة فى تعقب كل حركة ترى فيها خروجا على الأوتوقراطية . لأن ما كان يزعج القيصر وأعوانه يومئذ هو ما وصفه بالأحلام من نزوع نحو الحكم الدستورى ، وقد كان فى القوقاز قوم جعلوا المحبة أساس علاقة أفرادهم بعضهم ببعض وعلاقتهم بغيرهم من الناس جميعاً ؛ بل بغير الناس من المخلوقات ؛ وكانت ترى هذه الطائفة واسمها : « الدوخوبر » أن الناس جميعاً سواء ، وأن الطاعة للحكومة لا تكون فيما يتعارض ومبادئهم وضمائرهم و إرادة الله ...

وكان مما يتعارض و إرادة الله فى رأيهم الخدمة العسكرية . لذلك تداعوا سراً إلى اجتماع اعتزموا فيه حرق أسلحتهم ، ولكن الحكومة علمت بما بيتوا فأرسلت إليهم خيلها ورجلها ، وأذاقتهم بأسها ، وقبضت على كثير منهم فألقت بهم فى السجون . ثم أعقب ذلك اضطهادهم اضطهاداً قاسياً ؛ فكتب شيرتكوف احتكاماً إلى الرأي العام فى كتيب وضع تولستوى مقدمة له بعنوان «الغوث» ، وقد اهتم تولستوى بهذه الطائفة لأنه كان يرى فى مبادئهم ما يشبه كثيراً من مبادئه ؛ وكانوا قد علموا فعلا بتعاليمه على لسان زعيم لهم قرأ كتب تولستوى فحرم أكل اللحم بينهم ، وجعل الملك شائماً ؛ كما حرم مقاومة الشر بالعنف

وما زال تولستوى يدافع عنهم حتى كفت الحكومة عن اضطهادهم ، وسمحت لمن يريد السفر بمغادرة روسيا ؛ فسافر عدد منهم إلى كندا ، وقد سمحت لهم حكومتها بالهجرة إليها .

وراح بعض أصحاب تولستوى ، ومنهم بيركوف وتريجوبوف وشيرتكوف ، يحصون ما ارتكبت الحكومة من صور العدوان ؛ ولكن الحكومة باغتت بيت شيرتكوف بالتفتيش ، واستولت على كل ما جمعوا ؛ ثم نفت بيروكوف وتريجوف إلى بلاد البلطيق ، وخيرت شيرتكوف بين أن يصحبهما أو يغادر روسيا فآثر أن يغادر روسيا ليقيم بإنجلترة ؛ وقد ودعه عند سفره عدد عظيم من الناس كان فى مقدمتهم تولستوى .

وراح پو بندونستسوف ، ومن ورائه الكنيسة والحكومة ؛ ينفون الأسر المسيحية المخالفة للأرثوذكسية إلى سيبريا ويأخذون أولادهم عنوة لتعليمهم فى مدارس أورثوذكسية ؛ ولجأ كثير من الفلاحين ممن أخذ أولادهم إلى تولستوى ، فكتب يلعن هذا العمل إلى صحيفة « أنباء روسيا » فخافت من نشر ما كتب وعلمت به الحكومة ، واشتد حنقها على تولستوى ؛ وعادت إلى زوجته مخاوفها من بطش يحيق به ، ولكنه لم يعبأ بذلك ، ولم تجرؤ الحكومة على أن تناله بشيء .

* * *

« ما الفن ؟ » ذلك هو عنوان ذلك الكتاب الذى يضاف إلى دراساته الدينية والاجتماعية والسياسية ...

ولا بد لمن يقرأ هذا الكتاب أن يكون ملماً بفلسفته جميعاً حتى يستطيع أن يدرك ما يذهب إليه ؛ وفى هذا الكتاب كما فى غيره خصائص عبقريته وأستاذيته . قال عنه برنارد شو « ما من رجل يعرف الفن معرفة وثوق إلا تبين فيه صوت أستاذ » .

ولقد أحدث الكتاب صخباً عظيما فى أوساط الأدباء ؛ فإن تولستوى يقول لأكثرهم بهذا الكتاب إنهم يعملون عبثاً ؛ فما كان ما يزعمون من أعمال فنية متصلا بالفن كما عرفه من قريب ولا من بعيد ...

يجعل تولستوى الفن ثلاثة ضروب : الفن الطيب والفن الخبيث ، والفن الباطل أو الزائف ؛ ولا تقاس قيمة الفن بمقياس مجرد كنظريات علم الجمال مثلا ، وإنما تقاس بصلته بالناس وبالمبادئ السامية التى لابد منها لحياتهم ؛ وعلى ذلك فلا يمكن تجريد الفن من الفضيلة ...

ونرى في هذا الذى يقول كيف غير تولستوى رأيه فى الفن ، وكيف بعد كما أسلفنا بعد اشتغاله بالدين وتفلسفه فى الاجتماع والسياسة عن سابق نظرته ، وجعل الفن وسيلة لا غاية ...

والفن الحق هو أن تنقل إلى غيرك ما تحس فى نفسك مما تأثرت به تأثراً عميقاً ، والفرق بينه و بين الزائف من الفن ، أن يحس الفنان حقاً فى أطواء نفسه ما يريد أن ينقله إلى غيره ، وأن يبلغ من قوة الأداء أن يؤثر فى غيره بحيث يجعله شريكا له فى إحساسه ، ولاعبرة بالإحساس الذى ينقله من حيث ضآلته أوعظمته ومن حيث مرحه أو حزنه ، ومن حيث عنفه أو هدوئه ؛ ولا عبرة كذلك بوسيلته في الأداء ؛ فقد تكون كلاماً أو صوراً أو لحناً ؛ ولا بطريقة الأداء ما دام أنه ينقل ما في نفسه إلى نفس غيره ، وإنما تتجلى قوة الفنان حقاً فى كمال هذا النقل ، وكلما كثر عدد من يشاركونه نفس إحساسه كان إلى ذلك الكمال أقرب .

هذه قيمة الفن من حيث هو . أما قيمته من حيث غايته ، فردها إلى نوع الإحساس الذى ينبعث عنه ؛ فإن كان منبعثاً عن إحساس فى المستوى الحيوانى فهو إن كان فى أحسن حالاته لا يضر ، وإن كان فى أسوأ حالاته فضرره كبير بما يفضي إليه من إلهاب العواطف و بلبلة العقل ، وإن كان منبعثاً من الشعور المسيحى الصحيح ، أعنى ذلك الشعور الحكيم العاقل ، فهو يجمع الناس على أسمى درجات الفهم والحب .

ولقد بعد الفن فى المدنية الحديثة والثقافة الحديثة ، عن ذلك الشعور الحكيم الذى أخذت به جميع الأديان من بوذية و إسرائيلية ونصرانية و إسلامية ، والذي اعتنقه أساطين الفكر فى العالم من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو ،

وفقد الفن بذلك وظيفته فى السمو بالنفوس والعقول وأصبح ملهاة أشبه بلعبة لاعب؛ ولئن قال قائل إن إن الفن فى الأمم البدائية ضرب من اللعب فيرد على ذلك بأنه إن وصل إلى ذلك الوضع فى الأمم المتمدنه ، كان دليلا على انحطاطها إلى مستوى البدائيين . .

ولقد أصبح فى أوروبا منذ النهضة فنان : فن العامة وفن الخاصة ، وبات فن الخاصة قاصراً على فئة معينة ، وقد حيل بالضرورة بينه و بين العامة لما يتطلبه من نفقات لا يطيقها العامة ، وما زال يضيق و يبعد عن الروح العالمية حتى ليحسن تسميته الفن الإقليمى ؛ ثم ازداد ضيقاً فسماه أصحابه بالرمزية وأحري به أن يسمي الببغاوية ؟

وكلما قل من يستجيب لفن من الفنون دل ذلك على انحطاطه ، لأن الناس ما لم تُفسد عواطفهم المدنية إنما يسيطر عليهم شعور متحد وتحركهم مؤثرات واحدة ، وعلى ذلك فالفن السامى تستجيب له تلك الروح العالمية التى لا تتأثر بزمان ولا بمكان ولا بظروف مصطنعة .

كتب تولستوى ذات مرة فى مذكراته إثر قراءته صفحة لبسكال « لم أستطع أن أملك دمعى ، وتبنيت اتحادى بذلك الرجل الذى مات منذ مائة سنة . وماذا عسى أن يكون ثمت من معجزات ، إذا كان المرء حيال مثل هذه المعجزة ؟ » .

والفن الزائف هو ذلك الذى لا ينبعث عن شعور حقيقى فى النفس ، وإنما هو وليد التقليد والرغبة فى كسب المال والشهرة أو تملق عواطف الجمهور ؛ وهو يبدأ من حيث ينتهى الوحى ، وقوامه الكذب والبهرج الزائف والطلاء الخادع ؛ وحسبك أن صاحبه يحاول أن يؤثر فى النفوس ونفسه فارغة ، ويزعم أنه ينقل إليهم إحساسه وما يحس شيئاً ؛ ولقد يكون له المقدرة على التعبير فى ذاته ويبلغ فى ذلك حد البراعة ، ولكنك لا تحس فيه شيئاً من الروعة ولا من الجلال كالحلية الزائفة يعجبك بريقها وزخرفها ، ولكنك لا تلبث حتى تتبين أنها ليست جوهرة وإنما هى أكذوبة أو خدعة ...

والفن الزائف ضرر بالغ لأنه يفسد الذوق ، ويلبس الحق بالباطل أو الصحيح بالزائف ، وبذلك يضل الشعور فيتبلد ويميت القلب فلا ينبض

* * *

فى سنة ١٨٩٩ نشر تولستوى قصته « البعث » وقد بدأها كما أسلفنا سنة ١٨٩٥ ؛ ولقد ترجمت إلى اللغات الأوروبية ، وذهب لها صيت عظيم وقال عنها أكثر النقدة إنها وحدها تكفى لأن تسلك تولستوى فى أعظم الفنانين من كتاب القصة ؛ وقد بيعت منها آلاف النسخ ؛ ولكن تولستوى لم يأخذ منها قرشاً واحداً ، وإنما جعل ما جاءت به من المال جميعاً لإعانة أولئك الذين رحلوا إلى كندا من « الدوخوبر » ؛ وقد جاءت من إنجلترة وحدها بثلاثة آلاف من الجنيهات ثمناً للطبعة الأولى .

وتدور القصة حول تلك الفكرة التى عبر عنها من قبل وهى أن الرجل إذا ترك امرأة تغشاها فعليه إثم ما تنحدر إليه من الرذيلة . .

أما فكرة القصة ، فقد بعثها فى نفسه تذكره ما كان منه فى صدر شبابه من إغوائه إحدى الخادمات ؛ ثم إن أحد أصحابه قص عليه نبأ امرأة بريئة اتهمت بالقتل في إحدى المحاكم ، فضم هذا إلى ذاك وبنى منهما القصة ...

عرف نخليودوف أثناء جلوسه ذات مرة عضوا فى هيئة المحلفين فى إحدي القضايا ، فى بغي متهمة بجريمة قتل نكراء ، تلك الفتاة الجميلة البريئة كاتزينا ما سلوفا التى أغواها منذ عشر سنوات فاستلبها أعز ما كانت تحرص عليه ؛ واستيقظ ضميره فإذا به يشعر شعوراً روحياً عجيباً يملك زمام حياته وكأنه ولد من جديد ...

وزارها نخليودوف في السجن بعد الجلسة ، وهاله إعراضها عنه وعنفها عليه ؛ ثم أتى لها بأحد المحامين وحاول أن يتزوجها فرفضت ، وآثرت أن تذهب إلى المنفى مع سيمنسن الثائر الذى عرفها فى السجن وأحبها والتى أحست نحوه بالاحترام ؛ ولما حانت ساعة الرحيل وودعته ما سلوفا أحس أنها تحبه وأنها

تضحى بنفسها للمرة الثانية حتى تدعه حراً يتزوج من يشاء فإن زواجه منها يلحق به العار ؛ ومع أنها كانت تحس الفرح فى نفسها بهذه التضحية ، فقد تألمت ألماً شديداً عند فراقه دون أن تطلعه على شيء .

هذه هى الحكاية ؛ أما القصة فلن تعرف إلا أن تقرأ ؛ فهى بحق إحدى روائع هذا الفن ، ولئن كانت دون « الحرب والسلام » و « أنا كارنينا » إلا أن فيها مواقف لا تقل روعة إن لم تزد أحياناً عما فى أختيها ؛ ثم إنها فى جملتها تفوق في جمالها وقوتها مئات مما كتب فى عصرها من القصص ولو عدت أحاسنها لكانت من بينها بلا ريب .

أما نخيلودوف فهو تولستوى ؛ وهو آخر ما صور به الكاتب نفسه في قصة كبيرة ؛ ونري هنا تولستوى فى العقد الثالث كيف يحاول مرات أن يغير ما بنفسه ويتخلص من آثامه ، ثم لا يلبث أن يذعن كل مرة لمغريات الحياة

وفى القصة وصف رائع لصراعه النفسى بين مطالب الجسم ونوازع الروح ؛ وفيها كذلك صور بهيجة لأيامه الأولى ، أيام الهوى والشباب ؛ وفيها عدد عظيم من أروع شخصياته وفى مقدمتها ماسلوفا ؛ وإن المرء ليعود إلى قراءة القصة المرة بعد المرة مشوقا إلى ماسلوفا مصاحبا لها بخياله وقلبه فى السجن حتى ليتصورها كأنها امرأة عرفها فى الحياة ويتصور السجن كما يتصور مكانا زاره بنفسه ؛ وفيها كثير من آرائه الجديدة أجراها على لسان نخيلودوف فإن نخيلودوف يرغب فى إصلاح المعايب الاجتماعية القائمة ، ويرغب فى توزيع أرضه على الفلاحين ؛ وهو يقول لأحد أصهاره « ما القانون إلا أداة للاحتفاظ بالوضع الراهن لمصلحة طبقتنا » ؛ وهو يشير إلى أن الحب ينبغى أن يكون أساس العلاقة بين الناس ، وما لم يفطن الناس إلى ذلك فلا سلام بينهم ، إلى غير ذلك من فلسفة تولستوى وآرائه

ثم إنه حمل فيها على الكنيسة وسخر من بعض الطقوس والشعائر ، وصور بوبدونستسوف صورة كريهة فى شخص قسيس كبير اشمأز نخيلودوف من السلام عليه ، الأمر الذى سوف يشتد له حنق هذا المتسلط والذى لن يغفره لتولستوى

أما قصته « السيد والتابع » فهي تقع في قرابة سبعين صفحة ، وتدور حول التضحية ونبذ الأنانية ، وموضوعها مثل موضوع قصته « موت إيفان إيليتش » وفيها كثير من تجاربه الماضية فى أول شبابه وما خبر من الحياة . بيد أن أهميتها تقوم على ما جاء فيها من آرائه عن الموت والحياة ؛ فنحن تلقاء رجل يقرب من الموت ولكنه لا يخاف ، ويجد الحياة الحق فى أن يعيش عيشة الإخاء والمحبة مع من يتصل بهم من الناس . فإن السيد وهو تاجر قروى قد دهمته وتابعه عاصفة ثلجية وضلا عن طريقهما ، ولما كان السيد متدثراً بالملابس ، ولما كان جسمه من الشبع ممتلئاً بالحرارة ، فقد ألقى بنفسه فوق تابعه ليدفئه ، وتعرض هو للثلج ؛ ولما أصبح الصبح وكشف الفلاحون عنهم الثلج وجدوا التاجر قد أشرف على الموت ؛ ولكنه كان مرحاً يحس الغبطة فى أعماق نفسه ؛ فقد نجا تابعه من الموت المحقق …

* * *

وتقع قصته « الأب سرجيوس » فى نحو ستين صفحة ، وتعد من أعظم القصص الصغيرة فى أدب العالم ؛ وهى من حيث الفن قصاري مابلغه فنه فى سنواته الأخيرة ؛ ويمثل الأب سرجيوس إلى حد ما القس أمبروز كما يمثل قساً آخر يدعى أنطوان وقد كان من قبل فارساً فى الحرس القيصرى ؛ كما أن فيه جانباً من تولستوى نفسه أثناء كفاحه النفسى ضد الغرور والشهوة …

كان سرجيوس ضابطاً وجيهاً فى الحرس ؛ ثم أصبح قساً وأعرض عن الدنيا ، وأخذ يسمو على الغواية ، وبلغ من عزيمته أن قطع أحد أصابعه حتى لا يذعن لغواية فتاة لعوب تحدته أن تغويه وراهنته ؛ وأصبح قديساً يصنع العجائب فى معالجة الأمراض ؛ وتبدأ مأساته حين يقع فى شرك بنت غير جذابة أحضرها إليه أبوها ليعالجها ؛ ثم يخرج إلى الدنيا فيضرب فى الأرض متسولا ليتعلم الخشوع الصحيح ، وينتهى به الأمر إلى أن يعمل خادماً فى سيبيريا لأحد الفلاحين ابتغاء التوبة .

وقد كتب تولستوى هذه القصة فى إيجاز وعمق فهم ، و بلغ فيها ذروة الفن حتى ليعدها النقدة كما ذكرنا إحدى روائع القصة القصيرة ؛ وكان يفطن صاحبها إلى ما فيها من جمال وروعة حتى لقد فاه ذات مرة على شدة كرهه للتحدث عن آثاره ، وقد كان يقرأ جوركي فصلا منها على بعض جلسائه « حقاً لقد أحسن الرجل الهرم كتابتها » .

* * *

كان تولستوى يلقى الناس فى بيته فيتحدث إليهم فى كل موضوع ؛ وكان يلاطف محدثه ليزيل من نفسه كل تهيب كي يقول ما يريد ؛ وكان يزوره كثير من الطلاب ومن رجال الثقافة فيستمعون إليه ، و ينظرون إليه فى ملابس الفقراء ، وقد ابيضت لحيته وتغضن وجهه وكأنهم بين يدى قديس ، وكان يجعل كلامه أبداً في مستوي أفهام الحاضرين من زائريه . يحب أن يكون واضحاً يسيراً كى ينقل إليهم آراءه كما يفهمها وشعوره كما يشعره فى غير نقص أو زيادة .

وكان حريصاً على تواضعه وخشوعه خارج داره حرصه عليهما فى داخلها . وقف ذات مرة بإحدى المحطات فنادته سيدة تحسب أنه فلاح : وطلبت إليه أن يحمل رسالة إلى زوجها فى حجرة الاستراحة ؛ ولما فعل ذلك أعطته بعض دريهمات ؛ ثم سمعت أحد الناس يخاطبه بلقب الكونت ، وما لبثت أن علمت أنه تولستوى ؛ فاشتدت ربكتها ، ثم سألته أن يرد النقود فضحك وقال كلا : هذا مال كسبته ...

وذهب ذات مرة لزيارة نائب حاكم تولا ، فلم يجده ولكن رئيس الشرطة هناك بالغ في تحيته والإجلال له وسعي بين يديه ، وكان لا يفتأ يخاطبه بصاحب السعادة ؛ وأراد تولستوى أن يشترى تذكرة السفر بنفسه ، ولكن الضابط ألح عليه أن يشتريها له فرضى مكرهاً ، وسأله الضابط أى درجة يريد؟ ثم قال فى لهجة الواثق : « عربة خاصة علي الأقل يا صاحب السعادة » ، وكان تولستوى يريد الدرجة الثالثة ولكنه أراد أن يخفف دهشة الضابط فقال : أريد الدرجة الثانية .

وذهب لزيارة عظيم ، وكان فى ثوبه المتخذ من جلد الماعز ينتعل مثل نعال الفلاحين ؛ فاشمأزت الخادم منه ولم يكن سيدها بالبيت ، واقتحمته نظرتها فقال لها فى تواضع : أرجو أن تخبرى سيدك أن تولستوى جاء لزيارته ؛ وأخذت الفتاة تعتذر إليه فسرى عنها وانصرف .

وكانت رياضته المشى ، وركوب الدراجة ، وكانت شيئاً حديثا في روسيا يومئذ ؛ ولعب التنس ، وكان يلعب فى خفة ومهارة وقد قرب من السبعين ؛ أما فى البيت فكان يستمع إلى الموسيقى أو يلعب الشطرنج ...

وعظم صيته فى روسيا ؛ وسمت منزلته حتى ما يعلوه فى أذهان الناس إلا القيصر ، أما الذين لا يؤمنون بالقيصرية فكانوا يرونه أعظم رجل فى روسيا كلها .

دعاه أحد العلماء سنة ١٨٩٤ إلى محاضرة علمية فى موسكو ، فتردد لأنه لا يحب الظهور في المجتمعات وما زال صاحبه به حتى قبل ؛ ولما ذهب إلى هناك لم يكن في المكان مقعد فأجلسوه على المنصة ، وما أن علم الناس ، وما أن رأوه حتى أخذوا يصفقون فى تحمس شديد ، ونهض تولستوى فى ملابسه القروية ، وأحنى لهم رأسه ، فعادوا يصفقون طويلا ، وازدادت حماستهم له ، وأقبل علية العلماء يحيونه ويعبرون له عن احترامهم له وتجلتهم لشخصه ، وذلك على الرغم مما هاجم به العلم الحديث والعلماء من قبل ، والناس يزدادون تحمسا له كأنهم حيال زعيم عظيم ؛ مع أنه قلما حضر اجتماعا من قبل ؛ ودهش تولستوى من الملابس الرسمية ، وقال لصاحبه بعد الاجتماع إنها لم تكن محاضرة علمية وإنما كانت كرنفالا علميا .

ولما مثلت فى موسكو مسرحيته « قوة الظلام » هرع إلى داره مئات من المثقفين ومن الطلبة يظهرون له شديد إعجابهم بها ، وكان يتلقاهم مسروراً ؛ وكانوا يعجبون بما يرون من حيائه وتواضعه .

أما صيته فى أوروبا وأمريكا ، فتدل عليه آلاف الرسائل التى كانت تنثال

عليه من الـكتاب والشعراء ورجال الفـكر من كل سن ؛ وكان يرحب تولستوى بالرد على كل شخص يحس أنه تأثر بتعاليمه فيجيبه عن كل ما يسأل و يتخذ منه على البعد صديقا وتلميذاً .

وكان زائرو روسيا من الأجانب يذهبون لرؤيته فى موسكو أو فى ياسنايا ؛ ومن سافر منهم دون أن يراه كان يعد ذلك من سوء حظه ، وكان يخجل من ذكره لبنى قومه ...

كان كثيرون من الأورو بيين والأمريكيين يسافرون إلى روسيا لرؤيته ، وما زاره قط إنسان إلا تعلق به وظل محبا له طول حياته .

ولقد قرأت الـكاتبة الأمريكية النابهة « جان آدمز » كتابه « ماذا يجب إذاً أن نصنع » ، وكانت تعني بالفقراء ، وأقامت عدة مراكز لخدمتهم ومعونتهم فحملها إعجابها به على السفر إليه من شيكاغو ، وقد تأثرت برؤيته تأثراً عظيما كأنها منه حيال أحد القديسين ، وعادت إلى وطنها تذيع مبادئه وآراءه .

على أنه لم يسلم من خصوم له راحوا يسخرون منـه في وطنه ، وقلما سلم مصلح من أمثال هؤلاء ؛ وكان خصومه فى المجمع المقدس خاصة ، وكان كبيرهم بو بندونستسوف ؛ وقد نشروا كتبا يتهمونه فيها بالجنون والمروق من الدين : فأعرض عن أذاهم ، وهو الذى يدفع السيئة بالحسنة ويدعو إلي عدم المقاومة ...

وتلقي سنة ١٨٩٧ كتبا يتهدده فيها مرسلوها بقتـله لـكفره وفسوقه ، وانزعجت زوجته ، ولـكنه لم يعبأ بشيء ولم يتخذ أية حيطة لنفسه .

عقاب وثواب !

أهل على الدنيا قرن جديد هو عصر العلم المدمر والعنف الباغى ، والشر المتحفز ، وتولستوي فى الثانية والسبعين ، نبي تخلف فى الدنيا من عهد كونفشيوش يدعو إلى المحبة والسلام ، وينذر الناس أن يقابلوا عنفاً بعنف ...

ولكم ندد بالحرب حتى لم يدع بعده قولا لقائل ، ولكم صرخ فى وجه الحكومة بأن لا حكومة حتى يعيش الناس عيشة الإخاء ؛ ولكم دعا الناس أن ينبذوا ما يدعونه من وطنية هى من بواعث الشر وأن يتحابوا جميعاً فى مشرق الدنيا ومغربها ؛ ولكم أنذر أصحاب المال أن ما يملكون من مال أكبر أسباب البغى والاسترقاق والحرب ؛ والنجاة فى أن ينفضوا أيديهم من هذا الشر ويعملوا ليعيشوا ... ولكن هذا النبي المتخلف من الماضى البعيد أو هذا الحوارى الثالث عشر للمسيح كما سماه بعض الناس ، لا يستطيع أن يهدى العالم المتوثب الضال . . .

على أنه يتفكر فى عشيرته الأقربين فيؤلمه أشد الألم أنهم لم يستجيبوا له ، وهذه امرأته كم خوفته بأن تقتل نفسها إذا هو وزع على الناس ما يملك أو إذا تنازل عن حقه في طبع كتبه ! وأى ألم أبلغ من هذا فى نفس هذا الذى أراد أن يغير الدنيا ؟

وإنه لينظر فى نفسه فهل هو راض عن نفسه ؟ لقد لبس ملابس الفقراء ليشعر الناس بالمساواة ، وعمل بيديه كيلا يحتقر الناسُ العمل ؛ ولكن هل هو فلاح مؤمن حقا ؟ هل هو إسكاف حقا ؟ كلا إنه لا يزال الكونت تولستوى على الرغم من هذا كله ، وإلا فما هذا القصر الذى يعيش فيه وما هذه النعمة التى يتقلب فيها أهله ؟

« قد يبدو ما أنا فيه من وضع زائفاً فى نظر الناس» هذا ما قاله سنة ١٨٩٨ ، ولقد أثبت بعد ذلك بعشر سنوات قوله «لو أننى علمت عن رجل أجنبى أنه يعيش مترفا ، و يأخذ كل ما يستطيع أخذه من الفلاحين ، ولا يبالى إذا قبض عليهم ، فى حين أنه يزعم أنه مسيحى وأنه يعلم مبادىء المسيح ، ولا يعطى الصدقة إلا دريهمات ، و يستتر خلف امرأته من عواقب أعماله الحقيرة ، فإنى لا أتردد أن أسميه صعلوكا» ... وقال فى موضع آخر يسأل نفسه «أتعيش حقا وفق ما تعلم من مبادىء ؟ .. كلا ! .. إننى لشديد الخجل و إنى لآثم و إنى لجدير بالاحتقار »

ولكن ما الحيلة ؟ لقد حاول الفرار مرتين ليعيش مع الناس واحداً من الناس ، ولكن ضعفه أمام ما تنذره به امرأته يعود به إلى بيته ... ما حيلته فى هذا الضعف ؟

ومن أراد أن يقف على ما كان يصطرع في نفسه ، فليقرأ قصته « الأب سرجيوس » ، ولينظر كيف كان هذا القس، وقد أحاط به مريدوه يسأل نفسه أهو يعيش عيشة القديسين عن باعث مقدس حقا مرده إلى الله أم أنه يفعل ذلك بدافع ما ألقاه الشيطان فى نفسه من غرور مرده إلى الرغبة فى تحدث الناس عنه وعن مقدرته وصلاحه ؟ وما كان عذاب سرجيوس بنفسه إلا عذاب تولستوى ...

***

ولكن الناس يجيئونه ليرشدهم ويهديهم ؛ و إن عامة الناس ليرون فيه قديسا ؛ و إن خاصتهم لينقسمون فى أمره قسمين ، ففريق يؤمن به و يراه أعجوبة العصر ، وروح الخير متجسدة وسط مظاهر الشر لتكون فى هذه الدنيا عزاء للموقنين و برهانا على أن الخير فى الدنيا مستطاع لولا ما يصنع الإنسان بالإنسان ؛ وفريق يراه أسطورة لا أكثر من ذلك ...

وهو بين هؤلاء وهؤلاء رجل فذ على أية حال ؛ وقد اتضحت فى وجهه وقد علت به السن سمات الأبرار ، فحول شفتيه ابتسامة رقيقة ، وفى عينيه وداعة وهدوء ، وفي محياه ضراعة تشبه أن تكون مسكنة ، وفى وجهه المتغضن المصفار

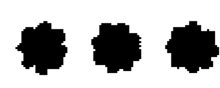
ولحيته العريضة البيضاء ما يبعث الهيبة والمحبة فى النفوس ...

و إن هدوءه لهدوء اللاغب الذى أجهده طول التأمل وطول العمل ، وطول صراعه الداخلى بينه و بين نفسه ...

وهو اليوم يعانى المرض والأوجاع ؛ ولقد اشتدت عليه وطأة العلل في آخر سنوات القرن المنصرم حتى لقد أوشك أن يودع الدنيا مع ذلك القرن ؛ و إنه ليتفكر في الموت و يوطن نفسه كما يقول على ملاقاته فى أى وقت ...

ولم يكن أحسن حالا أول القرن الجديد إن لم يكن أسوأ ، فما زالت الأسقام تلح على بدنه حتى ليحس ضعفاً شديدا يكاد يقعده ؛ ولقد عاوده مرض كبده الذى كان ينتابه قديما ؛ و إن صديقه تشيكوف ليحار في أمر مرضه ولا يستطيع أن يقول ما هو ...

فإذا زالت عنه أوجاعه خيل إلى أصحابه أنه عاد إلى سالف حيويته ونشاطه ، ولـكنه فى الواقع كان يشعر أن فيه ضعفاً و إن كان لا يزال يجرى و يسبح في الماء و يركب الدراجة و يلعب التنس ، و يؤدى كل صباح قسطا من الحركات الرياضية ، و يمشى مسافات طويلة ...



وما أبل تولستوى من مرضه إلا عاد إلى الـكتابة ، فإن الحنين إلى الفن موهبته الحقيقية كما قال ترجنيف ، كان لا يفتأ يعاوده طالما كان يستطيع أن يشرع القلم ؛ ولذلك كان لا يفرغ من مقال أو بحث إلا أقبل على عمله الأصلى وهو الأدب ...

وهكذا يعود أعظم كتاب القصة فى القرن التاسع عشر إلى كتابة القصص والمسرحيات فى القرن العشرين ، ولا تزال للأسد الهرم قوة مخالبه ...

وما ذا يتخذ اليوم موضوعا لفنه ؟ إنه يتم قصة عن حياة بعض أهل القوقاز هي قصة « الحاج مراد » التى كتب قدراً منها سنة ١٨٩٦ والتى أراد أن يتمها سنة ١٩٠١ ولـكنه لم يكتب نهايتها إلا سنه ١٩٠٤ ؛ وإنه يكتب في نفس

الوقت مسرحية سماها « الجثة الحية » ؛ ومايتمها حتى يكتب أخرى تحت عنوان « النور يضيء فى الظلام » هذا إلى بعض الأقاصيص الصغيرة يشرح بها فكرة أو يعلق على حادث . .

وكانت قصة « الحاج مراد » تصف جهاد المسلمين فى القوقاز للتخلص من الروس ، ولذلك جاء فيها أسماء عربية أبقاها المؤلف كما هى وكتبها بالروسية حسب نطقها ، كالمرشد والمريدين والإمام والغزوات ، والشريعة ، والطريقة ، وغيرها ؛ وأعلام عربية كالحاج مراد وجميل بك ، ومحمد وحمزة ؛ وفى القصة كثير من صور البطولة القائمة على النجدة و إنكار الذات فى سبيل العقيدة .

ولقد شهد تولستوى الحاج مراد سنة ١٨٥١؛ فى تفليس أيام كان يمتحن لالتحاقه بالجيش ، وكتب إلى أخيه سيرجى يصف له إذعانه للحكومة الروسية .

* * *

فى أبريل سنة ١٩٠٠ حين اشتدت وطأة المرض على تولستوى وظن أنه لن ينهض منه ، أرسل المجمع المقدس بوحى من بو بيد ونستسوف إلى الكنائس سراً بألا يقام شيء من صلاة أودعاء أو غيرها من الطقوس على تولستوى إذا مات ولم يتب ويستغفر عن ذنبه و يعترف بالكنيسة الأورثوذكسية ، حتى يكون فى ذلك عبرة لغيره وموعظة للناس . ولكن تولستوى لم يتب ولم يمت ، وباء بونبد ونستسوف بالخيبة .

لم ينس بو بندونستسوف ماجاء فى قصة « البعث » من حملة على الكنيسة ، ولم ينس سخرية تولستوى من صلواتها ولم ينس « تو بوروف » تلك الشخصية التى تمثل الغباء والادعاء ، والتى قصد بها تولستوى بو بيدونستسوف نفسه ...

لهذا ما زال بو بيدونستسوف يسعى سعيه لدى السلطات حتى ظفر بموافقتها على معاقبة تولستوي ؛ وكان هذا العقاب حرمانه من رحمة الكنيسة فى فبراير سنة ١٩٠١ ، وذلك على الرغم من أن تولستوى كان يحمل على الكنيسة منذ عشرين عاماً . . .

وفى صباح اليوم الذى صدر فيه ذلك العقاب ، كان تولستوى صحبة صديق له يزور أحد الأطباء فى موسكو ؛ وعرفه الناس فى أحد الميادين فسرعان ما اجتموا حوله متزاحمين يحيونه ، ثم تعالت أصواتهم بالهتاف له وهم يلوحون بقبعاتهم ؛ وعظم الزحام وامتد حتي تعذر السير ؛ وأخذت تولستوي حيرة ودهشة ، وحاول أن يصل إلى عربة تقله فما استطاع ذلك زمناً طويلا ؛ ولما جاء له صديقه بعربة حال بينه الناس و بين ركوبها ، وظلوا يهتفون باسمه ويعظمون حرية الفكر والشجاعة فى الحق ، والمروءة والإنسانية والمحبة ، وغيرها من مبادىء تولستوى ، حتى جاء عدد من فرسان الشرطة فأفسحوا له الطريق في عسر شديد .

وكانت هذه المظاهرة الرائعة أبلغ رد على بو بيدونستسوف ، وأقوى برهان على قصر نظره فقد جعل منه شهيداً ، وقد أجفل من ذلك الاسكندر الثالث من قبل . . .

وقد كان بو بيدونستسوف يغرى به بعض السفهاء قبل الحرمان ، فكانوا يؤذونه بسفههم وكان يقابل ذلك منهم بالحلم ؛ ولقد كان يلقاه أحدهم فيقول : هذا هو الشيطان فى صورة بشر ، فيبتسم له تولستوى و يعرض عنه .

وكان تولستوى يرحب بالأذى ، ويتحدى السلطات ، لأنه كان يوقن أن ما يلحقه من أذى إنما يعطف عليه القلوب ، و يزيد الناس تعلقا به ، فلما صدر هذا الحرمان ، ودوي فى روسيا كلها وفى العالم كله ، اتجهت أذهان الملايين إلى تولستوى ورسالته ؛ ولعل تولستوى بينه و بين نفسه قد شكر ليو بيدونستسوف سوء ما صنع !

وأقبلت الألوف على بيت تولستوى من كل نمط ومن كل طبقة ، وانثالت عليه البرقيات والكتب من كل جهات العالم[1] ، حتى الهدايا فقد كان بعض الناس يرسلون إليه منها ما يعرون به عما فى قلوبهم .

(١) أرسل إليه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كتاباً هذا نصه .

« أيها الحكيم الجليل المسيو تولستوى .

لم نحظ بمعرفة شخصك ولكنا لم نحرم التعارف مع روحك ، إذ سطع علينا نور من =

وكان يزدحم بيته بالآلاف من الطلبة المتحمسين الذين كانوا يرون في كتاباته دعوة عامة للانطلاق من القيود ؛ وكانت صورته الشهيرة التى رسمها الفنان ريبن معروضة فى بطرسبرج ، فكان المئات من المعجبين يمرون بها ، وقد زينها الشعب بالزهور من كل جانب ؛ وتداولت الأيدى سراً قصتين سخر بهما واضعهما من الحكومة عامة ومن پو بندونستسوف خاصة ، وأقبل الناس عليهما إقبالا عظيما ؛ وكان عنوان الأولى « الأسد والحُمُر » وعنوان الثانية « الحمامات المنتصرة » .

وتدخلت الحكومة لتمنع مظاهر الحفاوة به فأزيلت الصورة المزينة بالزهر ، واستبعدت كتبه من المكتبات العامة ، ومنعت الصحف أن تنشر أى نبأ عنه ، حتى البريد والبرق ، فقد أمر عمالها أن يرفضوا برقيات التهنئة !

ولقد اشتد حنق الكونتس على الحكومة ، وكتبت رسالة احتجاج شديدة أذاعتها فى روسيا وفى خارج روسيا ؛ ولكن تولستوى لم يأبه لما فعلت الحكومة وكأنه لم يعلم من ذلك شيئاً ...

وعلى الرغم من شدة إنكاره الثورات لأنها من أعمال العنف ، كان الأحرار ينظرون إليه نظرتهم إلى أحد قادة الحرية ، وذلك لأنه خاصم الدولة والكنيسة ، وأراد أن يقوض بنيانهما ...

ولقد أذاع تولستوى بعد شهر من حرمانه رداً على المجمع المقدس خلاصته أنه لن يدين إلا بما يعتقد أنه الحق ، وما يملك أن يذعن لغير ما اطمأن إليه قلبه

= أفكارك وأشرقت فى آفاقنا شموس من آرائك ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك ؛ هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التى فطر الناس عليها ، ووفقك إلى الغاية التى هدى البصر إليها ، فأدركت أن الإنسان جاء إلى هذا الوجود ليفنى بالعلم ويثمر بالعمل ، ولأن تكون ثمرته تعباً ترتاح به نفسه ، وسعيا يبقى به ويرقى جنسه ، وشعرت بالشقاء الذى نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة ، وبما استعملوا قواهم التى لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها ، فيما كدر راحتهم وزعزع طمأنينتهم .

ونظرت إلى الدين فخرقت حجب التقاليد ووصلت به إلى حقيقة التوحيد ، ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ماهداك الله إليه ، وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه ، فكما كنت بقولك هاديا للعقول ، كنت بعملك حاثا للعزائم والهمم وكما كانت آراؤك ضياء يهتدى به الضالون ، كان مثالك فى العمل إماماً يقتدى به المسترشدون »

وعقله ومما جاء فيه قوله « إنى أحب الحق أكثر مما أحب أى شئ فى هذه الدنيا ؛ والحق عندى حتى الآن هو ما يطابق المسيحية كما أفهمها ؛ و إنى لأتعلق بهذه المسيحية ، و بقدر تعلقى بها يكون هدوء نفسى وسعادة روحى ؛ و بهذا الهدوء وهذه السعادة أقرب من الموت » .

ولم يكتف تولستوى بالرد على المجمع المقدس ، فأذاع نداء للقيصر وحكومته يدعوه فيه إلى المساواة بين شعبه و إلى احترام حرية العقيدة وحرية التعليم ، فإن فى ذلك السلامة والأمن ؛ واختتم نداءه الجرئ بقوله « إنك إذا فعلت هذا ، فبه وجده يصبح مقامك آمناً وتصبح قوياً حقاً » .

* * *

وفى يوليو سنة ١٩٠١ برحت العلة بتولستوى ولزم فراشه ؛ ولم تدعه الـكونتس فيما هو فيه من أوصابه ، وذلك أنها كانت قد علمت بتلك الوصية التى كتبها من قبل ، وعلمت أن ابنته مارى حملت إليه نسخة منها وهو فى سريره ليضع عليها إمضاءه ، فأسرعت إلى حجرته فقابلت مارى خارجة منها ، فطلبت منها الوصية ، وراحت تعنفها وتتهمها بالنفاق وتصرخ فى وجهها مهتاجة ، ثم دخلت على زوجها صارخة شاكية فى حال من أعنف حالات هياجها ، وطلبت إليه الوصية باكية صاخبة ، فلم يجبها إلى طلبها فازداد بكاؤها وهياجها ؛ ورأت مارى ما أحدثه ذلك من سوء الأثر فى أبيها ، فقد ازداد وجهه اصفراراً وكادت تنقطع أنفاسه ، وازدادت نبضات قلبه سرعة ، ودنا منه الموت .

ولما رأت أمها لا تكترث لذلك ولا تفتأ تكرر عزمها على الانتحار ، ناولتها الوصية فمزقتها ؛ ولقد أثر ذلك أسوأ الأثر فى نفس تولستوى و بدنه ، حتى لقد عد نجاته من الموت أعجوبة ؛ أما الـكونتس فقد حسبت أنها بلغت ما أرادت ، ولـكنها لم تكن تعلم أن نسخة من الوصية كانت مع ابنها سيرجى وأخرى كانت مع شيرتكوف .

ولما تحسنت حال تولستوى بعض الشئ أشار عليه الأطباء أن يسافر إلى

القرم ليقضي الشتاء هناك ؛ وصحبته زوجته وابنته الكسندرا فى نهاية أغسطس إلى يالتا ؛ وقد وضع وزير السكة الحديد عربة سفر خاصة تحت تصرفه حرصاً عليه من التعب ؛ ونزل تولستوى فى دارة إحدى صديقات زوجته وظل هناك حتى شهر يونيو سنة ١٩٠٢

وفى يالتا استأنف تولستوى الكتابة فى قصة « الحاج مراد » ؛ وكان يقيم على مقربة منه مكسيم جوركى وكذلك كان يقيم تشيكوف فى يالتا منذ بضع سنين ؛ وكثرت زياراتهما للكاتب العظيم ؛ ولقد كان تولستوى يحب تشيكوف ويعطف عليه ويؤمن بموهبته ويثنى على مقدرته وذوقه ؛ ولم يكن يظفر جوركي منه بمثل هذا الرضاء ؛ وقد قال عنه « إنك تستطيع أن تخترع أى شيء إلا السيكولوجى ؛ وكثيراً ما يقع الإنسان على هذا الاختراع السيكولوجى فيما يكتب جوركي ، وذلك لأنه يصف ما لم يحس قط » .

وفى يناير سنة ١٩٠٢ أرسل تولستوى من يالتا كتاباً إلى القيصر نيقولا الثانى خاطبه فيه بقوله « أخى العزيز » وراح تولستوى فى جرأة لا يستطيعها غيره يذكر القيصر بمساوئ الأوتوقراطية ، كما راح يحمل على الكنيسة الأورثوذكسية ؛ ولم يدع تولستوى نقيصة من نقائص حكمه إلا أحصاها « ابتداءاً من إجابتك التى أثارت استنكار الشعب الروسى كله وهى التى وصفت بها أعظم رغباته الشرعية بأنها حلم من الأحلام إلي عنادك وتمسكك بالعقوبة البدنية على ما بسط لديك من أسباب للقضاء على هذا العمل السخيف ، الذى لا معنى له ، والذى هو تحد لشعور الشعب الروسي » .

وقد حمَّل تولستوى هذه الرسالة الغرندوق نيقولا ، ليعطيها للقيصر ، وكان قد زاره هذا الغرندوق في يالتا وأظهرله الود والاحترام قائلا إن ضيعته هناك رهن مشيئة الكاتب العظيم إذا أحب الرياضة أو الإقامة فيها .

وما من دليل على مكانة تولستوي يومئذ في وطنه أبلغ من أن يحمل هذا الغرندوق كتابه إلى القيصر فيقرأه القيصر علي ما فيه من جرأة ولا يفعل بكاتبه شيئاً ! ...



تولستوى فى الخامسة والسبعين

وحدث أن ساءت صحة تولستوي ذات مرة فى يالتا وظن أهله أن الموت مدركه لامحالة . فكانوا يقومون إلى جانب سريره ، كل منهم مدة معينة ؛ و بلغ ذلك المجمع المقدس فأخذ يذيع أن الكاتب العظيم قد عاد إليه صوابه عند احتضاره ، وأنه عاد إلى الكنيسة الأورثوذكسية ، وأرسل المجمع قسيساً إلى يالتا ، فطلب الدخول على الشيخ المحتضر ؛ ولكن تولستوى أبل من مرضه ، ولما علم هذه الأنباء على لسان ابنه سيرجي تبسم ضاحكا وقال « أيستطيع هؤلاء السادة أن يفهموا أنه حتى في وجه الموت إذا أضيف اثنان إلى اثنين فلا يزال مجموعها أربعاً ؟ »

ولقد كان يجزع تشيكوف جزعاً شديداً كلما اشتد المرض على تولستوى ؛ كتب ذات مرة إلى أصدقائه فقال « إنى أخاف موت تولستوي ، ذلك أنه إذا مات أحدث موته فراغاً عظيما فى حياتى ؛ فإنى لم أحب إنساناً قط كما أحببته ؛ ولست مؤمناً ولكنى أرى عقيدته أقرب العقائد إلى قلبى ؛ وفضلا عن ذلك فإن وجود تولستوى فى دنيا الأدب يجعل من اليسير ومن الممتع أن يكون الإنسان كاتباً ؛ حتى ولو تفطن المرء إلى أنه لم يفعل شيئاً وأنه ليس بفاعل ، فليس ذلك بالخطب الجلل طالما أن تولستوى يصنع ما يغنى عن الجميع ؛ وتحقق مؤلفاته الآمال التى ترجى من الأدب ؛ ولتولستوى ثبات عظيم وسلطان كبير ، وما دام حياً انتفى من الأدب كل غث من الكلام وكل فاسد من الذوق ، و بعد عنه كل ادعاء كاذب ؛ وسوف يحفظ سلطانه للأدب مستواه العالى ؛ و بغيره ترى الأدباء قطيعاً بغير راع ، والأدب خليطاً لا تقع فيه على شيء »

وكان يرى أهل يالتا الكاتب العظيم فى عربة يدفعها ابنه سيرجي ، وهو يقرأ له رسائله أو بعض فصول قصته « الحاج مراد » ؛ فإذا أوى إلى منعزل أملى عليه أو على ألكسندرا صفحات جديدة فإنه يحب أن يفرغ من هذه القصة .

وكان إذا عادت إليه عافيته يمشى على قدميه خفيفاً نشطاً ، فيبدو وهو فى الرابعة والسبعين وكأنه فى أول كهولته .

ومرضت ألكسندرا في صيف سنة ١٩٠٢ ، فكره تولستوى المقام فى القرم ولذلك عاد إلى ياسنايا .

نـــــذير !

« لست أدرى كيف يستطيع البشر أن يعيشوا ، وهذه الأهوال تحيط بهم من كل جانب ! » ذلك ما صاح به تولستوى ذات يوم وهو يحاور صديقاً له في أوائل القرن العشرين .

ولقد ظل تولستوى نذيراً لقومه ولبنى الدنيا فى السنوات العشر التى شهدها من حياة هذا القرن الجديد ؛ وكان كل ما يعلم نبأه من شر في روسيا أو خارج روسيا يؤلمه ويكرب روحه حتى ليشرف به على اليأس ؛ ومن ذلك طغيان الأوتوقراطية فى روسيا ، والمحالفات العسكرية والاستعداد العلمى للحرب فى أوربا

ولم يقعده المرض ولا الشيخوخة عن أن يجهر برأيه منذراً قومه كلما أحس أن عليه أن يفعل ذلك ؛ ولقد رأينا كيف أنذر القيصر نفسه وهو فى يالتا وحذره عاقبة حكمه فى جرأة لم يكن يستطيعها غيره فى بلد مثل روسيا أو فى غير روسيا من بلاد الله ...

ولما عاد من يالتا لم يكف عن الجهر برأيه فى كل أمر يخشى عواقبه ، وظل نذيراً للطاغين وإن تماروا بتلك النذر ...

ففي نوفمبر سنة ١٩٠٢ أذاع « نداء لرجال الدين » يقول لهم فيه إن ما يزعمونه من الدين ليس من المسيحية فى شيء ، وأنهم أفسدوا الناس « وإن الناس منذ أجيال طويلة وقد أقاموا حياتهم على مبادئ لا يمكن مصالحتها على المسيحية الصحيحة ، يشعرون شعوراً تاماً أنهم يعيشون عيشة مسيحية ، وعلى ذلك ، فلا يمكن أن يردوا إلى المسيحية الحقيقية »

وفي أبريل سنة ١٩٠٣ ، حمل حملة شديدة على تلك المذابح التى ارتكبتها الجماعات الإرهابية اضطهاداً لليهود وكانت تعمل هذه الجماعات بتدبير من الحكومة

كما بينا من قبل ، وعرفت مذابحها باسم « البوجروم » ولقد ندد تولستوى بهذه « البوجروم » التى « هى النتيجة المباشرة لتلك الدعاوى القائمة على الكذب والعنف ، تلك الدعاوى التى أسرفت فيها الحكومة الروسية »

وفى مايو سنة ١٩٠٤ ، أعلن تولستوى سخطه على الحرب الروسية اليابانية في مقالة عنوانها « عودوا إلى أنفسكم » ونشر فى هذه السنة مقتطفات مما وقع عليه فى مطالعاته ، وعده منبعثاً من ذلك الشعور الحكيم أو الشعور المسيحى الذى يدعو الناس إليه وسمى هذه المقتطفات « أقوال الحكماء » .

وأعقب ذلك في سنة ١٩٠٥ بنشر مقالة عنيفة عنوانها « الحل الوحيد » ، ولكن الحكومة وضعت يدها عليها وحالت دون نشرها . .

ولم يقر تولستوى ثوارت ١٩٠٥ لأنها كانت قائمة على العنف ، كما أنكر على الحكومة ما تأتيه من ضروب العنف والبطش بالناس ؛ ولو كان غيره مكانه للحقه أذى كثير من هؤلاء الثائرين المتعصبين المتحمسين ؛ والحق أن كثيرين من الأحرار ودعاة الديموقراطية قد نقموا منه ما يقول ، ولولا عظيم مقامه فى قومه لانصرف كثير من الناس عنه ..

وكان ألم المصلح الشيخ عظيما لما يرى حوله من مظاهر العنف من كل جانب ؛ ولكنه لم يسكت ، وكان الثائرون فى صخبهم وضجيجهم يصغون إلى صوته وكأنهم ينصتون منه إلى نبى ، كما كانت تصغى الحكومة إلى هذا الشيخ الذي تزعجها كل كلمة منه ، وإن لم يستجب هؤلاء ولا هؤلاء إلى ما يدعوهم إليه ...

وقست الحياة على الرجل الذى كان يدعى يومئذ « رجل العالم » وفدحته أعباؤها ، فقد ماتت ابنته الحبيبة مارى سنة ١٩٠٦ ، وهى التى أخلصت الحب لأبيها ولمبادئه ، ولم تأت هذه السنة حتى كان أكثر أصدقائه قد غادروا الحياة ؛ ب ديا لوف واستراخوف وجي وتشيكوف وابنة عمه الكونتس ألكسندرا ، ثم أخوه سيرجي .

وقبل موت ابنته مرضت زوجته مرضاً شديداً وعملت لها جراحة ؛ وقد كان عطف زوجها عظيما وألمه لمرضها أعظم ؛ ولعلهما ما شعرا بالحب بينهما فيما سلف من حياتهما أكثر مما شعرا به في تلك الأيام ؛ ولقد قال لها زوجها إنه يحس الوحشة فى البيت لخلوه من وقع أقدامها ومن صوتها وإنه لذلك لا يستطيع أن يقرأ أو يكتب ..

وكدر روحه غير ذلك ما كان من مسلك بعض بنيه حتى ليحب أن يريحه الموت ، فقد كان أحدهم عضواً في « المئات السود » وإن أباه ليدعو الدنيا كلها إلى السلام والمحبة ! وكان ابنه ليو يعارضه بكتاباته وينكر آراءه جميعاً ، ولقد كتب يحبذ الحرب الروسية اليابانية بينما يقرأ الناس لأبيه ليو الكبير سخطه على هذه الحرب !

وأزعجه شيء آخر ، وذلك أن زوجته استدعت الشرطة لحراسة الغابات فى ياسنايا لأن الفلاحين يسرقون شجرها ويعتدون على حراستها ، ولقد أطلق بعضهم الرصاص ذات مرة على كبير الحراس ، وكان تولستوى كلما مر بهم على ظهر جواده ورآهم يقطعون الشجر بمناشيرهم وفؤوسهم أدار وجهه عنهم وتظاهر بأنه لا يرى شيئاً . .

وكان يؤلم تولستوى ما يغالط به المبطلون أنفسهم والناس ، وما يسخرون به من كتاباته لوجود هؤلاء الشرطة يحرسون أملاكه ؛ ولما يئس من إقناع زوجته بضرورة صرفهم صاح بها ذات مرة « كفى كفى يا سونيا .. إذا كنت لا تفطنين إلى أن الحياة فى حراسة الشرطة الذين يقبضون على الفلاحين ويلقون بهم فى السجن تضيق بها نفسى فلا فائدة من الكلام »

وظن الفلاحون أنفسهم به الظنون فعند بعضهم أنه هو الذى فعل بهم ذلك ولقد كانت الكنيسة توحى إليهم أنه الشيطان فى ثوب إنسان ؛ تحدث عن ذلك أحد أصدقائه مرة فقال « رأيته وقد دفن وجهه فى يديه المرتعشتين والدموع تتساقط من عينيه ، وهو يئن فى صوت مسموع قائلا : آه لذلك المنظر الذى رأيته

الآن وتلك الـكلمات التى سمعتها ... فبينما كنت على ظهر جوادى رأيت بعض الفلاحين فى عربة وتحدثت إليهم ؛ لقد صوبوا فى نظراتهم وصعدوها ثم تكرهوا لى؛ ثم نهض أحدهم وصاح بى : ألا زلت حيا أيها البجعة العجوز ؟ ألم يأخـذك الشيطان بعد ؟ كان ينبغى أن تموت من زمن بعيد ، لقد عشت إلى أرذل العمر . أنظر إلى جواده الهزيل العجوز ! فسألته : ما ذا دهاك وما ذا تعنى ؟ أنا تولستوى من ياسنايا بوليانا ؛ فأجاب : إنا نعرفك حق المعرفة أيها الهرم الذى يمتص دماءنا ، كان ينبغي أن نكون فرغنا منك منذ بعيد » .

وأصرت الـكونتس على بقاء الشرطة ، ولا يملك زوجها أن يصرفهم ، وما يستطيع فراراً اليوم لو أراد ...

حسبه هذه الآلام ، وحسبه أسقامه فوق آلامه ؛ ولـكن صوته لن يفتأ يدوى فى أنحاء روسيا ، وتتجاوب به الدنيا كلما دعا إلى ذلك داع ؛ لقد هاله ما يفعل ستوليپين بالأحرار من شنق ونفى وأسر ، فـكتب مقالة عنوانها « لا أطيق أن أظل صامتا » ؛ وراح يلعن الطغيان والطاغين و يعدد مساوىء الحـكومة و يصور مظالمها ، و يصرخ فى وجه الظلم غير هياب ! وقد جاء فى هذه المقالة التى أعادت له سابق منزلته فى نفوس الأحرار قوله « لا أستطيع أن أعيش وأنا على علم أن ذلك يقع حولى .. يجب أن نصيح وأن نصرخ ! و إذا كان لا بد للحكومة من سفك الدماء و إزهاق الأرواح ، واقتراف أعظم الآثام ، فها هو ذا رأسى أقدمه فدية لبنى وطنى » واختتمها بقوله « لقد كتبت ذلك وسأعمل علي نشره بكافة الوسائل فى روسيا وخارج روسيا ليحدث أحد أمرين . فإما أن يوضع حد لتلك الأعمال الوحشية ، و إما أن أوضع أنا فى السجن بعيداً عنها ، حيث أشعر شعوراً واضحاً أن تلك الأهوال لا ترتـكب بسبب ما أذيع من آراء ... وخير من ذلك أن تضعونى على المشنقة لأهبط بثقلى معلقا فى ملحفتي التى تدور حولى حنجرتى العجوز فألقى مصرع أولئك الذين يقتلون بغير حساب » .

ولقد عظم وقع هذه الصيحة فى نفوس الناس جميعاً ، وطرب لها الأحرار

وأشفق منها ستوليبين فى طغيانه و إرهابه ، وأخذته منها الرهبة فبادرت الحكومة بمصادرتها ، وأنزلت أشد العقاب بناشريها من رجال الصحافة وأخذت تكيد لتولستوى فاستولت على كتبه وعاقبت من يبيعها ، واضطهدت سكرتيره چوزيف ثم نفته من روسيا متهمة إياه أنه يذيع آراء ثورية .

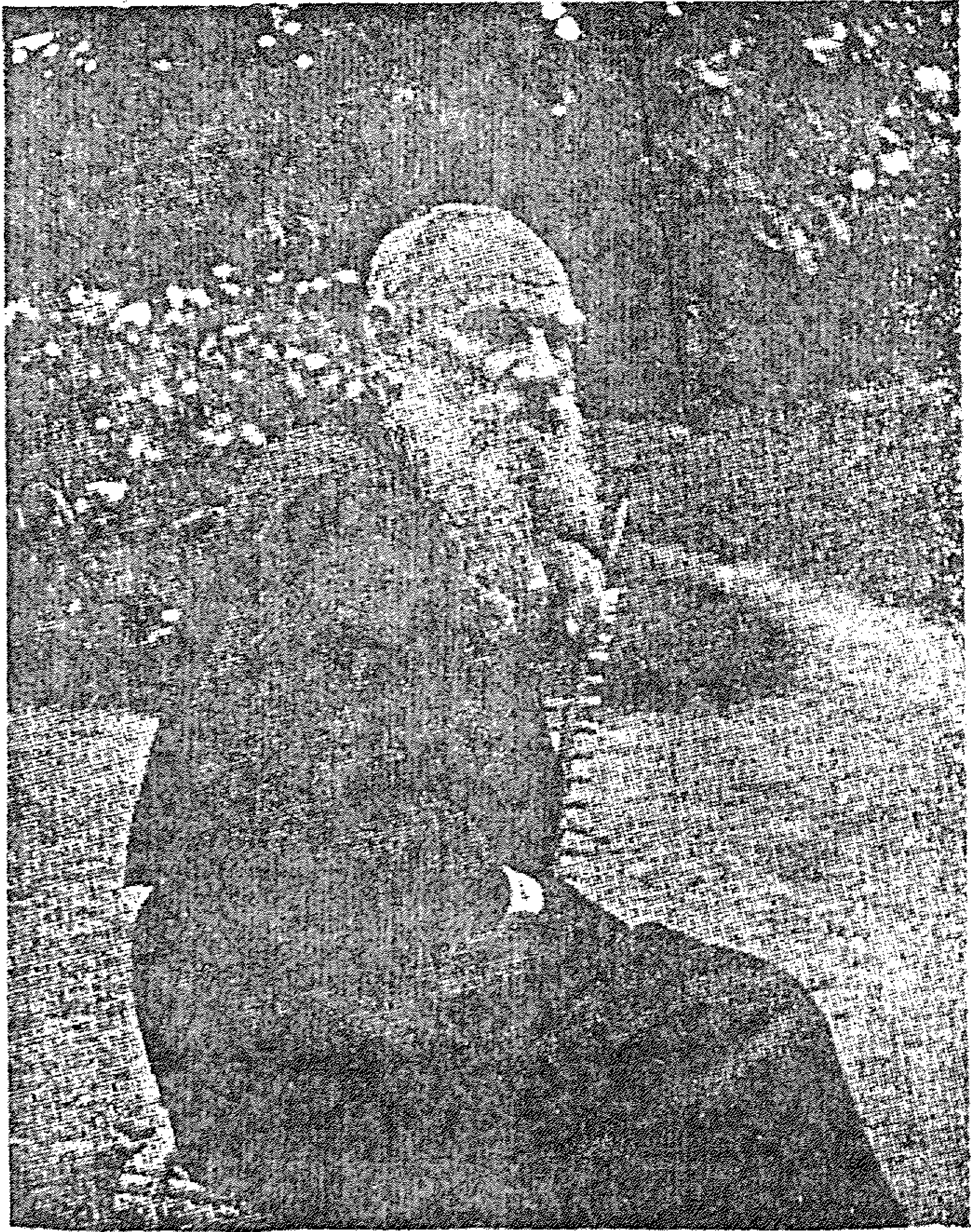
ولما اعتقل جوزيف كتب تولستوى إلى ستوليبين يطلب إليه أن يعتقله هو بدل جوزيف لأنه المسؤول وحده ؛ ثم أذاع نداء آخر ندد فيه بطغيان الحكومة لما لم يرد عليه ستوليبين ، واختتمه بقوله « إن الذين يضيقون بما أذيع من آراء و يضيقون بنشاطى ، إذا لم يكن لهم طاقة على الصبر و يريدون أن ينكلوا بأى امرئ ، خليق بهم أن يوجهوا عنفهم إلى ، لا إلى أصدقائى ومريدىّ لأن تبعة آرائى تقع على وحدى » .

ولكن ستوليبين على تجبره لم يستطع أن يمس بالأذى هذا الأعزل الشيخ الذى يستجيب لصوته الملايين ، والذى يزلزل بقلمه الطغيان من أساسه ، و يفعل وحده بهذا القلم ما لا يفعله ألوف الثائرين مجتمعين !..



ذهب لتولستوى من الصيت ما لم يذهب مثله لرجل غيره فى عصره حتى لقد كان يسمى كما ذكرنا « رجل العالم » وسماه آخرون « نبى هذا العصر » ؛ وكانت ترد إليه فى شيخوخته مئات الرسائل من أنحاء العالم ؛ كما كان يزوره الأعلام من إنجلترة وفرنسا وألمانيا و إيطاليا ، بل ومن أمريكا والهند واليابان ؛ وكثيراً ما كتب إليه زعماء القلم من أمثال شو ورومان رولان وولز ، وغيرهم ، يهنئونه أو يسألونه النصح . وكثيراً ما هبط ياسنايا أنماط من الناس مصورين وصحفيين ومثالين ، وصناع وتجار يطلبون لبضائعهم الرواج بتقديم بعضها إلى تولستوى وكتابة اسمه عليها !

ومن زائريه فتاة خيرها أبوها إن هى نجحت فى الامتحان بين ساعة ذهبية



تولستوى عند الثمانين

أو دراجة أو زيارة تولستوى فآثرت زيارة تولستوى ، وجلست أمامه معجبة بالتحدث إليه ...

ولما قرب يوم ميلاده الثمانون ، وهو الثامن عشر من أغسطس سنة ١٩٠٨ ، أخذ أنصاره يتأهبون لاحتفالات عظيمة يقيمونها فى طول روسيا وعرضها .

وكتب تولستوي إلى بعض أصحابه يرجو منهم ألا يفعلوا ذلك فبهذا وحده يدخلون السرور على نفسه ولئن كفوا فإن شكره إياهم لعظيم .

وأخذت الحكومة من جانبها تتأهب لمنع المظاهرات فيهذا اليوم ، كما أخذ رجال الدين يتواصون ألا يشارك أحد فى جفاوة به ؛ وأنذر ستوليبين الصحف بطشه إن نشرت ما يثير ...

وفى صباح عيده الثمانين ، تقاطرت الوفود إلى داره على صورة لم يعرف لها مثيل من قبل ؛ وظل الناس أفواجا من كل طبقة يحجون إلى ياسنايا ، وكان بينهم وفود من الدول الأوروبية الكبرى ومن أمريكا ومن الهند ومن اليابان .

وتلقى فى هذا الصباح وحده ألفى برقية من روسيا ومن أنحاء الدنيا بينها برقيات من أكابر الكتاب ، وأكداساً لا تحصي من الرسائل ، ولقد ظل عمال البريد غادين رائحين طول يوم ميلاده هذا بين مكاتبهم وداره ...

وصدرت الصحف فى ذلك اليوم وإذا بها جميعاً على اختلاف نزعاتها مزينة بصوره وكأنها لكثرة ما جاء فيها عن تولستوى أعداد خاصة به ؛ وكلها تفيض بالحديث عن مؤلفاته وجهاده ومكانته وموضع أدبه بين أدب الدنيا .

ووجل ستوليبين وأعوانه ، فلم يقبضوا على أحد من الخطباء الذين تعاقبوا على المنصات فى أماكن كثيرة يتحدثون إلى ألوف المستمعين عن تولستوى وجهاد تولستوي ... ومن أبلغ ما قيل فيه قول أحدهم «لقد تبين اليوم للناس أن أعداءه هم أعداء الحرية والفضيلة ، وأن نصراءه هم نصراؤها » .

والرجل وادع فى داره ، ينظر الألوف إلى محياه المغضن ولحيته البيضاء ويديه المعروقتين وثيابه الريفية ، وينصتون إلى ما يقوله خاشعين كأن عليهم الطير ؛ ثم ينصرفون وفى نفوسهم أعظم السرور لأنهم رأوا « نبي العصر » واستمعو إليه .

جحيم لا تطاق !

ألم يأن لهذا الشيخ بعد طول عنائه وقد بلغ الثمانين أن يستريح ؟ كلا ! . . فما يريحه إلا الموت وإنه منه لقريب ؛ ولقد قدر على هـذا الرجل الذى تنصت الدنيا إليه ، والذى نعت فوق ما ذكرنا من نعوته بأنه «ضمير الدنيا» ، أن يكون شقاؤه ببيته وخاصة بامرأته أكثر من شقوته بتكاليف رسالته !

لايزال ينهض من فراشه المتواضع ، والصبح يتنفس ، فيلعب محركا أعضاءه بعض الوقت على قدر ما تطيق شيخوخته ، ثم يكنس حجرته بيـده ويصلح ما تشعث من فرشه ، فإنه خادم نفسه ، ثم يغتسل ويرتدى ملابسه ، ويذهب إلى حجرة الطعام فيصيب منه قليلا ويشرب الشاى ، ويتحدث بعض الوقت مع زوجته وبناته ومن يتفق وجوده من الصحاب ...

ويأتى إليه سكرتيره برسائل ومجلات وكتب تحمل الطوابع من أنحاء الدنيا ، فيتأفف « إنى أريد أن أظل فى وحدتي لا أتصل بغير الله ... وخير ما أصنع أن ألقى بهذا كله في النار فأتخلص من ضياع الوقت ، وأتجنب ما عسي أن أنتفخ به من غرور » .

ويفض الرسائل فيقرأ ، ويضيق أحياناً بما يطلب الناس من نصح وقد نشر آراءه فى كتبه ؛ ولـكنه لا يحب أن يخيب رجاء الطالبين فيرد على رسائلهم ، وكانت بين تلك الرسائل التى عظم اهتمامه بها رسالة من إنجلترة سنة ١٩٠٩ من شخص قال إنه تلميذه وذلك الشخص يدعى غاندى .

ويتجه إلى حجرة مكتبه فيذكره سكرتيره بأن فلاناً وفلاناً ومراسل كيت وكيت من الصحف قادمون لزيارته ، فيعبس ويحدد الساعة والمدة ، فمـاذا يريد هؤلاء وهو يحب أن يخلو إلى نفسه ؟

ويقرأ ويتأمل ساعات فى هذه الحجرة التى لايغطى أرضها شيء ، والتى يعلق الفأس والمنجل على أحـد جدرها ، وتوجد أدوات الإسكاف على منضدة فى أحد جوانبها ! .

ويركب عند الظهيرة فرسا هادئة حلت محل جياده السابقة ، إن أحس فى نفسه المقدرة ، أو يمشى على قدميه ، ويستغرق في مشاهد الطبيعة ومجالى القرية ساعة أو بعض ساعة لا يفوت عينيه شيء جل أوهان ، فهو منذ حداثته محب للـكون كله ، ولا يزال لعينيه نفاذهما إلى أعماق الأشياء ...

ويصيب من الطعام فى صحاف متواضعة على المائدة الـكبرى ما كان نباتـاً فحسب ؛ ويدع لأسرته ولضيوفه ما طاب لهم مما يشتهون ؛ وإنه ليضيق أبداً بهذا الترف ويتنهد تنهداً عميقاً ، فما طمعه فى أن يصلح الدنيا وهوالنبى الذى لم يؤمن به عشيرته الأقربون ؟ ولـكن ماذا عسى أن يصنع ؟ لقد طالما سأل نفسه ما حيلتى ، وإنه ليحس مرارة الخيبة وبخاصة إذا سخر خصومه منه ورموه بالادعاء !

ولقد كانت الـكتب لا تزال تأتيه حتى سن الثمانين من قوم يرمونه بالنفاق ويقولون إنه يقول مالا يفعل فهو يعيش عيشة مترفة ، ولقـد كان ذلك أكبر مايؤلمه ويكدر خاطره ، حتى ليعود باللوم على نفسه مراراً أن لم يفر من بيته فيعيش بقية عمره بين الفقراء وينفى عن نفسه هذه التهمة ..

ويلقى زائريه فى المساء ، ويحاورمن يحاورونه ؛ وقد يمشى معهم بعض الوقت فى حديقة الدار ؛ ولقد يدعهم إلى حيث يجلس فى جانب منها وسط بعض الفقراء ممن جاءوا يطلبون معونته أو نصحه ..

ويستمع أول الليل إلى الموسيقى ، أو يتحدث مع صحابته الأدنين وأفراد أسرته ؛ ثم يدخل حجرة مكتبه قبل أن يأوى إلى حجرة سريره فيـكتب فى مذكراته ما يعن له كتابته ...



ولو ترك الرجل على هـذه الحال لقضى بقية عمره كما يشا كل شيخوخته ،

وما ينتابه أحياناً من المرض فإن الضعف الشديد ليصيبه بين حين وحين حتى ليفقد ذاكرته و يكاد أحياناً يفقد وعيه كما ذكرت ابنته ألكسندرا

ولكن أنى له الراحة وزوجته لا تزال تلاحقه حتى فى هذه السن بيكائها وشكاياتها ، ولا تفتأ تتهدده بالانتحار ؟ وما كان يطيق ذلك منها بالأمس و بدنه قوى فكيف به اليوم وهو يدنو من الموت ؟

و إن الناس ليتهمونها أنها تتصنع ذلك لتخيف به زوجها ؛ ولتحمله على الإذعان لما تريد ؛ وقد علموا أنها تفعل ذلك لأسباب تافهة ، ومن ذلك أنها أرادت أن تقدم للمحاكمة ذات يوم فى صيف سنة ١٩٠٩ شخصاً طبع بعض قصص زوجها القصيرة ؛ وطلبت إلى زوجها أن يمضي الشكوى ولما رفض ذلك جن جنونها وأعلنت إليه أنها سوف تشرب السم ؛ وما زال بها حتى عدلت عن ذلك ، وقد قبل أن يبقى فلا يذهب إلى مؤتمر السلام فى ستوكهلم كما اعتزم من قبل ثمناً لرضائها ...

ولكنها دائمة الشكوى ؛ وماذا تشتكي منه اليوم ولم يعد للغيرة محل ، وقد قسم زوجها ثروته كما أرادت ؟ وهل تكف هذه المرأة عن الشكوى والصخب يوماً ؟ وهل كفت عن ذلك منذ تزوجها ؟ ولكن لشكواها اليوم قصة ...

وهذه القصة هى قصة صراع عنيف بين شيرتكوف وفريقه ، وقد عاد من منفاه منذ بضع سنوات ، و بين الكونتس وفريقها . وكان من فريق شيرتكوف ماكوفتسكي طبيب تولستوى الخاص وابنته ألكسندرا ؛ أما فريق الكونتس فكان أكثر أبناء تولستوى ...

أما موضوع الصراع فهو مذكرات تولستوى وأوراقه إلى من تؤول بعد موته ، ثم كتبه وحق نشرها وما مآل ذلك ؟ وكانت الكونتس ترى بالضرورة ألا وجه للخلاف ، فالمذكرات لها دون غيرها ، ونشر الكتب من حقها وحق أولادها ؛ و إنها لتعجب كل العجب من أى رأى خلاف ذلك ؛ ولكن شيرتكوف يرى للمسألة وجهاً آخر على أعظم جانب من الخطورة ؛ وكان يؤيده

فيما يذهب إليه أصحاب تولستوى المقربون ومؤدى ما يذهب إليه شيرتكوف أن تولستوى إن لم يتنازل عن كل حق له فى مذكراته وأوراقة ومؤلفاته فيجعلها للشعب بغير مقابل ، لم يصدق الناس دعوته ، وبذلك تذهب جهوده وجهود أصحابه أدراج الرياح

وعلى ذلك كان يرى شيرتكوف أن إخلاصه الشديد لمبادىء تولستوى ، وهو أقرب حوارييه إليه ، يقتضيه أن يبذل كل ما فى وسعه كيلا تنجح الكونتس فى هذا الصراع ، فما أعظم خيبته وخيبة تلاميذ تولستوى جميعاً إن هى نجحت ؛ وإنه ليرى أن نجاحه هو أهم من حياته ذاتها ، فما قيمة الحياة إذا انهارت الدعوة التى أخلص لها وتحمل فى سبيلها ما تحمل من نفي وعذاب ؟

وكان تولستوى وزوجته وطبيبه وابنته الكسندرا فى زيارة شيرتكوف بضيعة له قرب موسكو ؛ إذ كانت الحكومة تحول بينه وبين الإقامة في ضيعته قرب ياسنايا ، وهناك أمضى تولستوى بإشارة شيرتكوف وعلى غير علم من زوجته بالضرورة وصية فحواها أن تكون مذكراته وأوراقه ومؤلفاته جميعاً منذ يناير سنة ١٨٨١ حقاً لكل من يريد الانتفاع بها بعد موته ؛ واختار شيرتكوف منفذاً لهذه الوصية المؤرخة فى سبتمبر سنة ١٩٠٩ .

ولعلها أحست ما أثار شكوكها ، فإنها ما كادت تصل إلى ياسنايا حتى دخلت على زوجها فى سريره ، وكان قد حمله الطبيب إليه حملا لما أصابه من جراء تزاحم الناس عليه فى محطة موسكو حتى لقد فقد وعيه أكثر الطريق ، وراحت تطلب إليه مفاتيح مكتبه فى عنف وهو لا يعى ما تريد ، ومازالت تصيح به وهو صامت حتى استطاع الطبيب بمعونة ألكسندرا أن يحملها على العدول عن ذلك الطلب حتى يفيق .

وسألت ألكسندرا أحد المحامين ، وكانت على علم بالوصية فأفتى بعدم قانونيتها لأنه لايوصى بملك « لكل إنسان » ؛ وتشاور أصحابه فى الأمر مع شيرتكوف فأوفدوا ف . م . ضتراخوف إلى تولستوى بصيغة أخرى جعلت فيها

الـكسندرا الوارثة الوحيدة له ؛ ولما عرضت على تولستوى نفر منها لأنها ضد مبادئه ، ولـكن ستراخوف خوفه مما عسى أن يقول الناس إذا هو أورث أسرته مؤلفاته ، وما كان قد جعل ألـكسندرا وارثته إلا لـكي تستطيع أن تنفذ رغبته فى إباحة النشر لـكل طالب ..

وعجب ستراخوف أن يذهب تولستوى إلى أبعد مما يطلبون ، فقد أسر إليه وإلى الـكسندرا أنه سوف يجعل لابنته الحق فى مؤلفاته جميعاً لا فى تلك التى صدرت فى السنوات الثمانية والعشرين الأخيرة .

وسوف يوصى بأن تشترى ألـكسندرا من أمها ضيعة يا سنايا بما تربح من تلك المؤلفات لتوزع الضيعة عل الفلاحين بعد وفاة الـكونتس ...

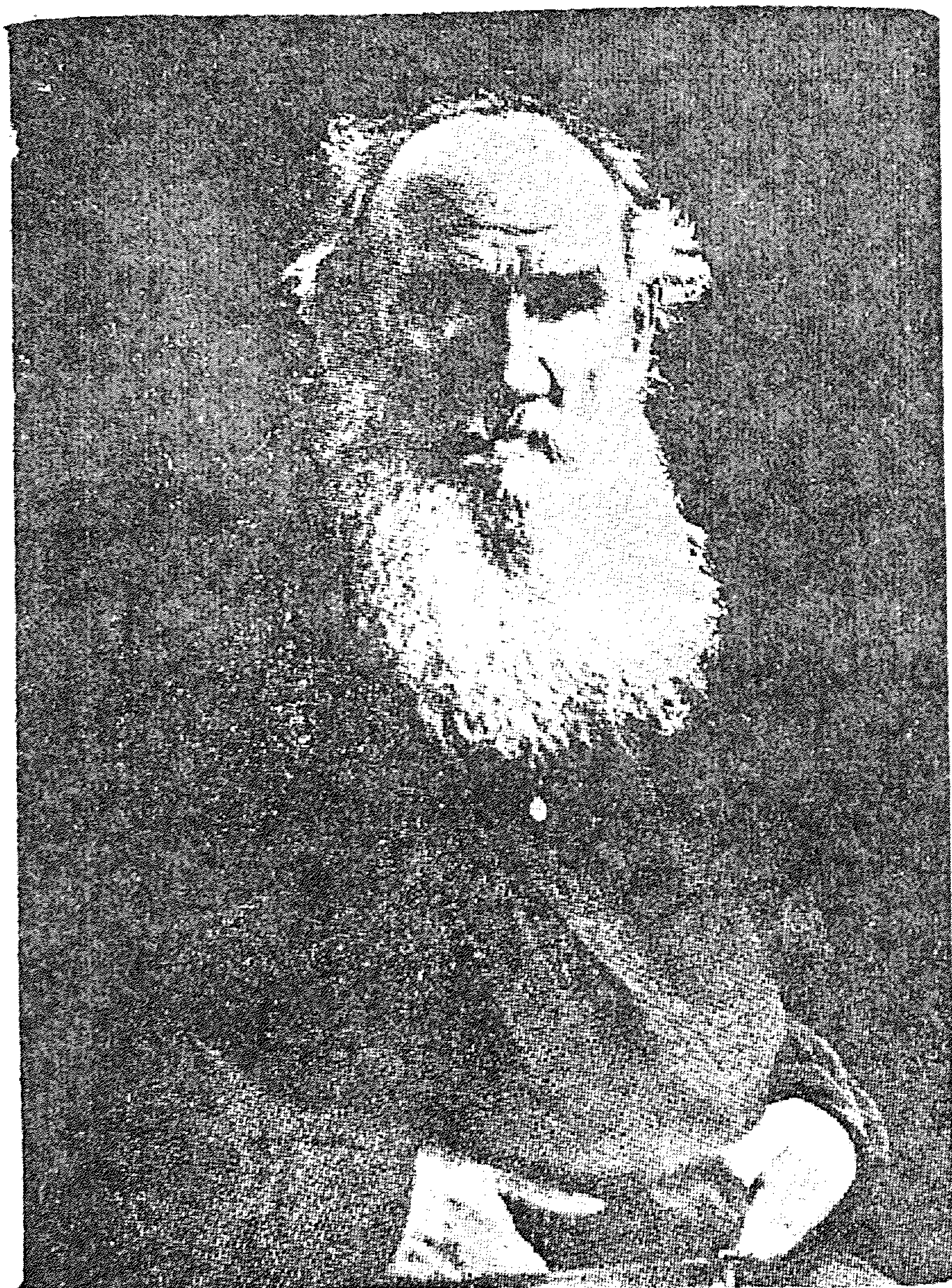
وذهب ستراخوف إلى موسكو حيث أفضى بذلك إلى شيرتكوف وعاد بصيغة حسب الوضع الجديد صحبة جولدنويزر الموسيقى ليكون شهيداً معه على هذه الصيغة .

وفي أول نوفمبر سنة ١٩٠٩ دخل الشاهدان البيت سراً ، ولم تعلم الـكونتس بمجيئهما ، وكتب تولستوى بخطه الوصية الجديدة ووقع عليها كما وقع الشاهدان ؛ ثم خرج الرجلان من البيت فلبثا ساعة وعادا ضيفين عاديين ، ولقيتهما الـكونتس مرحبة ؛ ولقد عبر ستراخوف عن خجله من خداعه إياها حين وصف هذه الحادثة بعد ذلك بسنتين فى إحدى الصحف ...

***

كانت سنة ١٩١٠ آخر سنى تولستوى فى هذه الحياة ؛ وفى هذه السنه لقى تولستوى من العذاب على يد زوجته ما جعل بيته جحيما لا تطاق...

وحسب هذا الشيخ الذى لم تخل حياته العجيبة يوماً من شقاء بعقله منذ صدر شبابه ما كان يلاقيه في أيامه الأخيرة من عذاب الضمير ... وأشد ما كان يعذبه يومئذ تفكره فى مقامه بين أسرته ، وكيف تبعد مظاهر الأرستوقراطية من حوله عن مبادئه ؛ وإنه ليشقى بذلك حتى لتلح عليه الرغبة فى الفرار ...



تولستوى سنة ١٩١

ولم تدعه زوجته فيما هو فيه ، فأخذت تعذبه بغيرتها من ابنتها ألكسندرا وإظهار حقدها عليها بين يدى أبيها ، وقد عادت من القرم حيث قضت بضعة أشهر طلبا للعلاج من ذات الصدر ...

ثم إن زوجته لا تزال تصر على معاقبة الفلاحين ، فقد لقى تولستوى ذات يوم وهو على ظهر فرسه ومعه طبيبه أحدهم يساق إلى السجن متهما بسرقة بعض الأخشاب ، وقد كان أحد تلاميذ مدرسته وهو صغير ؛ فعاد إلى البيت فوجد من زوجته إصراراً على موقفها منه ، وقد بلغ من تأثره أن حمله طبيبه إلى فراشه وقد فقد ذاكرته ...

وذهب تولستوى فى يونيو لزيارة شيرتكوف وقد سُمح له بالمقام فى إحدى ضياعه القريبه ، ولما قضي هناك بضعة أيام وكتب إلى زوجته أنه عائد فى الخامس والعشرين ، أبرقت إليه فى الثانى والعشرين تطلب عودته من فوره وتزعم أن مرضاً شديداً أصابها ؛ واتفق أن كان ذلك اليوم على موعد مع أحد كبار الموسيقيين جاء له خاصة ليسمعه ألحانه ، فأبرق تولستوى إلى زوجته أنه عائد فى اليوم التالى ، فظنت أن ذلك عمل شيرتكوف وأبرقت إليه تلح فى وجوب عودته فى الثالث والعشرين ؛ ولم يجد بدا فعاد ، ووجدها فى فراشها ، فما كادت تراه حتى أخذت تصرخ وتئن وتوجه إليه أعنف الكلام ؛ وقد أثبت فى مذكراته بالليل قوله « وجدت الأمور أسوأ مما توقعت ... هستيريا وهياج فوق الوصف ... لقد استطعت أن أضبط نفسى ولكنى لم أكن لطيفاً كما ينبغى » ، وأعقب ذلك أيام من العنف والبكاء والشكوى والتهديد بالانتحار .

وشخص شيرتكوف إلى ياسنايا ليصلح ذات بينهما ، فما زاد حضوره الأمر إلا عنفا ، فلقد اندفعت خارجة من البيت والمطر ينهمر عقب حوار بينها وبينه اختتمه وقد يئس من إصلاحها وإنه لذو غضب بقوله « إنه لو كان له زوجة مثلها لقتل نفسه أولها جر إلى أمريكا ، وإذا كانت ترغب أن تميل بالحوار إلى ما فى قتلها زوجها من مزايا أو مضار فإنه لا يسمح لنفسه بمحاورتها ...

وكان أعظم ما يغيظها من شيرتـكوف فضلا عن سالف كرهها اياه أنه يحتفظ عنده بمذكرات منذ سنة ١٩٠٠ ؛ وكانت تسعى جهدها لتسترد هـذه المذكرات ، مخافة أن ينشر منها بعد موت تولستوى ما يعلم من نشره الناس أنها أساءت إلى زوجها وأشقته ، بينما كانت تحرص أشد الحرص أن يعلم الناس أنها وهى زوجة كاتب عظيم قد أعانته وهيأت له من أسباب الراحة والسعادة ماسهل عليه عمله ...

ولما عادت إلى البيت مبتلة مرتعدة ، لم يستطع زوجها تهدئتها ؛ وسألته صارخة لماذا يجعل شيرتـكوف أهم منها فيوكل إليه الاحتفاظ بالمذكرات ؟ فلما أجابهابقوله لأنه أقرب أصدقائه إلى قلبهوأ كثرهم فهما لمبادئه إزداد هياجها وقالت لزوجها : « إذا فاقتلنى ... أعطنى أفيـونا » .. وظلت تبـكى حتى الخامسة في الصباح ؛ ولم يجد معها قول زوجها المـكدود « إنى لأرضي أن أتوسل إليـك جاثياً علي ركبتي والدموع فى عينى أن تهدأى » ؛ فقد أجابته أنهـا تفعل كل شيء يطلبه منها حتى لو طلب أن تعيش في كوخ فلاح إذا هو أبعد شيرتـكوف

وعاد شيرتـكوف في اليوم التالى فألقى إليها كتاباً يثنى عليها فيه و يعلن لهـا مودته و يستأذنها فى لقاء أمه لتصلح بينها و بينه ، و يشكرها على ما أرسلت من خيل لأمه أثناء قدومها ، ولـكنها لم تقبل فيه شفاعة ...

و بعد أيام أرسلت إليه تطالب المذكرات ؛ ولما لم يرسلها إليها عادت تهدد زوجها بالانتحار وخرجت ثانية من البيت فألقت بنفسها ليلا على الحشائش المبللة وراحت تنتحب ...

وفى الحادى عشر من يوليو أيقظه ابنه ليو عند منتصف الليل ، وأفضى إليه أن أمه فى الحديقة تهيم على وجهها ، ولن تدخل البيت إلا أن يذهب إليها بنفسه ؛ ثم قال الغلام وقد تباطأ أبوه من إعياء «هذا شيء مثير ، فانه يجلس هادئاً فى كرسيه وهو الداعى إلى التسامح وعدم المقاومة ، بينما ترقد أمى على الأرض ، وتعتزم أن تقتل نفسها »وكتب الشيخ المنكوب فى مذكراته « ليلة مريعة حتى السـاعة

الرابعة ، وأسوأ من كل شيء ما قال ليو ؛ لقد أنبني كما لو كنت طفلا ، حين طلب إلى أن أذهب إلى الحديقة لأعودِ بصوفيا أندر ييڤنا »

وكتب الشيخ المعذب كتاباً إلى زوجته وقد علم أنها تعد السم لنفسها ، وعدها فيه أنه لن يعطى مذكراته الحالية لأحد ، وأنه سوف يسترد ما لدى شيرتكوف من مذكراته ويضعها جميعاً فى مصرف تولا ؛ وأثنى عليها فى كتابه قائلا إنه يحبها منذ عرفها وأنه لن ينسي معونتها ، وما كان من جهودها فى تربية أطفالها ؛ وأنه ليس بينه وبينها من خلاف إلا فى نظرتيهما إلى الحياة ؛ ولقد تركها حرة تحيا كما شاءت ، ورضي لنفسه بالتعب والمشقة وحده ؛ وإذا كانت تخشى شيئاً مما كتب فى مذكراته فإنه مستعد لأن يكتب أن ماجاء عنها لا يعبر عن الحقيقة لأنه نتيجة غضب وقتى ؛ حتى شيرتكوف فإذا كانت تريد ألا يراه فإنه يفعل ذلك مع ما فيه من عظيم الألم لصاحبه ؛ واختتم كتابه بقوله إنها إن لم تهدأ بعد ذلك فسوف يغادر البيت إلى غير عودة وإلى حيث لا تعلم مكانه ، ولن يذهب إلي شيرتكوف ، بل إنه سوف لا يسمح له حتى بالإقامة على مقربة منه ؛ ولن ينثنى عن عزمه فإن الحياة على هذه الصورة مستحيلة ...

وأرسل ابنته ألكسندرا إلى شيرتكوف ، فعادت بالمذكرات ؛ وحاولت ألكسندرا أن تخفيها عن أمها ولكنها أخذتها عنوة منها وقرأتها ، وفى اليوم التالي وضعت فى غلاف وختمت بخاتم تولستوى وأودعت مصرف تولا ؛ وقد أشيع أن شيرتكوف وأصحابه قد شمروا عن سواعدهم فنسخوا كل ما جاء فيها عن الكونتس قبل أن يعطوها ألكسندرا ، مخافة أن تشوه الكونتس تاريخ زوجها بعد موته ...

ولم تكتف الكونتس بما فعل زوجها فألقت على مكتبه كتاباً منها ، تعبر فيه عن مبلغ ما ساورها من خوف مما تهددها به ، ولذلك فهى تنصت إلى وقع أقدامه ، وترتاع إذا غاب عن البيت ، وطلبت إليه أن يعطيها مفتاح خزانة المصرف ووثيقة استلام المذكرات ؛ ولما لم يجبها زوجها عادت تهدده بأكل الأفيون !

وازاداد مقتها لشيرتكوف ولم تعد تطيق مجيئه إلى بيتها ، فحزمت متاعاً لها ، وخرجت من البيت تبغي الفرار ، ولـكنها لقيت ابنها أندرو قادما فعادت معه ؛ وألقت بنفسها بين يدى زوجها باكية ، وخفف عنها ما لقيت من عطفه فهدأت قليلا …

ولو أنها علمت ما فعل شيرتـكوف لما وقف جنونها عند حد ؛ وذلك أن قصة الوصية قد أضيف عليها فصل جـديد ؛ فإن تولستوي خاف أن تموت ألـكسندرا قبله ، فأراد أن يضيف إلى الوصية أن ابنته تانيا تخلفها وارثة له فى هذه الحال ؛ وذهب تولستوي خفية إلى حيث يقيم شيرتكوف وكتب هذه الوصية وشهد عليها بعض الأصدقاء فى الثامن عشر من يوليو سنة ١٩١٠ ولـكنه نسى أن يذكر أنه سليم الحواس ؛ ولذلك كتب وصية أخيرة بعد ذلك بخمسة أيام فى غابة زازكا حيث جلس على جذع شجرة وقد ركب إلى هناك ومعه جولدنويزر وسكرتير شيرتكوف فشهدا على ما كتب .

وأذعن تولستوى ، ابتغاء ما هو فى أشد الحاجة إليه من هدوء ، فـكتب إلى شيرتكوف يطلب إليه ألا يحضر إلى بيته ، ويرجو منه المعذرة ويفهمه أن ذلك إلى أجل يرجو أن يكون قريباً …

ورد عليه شيرتـكوف أنه يقبل ذلك عن طيب خاطر إذا كان فيه هدوءه ، بيد أنه يخشي أن يذهب صاحبه فى تهدئة زوجته إلى حد أن يصبح بمنأى عن « تلك الحرية التى يجب أن يتمسك بها أبداً ذلك الذى يريد أن ينفذ مشيئة الله الذى أرسله لا مشيئته هو فحسب » …

وراحت الـكونتس تشمت بشيرتـكوف وتعلن أنها سوف تقطع كل صلة بينه وبين زوجها ؛ ثم إنها تلقت من أمه رسالة تحتج فيها على ما تطلق به الـكونتس لسانها فيه من طعن ، فلم تحفل ذلك ولم ترد عليها …

ومن عجيب أمرها أنها أثبتت فى مذكراتها فى أغسطس أنها تحب أن تصفح عنه وتساله ، ولـكنها تردف ذلك بقولها « بيد أنى كلما ذكرت صورته

وما يبدو على وجه ليو نيقولا فتش من سرور بلقائه لا يلبث أن يعاودنى الألم »

وأخذ شعور الندم يساور تولستوى على ما كتب إلى صاحبه ؛ فقد أثبت فى مذكراته فى السادس من أغسطس قوله « إن رضائى بأن أحول بينى و بين شيرتكوف عمل مضحك ، وفيه إذلال لى ، وهو مخجل ومحزن » .

وليت زوجته قنعت بذلك ، فلقد كانت تلحق به أحياناً وتراقبه من بعد إذا خرج للرياضة مخافة أن يتصل بشيرتكوف ؛ ولما علم ذلك غضب أشد الغضب وكتب فى مذكراته يقول « إنى أفكر فى أن أفر وأترك لها كتابا ولكنى أخاف أن أفعل ذلك ولو أنه خير لها » .

وعذب تولستوى شعور آخر ، وذلك ما يحس فيا فعل فى قصة الوصية من خداع لأسرته ، وكاد يطيع صديقه بيروكوف وكان يعلم نبأها ، فيفضى إلى الأسرة بكل شيء ، لولا أن أرسل إليه شيرتكوف كتابا طويلا حذره فيه عاقبة ذلك واختتمه بقوله « إنك إن فعلت ذلك فليس يألم أصحابك فحسب بل إن فضيحة لم يسبق لهـا مثيل فى تاريخ الأدب تلحق بكتاباتك التى بشرت فيها بالحب والتوافق » ...

وزار تولستوى وزوجته ابنتهما تانيا فى بيت زوجها بدعوة منها ، وهناك حسنت حاله فاستطاع أن يقرأ وأن يلعب الورق وأن يلاعب حفدته و يقص عليهم القصص ... ونسيت زوجته هواجسها وهمومها .

ولكنها قرأت فى إحدي الصحف أن الحكومة سمحت لشيرتكوف بالمقام فى ضيعته القريبة من ياسنايا فثارت ثائرتها ، وراحت تطلب إلى زوجها أن يؤكد قطعه كل صلة له بشيرتكوف ، و إلا فهى سوف تقتل شيرتكوف بأن تدس له السم ؛ و بلغ من ثورتها أن صاح بها زوج ابنتها قائلا إن لم تهدأ فسوف يقنع الأسرة كلها بأن يعيش زوجها بعيداً عنها ؛ وردت على ذلك بقولها إنها تنشر كتابا فى الصحف تفضحه فيه ثم تشرب السم فتموت ...

وعادت وحدها إلى ياسنايا فرفعت صورة شيرتكوف من حجرة زوجها

وأستدعت قسيساً ليطرد روحه الخبيثة من البيت .

وكان هذا عقب كتاب طويل جاءها من شيرتكوف عملا بإشارة تانيا ؛ يطلب فيه مغفرتها ويعتذر عما كان من عبارات شديدة فاه بها مغضباً بين يديها ؛ ولقد ردت عليه تعلن له سخطها وتشمت به قائلة إن زوجها وعدها أن لن يراه أبداً

وأخذت الكونتس تطلق لسانها بالطعن فى زوجها ، وتطلع الناس على ما جاء فى مذكراته الأولى ، حتى لقد خرج أحد البولنديين من البيت باكيا ، لما يرى من سوء حظ تولستوى في أيامه الأخيرة ، وقد سافر هذا السفر الطويل لرؤيته ولكنه لم يره ...

وكدرته حتى ابنته ألكسندرا ، وإن كان ذلك عن غير قصد منها ، فقد رفعت أمها من مكتب أبيها صورته مع ابنته كما فعلت بصورة شيرتكوف ، واشتد غضب ألكسندرا ؛ ثم إنها رأت أباها يقف إلى جانب أمها أمام مصورة شمسية فى يوم ذكرى قرانهما فلم تمالك نفسها ودخلت عليه وحده بعد ذلك تعلن إليه أنه لا يليق أن يضحي بابنته وصديقه بسبب أوهام امرأة ؛ وتألم أبوها وقال « لقد بدأت تسلكين سلوكها » ...

وانصرفت مغضبة ، ولما أرسل إليها أبوها يدعوها إليه رفضت أول الأمر ، ثم كظمت غيظها ودخلت عليه ؛ وجلست ليملى عليها رسالة ، ولكنها ما كادت تمسك القلم حتي أسند رأسه إلى ذراع كرسيه وأجهش ، وكان بكاؤه يقطع كلامه ، فنهضت إليه ابنته واعتذرت بين يديه باكية ...

ولم تطق ألكسندرا المقام بالبيت فاستصحبت إحدى صديقاتها إلى بيت صغير لها ، ولما استأذنت أباها قال لها « إن الأمور كلها تفضي إلى نهاية واحدة » .

وأحس الرجل وحشة عظيمة بعد ذهاب ابنته ؛ وبخاصة لأنه فقد كذلك عطف الصديق فقد جاءه قبل ذهابها كتاب عنيف من شيرتكوف مليء بالعتب الذى يقرب من التأنيب ... واشتد ألم تولستوى من هذا الكتاب ، وكتب فى مذكراته فى الخامس والعشرين من سبتمبر يقول « إنهم يمزقوننى إربا ...

إن الرغبة فى القرار منهم جميعاً تساورنى بين الحين والحين »

وفى الثالث من أكتوبر أخذ تولستوى إغماء وهو فى فراشه ، وخاف طبيبه على حياته ؛ وظل على هذه الحال زمناً ، وكان يحرك يده على ملاءته كما لو كان يمسك بها قلما ويكتب ؛ ولما عاد إليه وعيه قال « أريد أن أكتب » فأسرع إليه طبيبه بورقة وقلم فكان ما خطه عليها « المعقولية ... المعقولية ... المعقولية » وعاد ثانية إلي غيبوبته وكان يرتعد فى شدة ويحرك ساقيه فى عنف ؛ وحضرت ابنته ألكسندرا فواجهتها أمها بقولها « إنى أقاسي أكثر مما تقاسين فإنك تفقدين أبا وأنا أفقد زوجا أعدُّ مسؤولة عن موته » ... ثم ذهبت إلى أحد قماطر زوجها وأخذت إضبارة من الورق ؛ ورأى ذلك ابنها سيرچى وأخته تانيا ، فأخفيا المفاتيح كما أخفيا مذكرات أبيهما ، وما زالا بأمهما حتى أعادت الإضبارة إلى مكانها !

وعاد إلى تولستوى وعيه بالليل ونام نوماً عميقاً ؛ وفى صباح اليوم التالى أحست الكونتس شيئاً من الندم فطلبت إلي ابنتها أن تبقى بالبيت ، ووعدت ألا تغضب زوجها ثانية ؛ وعند ذلك صاح بها ابنها سيرچى أنها إن لم تكف عن سلوكها ، فسوف يدعو مجلسا من أفراد الأسرة ليقوم على مراقبتها ...

وخففت الكونتس من غلوائها قليلا حتى لقد سمحت لشيرتكوف بالحضور إلى المنزل ؛ ولقد ارتاح تولستوى إلى ذلك كثيراً ، وإن كانت زوجته لتظن أنهما يتآمران ، وتنصح له أن يحذر من « باطل صديقه وخداعه » .

ولكن ارتياحه لم يطل ، فما لبثت أن هبت العاصفة من جديد عاتية لا تبقى على شيء ؛ وذلك أنها علمت بالوصية فى الثانى عشر من أكتوبر ، وللمرء أن يتصور مبلغ ما ركبها من جنون ... لقد ذهبت إليه صارخة ترغي وتزبد ، وتجهش ، وراحت تتهدده تارة وتقبل يديه تسأله أن يلغيها تارة ، والرجل فى ربكته ودهشته لا يعلم كيف جاءها هذا النبأ ؛ ولقد زعمت أنها وقعت على مذكراته فى صيوان ما فقرأت نبأ الوصية .

ولم يجبها زوجها إلى ما طلبت على الرغم من ثورتها ومن توسلها ، فقالت إنها سوف تعلن بعد موته أنه كتبها وهو مجنون !

وزاره بعد أيام أحد أتباعه الطيبين ، وهو فلاح يعيش في كوخ في قرية قريبة فأسر إليه تولستوى قوله «سوف لا أموت فى هذا البيت ، لقد اعتزمت أن أفر إلى مكان منعزل لا يعرفنى فيه أحد ، وربما جئت لأموت فى كوخك » .

وكتب إلى هذا الفلاح بعد قليل يتفق وإياه على اسم يبرق إليه به متى لزم الأمر ، ويسأله إن كان يقبل أن يضايقه زمنا لن يطول بالمقام فى كوخه . ولكن هذه الرسالة لم تصل صاحبها فى ميعادها ولذلك لم يتلق تولستوى رداً عليها …

وظل الرجل يلقى من عنت امرأته وثورتها ما جعله يتمنى الموت أكثر من مرة ، ولا يملك إلا أن يتمتم قائلا « رب خذ بيدى .. رب خذ بيدى » .

وفى الثامن والعشرين من أكتوبر ، صحا من نومه فى الثالثة صباحا على صوت يد تعبث بأوراقه فأشعل شمعة وذهب إلى حجرة مكتبه فإذا به يلقى زوجته وإذا بها تظهر له فى رفق عجيب ومودة قلقها لعدم نومه وعطفها وإشفاقها عليه ، وهى نغمة يسمعها منها منذ بضع ليال ، ففطن إلى ما فى كلامها من خديعة وسوء مكر ؛ وذهب من قلبه كل عطف عليها وكل مبرر للصفح عنها ، فلئن كانت مريضة فما يبلغ بها المرض أن تحاول هذه المحاولات المتصلة لتنال بغيتها ، ولئن فرض أنها مجنونة ففى عنادها وإصرارها وسوء مكرها ما يجعل جنونها موضع شك … كلا ! إنها تخدعه ، وإنها لا تكترث له ، ولا تهتم إلا بغايتها …

إنه لن يطيق بعد ذلك صبراً … إنه يحاول أن يتنفس فلا يكاد يجد نفسه ؛ ولكنه يتصنع الهدوء ثم يتظاهر بأنه يقرأ قصة دستويفسكى « آل كارامازوف الإخوة » ؛ وقد كانت مفتوحة على مكتبه حيث تركها قبل أن ينام ؛ ولبث ينظر فيها حتى انصرفت زوجته .

فرار إلى الله !

لم يعد من الفرار بد ! وهكذا قدر علي هذا الفنان العظيم أن تنتهى حياته بمأساة أشبه بمآسي قصصه ؛ والحق إن حياته كلها كما ذكرنا لا تقل روعة وغرابة عما اخترع خياله من قصص ! ...

وإلى أين يفر ؟ إلى حيث لا يدرى ... إلى الله ... إنه يريد أن ينجو فحسب من المرأة « التى اعتزلته روحياً » كما قال ذات مرة ، ليتصل بالله فيما بقى من عمره ، وما يهمه ليونيقولا فتش كما قال ، بل « ذلك الشيء الذى أحس أحيانا ومضة منه فى نفسي » ...

نزل كالطيف إلى حجرة ألكسندرا فى فجر الثامن والعشرين من أكتوبر سنة ١٩١٠ فطرق باب ابنته في رفق فأيقظها وأفضى إليها بعزمه ، وطلب معونتها فى حزم متاعه ؛ ولقد وصفت ابنته ذلك فيما بعد فى قولها « لن أنسي قط ظهوره لدى الباب فى ملابسه القروية وفى يده شمعة أضاءت وجهه الهادىء الجميل الذى علاه العزم والثبات » ...

وتسلل بنفسه إلى حظيرة الخيل فأيقظ أحد السائسين وسائق العربة ؛ وتعثر فى الظلام فوقع وفقد قبعته ولم يجدها وعاد إلى البيت يطلب غيرها ، ثم ارتد معجلا إلى الحظيرة يستحث السائق ويرجو منه ألا يحدث صوتاً .

وفرغت ابنته وإحدى صديقاتها فى الخامسة من إعداد متاعه ؛ ومشى إلى العربة « يضغط علي زر مصباحه الكهربائى تارة ويدعه فينطفىء تارة » ، كما قالت ألكسندرا ، ويتحدث في همس ، حتى ركب العربة ومعه طبيبه ، وارتدت الفتاتان إلى البيت ..

وترك كتابا لامرأته كان مما قال فيه « أعلم أن فرارى سيحزنك وإنى لآسف

ولكني أرجو منك أن تصدقي وأن تفهمي أني لم أكن أملك غير ذلك . وفضلا عن كل شيء آخر لم أكن لأستطيع أن أحيا في ذلك الترف الذى كان يحيط بي حتى اليوم ... إني أهرب من الدنيا لأقضي أيامي الأخيرة في هدوء وعزلة ... إني أشكرك على تلك الأعوام الثمانية والأربعين التي عشتها في شرف معي ، وأرجو منك أن تغفري لي ما عسى أن ألام عليه نحوك ، كما أغفر لك من أعماق نفسي كل ما عسي أن تلامي عليه ... إذا أردت أن تكتبي إلى ، فإن ذلك يكون عن طريق ألكسندرا ، لأنها وحدها سوف تعلم مكاني ولن تدلك عليه لأنها وعدتني ألا تدل أحداً » ...

ووقف وطبيبه بالمحطة ساعة ينتظران القطار ، وكان قلقاً مخافة أن تدركه امرأته ؛ ولكنها لم تعلم فراره الا في الساعة الحادية عشرة ؛ ومضي بهما القطار ، وكانت عربته مزدحمة فاسدة الهواء من الطباق ومن زفير الراكبين ، فكان يخرج تولستوى إلى حيث يقف لحظات في الهواء الطلق ، فأحس رعدة في بدنه بسبب ذلك .

إلى أين ؟ ليس يدرى ... ولكنه أراد أن يزور أخته ماري وكانت تقيم مع ابنها في دير شاموردين ؛ فنزل وصاحبه في أقرب محطة إلى ذلك المكان ، وكان ذلك في الساعة الخامسة مساء ؛ وأقلتهما عربة استأجراها إلى مكان الضيافة الملحق بالدير ، وكان المطر ينهمر فلتي من ذلك نصباً شديداً ...

وأرسل تولستوى إلى ابنته لتوافيه بالأنباء ، كما أرسل إلى شيرتكوف ليذيع في الصحف أنه لم يبع قط حق نشر كتبه ، وأنه لم يحمل لأحد ما الحق في هذا البيع ...

وفي اليوم التالى جاءه كتاب من شيرتكوف يعبر له فيه عن عظيم سروره بفعلته ، فلا بد له من الهدوء الروحي واختتمه بقوله « إني على يقين أن عملك هذا سوف يجعل كل شيء خيراً مما كان وبخاصة للسكينة صوفيا أندريفنا مهما بلغ عندها من رد خارجي لهذا الفعل » .

وفى الثلاثين من أكتوبر بينما كان تولستوى يزور أخته فى الدير ، إذ جاءته ألكسندرا ، تحمل إليه كتابين أحدهما من ابنه سيرجى والثاني من ابنته تانيا يتوسلان إليه فيهما أن يعود ، كما تحمل إليه أنباء أمها ...

ثارت المسكينة ثورة عنيفة حين علمت بفرار زوجها وألقت بنفسها فى البركة ، فأسرعت ألكسندرا وأخرجتها منها بمعونة أحد الضيوف من أتباع أبيها ؛ ولكنها عادت مرة ثانية فى غفلة من ابنتها وألقت بنفسها فى الماء ، فأخرجها هذا الضيف و بعض الخدم وعادوا بها على رغمها إلى البيت وهي تبكي وتهذى وتتهدد وتتوعد ؛ ولما أحاطها أفراد الأسرة بالرقابة ، قالت إنها سوف تثب من النافذة وسوف تبحث عن زوجها ، وسوف تجده وتعود به إلى بيته ؛ ثم أخذت تضرب صدرها بكل ما تقع عليه يدها وكلما انتزعوا منها شيئاً أخذت غيره وهى تصرخ مجنونة لا تهدأ ؛ ثم أبرقت إلى زوجها باسم ابنته ألكسندرا ليعود ؛ وأرسلت في اليوم التالى تستدعى شيرتكوف ولما لم يحضر ، أبرقت ثانية إلى زوجها تقول إنها أزالت ما بينها و بين شيرتكوف وأنها تموت وترجو منه أن يعود ليراها . وفي نفس الوقت أفضت إلى رجال الصحافة بقولها إن زوجها ما فر إلا ابتغاء الإعلان عن نفسه !

ورد تولستوى رداً جميلا على ابنته تانيا وعلى ابنه سيرجي وشكر لهما عطفهما وصداقتهما ؛ ولكنه أصر على فراره ؛ وتلقى كتاباً من زوجته تتوسل إليه فيه أن يعود وتدعوه عزيزها وحبيبها ، وتعده أن تدع الترف وتعيش كما يحب وتتخذ أصدقاءه أصدقاء لها واختتمته بقولها « عد إلى إذا لم يكن ذلك إلا لتسمعنى كلمة وداع قبل افتراقنا الذى لا محيص عنه » .

ورد عليها بكتاب طويل كان مما جاء فيه قوله « إنك وحدك التى تستطيعين أن تنقذينى وتنقذى كل من حولك و بخاصة نفسك ، مما تقاسين ... لا تظنى أنى فررت لأنى لا أحبك ... إنى أحبك وأرثى لك من أعماق قلبي ، ولكنى لم أملك غير ما فعلت ، ولقد كتبت كتابك مخلصة كما أحس ولكنك غير خليقة بأن

تفعلي ما تقولين ... وداعا يا سونيا ، يا عزيزتي ، كان الله لك ... ليست الحياة مزحة ، وليس لنا من حق أن نلتقي بها حسب أهوائنا ... ومن الخطأ أن نقيسها بعدد الأيام ، وربما كان ما بقي لنا من أشهر أعظم أهمية من جميع ما عشنا من سنين ، ويجب أن نحيا كما ينبغي » ...

في الساعة الرابعة من صباح الحادي والثلاثين من أكتوبر ، أيقظ تولستوي ابنته ، وطبيبه ليرحلوا من فورهم مخافة أن تدركه زوجته ، واتجهوا صوب المحطة ؛ وكان قد وعد أخته بزيارة ثانية فترك لها كتاب اعتذار رقيق ...

إلى أين ؟ لا يزال في حيرة من أمره .. إلى القوقاز أو إلى بلغاريا أو إلى أي جهة لا يعرفه فيها أحد فحسبه أن يفرغ من الدنيا بقية أيامه ليتصل بالله ... ومضي بهم القطار وهم يقصدون رستوف ، وهو يظن أن لم يعلم بفراره أحد ، ولكن صحف روسيا جميعاً قد أذاعت نبأ هجرته ...

وعرفه في القطار أحد الناس على الرغم من حيطته ، واجتمع حوله عدد كبير من المسافرين يريدون رؤيته ، وكان أحد رجال الشرطة السرية يتعقبه منذ سافر من شاموردين ، ولكم دخل عليه عربة القطار ومر به ومن معه متنكرا كل مرة في زي مختلف .

وفي اليوم الأول من نوفمبر لاحظ طبيبه أنه يرتعد ، وقاس حرارته فإذا هي مرتفعة ، وإذا بنبضات قلبه تتزايد ، ولذلك صمم الطبيب على أن يغادروا القطار فنزلوا في محطة أستابوفو وهي قرية على خمسين ميلا من ياسنايا .

وأين يتخذ مأواه ؟ حار الطبيب فذهب إلى ناظر المحطة فعرض عليه أن يأوي الكاتب العظيم في إحدى حجرات بيته الصغير ، وكان يتكون من حجرة عمله الرسمي وحجرتين لسكناه ؛ وحل تولستوي بإحداهما وهي حجرة صغيرة يضيئها مصباح من مصابيح النفط ؛ ووضع على سرير صغير من الحديد ، ولا ريب أنه ارتاح إلى هذا المأوى الذي يشاكل ما يريد من بعد عن الترف ؛ وكان آخر من رأى من أهل روسيا أولئك الذين تجمعوا على طوار المحطة لرؤيته والذين حياهم

مبتسما وهو يكاد يسقط فاقد الوعى .

وأعان ماكوفتسكى طبيب القرية وتبين لهما أنه مصاب بالتهاب الرئتين ، ورأيا فى بصاقه بعض الدم وقد اشتد به السعال ... ثم غاب عنه وعيه ...

ولما عاد يعى سأل « أنستطيع أن نستأنف السفر؟ » ثم أخذته فى المساء غيبوبة مخيفة ، ولما أفاق منها عاد يقول « يجب أن نرحل ... يجب أن نرحل ... إنهم سوف يدركوننا » ...

ودعا ابنته ألكسندرا وطلب إليها أن تبرق لشيرتكوف كى يحضر ؛ ثم أملى عليها كلمة لابنته تانيا وابنه سيرچى تعطى لهما بعد موته وفيها اعتذر إليهما لأنه لم يدعهما فى دعوته إياهما وحدهما إساءة إلى أمهما و إلى بقية الأسرة . ثم اختتمها بنصيحة لابنه فقال « ينبغى أن تنظر فى حياتك ، من أنت ، وما أنت ، وما معنى الحياة الإنسانية وكيف يجب أن يقضيها الرجل العاقل » ...

وسرعان ما حضرت الكونتس حين علمت مكانه كما حضر أفراد الأسرة ؛ وحضر شيرتكوف وأدخل على تولستوى هو وتانيا وسيرچي فحسب ...

وغدت أستابوفو متجه قلوب الملايين فى روسيا وفى أوربا وأمريكا ؛ وقد أسرع إليها عدد كبير من رجال الصحافة والمصورين ورجال السينما ؛ وصارت ترسل منها البرقيات تباعا عن حال المريض إلى صحف العالم كلها . وقد بلغ ما أرسل من هذه المحطة الصغيرة فى سبعة أيام اثنين وثمانين وألف برقية ...

وحل بها كذلك عدد كبير من أتباعه وجمهور من الكتاب ؛ وشخص إليها بنفسه حاكم المقاطعة ، ورسول من قبل وزير الداخلية وعدد من كبار رجال السكة الحديد كما أرسل القيصر عدداً من الجند مسلحين ببنادقهم ... ؛ وكان ينام القادمون فى عربات القطر التى أقلتهم ...

وهكذا لم يقض تولستوى أواخر أيامه كما شاء في عزلة و إنما قضاها والدنيا كلها تتجه إليه و إن لم يدر ما كان يحيط بحجرته المتواضعة فى هذه القرية الصغيرة التى ذاع اسمها فى العالم ...

وأحاط بالـكاتب العظيم ستة من الأطباء ، وكان يتناوب شيرتـكوف وألـكسندرا وتانيا وسيرجي السهر إلى جانب سريره ؛ أما الـكونتس فظلت في عربة القطار تبكي وتحاول أن تقرب من نافذة الحجرة تارة وتدعو المصورين ليصوروها كما لو كانت خارجة من الحجرة تارة أخرى كي لا يعلم الناس أنها لم تدخل على زوجها ؛ ولم يكن يعلم زوجها بمجيئها فقد حرصت ألـكسندرا ألا تخبره ولقد قال لها ذات مرة « إنك تفطنين إلى أنى لا أستطيع رفض دخولها علي إذا حضرت ، ولـكن رؤيتى إياها شديدة الخطر على » ...

وأرسل كبير القساوسة إليه برقية يدعوه فيها أن يعود إلى الـكنيسة الأرثوذكسية كما أوفد المجمع المقدس قسيس أحد الأديرة ليكون على مقربة منه ، ولـكن ألـكسندرا رفضت أن تطلعه على شيء من هذا ...

وكانت السلطات الدينية والمدنية تحار فى أمر دفنه إذا مات ولم يتب ، ويثقل عليها دفنه بغير صلوات ، وإن كانت لا تستطيع غير ذلك ...

وفى الرابع من نوفمبر اشتد عليه المرض ، وصاح فى غيبوبته قائلا « ولـكن الفلاحون ... كيف يموت الفلاحون ؟ » ، ولم يجد الـكافور ولا الـكافيين ولا الـكودين ولا المرفيا ، مما كان يعطيه إياه الأطباء ومن بينهم إخصائيان حضرا من موسكو ...

وفى الخامس أظهر رثاءه لامرأته وقال لمن حوله إنهم لم يسلـكوا نحوها المسلك الصحيح ...

وجلس بعد الظهر في سريره وصاح قائلا « هذه هى النهاية ... إنى أنصح لـكم نصيحة ... إن فى هذه الدنيا كثيرين غير ليو تولستوى ولـكنـكم تهتمون بليو هذا وحده » وفى منتصف الليل ، صاح : « الهرب ... الهرب ... »

وفى السابع من نوفمبر ضعف نبضه ضعفاً شديداً ؛ وأدخلت عليه زوجته فى في الرابعة صباحاً فجثت إلى جانب سريره وأخذت يده فقبلتها ثم همست قائلة « أعف عنى » ولـكنه لم يشعر بوجودها إذ كان فى غيبوبة تامة ولو أنه تنهد تنهدة عميقة ...



تولستوي على سرير الموت

وفى الساعة السادسة من ذلك الصباح أبرق المراسلون إلى صحف العالم أن ليو تولستوى قد مات ! ودخل المصورون خاشعين فصوروا آخر صورة له ، ولكنهم صوروا بدناً من غير روح ...

وحمل جثمانه إلى يا سنايا ، بعد يومين ومنع المجمع المقدس الصلوات ؛ ولكن روسيا كلها كانت مأتماً يوم دفنه فالمسارح مغلقة وطلاب الجامعات خارج جامعاتهم والصحف كلها مجللة بالسواد ؛ وقد أرسل القيصر والدوما ومجلس الدولة إلى أسرته يعزون فى فقده ؛ وتلقت روسيا عن فقده العزاء من دول العالم شرقه وغربه .

وسافر إلى ياسنايا ألوف عديدة من الطلبة والأحرار ورجال القلم وذلك على الرغم من أن وزير الداخلية منع القطر الخاصة ، وكان موكب الجنازة خلف نعشه وقد حمله أبناؤه الأربعة يمتد إلى أكثر من ميل ... وهناك حيث دفن ذلك الغصن الأخضر الذي نقش عليه أخوه نيقولا ذلك السر الذى حدثه عنه وهو فى السادسة من عمره أنه يجلب السعادة والأخوة للناس جميعاً ... هناك فى تلك البقعة التى غدت حبيبة إلى نفسه منذ حديث أخيه قبل ستة وسبعين عاماً ، أهيل التراب على أعظم كاتب أنجبته روسيا وأحد العباقرة الأفذاذ فى هذه الدنيا ...

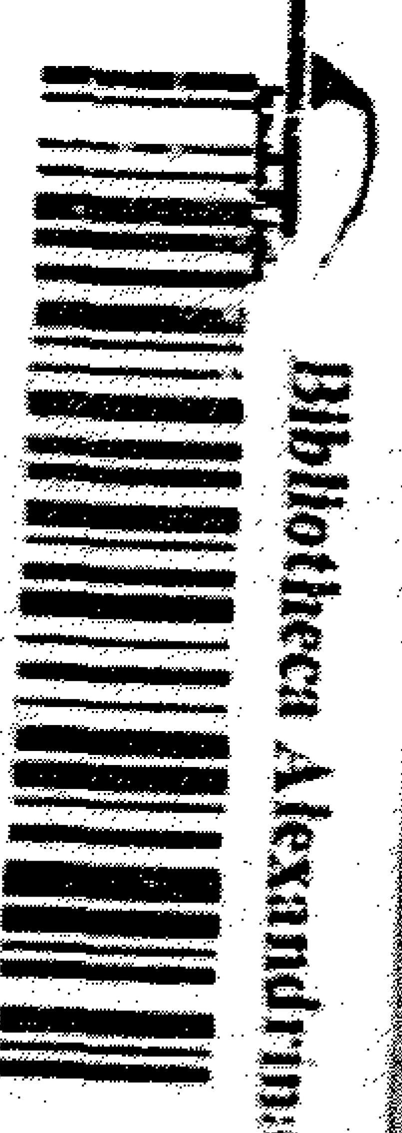
رقد تولستوى فى هذه البقعة الصغيرة ، وقد شرق اسمه فى الدنيا وغرب ، فهل عرف من لغز الحياة أكثر مما عرف غداة حدثه أخوه عن غصنه الأخضر؟!

الفهرس

ذاكرة الكتابة

هذا الكتاب الذى أصدره الأديب والمفكر الكبير محمود الخفيف «١٩٠٨ - ١٩٦١» منذ أكثر من خمسين سنة هو أول دراسة عميقة وشاملة وممتعة تعرفها المكتبة العربية حول الأديب الروسى العالمى «تولستوى» وآثاره الأدبية الكبرى وفى مقدمتها روايته العظيمة «الحرب والسلام». وتقوم دراسة «الخفيف» على معلومات لشخصية «تولستوى» وأعماله الأدبية والفكرية ومواقفه الإنسانية، وأزماته المتعددة التى تعرض لها، دفاعاً عن الحرية والعدالة والكرامة الإنسانية.

وفى هذه الدراسة الرائعة التى لا تزال أهم دراسة عربية عن «تولستوى» يكشف مؤلفها «محمود الخفيف» عن الكثير من الجوانب الفنية والإنسانية فى شخصية «تولستوى» الذى يحتل مكانة عالية فى الفكر الإنسانى كله. ذلك لأن «تولستوى» لم يكن مجرد أديب كبير له تأثيره الواسع على الأدب العالمى، بل كان فوق ذلك زعيماً من زعماء الدعوة إلى السلام والعدالة والحرية، و«تولستوى» إلى جانب عبقريته الأدبية هو مؤسس الدعوة إلى «المقاومة السلمية» ضد الظلم ودفاعاً عن حقوق الإنسان. وقد تأثر به الكثيرون من الزعماء المعروفين وفى ... ستهم «غاندى» فى الهند، و«مارتن لوثر كينج» زعيم تحرير ... ج فى أمريكا



... جنيه